مجموع فتاوى

شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة

« قدّس الله روحه »

جمع وترتيب

عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم « رحمه الله »

وساعده ابنه محمّد « وفّقه الله »

ـ المجلّد الحادي عشر ـ

طُبع بأمر

خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود

أجزل الله مثوبته

طبعت هذه الفتاوى في

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

في المدينة المنورة

تحت إشراف

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

بالمملكة العربية السعودية

عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

ابن تيميه ، أحمد بن عبدالحليم

فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيميه .

٧٢٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

١-٣١-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج ١١)

١ - الفتاوى الإسلامية ٢- الفقه الحنبلي أ - العنوان

ديوي ٢٥٨,٤ ١٥/٢٠٠٩

رقم الإيداع : ١٥/٢٠٠٩

ردمك : ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

١-٣١-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج١١)

كتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده . والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

سئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه

عن « الصوفية » وأنهم أقسام « والفقراء » أقسام ، فما صفة كل قسم ؟ وما يجب عليه ؟ ويستحب له أن يسلكه(١) ؟

فأجاب : الحمد لله . أما لفظ « الصوفية » فإنه لم يكن مشهوراً فى القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ : كالإمام أحمد بن حنبل ، وأبي سليمان الداراني ، وغيرهما . وقد روى عن سفيان الثوري أنه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري ، وتنازعوا في « المعنى » الذي

---

(١) تسمى : الصوفية والفقراء .

أضيف إليـه الصوفي ـــ فإنه من أسمـــاء النسب : كالقرشي ، والمدنى ، وأمثال ذلك .

فقيل : إنه نسبة إلى « أهل الصفة » وهو غلط ؛ لأنه لو كان كذلك لقيل : صُفِّيّ . وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله ، وهو أيضاً غلط ؛ فإنه لو كان كذلك لقيل : صَفِّيّ . وقيـل نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط ؛ لأنه لو كان كذلك لقيل : صفوي ، وقيل : نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة ، قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النساك ، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهـة اللفظ ، فإنه ضعيف أيضـاً ؛ لأن هؤلاء غير مشهورين ، ولا معروفين عنـد أكثر النساك ، ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لـكان هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهـم أولى ، ولأن غالب من تـكلم باسم « الصوفى » لا يعرف هذه القبيلة ، ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة فى الجاهلية لا وجود لها فى الإسلام .

وقيل : ـــ وهو المعروف ـــ إنه نسبة إلى لبس الصوف ؛ فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول مـن بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحـاب الحسن ، وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحـو ذلك ،

ما لم يكن فى سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفى ، وعبادة بصرية . وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف ، فقال : إن قوماً يتخيرون الصوف ، يقولون : إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم ، وهدي نبينا أحب إلينا ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس القطن وغيره ، أو كلاماً نحواً من هذا .

ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة فى هذا الباب إنما هو عن عبّاد أهل البصرة ، مثل حكاية من مات أو غشي عليه فى سماع القرآن ، ونحوه . كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ فى صلاة الفجر : (فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ) فخر ميتا ، وكقصة أبى جهير الأعمى الذي قرأ عليه صالح المري فمات ، وكذلك غيره ممن روي أنهم ماتوا باستماع قراءته ، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ، ولم يكن فى الصحابة من هذا حاله ؛ فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين : كأسماء بنت أبى بكر ، وعبد الله بن الزبير ، ومحمد بن سيرين ، ونحوهم .

والمنكرون لهم مأخذان :

منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً . يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال : ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ

على أحدهم وهو على حائط فإن خر فهو صادق .

ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدي الصحابة ، كما نقل عن أسماء ، وابنها عبد الله .

والذي عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوبا عليه لم ينكر عليه ، وإن كان حال الثابت أكمل منه ؛ ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا . فقال : قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشي عليه ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد ، فما رأيت أعقل منه ، ونحو هذا . وقد نقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك ، وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة ، وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه .

لكن الأحوال التى كانت فى الصحابة هي المذكورة في القرآن ، وهي وجل القلوب ، ودموع العين ، واقشعرار الجلود ، كما قال تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) وقال تعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ) وقال تعالى : (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا) وقال : (وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ

ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ) وقال : (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) .

وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها ، والجفاء عن الدين ، ماهو مذموم ، وقد فعلوا ، ومنهم من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها ، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

بل المراتب ثلاث :

(أحدها) حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب ، لا يلين للسماع والذكر ، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود .
قال الله تعالى : (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)
وقال تعالى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ) .

و (الثانية) حال المؤمن التقي الذي فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه ، فهذا الذي يصعق صعق موت ، أو صعق غشي ، فإن ذلك

إنما يكون لقوة الوارد ، وضعف القلب عن حمله ، وقد يوجد مثل هذا فى من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية ، يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب بعقله .. ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه ، وكذلك في غيره ، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه ، بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التى تمرضه أو تقتله ، أو كان أحدهم مغلوبا على ذلك .

فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان ، لم يكن فيه ذنب فيما أصابه ، فلا وجه للريبة . كمن سمع القرآن السماع الشرعي ، ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك ، وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفنا ، ونحو ذلك من الأمور التى تغيب العقل بغير اختيار صاحبها ؛ فإنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً ، بل معذوراً فإن السكران بلا تميز ، وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السكر من الخمر والحشيشة فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين ، ومن استحل السكر من هذه الأمور فهو كافر ، وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها كما قيل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة

ومتى إفاقة من به سكران

وهذا مذموم ، لأن سببه محظور ، وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التى تورث مثل هذا السكر ، وهذا أيضاً مذموم ، فإنه ليس للرجل أن يسمع من الأصوات التى لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله ، إذ إزالة العقل محرم ، ومتى أفضى إليه سبب غير شرعي كان محرما ، وما يحصل فى ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية ، ولو بأمور فيها نوع من الإيمان ، فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل ، ولم يأذن لنا الله أن نمتع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها بما يوجب زوال عقولنا ؛ بخلاف من زال عقله بسبب مشروع ، أو بأمر صادفه لا حيلة له فى دفعه .

وقد يحصل السكر بسبب لافعل للعبد فيه ، كسماع لم يقصده يهيج قاطنه ، ويحرك ساكنه ، ونحو ذلك . وهذا لا ملام عليه فيه ، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور ؛ لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم ، كالمغمى عليه والمجنون ونحوهما .

ومن زال عقله بالخمر . فهل هو مكلف حال زوال عقله ؟ فيه قولان مشهوران ، وفى طلاق من هذه حاله نزاع مشهور ، ومن زال عقله بالبنج يلحق به ، كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعي وأحمد ، وقيل يفرق بينه وبين الخمر ؛ لأن هذا يشتهى ، وهذا لا يشتهى ؛ ولهذا

أوجب الحد في هذا دون هذا ، وهذا هو المنصوص عن أحمد ومذهب أبي حنيفة .

ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً ، إما بسبب خلط يغلب عليه ، وإما بغير ذلك ، ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يعدون فى النساك ، وقد يسمون المولهين . قال فيهم بعض العلماء : هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولا وأحوالا ؛ فسلب عقولهم ، وأسقط ما فرض بما سلب .

فهذه الأحوال التى يقترن بها الغشى أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك ، إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقا عاجزاً عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان ، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التى تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله .

ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم . وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم ، وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم فإنه أسري به إلى السماء وأراه الله ما أراه وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله ، فحاله أفضل من

حال موسى صلى الله عليه وسلم الذي خر صعقاً لما تجلى ربه للجبل وحال موسى حال جليلة علية فاضلة : لكن حال محمد صلى الله عليه وسلم أكمل وأعلى وأفضل .

والمقصود : أن هذه الأمور التى فيها زيادة فى العبادة والأحوال خرجت من البصرة ، وذلك لشدة الخوف ، فإن الذي يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السليمي وأمثالهما أمر عظيم . ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم . ومن خاف الله خوفا مقتصداً يدعوه إلى فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه الله من غير هذه الزيادة فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء ، وهو حال الصحابة رضي الله عنهم وقد روي : أن عطاء السليمي — رضي الله عنه — رؤي بعد موته فقيل له : مافعل الله بك ؟ فقال : قال لي : ياعطاء ! أما استحيت مني أن تخافني كل هذا ؟ ! أما بلغك أني غفور رحيم ؟ ! .

وكذلك مايذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع والعبادة وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رضي الله عنهم وعلى ما سنه الرسول أمور توجب أن يصير الناس طرفين .

قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا فى ذلك .

وقوم يغلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق وأعلاها .

والتحقيق أنهم فى هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين فى مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك . وخرج فيهم الرأي الذي فيه من مخالفة السنة ما أنكره جمهور الناس .

وخيار الناس من « أهل الفقه والرأي » فى أولئك الكوفيين على طرفين .

قوم يذمونهم ويسرفون فى ذمهم .

وقوم يغلون فى تعظيمهم ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم وربما فضلوهم على الصحابة . كما أن الغلاة فى أولئك العباد قد يفضلونهم على الصحابة ، وهذا باب يفترق فيه الناس .

والصواب : للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وخير القرون القرن الذي بعث فيهم ، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو وأصحابه ، ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم ، كما قال الله تعالى : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) وقال صلى الله عليه وسلم :

« إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » وقال : (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) . وإن كثيراً من المؤمنين ــ المتقين أولياء الله ــ قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتقي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده فلابد أن يصدر منه خطأ إما فى علومه وأقواله وإما فى أعماله وأحواله ، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم ؛ فإن الله تعالى قال : (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ــ إلى قوله ــ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا) قال الله تعالى : قد فعلت .

فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من العباد والنساك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ ، ضال مبتدع ، ومن جعل كل مجتهد فى طاعة أخطأ فى بعض الأمور مذموما معيباً ممقوتا ، فهو مخطئ ضال مبتدع .

ثم الناس فى الحب والبغض والموالاة والمعاداة هم أيضاً مجتهدون ، يصيبون تارة ، ويخطئون تارة ، وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه ، أحب الرجل مطلقاً ، وأعرض عن سيئاته ، وإذا علم منه ما يبغضه أبغضه مطلقاً ، وأعرض عن حسناته ، محاط (؟) وحال من

يقول بالتحـــافظ (؟) وهــذا مــن أقوال أهل البـــدع والخوارج والمعتزلة والمرجئة .

وأهل السنة والجماعة يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع وهو أن المؤمن يستحق وعد الله وفضله الثواب على حسناته، ويستحق العقاب على سيئاته، وإن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليـه، وما يعاقب عليه، وما يحمد عليه وما يذم عليه، وما يحب منه وما يبغض منه، فهذا هذا .

وإذا عرف أن منشأ «التصوف» كان من البصرة، وأنه كان فيها من يسلك طريق العبادة والزهد، مما له فيه اجتهاد، كما كان فى الكوفـة من يسلك من طريق الفقه والعلم ما له فيه اجتهاد، وهؤلاء نسبـوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لبـاس الصوف . فقيل في أحـدهم : «صوفى» وليس طريقهم مقيداً بلبـاس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال .

ثم «التصوف» عندهم له حقـائق وأحوال معروفة قـد تـكلموا فى حدوده وسيرته وأخلاقه، كقول بعضهم : «الصوفى» من صفا مــن الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر . التصوف كتمان المعاني، وترك الدعاوي . وأشباه ذلك : وهم يسيرون بالصوفى إلى

معنى الصديق ، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون . كما قال الله تعالى:
(فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا) ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفى ؛ لكن هو فى الحقيقة نوع من الصديقين ، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه ، فكان الصديق من أهل هذه الطريق ، كما يقال : صديقو العلماء ، وصديقو الأمراء ، فهو أخص من الصديق المطلق ، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم .

فاذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين : إنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صديقون أيضاً ، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم ، فهم من أكمل صديقي زمانهم ، والصديق فى العصر الأول أكمل منهم ، والصديقون درجات وأنواع ؛ ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات ، حققه وأحكمه وغلب عليه ، وإن كان غيره فى غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه .

ولأجل ما وقع فى كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس فى طريقهم ؛ فطائفة ذمت « الصوفية والتصوف » . وقالوا : إنهم

مبتدعون ، خارجون عن السنة ، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غلت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق ، وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

و « الصواب » أنهم مجتهدون فى طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب .

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه ، عاص لربه .

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم : كالحلاج مثلا ؛ فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه ، وأخرجوه عن الطريق . مثل : الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره . كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ؛ فى « طبقات الصوفية » وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد .

فهذا أصل التصوف . ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع ، وصارت

الصوفيـة « ثلاثة أصنـاف » صوفيـة الحقـائق وصوفيـة الأرزاق وصوفيـة الرسم .

فأما « صوفية الحقائق » : فهم الذين وصفناهم .

وأما « صوفيـة الأرزاق » فهم الذين وقفت عليهم الوقـوف . كالخوانك فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق . فإن هذا عزيز وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك ؛ ولكـن يشترط فيهم ثلاثة شروط :

(أحدها) العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم .

و (الثـانى) التـأدب بآداب أهـل الطريق ، وهي الآداب الشرعيـة فى غالب الأوقات ، وأمـا الآداب البدعية الوضعيـة فـلا يلتفت إليها .

و (الثالث) أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا ، فأمـا من كان جماعا للمـال ، أو كان غير متخلق بالأخـلاق المحمودة ، ولا يتأدب بالآداب الشرعية ، أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك .

وأما « صوفية الرسم » فهم المقتصرون على النسبة ، فهمهم في اللباس

والآداب الوضعية ، ونحو ذلك فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم .

وأما اسم « الفقير » فإنه موجود فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لكن المراد به في الكتاب والسنة الفقير المضاد للغني . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (؟) « والفقراء والفقر » أنواع : فمنه المسوغ لأخذ الزكاة . وضده الغنى المانع لأخذ الزكاة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تحل الصدقة لغني ولا لقوي مكتسب » والغنى الموجب للزكاة غير هذا عند جمهور العلماء . كمالك والشافعي وأحمد .

وهو ملك النصاب وعندهم قد تجب على الرجل الزكاة ، ويباح له أخذ الزكاة خلافا لأبى حنيفة .

والله سبحانه قد ذكر الفقراء فى مواضع ؛ لكن ذكر الله الفقراء المستحقين للزكاة فى آية والفقراء المستحقين للفيء فى آية . فقال فى الأولى : ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ـ إلى قوله ـ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا) . وقال فى الثانية : (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ـ الآية إلى قوله ـ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ) .

وهؤلاء « الفقراء » قد يكون فيهم من هو أفضل من كثير من الأغنياء ، وقد يكون من الأغنياء من هو أفضل من كثير منهم .

وقد تنازع الناس أيما أفضل : الفقير الصابر ، أو الغنى الشاكر ؟ والصحيح : أن أفضلهما أتقاهما ؛ فإن استويا فى التقوى استويا فى الدرجة كما قد بيناه فى غير هذا الموضع ، فإن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة [لأنه] لا حساب عليهم . ثم الأغنياء يحاسبون ، فمن كانت حسناته أرجح من حسنات فقير ، كانت درجته فى الجنة أعلى ، وإن تأخر عنه فى الدخول . ومن كانت حسناته دون حسناته كانت درجته دونه ؛ لكن لما كان جنس الزهد فى الفقراء أغلب صار الفقر فى اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد وهو من جنس التصوف .

فإذا قيل : هذا فيه فقر أو ما فيه فقر لم يرد به عدم المال ،

ولكن يراد به ما يراد باسم الصوفى من المعارف والأحوال والأخلاق ، والآداب ونحو ذلك .

وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا أيما أفضل : الفقير ، أو الصوفى؟ فذهب طائفة إلى ترجيح الصوفي ، كأبي جعفر السهروردي ونحوه ، وذهب طائفة إلى ترجيح الفقير ، كطوائف كثيرين — وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانك ونحو ذلك ، وأكثر الناس قد رجحوا الفقير .

والتحقيق أن أفضلهما أتقاهما ، فإن كان الصوفى أتقى لله كان أفضل منه ، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله ، وأترك لما لا يحبه فهو أفضل من الفقير ، وإن كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كان أفضل منه ، فإن استويا فى فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا فى الدرجة .

و « أولياء الله » هم المؤمنون المتقون ، سواء سمي أحدهم فقيراً أو صوفياً أو فقيهاً أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك .

قال الله تعالى : (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ)

وفى صحيح البخاري عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بهـا ، فبي يسمع وبي يبصر وبى يبطش وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعـاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعـله ترددي عن قبض نفس عبـدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه » وهذا الحديث قـد بين فيه أولياء الله المقتصدين ، أصحاب اليمين والمقربين السابقين .

فالصنف الأول : الذين تقربوا إلى الله بالفرائض . والصنف الثـانى الذي تقربوا إليه بالنوافل بعـد الفرائض ، وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم ، كما قال تعالى .

وهذان الصنفان قد ذكرهم الله فى غير موضع من كتابه كما قال : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ) وكما قال الله تعـالى : (إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ) قال ابن عباس : يشرب

بها المقربون صرفا وتمزج لأصحاب اليمين مزجا . وقال تعالى : (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا) وقال تعالى : (فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ) وقال تعالى : (فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ)

وهذا الجواب فيه جمل تحتاج إلى تفصيل طويل لم يتسع له هـذا الموضع . والله أعلم .

وسئل

ما تقول الفقهاء ــ رضي الله عنهم ــ فى رجل يقول : إن الفقر لم نتعبد به ، ولم نؤمر به ، ولا جسم له ، ولا معنى ، وأنه غير سبيل موصل إلى رضا الله تعالى وإلى رضا رسوله ، وإنما تعبدنا بمتابعة أمر الله واجتناب نهيه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإن أصل كل شيء العلم والتعبد به والعمل به ، والتقوى والورع عن المحارم ، « والفقر » المسمى على لسان الطائفة والأكابر هو الزهد فى الدنيا ، والزهد فى الدنيا يفيده العلم الشرعي فيكون الزهد فى الدنيا العمل بالعلم ، وهذا هو الفقر ، فإذاً الفقر فرع من فروع العلم ، والأمر على هذا . وما ثم طريق أوصل من العلم والعمل بالعلم ، على ما صح وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ويقول : إن الفقر المسمى المعروف عند أكثر أهل الزي المشروع في هذه الأعصار من الزي والألفاظ والاصطلاحات المعتادة غير مرضي لله ولا لرسوله ، فهل الأمر كما قال ، أو غير ذلك ؟ أفتونا مأجورين .[1]

---

(١) مسألة في الفقر والتصوف .

فأجاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية — رضي الله عنه —

الحمد لله . أصل هذه « المسألة » أن الألفاظ التى جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع ما دلت عليه ، مثل لفظ الإيمان ، والبر ، والتقوى ، والصدق ، والعدل ، والإحسان ، والصبر ، والشكر ، والتوكل ، والخوف والرجاء ، والحب لله ، والطاعة لله وللرسول ، وبر الوالدين ، والوفاء بالعهد ونحو ذلك مما يتضمن ذكر ما أحبه الله ورسوله من القلب والبدن . فهذه الأمور التى يحبها الله ورسوله هي الطريق الموصل إلى الله ، مع ترك ما نهى الله عنه ورسوله : كالكفر ، والنفاق والكذب ، والإثم والعدوان ، والظلم والجزع والهلع ، والشرك والبخل والجبن ، وقسوة القلب والغدر وقطيعة الرحم ونحو ذلك . فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله ، وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه . هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم . صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وهذا « الصراط المستقيم » يشتمل على علم وعمل : علم شرعي ، وعمل شرعي ، فمن علم ولم يعمل بعلمه كان فاجراً ، ومن عمل بغير علم كان ضالاً ، وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى

ضالون » وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يعملوا به ، والنصارى عبدوا الله بغير علم .

ولهذا كان السلف يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتها فتنة لكل مفتون . وكانوا يقولون : من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى فمن دعا إلى العلم دون العمل المأمور به كان مضلاً ، ومن دعا إلى العمل دون العلم كان مضلاً ، وأضل منهما من سلك فى العلم طريق أهل البدع ؛ فيتبع أموراً تخالف الكتاب والسنة يظنها علوما وهي جهالات . وكذلك من سلك في العبادة طريق أهل البدع . فيعمل أعمالاً تخالف الأعمال المشروعة يظنها عبادات وهي ضلالات . فهذا وهذا كثير فى المنحرف المنتسب إلى فقه أو فقر . يجتمع فيه أنه يدعو إلى العلم دون العمل ، والعمل دون العلم ، ويكون ما يدعو إليه فيه بدع تخالف الشريعة . وطريق الله لا تتم إلا بعلم وعمل ، يكون كلاهما موافقا الشريعة .

فالسالك طريق « الفقر والتصوف والزهد والعبادة » إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة ، وإلا كان ضالاً عن الطريق ، وكان مايفسده أكثر مما يصلحه . والسالك من « الفقه والعلم والنظر والكلام » إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه وإلا كان فاجراً ضالاً عن الطريق . فهذا هو

الأصل الذي يجب اعتماده على كل مسلم .

وأما التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية . (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) .

ولا ريب أن لفظ « الفقر » فى الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين وتابعيهم لم يكونوا يريدون به نفس طريق الله ، وفعل ما أمر به . وترك ما نهى عنه ، والأخلاق المحمودة ولا نحو ذلك ؛ بل الفقر عندهم ضد الغنى . و « الفقراء » هم الذين ذكرهم الله فى قوله : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ) وفى قوله : (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وفي قوله : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) و « الغني » هو الذي لا يحل له أخذ الزكاة ، أو الذي تجب عليه الزكاة ، أو ما يشبه ذلك ؛ لكن لما كان الفقر مظنة الزهد طوعا أو كرها ؛ إذ من العصمة أن لا تقدر ، وصار المتأخرون كثيراً ما يقرنون بالفقر معنى الزهد ، والزهد قد يكون مع الغنى ، وقد يكون مع الفقر . ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير .

و « الزهد » المشروع ترك ما لا ينفع فى الدار الآخرة ، وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع

بل ترك الفضول التى تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع . وكذلك فى أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك بلفظ « الصوفى » ؛ لأن لبس الصوف يكثر فى الزهـاد ، ومن قال إن الصوفى نسبة إلى الصفة ، أو الصفا أو الصف الأول ، أو صوفة بن بشر بن أد بن طابخة ، أو صوفة القفا ؛ فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى ؛ لكن من الناس من قد لحوا الفرق فى بعض الأمور دون بعض ، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ولا يفرق بين البر والفاجر ، أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار ، ولا يفرق بين آخرين اتباعا لظنه وما يهواه ، فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار ، ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه .

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر ، وكان من القدرية كالمعتزلة ونحوهم ، الذين هم مجوس هـذه الأمة ، فهؤلاء يشبهون المجوس ، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس ، ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضاً فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه ، كما نقل ذلك عنه . فهذا التقسيم فى القول والاعتقاد .

وكذلك هم فى « الأحوال ، والأفعال » فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويصبر على ما يصيبه

من المقدور ، فهو عند الأمر والدين والشريعة ، ويستعين بالله على ذلك ، كما قال تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وإذا أذنب استغفر وتاب لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ، ولا يرى المخلوق حجة على رب الكائنات : بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به ، كما فى الحديث الصحيح الذي فيه سيد الاستغفار أن يقول العبد : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » فيقر بنعمة الله عليه فى الحسنات . ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى . ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها . كما قال بعضهم : أطعتك بفضلك ، والمنة لك . وعصيتك بعلمك ، والحجة لك . فاسألك بوجوب حجتك علي ، وانقطاع حجتى إلا غفرت لي .

وفى الحديث الصحيح الإلهي : « يا عبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع .

وآخرون قد يشهدون « الأمر » فقط ، فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة ، لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب

لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر . وآخرون يشهدون « القدر » فقط ، فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله ، واتباع شريعته ، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين . فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه ، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه ، والمؤمن يعبده ويستعينه .

(والقسم الرابع) شر الأقسام وهو من لا يعبده ولا يستعينه ، فلا هو مع الشريعة الأمرية ؛ ولا مع القدر الكوني . وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل المقدور من توكل واستعانة ، ونحو ذلك . وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك ، فهم فى التقوى وهي طاعة الأمر الديني والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة اقسام :

(أحدها) أهل التقوى والصبر ، وهم الذين أنعم الله عليهم أهل السعادة فى الدنيا والآخرة .

(والثاني) الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ، ويتركون المحرمات ؛ لكن إذا أصيب أحدهم

فى بدنه بمرض ونحوه أو ماله أو فى عرضه ، أو ابتلى بعدو يخيفـه ، عظم جزعه ، وظهر هلعه .

(والثالث) قوم لهم نوع من الصبر بـلا تقوى : مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم فى مثل أهوائهم كاللصوص ، والقطاع الذين يصبرون على الآلام فى مثل ما يطلبونه من الغصب ، وأخـذ الحرام ، والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون عـلى ذلك فى طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها ، وكذلك طلاب الرياسة والعلو عـلى غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التى لا يصبر عليها كثير من الناس .

وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون فى مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام ، وهؤلاء هم الذين يريدون علواً فى الأرض أو فساداً من طلاب الرياسة ، والعلو على الخلق ، ومن طلاب الأموال بالبغي والعـدوان والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً أو مباشرة وغير ذلك ، يصبرون على أنواع من المكروهات ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور ، وفعلوه من المحظور ، وكذلك قـد يصبر الرجل عـلى ما يصيبه من المصائب : كالمرض والفقر وغير ذلك ، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر .

وأما (القسم الرابع) فهو شر الأقسام لا يتقون إذا قدروا ، ولا يصبرون إذا ابتلوا ؛ بل هم كما قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا) فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا ، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا ، إن قهرتهم ذلوا لك ، ونافقوك ، وحبوك واسترحموك ، ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل ، وتعظيم المسؤول ، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس ، وأقسام قلبا ، وأقلهم رحمة وإحسانا وعفواً . كما قد جربه المسلمون فى كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ، ومن يشبههم فى كثير من أمورهم ، وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم فالاعتبار بالحقائق . فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم ، كان شبيها لهم من هذا الوجه ، وكان مامعه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه ، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية وأبعد عن الأخلاق الإسلامية من التتار . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول فى خطبه : « خير الكلام كلام الله ، وخير

الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » .

وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدي محمد ،فكل من كان إلى ذلك أقرب ، وهو به أشبه ، كان إلى الكمال أقرب ، وهو به أحق ، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه أضعف ، كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق . والكامل هو من كان لله أطوع ، وعلى ما يصيبه أصبر ، فكلما كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبر على ماقدره وقضاه كان أكمل وأفضل . وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك .

وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعاً فى غير موضع من كتابه ، وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين والمعاهدين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة ، قال الله تعالى : (بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) وقال الله تعالى : (لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ

ٱلْأَيَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

وقال إخوة يوسف له : (أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ) .

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً فقال تعالى :

(وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ)

وفى اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها : تصديقاً لخبر الله ، وطاعة لأمره ، وقال تعالى : (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ * وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ)

وقال تعالى : (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ) وقال تعالى : (فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ)

وقال تعالى : (وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ)

وقال تعالى : (ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ)

فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر .

وقرن بين الرحمة والصبر فى مثل قوله تعالى : (وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ) وفى الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها ، فإن القسمة أيضاً رباعية . إذ من الناس من يصبر ولا يرحم : كأهل القوة والقسوة ، ومنهم من يرحم ولا يصبر : كأهل الضعف واللين ، مثل كثير من النساء ومن يشبههن ، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع ، والمحمود هو الذي يصبر ويرحم ، كما قال الفقهاء فى صفة المتولى : ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف ، ليناً من غير ضعف ، فبصبره يقوى ، وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد ، فإن النصر مع الصبر ، وبالرحمة يرحمه الله تعالى . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » وقال : « من لم يرحم لا يرحم » وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي ، الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » والله أعلم انتهى .

سئل شيخ الإسلام

وقدوة الأنام ومفتى الفرق وناصر السنة : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية — رضي الله عنه — عن « أهل الصفة » كم كانوا ؟ وهل كانوا بمكة أو بالمدينة ؟ وأين موضعهم الذي كانوا يقيمون فيه ؟ وهل كانوا مقيمين بأجمعهم لا يخرجون إلا خروج حاجة ؟ أو كان منهم من يقعد بالصفة ؟ ومنهم من يتسبب فى القوت ؟ وما كان تسببهم . هل يعملون بأبدانهم ، أم يشحذون بالزنبيل؟ وفى من يعتقد أن « أهل الصفة » قاتلوا المؤمنين مع المشركين ؟ وفيمن يعتقد أن « أهل الصفة » أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ؟ ومن الستة الباقين من العشرة ؟ ومن جميع الصحابة ؟ وهل كان فيهم أحد من العشرة ؟ وهل كان فى ذلك الزمان أحد ينذر لأهل الصفة ؟ وهل تواجدوا على دف أو شبابة ؟ أو كان لهم حاد ينشد الأشعار ويتحركون عليها بالتصدية ويتواجدون ؟

وعن هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ هل هي مخصوصة بأهل الصفة ؟ أم هي

عامة ؟ وهل الحديث الذي يرويه كثير من العامة ويقولون : إن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : « ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولي لله : لا الناس يعرفونه ولا الولي يعرف أنه ولي » [صحيح] ؟ وهل تخفى حالة الأولياء أو طريقتهم على أهل العلم أو غيرهم ؟ ولماذا سمي الولي ولياً ؛ وما المراد بالولي ؟

وما الفقراء الذين يسبقون الأغنياء إلى الجنة ؟ وما الفقراء الذين أوصى بهم فى كلامه . وذكرهم سيد خلقه ، وخاتم أنبيائه ورسله محمد صلى الله عليــه وسلم فى سنته . هل هم الذين لا يملـكون كفايتهم أهل الفاقة والحاجة أم لا ؟؟

فأجاب : شيخ الإسلام : تقي الدين أبو العبــاس أحمـد بن تيمية ــ رضي الله عنه ــ بقلمه ما صورته :

الحمد لله رب العالمين .

أما « الصفة » التى ينسب إليها أهل الصفة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسـلم فـكانت فى مؤخر مسجد النبي صلى الله عليـه وسلم في شمالي المسجد بالمدينة النبوية ، كان يأوى إليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوي إليه ؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيــه

صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يهاجروا إلى المدينة النبوية، حين آمن من آمن من أكابر أهل المدينة من الأوس والخزرج، وبايعهم بيعة العقبة عند منى، وصار للمؤمنين دار عز ومنعة، جعل المؤمنون من أهل مكة وغيرهم يهاجرون إلى المدينة، وكان المؤمنون السابقون بها صنفين: المهاجرين الذين هاجروا إليها من بلادهم، والأنصار الذين هم أهل المدينة وكان من لم يهاجر من الأعراب وغيرهم من المسلمين لهم حكم آخر. وآخرون كانوا ممنوعين من الهجرة لمنع أكابرهم لهم بالقيد والحبس، وآخرون كانوا مقيمين بين ظهراني الكفار المستظهرين عليهم.

فكل هذه «الأصناف» مذكورة في القرآن، وحكمهم باق إلى يوم القيامة في أشباههم ونظرائهم. قال الله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

فهذا في السابقين.

ثم ذكر من اتبعهم إلى يوم القيامة فقال: (وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟

وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وقال الله تعالى : (وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ) الآية .

وذكر فى السورة الأعراب المؤمنين ، وذكر المنافقين من أهل المدينة ومن حولها ، وقال سبحانه وتعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا) .

فلما كان المؤمنون يهاجرون إلى المدينة النبوية كان فيهم من ينزل على الأنصار بأهله ، أو بغير أهله ؛ لأن المبايعة كانت على أن يؤووهم ، ويواسوهم ، وكان فى بعض الأوقات إذا قدم المهاجر اقترع الأنصار على من ينزل [عنده] منهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حالف بين المهاجرين والأنصار ، وآخى بينهم ، ثم صار المهاجرون يكثرو ن بعد ذلك شيئاً بعد شيء ؛ فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه .

والنبي صلى الله عليه وسلم يغزو الكفار تارة بنفسه ، وتارة بسراياه

فيسلم خلق تارة ظاهرا وباطناً ، وتارة ظاهراً فقط ، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء ، والأهلين والعزاب ، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه ، يأوي إلى تلك الصفة التى في المسجد ، ولم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون فى وقت واحد ، بل منهم من يتأهل ، أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له . ويجيء ناس بعد ناس ، فكانوا تارة يقلون ، وتارة يكثرون ، فتارة يكونون عشرة أو أقل ، وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر ، وتارة يكونون ستين وسبعين .

وأما جملة من أوى إلى الصفة مع تفرقهم ، فقد قيل : كانوا نحو أربعمائة من الصحابة ، وقد قيل : كانوا أكثر من ذلك ولم يعرف كل واحد منهم . وقد جمع أسماءهم « الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي » فى « كتاب تاريخ أهل الصفة » جمع ذكر من بلغه أنه كان من « أهل الصفة » وكان معتنياً بذكر أخبار النساك ، والصوفية ؛ والآثار التى يستندون إليها ، والكلمات المأثورة عنهم ؛ وجمع أخبار زهاد السلف . وأخبار جميع من بلغه أنه كان من أهل الصفة ؛ وكم بلغوا . وأخبار الصوفية المتأخرين بعد القرون الثلاثة . وجمع أيضاً فى الأبواب : مثل حقائق التفسير . ومثل أبواب التصوف الجارية على أبواب الفقه . ومثل كلامهم فى التوحيد والمعرفة والمحبة ؛ ومسألة السماع وغير ذلك من الأحوال . وغير ذلك من الأبواب . وفيما جمعه فوائد كثيرة . ومنافع جليلة .

وهو فى نفسه رجل من أهل الخير والدين والصلاح والفضل .
وما يرويه من الآثار فيه من الصحيح شيء كثير . ويروى أحياناً أخباراً ضعيفة بل موضوعة . يعلم العلماء أنها كذب .

وقد تكلم بعض حفاظ الحديث فى سماعه .

وكان البيهقي إذا روى عنه يقول : حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه . وما يظن به وبأمثاله إن شاء الله تعمد الكذب ، لكن لعدم الحفظ والإتقان يدخل عليهم الخطأ فى الرواية ؛ فإن النساك والعباد منهم من هو متقن فى الحديث ، مثل ثابت البناني ، والفضيل بن عياض ، وأمثالهما ومنهم من قد يقع فى بعض حديثه غلط . وضعف ، مثل مالك بن دينار وفرقد السبخي ونحوهما .

وكذلك ما يأثره أبو عبد الرحمن عن بعض المتكلمين فى الطريق أو ينتصر له من الأقوال والأفعال والأحوال . فيه من الهدى والعلم شيء كثير . وفيه – أحياناً – من الخطأ أشياء ؛ وبعض ذلك يكون عن اجتهاد سائغ . وبعضه باطل قطعاً . مثل ما ذكر فى حقائق التفسير قطعة كبيرة عن جعفر الصادق وغيره من الآثار الموضوعة . وذكر عن بعض طائفة أنواعا من الإشارات التى بعضها أمثال حسنة . واستدلالات مناسبة . وبعضها من نوع الباطل واللغو .

فالذي جمعه (الشيخ أبو عبد الرحمن) ونحوه فى « تاريخ أهل الصفة » وأخبار زهاد السلف ، وطبقات الصوفية ، يستفاد منه فوائد جليلة ، ويجتنب منه ما فيه من الروايات الباطلة ، ويتوقف فيما فيه من الروايات الضعيفة .

وهكذا كثير من أهل الروايات ، ومن أهل الآراء والأذواق ، من الفقهاء والزهاد والمتكلمين ، وغيرهم . يوجد فيما يأثرونه عمن قبلهم ، وفيما يذكرونه معتقدين له شيء كثير ، وأمر عظيم من الهدى ، ودين الحق ، الذي بعث الله به رسوله . ويوجد — أحياناً — عندهم من جنس الروايات الباطلة أو الضعيفة ، ومن جنس الآراء والأذواق الفاسدة أو المحتملة شيء كثير .

ومن له في الأمة لسان صدق عام ، بحيث يثنى عليه ، ويحمد فى جماهير أجناس الأمة ، فهؤلاء هم أئمة الهدى ، ومصابيح الدجى ، وغلطهم قليل بالنسبة إلى صوابهم ، وعامته من موارد الاجتهاد التى يعذرون فيها ، وهم الذين يتبعون العلم والعدل ، فهم بعداء عن الجهل والظلم ، وعن اتباع الظن ، وما تهوى الأنفس .

فصـــــل

وأما حال « أهل الصفة » هم وغيرهم من فقراء المسلمين الذين لم يكونوا فى الصفة ، أو كانوا يكونون بها بعض الأوقات ، فـكما وصفهم الله تعـالى فى كتابه ، حيث بين مستحقي الصدقة منهم ، ومستحقي الفيء منهم ، فقـال : (إِن تُبْدُوا ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) إلى قوله (لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا) . وقال فى أهل الفيء : (لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ) .

وكان فقراء المسلمين من أهل الصفة وغيرهم يكتسبون عند إمكان الاكتساب الذي لا يصدهم عمـا هو أوجب أو أحب إلى الله ورسوله من الكسب ، وأما إذا أحصروا فى سبيل الله عـن الكسب ، فـكانوا يقدمون ما هــو أقرب إلى الله ورسوله ، وكان أهــل الصفة ضيوف

الإسلام ، يبعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بما يكون عنده ، فإن الغالب كان عليهم الحاجة لا يقوم ما يقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون إليه من الرزق .

وأما « المسألة » فكانوا فيها كما أدبهم النبي صلى الله عليه وسلم حيث حرمها على المستغنى عنها ، وأباح منها أن يسأل الرجل حقه ، مثل أن يسأل ذا السلطان أن يعطيه حقه من مال الله ، أو يسأل إذا كان لا بد سائلاً الصالحين الموسرين إذا احتاج إلى ذلك ، ونهى خواص أصحابه عن المسألة مطلقاً ، حتى كان السوط يسقط من يد أحدهم فلا يقول لأحد : ناولني إياه .

وهذا الباب فيه أحاديث وتفصيل . وكلام العلماء لا يسعه هذا المكان . مثل قوله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : « ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذه ، وما لا فلا تتبعه نفسك » ومثل قوله : « من يستغن يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » ومثل قوله : « من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته خدوشاً ، أو خموشاً ، أو كدوشا فى وجهه » ومثل قوله : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » إلى غير ذلك من الأحاديث .

وأما الجائز منها فمثل ما أخبر الله تعــالى عــن موسى والخضر : أتيا أهل قرية فاستطعما أهلها . ومثل قوله : « لا تحل المسألة إلا لذى دم موجع ، أو غرم مفظع ، أو فقر مدقع » ومثل قوله لقبيصة ابن مخارق الهلالي : « يا قبيصة ! لا تحل المسألة إلا لثلاثة: رجل أصابته جائحة اجتاحت ماله : فسأل حتى يجد سداداً من عيش ، أو قواماً من عيش ، ثم يمسك . ورجل أصابته فاقة ، حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه فيقولون : لقد أصابت فلاناً فاقة ، فسأل حتى يجــد سداداً من عيش ، أو قواماً من عيش ، ثم يمسك . ورجل تحمل حمالة فسأل حتى يجد حمالته ، ثم يمسك . وما سوى ذلك من المسألة فإنما هي سحت يأ كله صاحبه سحتاً » .

ولم يكن فى الصحابة ــ لا أهل الصفة ولا غيرهم ــ من يتخذ مسألة الناس ، ولا الإلحاف في المسألة بالكدية ، والشحاذة لا بالزنبيل ولا غيره صناعة وحرفة ، بحيث لا يبتغي الرزق إلا بذلك ، كما لم يكن فى الصحابة أيضاً أهل فضول من الأموال يتركون ، لا يؤدون الزكاة ولا ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ولا يعطون فى النوائب . بل هذان الصنفان الظالمان المصران على الظلم الظاهر ، من مانعي الزكاة ، والحقوق الواجبة ، والمتعدين حدود الله تعالى فى أخذ أموال الناس كانا معدومين في الصحابة المثنى عليهم .

فصل

وأما من قال : إن أحداً من الصحابة أهل الصفة أو غيرهم أو التابعين أو تابعي التابعين قاتل مع الكفار ، أو قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم أو أصحابه ، أو أنهم كانوا يستحلون ذلك ، أو أنه يجوز ذلك . فهذا ضال غاو ؛ بل كافر يجب أن يستتاب من ذلك ، فإن تاب وإلا قتل . ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ ؛ بل كان أهل الصفة وغيرهم كالقراء الذين قنت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على من قتلهم من أعظم الصحابة إيماناً وجهاداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصراً لله ورسوله ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ وقال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ ﴾ وقال ﴿ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ

يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) .

وقد غزا النبي صلى الله عليه وسلم غزوات متعددة ، وكان القتال منها فى تسع مغاز : مثل بدر . وأحد . والخندق . وخيبر . وحنين . وانكسر المسلمون يوم أحد وانهزموا ، ثم عادوا يوم حنين، ونصرهم الله ببدر وهم أذلة ، وحصروا في الخندق حتى دفع الله عنهم أولئك الأعداء ، وفى جميع المواطن كان يكون المؤمنون من أهل الصفة وغيرهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يقاتلوا مع الكفار قط ، وإنما يظن هذا ويقوله من الضلال والمنافقين قسمان :

(قسم) منافقون . وإن أظهروا الإسلام ، وكان فى بعضهم زهادة وعبادة ، يظنون أن إلى الله طريقاً غير الإيمان بالرسول ومتابعته ، وأن من أولياء الله من يستغنى عن متابعة الرسول ، كاستغناء الخضر عن متابعة موسى . وفى هؤلاء من يفضل شيخه أو عالمه أو ملكه على النبي صلى الله عليه وسلم : إما تفضيلاً مطلقاً ، أو فى بعض صفات الكمال . وهؤلاء منافقون كفار يجب قتلهم بعد قيام الحجة عليهم .

فإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع الثقلين : إنسهم وجنهم وزهادهم وملوكهم . وموسى عليه السلام إنما بعث إلى

قومه لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ولا كان يجب على الخضر اتباعه ؛ بل قال له : إني على علم من علم الله تعالى علمنيه الله لا تعلمه . وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » وقال الله تعالى : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ) وقال تعالى . (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) .

و (القسم الثاني) من يشاهد ربوبية الله تعالى لعباده التي عمت جميع البرايا ، ويظن أن دين الله الموافقة للقدر ، سواء كان في ذلك عبادة الله وحده لا شريك له ، أو كان فيه عبادة الأوثان واتخاذ الشركاء والشفعاء من دونه ، وسواء كان فيه الإيمان بكتبه ورسله ، أو الإعراض عنهم والكفر بهم ، وهؤلاء يسوون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض ، وبين المتقين والفجار ، ويجعلون المسلمين كالمجرمين ، ويجعلون الإيمان والتقوى والعمل الصالح بمنزلة الكفر والفسوق والعصيان ، وأهل الجنة كأهل النار ، وأولياء الله كأعداء الله ، وربما جعلوا هذا من (باب الرضا بالقضاء) وربما جعلوه « التوحيد والحقيقة » بناء على أنه توحيد الربوبية الذي يقر به المشركون ، وأنه « الحقيقة الكونية » .

وهؤلاء يعبدون الله على حرف : فإن أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم ، خسروا الدنيا والآخرة ، وغالبهم يتوسعون فى ذلك حتى يجعلوا قتال الكفار قتالاً لله ، ويجعلون أعيان الكفار والفجار والأوثان من نفس الله وذاته ، ويقولون : ما في الوجود غيره ، ولا سواه ، بمعنى أن المخلوق هو الخالق ، والمصنوع هو الصانع ، وقد يقولون : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ) ويقولون : (أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) إلى نحو ذلك من الأقوال والأفعال التى هي شر من مقالات اليهود والنصارى ، بل ومن مقالات المشركين والمجوس ، وسائر الكفار ، من جنس مقالة فرعون والدجال ، ونحوهما ممن ينكر الصانع الخالق البارئ رب العالمين ، أو يقولون : إنه هو ، أو إنه حل فيه .

وهؤلاء كفار بأصلي الإسلام وهما : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

فإن التوحيد الواجب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، ولا نجعل له نداً فى إلهيته ، لا شريكا ولا شفيعاً . فأما « توحيد الربوبية » وهو الإقرار بأنه خالق كل شيء ، فهذا قد أقر به المشركون الذين قال الله فيهم : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ) قال ابن عباس : تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون :

الله ، وهم يعبدون غيره ، وقال تعالى : (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ) وقال تعالى : (قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ)

فالكفار المشركون مقرون أن الله خالق السموات والأرض ، وليس فى جميع الكفار من جعل لله شريكا مساويا له فى ذاته وصفاته وأفعاله ، هذا لم يقله أحد قط ، لا من المجوس الثنوية ، ولا من أهل التثليث ، ولا من الصابئة المشركين الذين يعبدون الكواكب والملائكة ، ولا من عباد الأنبياء والصالحين ، ولا من عباد التماثيل والقبور وغيرهم ؛ فإن جميع هؤلاء — وإن كانوا كفاراً مشركين متنوعين فى الشرك — فهم مقرون بالرب الحق الذي ليس له مثل فى ذاته وصفاته ، وجميع أفعاله ؛ ولكنهم مع هذا مشركون به فى ألوهيته ، بأن يعبدوا معه آلهة أخرى ، يتخذونها شفعاء أو شركاء ؛ أو فى ربوبيته بأن يجعلوا غيره رب بعض الكائنات دونه مع اعترافهم بأنه رب ذلك الرب ، وخالق ذلك الخلق .

وقد أرسل الله جميع الرسل ، وأنزل جميع الكتب بالتوحيد

الذي هو عبادة الله وحده ، لا شريك له . كما قال الله تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ)

وقال تعالى : (وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ) وقال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ)

وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ)

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم : (أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ) فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإلى طاعتهم .

والإيمان بالرسل ، هو « الأصل الثانى » من أصلي الإسلام ، فمن لم يؤمن بأن محمداً رسول الله إلى جميع العالمين ، وأنه يجب على جميع الخلق متابعته ، وأن الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، والدين ما شرعه ، فهو كافر : مثل هؤلاء المنافقين ونحوهم ممن يجوز الخروج عن دينه وشرعته وطاعته ؛ إما عموماً وإما خصوصاً . ويجوز إعانة الكفار والفجار على إفساد دينه وشرعته .

ويحتجون بما يفترونه : أن أهل الصفة قاتلوه . وأنهم قالوا : نحن مع الله ، من كان الله معه كنا معه ، يريدون بذلك القدر و « الحقيقة الكونية » دون الأمر و « الحقيقة الدينية » ويحتج بمثل هذا من ينصر الكفار والفجار ، ويخفرهم بقلبه وهمته ، وتوجهه من ذوي الفقر[1] ويعتقدون مع هذا أنهم من أولياء الله ، وأن الخروج عن الشريعة المحمدية سائغ لهم ، وكل هذا ضلال وباطل . وإن كان لأصحابه زهد وعبادة ، فهم فى العباد ؛ مثل أوليائهم من التتار ونحوهم في الأجناد فإن « المرء على دين خليله » و « المرء مع من أحب » هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد جعل الله المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والكافرين بعضهم أولياء بعض .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال المارقين من الإسلام مع عبادتهم العظيمة الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم . وقراءته مع قراءتهم . يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . أينما لقيتموهم فاقتلوهم ؛ فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » وهؤلاء قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لما خرجوا عن شريعة رسول الله

---

(١) نسخة زيادة : « والزمن » .

صلى الله عليه وسلم وسنته ، وفارقوا جماعة المسلمين ، فكيف بمن يعتقد أن المؤمنين كانوا يقاتلون النبي صلى الله عليه وسلم ؟!

ومثل هذا ما يرويه بعض هؤلاء المفترين : أن أهل الصفة سمعوا ما خاطب الله به رسوله ليلة المعراج ؛ وأن الله أمره أن لا يعلم به أحداً. فلما أصبح وجدهم يتحدثون ، فأنكر ذلك ، فقال الله تعالى : « أنا أمرتك أن لا تعلم به أحداً ؛ لكن أنا الذي أعلمتهم به ». إلى أمثال هذه الأكاذيب التي هي من أعظم الكفر . وهي كذب واضح ؛ فإن « أهل الصفة » لم يكونوا إلا بالمدينة ؛ لم يكن بمكة أهل صفة ؛ والمعراج إنما كان من مكة ؛ كما قال سبحانه وتعالى : (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا)

ومما يشبه هذا من بعض الوجوه : رواية بعضهم عن عمر أنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحدث هو وأبو بكر وكنت كالزنجي بينهما . وهذا من الإفك المختلق . ثم إنهم مع هذا يجعلون عمر الذي سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم وصديقه ، وهو أفضل الخلق بعد الصديق لم يفهم ذلك الكلام ، بل كان كالزنجي . ويدعون أنهم هم سمعوه وعرفوه ثم كل منهم يفسره بما يدعيه من الضلالات الكفرية التي يزعم أنها « علم الأسرار والحقائق » [ويريدون بذلك] إما الاتحاد وإما تعطيل الشرائع ونحو ذلك . مثل ما تدعي النصيرية .

والإسماعيلية ؛ والقرامطة والباطنية الثنوية ، والحاكمية وغيرهم ، من الضلالات المخالفة لدين الإسلام . وما ينسبونه إلى علي بن أبي طالب ؛ أو جعفر الصادق أو غيرهما من أهل البيت كالبطاقة والهفت والجدول والجفر وملحمة بن عنضب ، وغير ذلك من الأكاذيب المفتراة باتفاق جميع أهل المعرفة ، وكل هذا باطل .

فإنه لما كان لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم به اتصال النسب والقرابة ، وللأولياء الصالحين منهم ومن غيرهم به اتصال الموالاة والمتابعة ، صار كثير ممن يخالف دينه وشريعته وسنته يموه باطله ويزخرفه بما يفتريه على أهل بيته وأهل موالاته ومتابعته ، وصار كثير من الناس يغلو إما فى قوم من هؤلاء ، أو من هؤلاء ، حتى يتخذهم آلهة أو يقدم ما يضاف إليهم على شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته ، وحتى يخالف كتاب الله وسنة رسوله ، وما اتفق عليه السلف الطيب من أهل بيته ومن أهل الموالاة له والمتابعة ، وهذا كثير فى أهل الضلال .

فصـــــل

وأما تفضيل « أهل الصفة » على العشرة وغيرهم فخطأ وضلال ، بل خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ، كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب موقوفاً ومرفوعاً ، وكما دل على ذلك الكتاب والسنة . واتفق عليه سلف الأمة وأئمة العلم والسنة . وبعدهما عثمان وعلي وكذلك سائر أهل الشورى : مثل طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن ابن عوف ، وهؤلاء مع أبي عبيدة بن الجراح ـــ أمين هذه الأمة ـــ ومع سعيد بن زيد . هم العشرة المشهود لهم بالجنة .

قال الله عز وجل في كتابه : (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ) . ففضل الله السابقين قبل فتح الحديبيـــة إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم على التابعين بعدهم ، وقال الله تعالى :

(لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) وقال تعـــالى : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) فرضى الله سبحانه عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

وقد ثبت فى فضل البدريين ما تميزوا بــه على غــيرهم ، وهؤلاء الذين فضلهم الله ورسوله ، فمنهم من هو من أهل الصفة ، وأكثرهم لم يكونوا من أهل الصفة ، والعشرة لم يكن فيهم من هو من أهل الصفة إلا سعد بن أبي وقاص . فقد قيل : إنه أقام بالصفة مرة ، وأما أكابر المهاجرين والأنصار مثل الخلفاء الأربعة ، ومثل سعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير ، وعباد بن بشر ، وأبي أيوب الأنصاري ، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب ونحوهم ، فلم يكونوا من « أهل الصفة » بل عامة أهل الصفة إنمــا كانوا من فقراء المهاجرين ؛ لأن الأنصار كانوا في ديارهم . ولم يكن أحد ينذر لأهل الصفة ولا لغيرهم .

فصـــــل

وأما سماع المكاء والتصدية : وهو الاجتماع لسماع القصائد الربانية ، سواء كان بكف ، أو بقضيب ، أو بدف ، أو كان مع ذلك شبابة ، فهذا لم يفعله أحد من الصحابة ، لامن أهل الصفة ولا من غــيرهم ؛ بل ولا من التابعين ، بل القرون المفضلة التى قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : « خير القرون الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » لم يكن فيهم أحد يجتمع على هذا السماع ، لا فى الحجاز ولا فى الشام

ولا فى اليمن ، ولا العراق ولا مصر ، ولا خراسان ولا المغرب . وإنما كان السماع الذي يجتمعون عليه سماع القرآن ، وهو الذي كان الصحابة من أهل الصفة وغيرهم يجتمعون عليه ، فكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ ، والباقى يستمعون ، وقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أهل الصفة وفيهم قارئ يقرأ فجلس معهم » وكان عمر بن الخطاب يقول لأبى موسى : ياأبا موسى ! ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون . [وكان وجدهم على ذلك ، وكذلك إرادة قلوبهم] (١) وكل من نقل أنهم كان لهم حاد ينشد القصائد الربانية بصلاح القلوب ، أو أنهم لما أنشد بعض القصائد تواجدوا على ذلك . أو أنهم مزقوا ثيابهم ، أو أن قائلا أنشدهم :

قد لسعت حية الهوى كبدي
فلا طبيب لها ولا راقى
إلا الطبيب الذي شغفت به
فعنده رقيتى وترياقى

أو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال : « إن الفقراء يدخلون

---

(١) ما بين القوسين غير موجود فى المطبوعة .

الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم » أنشدوا شعراً وتواجدوا عليه ، فكل هذا وأمثاله إفك مفترى ، وكذب مختلق باتفاق أهل الاتفاق من أهل العلم والإيمان ، لا ينازع فى ذلك إلا جاهل ضال ، وإن كان قد ذكر فى بعض الكتب شيء من ذلك فكله كذب باتفاق أهل العلم والإيمان .

فصل

وأما قوله : (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ) فهى عامة فيمن تناوله هذا الوصف ؛ مثل الذين يصلون الفجر والعصر في جماعة ، فإنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، سواء كانوا من « أهل الصفة » أو غيرهم ، أمر الله نبيه بالصبر مع عباده الصالحين ؛ الذين يريدون وجهه ، وألا تعد عيناه عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا . وهذه الآية فى الكهف وهي سورة مكية . وكذلك الآية التى فى سورة الأنعام : (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) .

وقد روى أن هاتين الآيتين نزلتا في المؤمنين المستضعفين لما طلب المتكبرون أن يبعدهم النبي صلى الله عليه وسلم عنه فنهاه الله عن طرد من يريد وجه الله وإن كان مستضعفا ثم أمره بالصبر معهم، وكان ذلك قبل الهجرة إلى المدينة وقبل وجود الصفة ؛ لكن هي متناولة لكل من كان بهذا الوصف من أهل الصفة وغيرهم .

والمقصود بذلك أن يكون مع المؤمنين المتقين الذين هم أولياء الله وإن كانوا فقراء ضعفاء، ولا يتقدم أحد عند الله بسلطانه وماله ولا بذله وفقره، وإنما يتقدم عنده بالإيمان والعمل الصالح، فنهى الله نبيه أن يطيع أهل الرياسة والمال الذين يريدون إبعاد من كان ضعيفاً أو فقيراً وأمره ألا يطرد من كان منهم يريد وجهه، وأن يصبر نفسه معهم في الجماعة التى أمر فيها بالاجتماع بهم، كصلاة الفجر والعصر، ولا يطيع أمر الغافلين عن ذكر الله المتبعين لأهوائهم .

فصل

وأما الحديث المروى : « ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولي لله » فمن الأكاذيب ليس فى شيء من دواوين الإسلام، وكيف والجماعة [قد] يكونون كفاراً أو فساقا يموتون على ذلك ؟! .

فصـــــل

و « أولياء الله » هم (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ) كما ذكر الله تعالى فى كتابه . وهم « قسمان » : المقتصدون أصحاب اليمين والمقربون السابقون .

فولي الله ضد عدو الله ، قال الله تعالى : (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ) وقال تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟) — إلى قوله — (وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ) وقال تعالى : (لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ) وقال : (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) وقال : (أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) وقد روى البخاري فى صحيحه عن أبي هريرة رضي عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها ، فبى يسمع وبي يبصر وبى يبطش وبى يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

و « الولي » مشتق من الولاء وهو القرب كما أن العدو من العدو وهو البعد. فولي الله من والاه بالموافقة له فى محبوباته ومرضياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته. وقد ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الصحيح الصنفين المقتصدين من أصحاب اليمين، وهم المتقربون إلى الله بالواجبات، والسابقين المقربين وهم المتقربون إليه بالنوافل بعد الواجبات.

وذكر الله « الصنفين » في « سورة فاطر » و « الواقعة » و « الإنسان » و « المطففين » وأخبر أن الشراب الذي يروى به المقربون بشربهم إياه صرفا يمزج لأصحاب اليمين.

و « الولي المطلق » هو من مات على ذلك. فأما إن قام به الإيمان والتقوى وكان فى علم الله أنه يرتد عن ذلك، فهل يكون فى حال إيمانه وتقواه ولياً لله أو يقال لم يكن ولياً لله قط لعلم الله بعاقبته؟ هذا فيه قولان للعلماء. وكذلك عندهم الإيمان الذي يعقبه الكفر هل هو إيمان صحيح ثم يبطل بمنزلة ما يحبط من الأعمال بعد كماله، أو هو إيمان باطل بمنزلة من أفطر قبل غروب الشمس فى صيامه ومن أحدث قبل السلام فى صلاته. فيه أيضا قولان: للفقهاء والمتكلمين والصوفية.

والنزاع فى ذلك بين أهل السنة والحديث من أصحاب الإمام أحمد

وغيرهم وكذلك يوجد النزاع فيه بين أصحاب مالك والشافعي وغيرهم . لكن أكثر أصحاب أبي حنيفة لا يشترطون سلامـة العاقبـة ، وكثير من أصحاب مالك والشافعي وأحمد يشترط سلامة العاقبة ، وهو قول كثير من متكلمي أهل الحديث : كالأشعري ، ومن متكلمي الشيعة ويبنون عـلى هذا النزاع : إن ولي الله هل يصير عدوا لله وبالعكس ؟ ومن أحبـه الله ورضي عنه . هل أبغضه وسخط عليـه في وقت ما وبالعكس ؟ ومن أبغضه الله وسخط عليه هـل أحبه الله ورضى عنـه فى وقت ما على القولين ؟ .

و « التحقيق » هو الجمع بين القولين . فإن علم الله القديم الأزلي وما يتبعه من محبته ورضاه ، وبغضه وسخطه ، وولايته وعداوتـه لا يتغير . فمن علم الله منه أنه يوافى حين موته بالإيمان والتقوى فقـد تعلق بـه محبة الله وولايته ورضاه عنه أزلاً وأبداً ، وكذلك من علم الله منه أنه يوافى حين موته بالكفر فقد تعلق به بغض الله وعداوته ، وسخطه أزلاً وأبداً لكن مع ذلك فإن الله تعالى يبغض ما قام بالأول من كفر وفسوق قبل موته . وقد يقـال : إنه يبغضه ويمقته على ذلك ، كما ينهاه عن ذلك وهو سبحانه وتعالى يأمر بما فعله الثاني من الإيمان والتقوى ، ويحب ما يأمر به ويرضـاه ، وقد يقال إنه يواليه حينئذ على ذلك .

والدليل على ذلك : اتفاق الأئمة على أن من كان مؤمناً ثم ارتد

فإنه لا يحكم بأن إيمانه الأول كان فاسداً ، بمنزلة من أفسد الصلاة والصيام والحج قبل الإكمال ؛ وإنما يقال كما قال الله تعالى : (وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) وقال (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) وقال : (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ولو كان فاسداً فى نفسه لوجب الحكم بفساد أنكحته المتقدمة ، وتحريم ذبائحه ، وبطلان إرثه المتقدم ، وبطلان عباداته جميعها ، حتى لو كان قد حج عن غيره كان حجه باطلاً ، ولو صلى مدة بقوم ثم ارتد كان عليهم أن يعيدوا صلاتهم خلفه ، ولو شهد أو حكم ثم ارتد [لوجب] أن تفسد شهادته وحكمه ونحو ذلك . وكذلك أيضاً الكافر إذا تاب من كفره ، لو كان محبوباً لله ولياً له فى حال كفره ، لوجب أن يقضي بعدم إحكام ذلك الكفر ، وهذا كله خلاف ما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع .

والكلام فى هذه « المسألة » نظير الكلام فى الأرزاق والآجال وهي أيضاً مبنية على « قاعدة الصفات الفعلية » وهى قاعدة كبيرة .

وعلى هذا يخرج جواب السائل ، فمن قال : إن ولي الله لا يكون إلا من وافاه حين الموت بالإيمان والتقوى ، فالعلم بذلك أصعب عليه وعلى غيره . ومن قال : قد يكون ولياً لله من كان مؤمناً تقيا وإن لم تعلم عاقبته فالعلم به أسهل .

ومع هذا يمكن العلم بذلك للولي نفسه ولغيره ، ولـكنه قليل ولا يجوز لهم القطع على ذلك ، فمن ثبتت ولايته بالنص . وأنه من أهل الجنة كالعشرة وغيرهم فعامة أهل السنة يشهدون له بما شهد له به النص . وأما من شاع له لسان صدق فى الأمة بحيث اتفقت الأمة على الثناء عليه فهل يشهد له بذلك ؟ هذا فيه نزاع بين أهل السنة ، والأشبه أن يشهد له بذلك . هذا فى الأمر العام .

وأما « خواص الناس » فقد يعلمون عواقب أقوام بمـا كشف الله لهم ، لـكن هذا ليس ممن يجب التصديق العـام به ، فإن كثيراً ممن يظن به أنه حصل له هذا الـكشف يكون ظاناً في ذلك ظناً لا يغنى من الحق شيئاً ، وأهل المـكاشفات والمخاطبـات يصيبون تارة ؛ ويخطئون أخرى ؛ كأهل النظر والاستدلال فى موارد الاجتهاد ؛ ولهـذا وجب عليهم جميعهم أن يعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يزنوا مواجيدهم ومشاهدتهم وآراءهم ومعقولاتهم بكتاب الله وسنة رسوله ؛ ولا يكتفوا بمجرد ذلك ؛ فإن سيد المحدثين والمخاطبين الملهمين من هذه الأمة هو عمر بن الخطاب ؛ وقد كانت تقع له وقائع فيردها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أو صديقه التابـع له الآخذ عنـه الذي هو أكمل من المحدث الذي يحدثه قلبه عن ربه .

ولهذا وجب على جميع الخلق اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم

وطاعته فى جميع أموره الباطنة والظاهرة ، ولو كان أحد يأتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنة لكان مستغنياً عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى بعض دينه . وهذا من أقوال المارقين الذين يظنون أن من الناس من يكون مع الرسول كالخضر مع موسى ، ومن قال هذا فهو كافر .

وقد قال الله تعالى : (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ) فقد ضمن الله للرسول وللنبي أن ينسخ ما يلقى الشيطان فى أمنيته ، ولم يضمن ذلك للمحدث ؛ ولهذا كان فى الحرف الآخر الذي كان يقرأ به ابن عباس وغيره : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته)

ويحتمل والله أعلم أن [لا] يكون هذا الحرف متلواً ، حيث لم يضمن نسخ ما ألقى الشيطان [فى أمنية المحدث] ؛ فإن نسخ ما ألقى الشيطان ليس إلا للأنبياء والمرسلين ، إذ هم معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى أن يستقر فيه شيء من إلقاء الشيطان ، وغيرهم لا تجب عصمته من ذلك ، وإن كان من أولياء الله المتقين ، فليس من شرط أولياء الله المتقين ألا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأ مغفوراً لهم ؛ بل

ولا من شرطهم ترك الصغائر مطلقاً ، بل ولا من شرطهم ترك الكبائر أو الكفر الذي تعقبه التوبة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾
فقد وصفهم الله بأنهم هم المتقون . و « المتقون » هم أولياء الله ، ومع هذا فأخبر أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ، وهذا أمر متفق عليه بين أهل العلم والإيمان .

وإنما يخالف في ذلك الغالية من الرافضة وأشباه الرافضة من الغالية فى بعض المشايخ ، ومن يعتقدون أنه من الأولياء . فالرافضة تزعم أن « الإثني عشر » معصومون من الخطأ والذنب . ويرون هذا من أصول دينهم ، والغالية فى المشايخ قد يقولون : إن الولي محفوظ والنبي معصوم . وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه ؛ فحاله حال من يرى أن الشيخ والولي لا يخطئ ولا يذنب ؛ وقد بلغ الغلو بالطائفتين إلى أن يجعلوا بعض من غلوا فيه بمنزلة النبي وأفضل منه ، وإن زاد الأمر جعلوا له نوعاً من الإلهية ، وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهية للضلالات النصرانية . فإن فى النصارى من الغلو في المسيح والأحبار والرهبان ما ذمهم الله عليه فى القرآن ؛ وجعل ذلك عبرة لنا ؛ لئلا

نسلك سبيلهم ، ولهـذا قال سيد ولد آدم : « لا تطرونى كما أطـرت النصارى عيسى بن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ؛ ورسوله » .

فصـــــل

وأما « الفقراء » الذين ذكرهم الله فى كتابه فهم صنفان : مستحقو الصدقات ، ومستحقو الفىء .

أما مستحقو الصدقات فقد ذكرهم الله فى كتابـه فى قوله : (إِن تُبْـدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِـمَّا هِىَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُـقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) وفى قوله : (إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُـقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ) . وإذا ذكر في القرآن اسم « الفقير » وحده ، و «المسكين» وحده ــ كقوله : (إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ) ــ فهما شيء واحد ، وإذا ذكرا جميعاً فهما صنفان . والمقصود بهما أهل الحاجة . وهم الذين لا يجدون كفايتهم ، لا من مسألة ولا من كسب يقدرون عليـه ، فمن كان كذلك من المسلمين استحق الأخذ من الصدقات المفروضة ، والموقوفة والمنذورة ، والموصى بها ، وبين الفقهاء نزاع فى بعض فروع المسـألة معروف عند أهل العلم .

وضد هؤلاء « الأغنياء » الذين تحرم عليهـم الصدقة ، ثم هـم

« نوعان » : نوع تجب عليهم الزكاة ، وإن كانت الزكاة تجب على من قد تباح له عند جمهور العلماء .

ونوع لا تجب عليه الزكاة .

وكل منهما قد يكون له فضل عن نفقاته الواجبة ، وهم الذين قال الله فيهم : (وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ) . وقد لا يكون له فضل ، وهؤلاء الذين رزقهم قوت وكفاف هم أغنياء باعتبار غناهم عن الناس ، وهم فقراء باعتبار أنه ليس لهم فضول يتصدقون بها .

وإنما يسبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة بنصف يوم ، لعدم فضول الأموال التى يحاسبون على مخارجها ومصارفها ، فمن لم يكن له فضل كان من هؤلاء ، وإن لم يكن من أهل الزكاة ، ثم أرباب الفضول إن كانوا محسنين فى فضول أموالهم ، فقد يكونون بعد دخول الجنة أرفع درجة من كثير من الفقراء الذين سبقوهم ، كما تقدم أغنياء الأنبياء والصديقين من السابقين وغيرهم على الفقراء الذين دونهم . ومن هنا قال الفقراء : « ذهب أهل الدثور بالأجور » وقيل لما ساواهم الأغنياء في العبادات البدنية ، وامتازوا عنهم بالعبادات المالية : « ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ » فهذا هو « الفقير » فى عرف الكتاب والسنة .

وقد يكون الفقراء سابقين ، وقد يكونون مقتصدين ، وقد يكونون ظالمي أنفسهم كالأغنياء ، وفى كلا الطائفتين : المؤمن الصديق ، والمنافق الزنديق .

وأما المستأخرون فـ « الفقير » فى عرفهم عبارة عن السالك إلى الله تعالى ، كما هو « الصوفى » فى عرفهم أيضاً ، ثم منهم من يرجح مسمى « الصوفى » على مسمى « الفقير » لأنه عنده الذي قام بالباطن والظاهر ومنهم من يرجح مسمى الفقير لأنه عنده الذي قطع العلائق ، ولم يشتغل فى الظاهر بغير الأمور الواجبة ، وهذه منازعات لفظية اصطلاحية .

و « التحقيق » أن المراد المحمود بهذين الاسمين ، داخل فى مسمى الصديق ، والولي والصالح ، ونحو ذلك من الأسماء التى جاء بها الكتاب والسنة ، فمن حيث دخل في الأسماء النبوية ، يترتب عليه من الحكم ما جاءت به الرسالة ، وأما ما تميز به مما يعده صاحبه فضلا وليس بفضل ، أو مما يوالي عليه صاحبه غيره ، ونحو ذلك من الأمور التى يترتب عليها زيادة الدرجة فى الدين والدنيا ، فهي أمور مهدرة فى الشريعة إلا إذا جعلت من المباحات كالصناعات ، فهذا لا بأس به ، بشرط ألا يعتقد أن تلك المباحات من الأمور المستحبات . وأما ما يقترن بذلك من الأمور المكروهة فى دين الله : من أنواع البدع والفجور . فيجب النهي عنه كما جاءت به الشريعة .

وسئل

عن قوم يقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى باب « أهل الصفة » فاستأذن ، فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا محمد ، قالوا : ماله عندنا موضع الذي يقول : أنا . فرجع ثم استأذن ثانية ، وقال : أنا محمد مسكين ، فأذنوا له . فهل يجوز التكلم بهذا . أم هو كفر ؟

فأجاب : هذا الكلام من أعظم الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى « أهل الصفة » فإن « أهل الصفة » لم يكن لهم مكان يستأذن عليهم فيه ، إنما كانت الصفة فى شمالي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأوى إليها من لا أهل له من المؤمنين ، ولم يكن يقيم بها ناس معينون ، بل يذهب قوم ويجيء آخرون ، ولم يكن « أهل الصفة » خيار الصحابة ؛ بل كانوا من جملة الصحابة ؛ ولم يكن أحد من الصحابة يستخف بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكر . ومن فعل ذلك فهو كافر ، ومن اعتقد هذا بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . والله أعلم .

وسئل رحمه الله

عن قوم يروون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث لا سند لهم بها . فيقولون : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا من الله ، والمؤمنون مني يتسمون بالأهوية منه » فهل هذا صحيح أم لا ؟ ويقرأون بينهم أحاديث ، ويزعمون أن عمر رضى الله عنه قال : كان أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثان بحديث أبقى بينهما كأني زنجي ، لا أفقه . فهل يصح هذا أم لا ؟

ويتحدثون عن أصحاب الصفة بأحاديث كثيرة : منها أنهم يقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدهم على الإسلام من قبل أن يبعث فوجدهم على الطريق ، وإنهم لم يكونوا يغزون معه حقيقة . وإنه ألزمهم النبي صلى الله عليه وسلم مرة ، فلما فر المسلمون منهزمين ضربوا بسيوفهم فى عسكر النبي صلى الله عليه وسلم . وقالوا : نحن حزب الله الغالبون ، وزعموا أنهم لم يقتلوا إلا منافقين فى تلك المرة ، فهل يصح ذلك أم لا ؟

والمسؤول تعيين « أصحاب الصفة » كم هم من رجل ؟ ومن كانوا من

الصحابة رضي الله عنهم، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى لما عرج بنبيه صلى الله عليه وسلم أوحى الله إليه مائة ألف سر ، وأمره ألا يظهرها على أحد من البشر . فلما نزل إلى الأرض وجد أصحاب الصفة يتحدثون بها ، فقال : يارب ! إنى لم أظهر على هذا السر أحداً ، فأوحى الله إليه أنهم كانوا شهوداً بيني وبينك، فهل لهذه الأشياء صحة أم لا ؟

فأجاب . الحمد لله رب العالمين ، جميع هذه الأحاديث أكاذيب مختلقة ، ليتبوأ مفتريها مقعده من النار . لا خلاف بين جميع علماء المسلمين — أهل المعرفة وغيرهم — أنها مكذوبة مخلوقة ، ليس لشيء منها أصل ؛ بل من اعتقد صحة مجموع هذه الأحاديث فإنه كافر ؛ يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل . وليس لشيء من هذه الأحاديث أصل ألبتة . ولا توجد فى كتاب ؛ ولا رواها قط أحد ممن يعرف الله ورسوله .

فأما « الحديث الأول » قوله : « أنا من الله والمؤمنون مني » فلا يحفظ هذا اللفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي : « أنت مني وأنا منك » كما قال الله سبحانه : (بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٍ) أي أنتم نوع واحد . متفقون فى القصد والهدى ، كالروحين اللتين تتفقان فى صفاتهما ؛ وهي الجنود المجندة التى

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »

وأما أن يكون الخلق جزءاً من الخالق تعالى . فهذا كفر صريح يقوله أعداء الله النصارى ، ومن غلا من الرافضة ؛ وجهال المتصوفة ومن اعتقده فهو كافر . نعم ! للمؤمنين العارفين بالله المحبين له من مقامات القرب ؛ ومنازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة ، ولا يعرفه حق المعرفة إلا من أدركه وناله ؛ والرب رب . والعبد عبد ؛ ليس فى ذاته شيء من مخلوقاته ؛ ولا فى مخلوقاته شيء من ذاته ؛ وليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به ؛ أو بغيره من المخلوقات ولا اتحاده به .

وإن سمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ . فكثير منه مكذوب ، اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية ؛ الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية .

والذي يصح منه عن الشيوخ له معان صحيحة ؛ ومنه ما صدر عن بعضهم فى حال استيلاء حال عليه ؛ ألحقه تلك الساعة بالسكران الذي لا يميز ما يخرج منه من القول ، ثم إذا ثاب عليه عقله وتمييزه ينكر ذلك القول ؛ ويكفر من يقوله ؛ وما يخرج من القول في حال غيبة

عقل الإنسان لا يتخذه هو ولا غيره عقيدة ؛ ولا حكم له ؛ بل القلم مرفوع عن النائم والمجنون والمغمى عليه والسكران الذي سكر بغير سبب محرم ؛ مثل من يسقي الخمر وهو لا يعرفها أو أوجرها حتى سكر أو أطعم البنج وهو لا يعرفه ؛ فكذلك .

وقد يشاهد كثير من المؤمنين من جلال الله ، وعظمته ، وجماله أمورا عظيمة ، تصادف قلوباً رقيقة ، فتحدث غشيا وإغماء . ومنها ما يوجب الموت . ومنها ما يخل العقل . وإن كان الكاملون منهم لا يعتريهم هذا كما لا يعتري الناقصين عنهم ؛ لكن يعتريهم عند قوة الوارد على قلوبهم ، وضعف المحل المورود عليه ، فمن اغتر بما يقولونه أو يفعلونه فى تلك الحال كان ضالاً مضلاً .

وإنما « الأحوال الصحيحة » مثل ما دل عليه ما رواه البخاري فى صحيحه من قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها . فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبى يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن

قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه».

فانظر كيف قال فى تمام الحديث: «فبي يسمع، وبى يبصر، ولئن سألني، ولئن استعاذنى» فميز بين الرب وبين العبد، ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

وقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى قوله ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾

وقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ — إلى قوله — وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

وكذلك روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: يابن آدم! مرضت فلم تعدنى فيقول: رب! كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟! فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلوعدته لوجدتني عنده» وذكر فى الجوع والعري مثل ذلك. فانظر كيف عبر فى أول الحديث بلفظ

مرضت ثم فسره في تمامه : بأن عبدي فلاناً مرض فلوعدته لوجدتني عنده ، فميز بين الرب والعبد ، والعبد العارف بالله تتحد إرادته بإرادة الله ، بحيث لا يريد إلا ما يريده الله أمراً بـه ورضا ، ولا يحب إلا ما يحبـه الله ، ولا يبغض إلا ما يبغضـه الله ، ولا يلتفت إلى عـذل العاذلين ، ولوم اللائمين ، كما قال سبحانه : (فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ) .

والكلام فى مقامات العارفين طويل .

وإنما الغرض أن يتفطن المؤمن للفرق بين هؤلاء الزنادقة الذين ضاهوا النصارى ، وسلكوا سبيل أهل « الحلول ، والاتحاد » وكذبوا على الله ورسوله . وكذبوا الله ورسوله ، وبين العالمين بالله والمحبين له أولياء الله ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فإنه قـد يشتبه هؤلاء بهؤلاء ، كما اشتبه على كثير مـن الضالين حال مسيلمة الكذاب المتنبئ بمحمد بن عبد الله رسول الله حقـاً ، حتى صدقوا الكاذب ، وكذبوا الصادق . والله قد جعل على الحق آيات وعلامات وبراهـين ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وأما حديث عمر : أنه كان كالزنجي بين النبى صلى الله عليه وسلم

وبين أبي بكر » فكذب مختلق ، نعم ! كان أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولاهم به ، وأعلمهم بمراده لما يسألونه عنه فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بالكلام العربي الذي يفهمه الصحابة رضي الله عنهم ، ويزداد الصديق بفهم آخر يوافق ما فهموه ، ويزيد عليهم ولا يخالفه.
مثل ما في الصحيحين عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس فقال : « إن عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة . فاختار ذلك العبد ما عند الله . فبكى أبو بكر . وقال : بل نفديك بأنفسنا وأموالنا فجعل بعض الناس يعجب ويقول : عجباً لهذا الشيخ يبكي ، أن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير . وكان أبو بكر أعلمنا به ».

فالنبي صلى الله عليه وسلم ذكر عبداً مطلقاً ، وهذا كلام عربي لا لغز فيه ، ففهم الصديق لقوة معرفته بمقاصد النبي صلى الله عليه وسلم أنه هو العبد المخير ، ومعرفة أن المطلق هذا المعين خارج عن دلالة اللفظ ، لكن يوافقه ولا يخالفه ؛ ولهذا قال أبو سعيد : كان أبو بكر أعلمنا به .

ومن هذا أن الصديق ــ رضي الله عنه ــ لما عزم على قتال

ما نعي الزكاة قال له عمر : كيف تقاتل الناس ؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل النـاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » . فقـال أبو بكر . الزكاة من حقها ، والله ! لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ؛ والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صـلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها . فرجع عمر وغيره إلى قول أبي بكر . وكان هو أفهم لمعنى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنـه قال : « أمرت أن أقاتل النـاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام » فهذا النص الصريح موافق لفهم أبي بكر .

وكذلك قوله فى صلح الحديبية لعمر مثل ما كان النبي صـلى الله عليه وسلم ؛ قال له ، وأمثال ذلك كثير . فأما أن النبي صـلى الله عليه وسلم كان يتكلم بكلام لا يفهمه عمر وأمثاله ، بل يكون عنـدهم كـكلام الزنجي . فمـن اعتقد هـذا فهو جاهل ضال ، عليه مـن الله ما يستحقه .

وأما كون أهل الصفة كانوا قبل المبعث مهتدين . فعلى مـن قال

هذا : لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ؛ بل لا خلاف بين المسلمين أنهم كانوا جاهلين ؛ بل لا خلاف بين المسلمين أنهم كانوا كافرين جاهلين بالله وبدينه ؛ وإنما هداهم الله بكتابه ؛ وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن بين أهل الصفة وسائر الصحابة فرق فى الكفر والضلالة قبل إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد كان بعد الإسلام كثير ممن لم يكن من « أهل الصفة » كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أعلم بالله ؛ وأعظم يقيناً من عامة أهل الصفة .

وأما ما ذكر من تخلفهم عنه فى الجهاد فقول جاهل ضال ؛ بل هم الذين كانوا أعظم الناس قتالاً وجهاداً ؛ كما وصفهم القرآن في قوله : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وقال في صفتهم : (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) ولقد قتل منهم فى يوم واحد يوم بئر معونة سبعون ؛ حتى وجد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم موجدة ، وقنت شهراً يدعو على الذين قتلوهم ؛ وأخبر عنهم : « أنهم بهم تتقى المكاره ؛ وتسد بهم الثغور ؛ وأنهم أول الناس ورودا على الحوض ؛ وأنهم الشعث رؤوساً . الدنس ثياباً ؛ الذين لا ينكحون المتنعمات ؛ ولا تفتح لهم أبواب الملوك » .

وأما « عددهم » فقد جمع أبو عبد الرحمن السلمى تاريخهم : وهم نحو من ستمائة ، أو سبعمائة ، أو نحو ذلك . ولم يكونوا مجتمعين فى وقت واحد ، بل كان فى شمال المسجد صفة يأوي إليها فقراء المهاجرين ، فمن تأهل منهم ، أو سافر ، أو خرج غازيا خرج منها ، وقد كان يكون في الوقت الواحد فيها السبعون ، أو أقل ، أو أكثر ومنهم : سعد بن أبي وقاص ، أحد العشرة . وأبو هريرة ، وخبيب ، وسلمان وغيرهم .

وأما ماذكر من أنهم عرفوا ما أوحاه الله إلى نبيه ليلة المعراج فكذب ، ملعون قائله . وكيف يكون ذلك والمعراج كان بمكة قبل الهجرة ؟! وأهل الصفة إنما كانوا بالمدينة بعد الهجرة ، وبناء مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة : الطيبة وهذا كله واضح عند من عرف الله ورسوله ، وكان مسلما حنيفاً ، أو كان عالما بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيرة أصحابه معه .

وإنما يقع في هذه الجهالات أقوام نقص إيمانهم وقل علمهم ، واستكبرت أنفسهم ، حتى صاروا بمنزلة فرعون ، وصاروا أسوأ حالا من النصارى .

والله يتوب علينا وعليهم ، وعلى سائر إخواننا المسلمين ، ويهدينا وإياهم صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم . غير المغضوب عليهم . ولا الضالين . والله تعالى أعلم .

وسئل

عن « الفتوة » المصطلح عليها إلخ ..

فأجاب ــ رضي الله عنه ــ قائلا : أما ما ذكره من « الفتوة » التى يلبس فيها الرجل لغيره سراويل ، ويسقيه ماء وملحاً ؛ فهـذا لا أصل له . ولم يفعلها أحد من السلف لا عـلي ولا غـيره . والإسناد الذي يذكرونه فى « الفتوة » إلى أمـير المومنين : عـلي بن أبي طالب ، من طريقة الخليفة الناصر وغيره ، إسناد مظلم ، عامة رجاله مجاهيل لايعرفون وليس لهم ذكر عند أهل العلم .

وقد ذكر أن أصل ذلك : أنه وضع سراويل عند قبر علي فأصبح مسدوداً ، وهذا يجري عنـد غـير عـلي ، كما يجري أمثال ذلك من الأمور الـتى يظن أنها كرامـة ، فى الكنائس وغيرهـا ، مثل دخول مصروع إليها فيبرأ بنذر يجعل للـكنيسة ، ونحـو ذلك . وهـذا إذا لم يكن كذبا فإنه من فعل الشياطين . كما يفعل مثل ذلك عنـد الأوثان ، وأنا أعرف من ذلك وقائع متعددة .

و (المقصود هنا) أن سراويل الفتوة لا أصل له عن علي ولا غيره من السلف ، وما يشترطه بعضهم من الشروط ، إن كان مما أمر الله به ورسوله ، فإنه يفعل لأن الله أمر به ورسوله ، وما نهى عنه مثل التعصب لشخص على شخص ، والإعانة على الإثم والعدوان . فهو مما ينهى عنه ، ولو شرطوه .

ولفظ « الفتى » فى اللغة هو الشاب . كما ذكر ذلك أهل اللغة . ومنه قوله تعالى : (وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ) وقوله : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ) (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ) . وقد فتى يفتى فهو فتى ، أي بين الفتا ، والأفتا من الدواب خلاف المسان ، وقد يعبر بالفتى عن المملوك مطلقاً . كما قال تعالى : (مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ) .

ولما كان الشاب ألين عريكة من الشيخ صار فى طبعه من السخاء والكرم مالا يوجد فى الشيوخ . فصاروا يعبرون بلفظ الفتى عن السخي الكريم . يقال : هو فتى بين الفتوة وقد يفتى . ويفاتى . والجمع فتيان وفتية .

واستعمال لفظ الفتى بمعنى المتصف بمكارم الأخلاق موجود فى كلام كثير من المشايخ ، وقد يظن أن لفظ القرآن يدل على هذا . ومنه قول بعض الشيوخ : طريقنا تفتى وليس تنصر ، يعنى هو استعمال مكارم

الأخلاق ؛ ليس هو النسك اليابس . ومنه قول أبي إسماعيل الأنصاري : الفتوة أن تقرب من يقصدك ، وتكرم من يؤذيك ، وتحسن إلى من يسيء إليك ، سماحة لا كظما ، وموادة لا مصابرة .

ونقل عن أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى . كما قال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ) فمن دعا الى ما دعا إليه الله ورسوله من مكارم الأخلاق كان محسناً ، سواء سمى ذلك فتوة أو لم يسمه ، ومن أحدث فى دين الله ما ليس منه فهو رد .

والغالب أنهم يدخلون فى الفتوة أموراً ينهى عنها فينهون عن ذلك ، ويؤمرون بما أمر الله به ورسوله ، كما ينهون عن الإلباس ، والإسقاء . وإسناد ذلك إلى علي ـ رضى الله عنه ـ وأمثال ذلك .

سئل الشيخ الإمام العالم العلامة

إمام الوقت ، فريد الدهر ، جوهر العلم ، لب الإيمان ، قطب الزمان مفتى الفرق ، شيخ الإسلام ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام شهاب الدين عبد الحليم بن الشيخ الإمام العلامة مؤيد السنة مجد الدين عبد السلام بن تيمية الحرانى . — رضي الله عنه — ونفع به آمين .

فى جماعة يجتمعون فى مجلس ، ويلبسون لشخص منهم لباس « الفتوة » ويديرون بينهم فى مجلسهم شربة فيها ملح وماء يشربونها ويزعمون أن هذا من الدين ، ويذكرون فى مجلسهم ألفاظاً لا تليق بالعقل والدين .

فمنها أنهم يقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألبس علي ابن أبى طالب — رضي الله تعالى عنه — لباس الفتوة ، ثم أمره أن يلبس من شاء ، ويقولون : إن اللباس أنزل على النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ فى صندوق ، ويستدلون عليه بقوله تعالى : (يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ) الآية — فهل هو كما زعموا ؟ أم

كذب مختلق ؟ وهل هو من الدين أم لا ؟ وإذا لم يكن من الدين فما يجب على من يفعل ذلك أو يعين عليه ؟ ومنهم من ينسب ذلك إلى الخليفة الناصر لدين الله . الى عبد الجبار ويزعم أن ذلك من الدين ؛ فهل لذلك أصل أم لا ؟

وهل الأسماء التى يسمون بها بعضهم بعضاً من اسم الفتوة ، ورؤوس الأحزاب والزعماء فهل لهذا أصل أم لا ؟ ويسمون المجلس الذي يجتمعون فيه « دسكرة » ويقوم للقوم نقيب إلى الشخص الذي يلبسونه فينزعه اللباس الذي عليه بيده ، ويلبسه اللباس الذي يزعمون أنه لباس الفتوة بيده ، فهل هذا جائز . أم لا ؟ وإذا قيل : لا يجوز فعل ذلك ولا الإعانة عليه ، فهل يجب على ولي الأمر منعهم من ذلك ؟

وهل للفتوة أصل فى الشريعة أم لا ؟ وإذا قيل : لا أصل لها فى الشريعة فهل يجب على غير ولي الأمر أن ينكر عليهم ، ويمنعهم من ذلك أم لا ؟ مع تمكنه من الإنكار ، وهل أحد من الصحابة ـ رضي الله تعالى عنهم ، أو التابعين ، أو من بعدهم من أهل العلم فعل هذه الفتوة المذكورة أو أمر بها أم لا ؟

وهل خلق النبي صلى الله عليه وسلم من النور ؟ أم خلق من الأربع عناصر ؟ أم من غير ذلك ؟ وهل الحديث الذي يذكره بعض الناس : « لولاك ما خلق الله عرشاً . ولا كرسياً ، ولا أرضاً ، ولا سماء ،

ولا شمساً ، ولا قمراً . ولا غير ذلك » صحيح هو أم لا ؟

وهل « الأخوة » التى يؤاخيها المشايخ بين الفقراء فى السماع وغيره يجوز فعلها فى السماع ونحوه أم لا ؟ وهل آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ؟ أم بين كل مهاجري وأنصاري ؟ وهل آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ أم لا ؟ بينوا لنا ذلك بالتعليل والحجة المبينة ، وابسطوا لنا الجواب فى ذلك بسطا شافياً مأجورين . أثابكم الله تعالى .

فأجاب :

الحمد لله . أما ما ذكر من إلباس لباس « الفتوة » السراويل أو غيره ، وإسقاء الملح والماء فهذا باطل ، لا أصل له ، ولم يفعل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد من أصحابه . لا علي بن أبي طالب ولا غيره ، ولا من التابعين لهم بإحسان .

والإسناد الذي يذكرونه من طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى ثمامة ، فهو إسناد لا تقوم به حجة ، وفيه من لا يعرف ، ولا يجوز لمسلم أن ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذا الإسناد المجهول

الرجال أمراً من الأمور التى لا تعرف عنه ، فكيف إذا نسب إليه ما يعلم أنه كذب وافتراء عليه ؟! فإن العالمين بسنته وأحواله متفقون على أن هذا من الكذب المختلق عليه وعلى علي بن أبى طالب رضي الله تعالى عنه ، وما ذكروه من نزول هذا اللباس فى صندوق هو من أظهر الكذب ، باتفاق العارفين بسنته .

و« اللباس الذي يواري السوءة » هو كل ماستر العورة من جميع أصناف اللباس المباح . أنزل الله تعالى هذه الآية لما كان المشركون يطوفون بالبيت عراة ، ويقولون : ثياب عصينا الله فيها لا نطوف فيها فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأنزل قوله : (خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) .

والكذب فى هذا أظهر من الكذب فيما ذكر من لباس الخرقة ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تواجد حتى سقطت البردة عن ردائه ، وأنه فرق الخرق على أصحابه ، وأن جبريل أتاه وقال له : إن ربك يطلب نصيبه من زيق الفقر وأنه علق ذلك بالعرش . فهذا أيضاً كذب باتفاق أهل المعرفة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجتمع هو وأصحابه على سماع كف ، ولا سماع دفوف وشبابات ، ولا رقص ولا سقط عنه ثوب من ثيابه فى ذلك ، ولا قسمه على أصحابه ، وكل ما يروى من ذلك فهو كذب مختلق باتفاق أهل المعرفة بسنته .

فصـــــل

والشروط التى تشترطها شيوخ « الفتوة » ما كان منها مما أمر الله به ورسوله كصدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم ونصر المظلوم، وصلة الأرحام والوفاء بالعهـد . أو كانت مستحبة : كالعفو عن الظالم واحتمال الأذى، وبذل المعروف الذي يحبـه الله ورسوله وأن يجتمعوا على السنة، ويفارق أحدهما الآخر إذا كان عـلى بدعة . ونحو ذلك . فهذه يؤمن بهـا كل مسـلم سواء شرطهـا شيوخ الفتوة أو لم يشرطوها، وما كان منهـا مما نهى الله عنه ورسوله : مثل التحالف الذي يكون بـين أهل الجاهلية، أن كلا منهـما يصادق صديق الآخر فى الحق والباطل، ويعادي عدوه فى الحق والباطل، وينصره على كل من يعاديـه سواء كان الحق معه أو كان مع خصمه، فهذه شروط تحلل الحرام وتحرم الحلال، وهي شروط ليست فى كتاب الله .

وفي السنن عنه أنه قال : « المسلمون عنـد شروطهم : إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا » وكل ما كان من الشروط التى بين القبائل والملوك والشيوخ والأحلاف وغير ذلك فإنها عـلى هـذا الحكم باتفاق علماء المسلمين، ما كان من الأمر المشروط الذي قد أمر الله به ورسوله

فإنه يؤمر به كما أمر الله به ورسوله . وإن كان مما نهى الله عنه ورسوله فإنه ينهى عنه ، كما نهى الله عنه ورسوله ، وليس لبني آدم أن يتعاهدوا ولا يتعاقدوا ولا يتحالفوا ولا يتشارطوا على خلاف ما أمر الله به ورسوله ؛ بل على كل منهم أن يوفوا بالعقود والعهود التى عهدها الله إلى بني آدم كما قال الله تعالى : (وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) .

وكذلك ما يعقده المرء على نفسه كعقد النـذر أو يعقده الاثنان : كعقد البيع والإجارة ، والهبة وغيرها . أو ما يكون تارة من واحد وتارة من اثنين : كعقد الوقف والوصية ؛ فإنه فى جميع هذه العقود متى اشترط العاقد شيئاً مما نهى الله عنه ورسوله كان شرطه باطلا . وفى الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » . والعقود المخالفة لما أمر الله به ورسوله هي من جنس دين الجاهلية ، وهي شعبة من دين المشركين وأهل الكتاب الذين عقدوا عقوداً أمروا فيها بما نهى الله عنه ورسوله ، ونهوا فيها عما أمر الله به ورسوله .

فهذا أصل عظيم يجب على كل مسلم أن يتجنبه .

فصـــــل

وأما لفظ « الفتى » فمعناه في اللغة الحدث كقوله تعالى : (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ) وقوله تعالى : (قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ) ومنه قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ) ؛ لكن لما كانت أخلاق الأحداث اللين صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ « الفتوة » عن مكارم الأخلاق . كقول بعضهم : طريقنا تفتى وليس تنصر . وقول بعضهم. «الفتوة» أن تقرب من يقصيك، وتكرم من يؤذيك وتحسن إلى [من][1] يسيء إليك . سماحة لا كظما، ومودة لا مضارة . وقول بعضهم : « الفتوة » ترك ما تهوى لما تخشى . وأمثال هذه الكلمات التى توصف فيها الفتوة بصفات محمودة محبوبة ، سواء سميت فتوة أو لم تسم ، وهي لم تستحق المدح فى الكتاب والسنة إلا لدخولها فيما حمده الله ورسوله من الأسماء . كلفظ الإحسان والرحمة ، والعفو ، والصفح ، والحلم ، وكظم الغيظ ، والبر والصدقة ، والزكاة والخير . ونحو ذلك من الأسماء الحسنة التى تتضمن هذه المعانى ، فكل اسم علق الله به المدح والثواب في الكتاب والسنة كان أهله ممدوحين ، وكل اسم علق به الذم والعقاب في الكتاب والسنة كان أهله مذمومين ، كلفظ الكذب ، والخيانة ،

---

(١) أضيفت حسب مفهوم السياق .

والفجور ، والظلم والفاحشة ونحو ذلك .

وأما لفظ « الزعيم » فإنه مثل لفظ الكفيل والقبيل والضمين ، قال تعالى : (وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ) فمن تكفل بأمر طائفة فإنه يقال هو زعيم ؛ فإن كان قد تكفل بخير كان محموداً على ذلك ، وإن كان شراً كان مذموما على ذلك .

وأما « رأس الحزب » فإنه رأس الطائفة التى تتحزب ، أي تصير حزبا ، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . وإن كانوا قد زادوا فى ذلك ونقصوا مثل التعصب لمن دخل فى حزبهم بالحق والباطل ، والإعراض عمن لم يدخل فى حزبهم ، سواء كان على الحق والباطل ، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله ، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف ، ونهيا عن التفرقة والاختلاف ، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى ، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وفى الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين

أصابعه . وفى الصحيح عنه أنه قال : « المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله » وفي الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنـه قال : « انصر أخاك ظالمـا أو مظلوماً » قيل : يارسول الله ! أنصره مظلوماً ، فكيف أنصره ظالمـا ؟ ! قال : « تمنعه من الظلم ؛ فذلك نصرك إياه » . وفى الصحيح عنه أنه قال : « خمس تجب للمسلم على المسلم : يسلم عليه إذا لقيه ؛ ويعوده إذا مرض ، ويشمتـه إذا عطس ؛ ويجيبـه إذا دعاه . ويشيعه إذا مات » . وفى الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « والذي نفسي بيـده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه »

فهذه الأحاديث وأمثالها فيها أمر الله ورسوله بمـا أمر به من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تبـاغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا » . وفي الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « إن الله يرضى لـكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ؛ وأن تنـاصحوا من ولاه الله أمركم »

وفى السنن عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « ألا أنبئـكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقـة والأمر بالمعروف والنهي عـن المنكر ؟ » قالوا : بلى يارسول الله ! قال : « صلاح ذات البـين فإن

فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر . ولكن تحلق الدين » فهذه الأمور مما نهى الله ورسوله عنها .

وأما لفظ « الدسكرة » فليست من الألفاظ التى لها أصل فى الشريعة فيتعلق بها حمد أو ذم ؛ ولكن هى في عرف الناس يعبر بها عن المجامع . كما فى حديث هرقل : أنه جمع الروم فى دسكرة ؛ ويقال للمجتمعين على شرب الخمر : إنهم فى دسكرة ؛ فلا يتعلق بهذا اللفظ حمد ولا ذم ؛ وهو إلى الذم أقرب ؛ لأن الغالب في عرف الناس أنهم يسمون بذلك الاجتماع على الفواحش والخمر والغناء .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على كل مسلم ؛ لكنه من فروض الكفايات ؛ فإن قام بهما من يسقط به الفرض من ولاة الأمر ؛ أو غيرهم . والأوجب على غيرهم أن يقوم من ذلك بما يقدر عليه .

فصل

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم خلق مما يخلق منه البشر ؛ ولم يخلق أحد من البشر من نور ؛ بل قد ثبت في الصحيح عن النبي

صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « إن الله خلق الملائكة من نور ؛ وخلق إبليس من مارج من نار ؛ وخلق آدم مما وصف لكم » وليس تفضيل بعض المخلوقات على بعض باعتبار ما خلقت منه فقط ؛ بل قد يخلق المؤمن من كافر ؛ والكافر من مؤمن ؛ كابن نوح منه وكإبراهيم من آزر ؛ وآدم خلقه الله من طين ؛ فلما سواه ؛ ونفخ فيه من روحه ؛ وأسجد له الملائكة ؛ وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء وبأن خلقه بيديه ؛ وبغير ذلك . فهو وصالحوا ذريته أفضل من الملائكة ؛ وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين ؛ وهؤلاء من نور .

وهذه « مسألة كبيرة » مبسوطة فى غير هذا الموضع ؛ فإن فضل بني آدم هو بأسباب يطول شرحها هنا . وإنما يظهر فضلهم إذا دخلوا دار القرار : (وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ) . والآدمي خلق من نطفة ؛ ثم من مضغة ؛ ثم من علقة ، ثم انتقل من صغر إلى كبر ، ثم من دار إلى دار . فلا يظهر فضله وهو فى ابتداء أحواله ؛ وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله ؛ بخلاف الملك الذي تشابه أول أمره وآخره . ومن هنا غلط من فضل الملائكة على الأنبياء حيث نظر إلى أحوال الأنبياء . وهم فى أثناء الأحوال ؛ قبل أن يصلوا إلى ما وعدوا به فى الدار الآخرة من نهايات الكمال .

وقد ظهر فضل نبينا على الملائكة ليلة المعراج لما صار بمستوى يسمع فيه صريف الأقلام ؛ وعلا على مقامات الملائكة ؛ والله تعالى أظهر من عظيم قدرته وعجيب حكمته من صالحي الآدميين من الأنبياء والأولياء ما لم يظهر مثله من الملائكة ، حيث جمع فيهم ما تفرق فى المخلوقات . فخلق بدنه من الأرض ، وروحه من الملأ الأعلى ، ولهذا يقال : هو العالم الصغير ، وهو نسخة العالم الكبير .

ومحمد سيد ولد آدم . وأفضل الخلق . وأكرمهم عليه ، ومن هنا قال من قال : إن الله خلق من أجله العالم ، أو إنه لو لا هو لما خلق عرشاً ، ولا كرسياً ، ولا سماء ولا أرضاً ولا شمسا ولا قمراً . لكن ليس هذا حديثا عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا صحيحا ولا ضعيفاً ، ولم ينقله أحد من أهل العلم بالحديث . عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ بل ولا يعرف عن الصحابة ، بل هو كلام لا يدرى قائله . ويمكن أن يفسر بوجه صحيح كقوله : (سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ) وقوله : (وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ) وأمثال ذلك من الآيات التى يبين فيها أنه خلق المخلوقات لبني آدم ، ومعلوم أن لله فيها حكماً عظيمة غير ذلك ،

وأعظم من ذلك ، ولكن يبين لبني آدم ما فيها من المنفعة ، وما أسبغ عليهم من النعمة .

فإذا قيل : فعل كذا لكذا لم يقتض أن لا يكون فيه حكمة أخرى . وكذلك قول القائل : لو لا كذا ما خلق كذا ، لا يقتضي أن لا يكون فيه حكم أخرى عظيمة ، بل يقتضي إذا كان أفضل صالحي بني آدم محمد ، وكانت خلقته غاية مطلوبة ، وحكمة بالغة مقصودة [أعظم] من غيره ، صار تمام الخلق ، ونهاية الكمال ، حصل بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم (١) .

والله خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، وكان آخر الخلق يوم الجمعة ، وفيه خلق آدم وهو آخر ما خلق ، خلق يوم الجمعة بعد العصر فى آخر يوم الجمعة . وسيد ولد آدم هو محمد ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ آدم فمن دونه تحت لوائه ـ قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « إنى عند الله لمكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته » أي كتبت نبوتي وأظهرت لما خاق آدم قبل نفخ الروح فيه كما يكتب الله رزق العبد وأجله وعمله وشقي أو سعيد إذا خلق الجنين قبل نفخ الروح فيه . فإذا كان الإنسان هو خاتم المخلوقات وآخرها

---

(١) كان بالأصل شيء من التحريف .

وهو الجامع لما فيها ، وفاضله هو فاضل المخلوقات مطلقاً ، ومحمد إنسان هذا العين ؛ وقطب هذه الرحى ، وأقسام هذا الجمع كان كأنها غاية الغايات فى المخلوقات ، فما ينكر أن يقال : إنه لأجله خلقت جميعها ، وإنه لولاه لما خلقت ، فإذا فسر هذا الكلام ونحوه بما يدل عليه الكتاب والسنة قبل ذلك .

وأما إذا حصل فى ذلك غلو من جنس غلو النصارى بإشراك بعض المخلوقات فى شيء من الربوبية ، كان ذلك مردوداً غير مقبول ؛ فقد صح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » وقد قال تعالى : (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ)

والله قد جعل له حقاً لا يشركه فيه مخلوق فلا تصلح العبادة إلا له ، ولا الدعاء إلا له ، ولا التوكل إلا عليه ، ولا الرغبة إلا إليه ، ولا الرهبة إلا منه ، ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه ، ولا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، ولا حول ولا قوة إلا به (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) (مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ

عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ) . (إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا)

وقال تعالى : (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ) فجعل الطاعة لله وللرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده ، وكذلك فى قوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ) فالإيتاء لله والرسول . وأما التوكل فعلى الله وحده ، والرغبة إلى الله وحده .

فصل

وأما « المؤاخاة » فإن النبى صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين والأنصار ، لما قدم المدينة ، كما آخى بين سلمان الفارسي وبين أبي الدرداء ، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة ، حتى أنزل الله تعالى : (وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ) فصاروا يتوارثون بالقرابة . وفى ذلك أنزل الله تعالى : (وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ) وهذا هو المحالفة . واختلف العلماء هل التوارث بمثل ذلك عند عدم القرابة والولاء محكم أو منسوخ ؟ على قولين :

(أحـدهما) : أن ذلك منسوخ ، وهو مذهب مالك والشـافعي وأحمد فى أشهر الروايتين عنه ، ولما ثبت فى صحيـح مسلم عنه أنه قال : « لا حلف فى الإسلام ، وما كان مـن حلف فى الجاهليـة فـلم يزده الإسلام إلا شدة »

و (الثاني) أن ذلك محكم وهو مذهب أبى حنيفـة وأحمـد فى الرواية الأخرى عنه .

وأما « المؤاخاة » بين المهـاجرين كما يقـال : إنه آخى بين أبي بكر وعمر ، وإنه آخى علياً ونحو ذلك ، فهذا كله باطل ، وإن كان بعض النـاس ذكر أنه فعل بمكة ، وبعضهم ذكر أنه فعل بالمدينـة ، وذلك نقل ضعيف : إما منقطع ، وإما بإسناد ضعيف . والذي فى الصحيح هو ما تقدم ، ومن تدبر الأحاديث الصحيحة ، والسيرة النبوية الثابتة ، تيقن أن ذلك كذب .

وأما عقد « الأخوة » بين الناس فى زماننا ، فإن كان المقصود منها التزام الأخوة الإيمانية التى أثبتها الله بين المؤمنين بقوله : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) وقول النبي صـلى الله تعالى عليه وسـلم : « المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه » وقوله : « لا يبع أحدكم عـلى بيع أخيه ، ولا يستام على سوم أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه » وقوله : « والذي

نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه » ونحو ذلك من الحقوق الإيمانية التى تجب للمؤمن على المؤمن . فهذه الحقوق واجبة بنفس الإيمان ، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله . وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن ، وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة ، وإن كان المقصود منها إثبات حكم خاص كما كان بين المهاجرين والأنصار ، فهذه فيها للعلماء قولان ، بناء على أن ذلك منسوخ أم لا ؟ فمن قال : إنه منسوخ — كمالك والشافعي وأحمد فى المشهور عنه . قال : إن ذلك غير مشروع . ومن قال : إنه لم ينسخ — كما قال : أبو حنيفة وأحمد فى الرواية الأخرى — قال إنه مشروع .

وأما « الشروط » التى يلتزمها كثير من الناس فى « السماع » وغيره ، مثل أن يقول : على المشاركة فى الحسنات ، وأينا خلص يوم القيامة خلص صاحبه ، ونحو ذلك . فهذه كلها شروط باطلة ؛ فإن الأمر يومئذ لله ، هو : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا) وكما قال تعالى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) .

وكذلك يشترطون شروطاً من الأمور الدنيوية ولا يوفون بها ،

وما أُعلم أحداً ممن دخل فى هذه الشروط الزائدة على ما شرطه الله ورسوله وفى بها ؛ بل هو كلام يقولونه عند غلبة الحال ؛ لا حقيقة له فى المـآل. وأسعد النـاس من قام بما أوجبه الله ورسوله ، فضلاً عن أن يوجب على نفسه زيادات على ذلك .

وهذه المسائل قد بسطت فى غير هذا الموضع . والله أعلم .

وقال رحمه الله

فصل

والشيخ « عدي بن مسافر بن صخر » كان رجلا صالحاً ، وله أتباع صالحون ، ومن أصحابه من فيه غلو عظيم ، يبلغ بهم غليظ الكفر ، وقد رأيت جزءاً أتى بيد أتباعه فيه نسبه وسلسلة طريقه ، فرأيت كليهما مضطربا .

أما « النسب » فقالوا : عدى بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن أحمد بن مروان بن الحكم بن مروان الأموي . وهذا كذب قطعاً فإنه يمتنع أن يكون بينه وبين مروان بن الحكم خمسة أنفس .

وأما « الخرقة » فقالوا : دخل على الشيخ العارف عقيل المنبجي وألبسه الخرقة بيده ، والشيخ عقيل لبس الخرقة من يد الشيخ مسلمة المردجي ، والشيخ مسلمة لبس الخرقة من يد الشيخ أبى سعيد الخراز .

قلت : هذا كذب واضح ، فإن مسلمة لم يدرك أبا سعيد ، بل بينهما أكثر من مائة سنة ، بل قريباً من مائتي سنة .

ثم قالوا : والشيخ أبو سعيد الخراز لبس الخرقة من يد الشيخ أبي محمد العنسي والعنسي لبسها من يد الشيخ علي بن عليل الرملي ، والشيخ علي بن عليل لبسها من يد والده الشيخ عليل الرملي ، والشيخ عليل لبس الخرقة من يد الشيخ عمار السعدي ، والشيخ عمار السعدي لبس الخرقة من يد الشيخ يوسف الغساني ، والشيخ يوسف الغسانى لبس الخرقة من يد والده الشيخ يعقوب الغساني ، والشيخ يعقوب الغسانى لبس الخرقة من يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يوم خطب الناس بالجابية ، وعمر بن الخطاب لبس الخرقة من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الخرقة من يد جبرائيل ، وجبرائيل من الله تعالى .

قلت : لبس عمر للخرقة وإلباسه ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم للخرقة وإلباسه يعرف كل من له أدنى معرفة أنه كذب . وأما الإسناد المذكور ما بين أبي سعيد إلى عمر فمجهول ، وما أعرف لهؤلاء ذكراً لا فى كتب الزهد والرقائق ، ولا فى كتب الحديث والعلم ، ومن الممكن أن يكون بعض هؤلاء كانوا شيوخا ، وقد ركب هذا الإسناد عليهم من لم يعرف أزمانهم والله أعلم بحقيقة أمرهم .

ثم ذكروا بعد هذا « عقيدته » وقالوا : هـذه عقيدة السنة من إملاء الشيخ عدى . و « العقيـدة » من (كتاب التبصرة) للشيخ أبي الفرج المقدسي . بألفاظه ، نقل المسطرة لكن حذفوا منها تسمية المخالفين وأقوالهم ، وذكروا ماذكره من الأدلة ، وزادوا فيها من ذكر يزيد وغيره أشياء لم يقلها الشيخ أبو الفرج وفيها أحاديث موضوعة ، وقال فى آخرها فهذا اعتقادنا ، وما نقلناه عن مشايخنا نقله جبرائيل عن الله ، ونقله النبي صلى الله عليه وسلم عن جبرائيل ، ونقله الصحابة عن النبي صـلى الله عليـه وسـلم ، وسمى من سمـاه اللالـكائى فى أول كتـاب (شرح أصول السنة) كما ذكروا أن هذا أملاه الشيخ عدى من حفظه . وأمر بكتابته ، ورووا ذلك بالسماع من الشيخ حسن بن عـدى بن أبي البركات بسماعه من والده عدى بن أبي البركات بن صخر بن مسافر وهو عدى [1] .

---

(١) خرم بالأصل في آخر كلمة .

وسئل

هل تخلل أبو بكر بالعباءة ؟ وتخللت الملائكة لأجله بالعباءة أم لا ؟ ؟ .

فأجاب :

الحمد لله ، لم يتخلل أبو بكر بالعباءة ، ولا الملائكة تخللوا بالعباءة ، وذلك كذب . والله أعلم .

وسئل

عن معنى قول من يقول : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » فهل هي من جهة المعاصى ؟ أو من جهة جمع المال ؟ ؟.

فأجاب : ليس هـذا محفوظاً عن النبي صلى الله عليـه وسلم ؛ ولكن هو معروف عن جندب بن عبد الله البجلي من الصحابة ، ويذكر عن المسيح بن مريم عليه السلام ، وأكثر مايغلو فى هذا اللفظ المتفلسفة ، ومن حذا حذوهم من الصوفية على أصلهم ، فى تعلق النفس إلى أمور ليس هذا موضع بسطها .

وأما حكم الإسلام فى ذلك : فالذي يعاقب الرجل عليه الحب الذي يستلزم المعاصى : فإنه يستلزم الظلم والكذب والفواحش ، ولا ريب أن الحرص على المال والرئاسة يوجب هذا ، كما فى الصحيحين انـه قال : « إياكم والشـح ، فإن الشـح أهلك من كان قبلـكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظـلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » وعن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنـم

بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » . قال الترمذى حديث حسن .

فحرص الرجل على المال والشرف يوجب فساد الدين ، فأما مجرد الحب الذى فى القلب إذا كان الإنسان يفعل ما أمره الله به ، ويترك ما نهى الله عنه . ويخاف مقام ربه ، وينهى النفس عن الهوى ، فإن الله لا يعاقبه على مثل هذا إذا لم يكن معه عمل ، وجمع المال ، إذا قام بالواجبات فيه ولم يكتسبه من الحرام ، لا يعاقب عليه ؛ لكن إخراج فضول المال ، والاقتصار على الكفاية أفضل وأسلم ، وأفرغ للقلب ، وأجمع للهم ، وأنفع فى الدنيا والآخرة . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من أصبح والدنيا أكبر همه شتت الله عليه شمله ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه ضيعته وأتته الدنيا وهي راغمة » .

وسئل رحمه الله

عما يذكر من قولهم : اتخذوا مع الفقير أيادى فإن لهم دولة وأي دولة ؟! وقول عمر بن الخطاب ـــ رضي الله عنه ـــ : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحدث مع أبى بكر رضى الله عنه وكنت بينهما كالزنجي ، ما معنى ذلك ؟ وقول بعض الناس لبعض : نحن فى بركتك ، أو من وقت حللت عندنا حلت علينا البركة . ونحن فى بركة هذا الشيخ المدفون عندنا . هل هو قول مشروع أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب : الحمد لله .

أما الحديثان الأولان فكلاهما كذب ، وما قال عمر بن الخطاب ما ذكر عنه قط ، ولا روى هذا أحد بإسناد صحيح ولا ضعيف ، وهو كلام باطل ؛ فإن من كان دون عمر كان يسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم ويفهم ما ينفعه الله به ، فكيف بعمر ؟! وعمر أفضل الخلق بعد أبى بكر ، فكيف يكون كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر بمنزلة كلام الزنجي .

ثم الذين يذكرون هذا الحديث من ملاحدة الباطنية ؛ يدعون أنهم علموا ذلك السر الذى لم يفهمه عمر . وحمله كل قوم على رأيهم الفاسد ؛ والنجادية يدعون أنه قولهم، وأهل الحقيقة الكونية الذين ينفون الأمر والنهي والوعيد يدعون أنه قولهم .

وأهل الحلول الخاص أشباه النصارى يدعون أنه قولهم ؛ إلى أصناف أخر يطول تعدادها .

فهل يقول عاقل : إن عمر وهو شاهد لم يفهم ما قالا ، وإن هؤلاء الجهال الضلال أهل الزندقة والإلحاد والمحال علموا معنى ذلك الخطاب ، ولم ينقل أحد لفظه . وإنما وضع مثل هذا الكذب ملاحدة الباطنية ، حتى يقول الناس : إن ما أظهره الرسل من القرآن والإيمان والشريعة له باطن يخالف ظاهره ؛ وكان أبو بكر يعلم ذلك الباطن دون عمر ؛ ويجعلون هذا ذريعة عند الجهال إلى أن يسلخوهم من دين الإسلام .

ونظير هذا ما يروونه أن عمر تزوج امرأة أبي بكر ليعرف حاله فى الباطن ، فقالت : كنت أشم رائحة الكبد المشوية . فهذا أيضاً كذب ، وعمر لم يتزوج امرأة أبى بكر . بل تزوجها علي بن أبى طالب وكانت قبل أبى بكر عند جعفر ، وهي أسماء بنت عميس وكانت من

عقلاء النساء ، وعمر كان أعلم بأبي بكر من نسائه وغيرهم .

وأما الحديث الآخر وهو قوله : « اتخذوا مع الفقراء أيادي فإن لهم دولة وأي دولة ! » فهذا — أيضاً — كذب ، ما رواه أحد من الناس ، والإحسان إلى الفقراء الذين ذكرهم الله في القرآن ، قال الله فيهم : (إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ — إلى قوله — لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وأهل الفيء وهم الفقراء المجاهدون الذين قال الله فيهم : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) الآية . والمحسن إليهم وإلى غيرهم عليه أن يبتغي بذلك وجه الله ، ولا يطلب من مخلوق لا في الدنيا ولا في الآخرة . كما قال تعالى : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) وقال : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ) الآية .

ومن طلب من الفقراء الدعاء أو الثناء خرج من هذه الآية ؛ فإن في الحديث الذي في سنن أبي داود « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له ، حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » ؛ ولهذا كانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بهدية تقول للمرسول : اسمع ما دعوا به لنا ؛ حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا ، ويبقى أجرنا على الله .

وقال بعض السلف : إذا أعطيت المسكين ، فقـال : بارك الله عليك . فقل : بارك الله عليك . أراد أنــه إذا أثابك بالدعاء فادع له بمثل ذلك الدعاء ، حتى لاتكون اعتضت منه شيئاً . هذا والعطاء لم يطلب منهم . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما نفعني مال كمـال أبي بكر » أنفقه يبتغي به وجه الله ، كما أخبر الله عنه لا يطلب الجزاء من مخلوق لا نبي ولا غيره ، لا بدعاء ولا شفاعة .

وقول القائل : لهم في الآخرة دولة وأي دولة ! ، فهذا كذب ؛ بل الدولة لمن كان مؤمناً تقياً فقيراً كان أو غنياً ، وقال تعــالى : (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) الآيتين ، وقال تعالى : (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) وقال تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) ، ونظير هذا في القرآن كثير .

ومع هذا فالمؤمنون : الأنبياء وسائر الأولياء لا يشفعون لأحــد إلا بإذن الله ، كما قال تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وقال : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) وقال تعالى : (وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) فمن أحسن إلى مخلوق يرجو أن ذلك المخلوق يجزيه يوم القيــامة كان من الأخسرين أعمالاً : الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ؛ بل إنما يجزى على الأعمال يومئذ الواحـد القهار ،

الذي إليه الإياب والحساب ، الذي لا يظلم مثقال ذرة . وإن تكن حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . ولا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه .

فصل

وأما قول القائل : نحن فى بركة فلان ، أو من وقت حلوله عندنا حلت البركة . فهذا الكلام صحيح باعتبار ، باطل باعتبار . فأما الصحيح : فأن يراد به أنه هدانا وعلمنا وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر ، فببركة اتباعه وطاعته حصل لنا من الخير ما حصل ، فهذا كلام صحيح . كما كان أهل المدينة لما قدم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فى بركته لما آمنوا به ، وأطاعوه ، فببركة ذلك حصل لهم سعادة الدنيا والآخرة ، بل كل مؤمن آمن بالرسول وأطاعه حصل له من بركة الرسول بسبب إيمانه وطاعته من خير الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله .

و (أيضاً) إذا أريد بذلك أنه ببركة دعائه وصلاحه دفع الله الشر وحصل لنا رزق ونصر فهذا حق ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم ، وصلاتهم ، وإخلاصهم ؟» وقد يدفع العذاب عن الكفار والفجار لئلا يصيب من بينهم من المؤمنين ممن

لا يستحق العذاب ، ومنه قوله تعالى : (وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ — إلى قوله — لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

فلولا الضعفاء المؤمنون الذين كانوا بمكة بين ظهراني الكفار عذب الله الكفار : وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لولا مافي البيوت من النساء والذراري لأمرت بالصلاة فتقام ، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة معنا فأحرق عليهم بيوتهم » وكذلك ترك رجم الحامل حتى تضع جنينها . وقد قال المسيح عليه السلام : (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ) فبركات أولياء الله الصالحين باعتبار نفعهم للخلق بدعائهم إلى طاعة الله ، وبدعائهم للخلق وبما ينزل الله من الرحمة ، ويدفع من العذاب بسببهم حق موجود ، فمن أراد بالبركة هذا ، وكان صادقاً ، فقوله حق .

وأما « المعنى الباطل » فمثل أن يريد الإشراك بالخلق : مثل أن يكون رجل مقبور بمكان فيظن أن الله يتولاهم لأجله ، وإن لم يقوموا بطاعة الله ورسوله ، فهذا جهل . فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم مدفون بالمدينة عام الحرة ، وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلا الله ، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالاً أوجبت ذلك ، وكان على عهد الخلفاء يدفع الله عنهم بإيمانهم وتقواهم ، لأن الخلفاء الراشدين كانوا يدعونهم إلى ذلك

وكان ببركة طاعتهم للخلفاء الراشدين ، وبركة عمل الخلفاء معهم ينصرهم الله ويؤيدهم . وكذلك الخليل صلى الله عليه وسلم مدفون بالشام وقد استولى النصارى على تلك البلاد قريباً من مائة سنة ، وكان أهلها في شر . فمن ظن أن الميت يدفع عن الحي مع كون الحي عاملاً بمعصية الله فهو غالط .

وكذلك إذا ظن أن بركة الشخص تعود على من أشرك به وخرج عن طاعة الله ورسوله ، مثل أن يظن أن بركة السجود لغيره ، وتقبيل الأرض عنده ، ونحو ذلك يحصل له السعادة ؛ وإن لم يعمل بطاعة الله ورسوله . وكذلك إذا اعتقد أن ذلك الشخص يشفع له ، ويدخله الجنة بمجرد محبته ، وانتسابه إليه ، فهذه الأمور ونحوها مما فيه مخالفة الكتاب والسنة ، فهو من أحوال المشركين . وأهل البدع . باطل لا يجوز اعتقاده . ولا اعتماده . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وسئل

عن رجل « متصوف » قال لإنسان — فى كلام جرى بينهم — : فقراء الأسواق ، فقال له الرجل : اليهودي والنصراني والمسلم فى السوق ، قال تعالى : (وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ) ، فقال « الصوفى » : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الفقر إلى الله » والأولياء مفتقرون للخاتمة والأشقياء تحت القضاء » ، قال الصوفي للرجل : تعرف الفقر ؟ فقال له : لا ، قال الصوفى : الفقر هو الله . فأنكروا عليه هذا اللفظ . ثم في ثانى يوم قال رجل : أنت قلت : الفقر هو الله ، فقال الصوفي : أنا قرأت في كتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من رآني آمن بى » وأنا رأيت الفقر فآمنت به ، والفقر هو الله .

فأجاب : الحمد لله . أما الحديث كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مع كونه كذباً مناقض للعقل والدين ؛ فإنه ليس كل من رآه آمن به ؛ بل قد رآه كثير مثل الكفار والمنافقين . وقول القائل : آمنت بالفقر أو كفرت بالفقر هو من الكلام الباطل ؛ بل هو

كفر يجب أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل والله سبحانه هو الغني والخلق هم الفقراء إليه ٠

وقد قال تعالى : (لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ) . فإذا كان الذين قالوا إنه فقير قد توعدهم بهذا فكيف بمن يقول له الفقر ؟ ! و « المصدر » أبلغ من الصفة وإذا كان منزها على أن يوصف بذلك فكيف يجعل المصدر اسما له ؟ !

ولو قال القائل : أردت بذلك الفقر هو إرادة الله ولم يكن فى السياق ما يقتضي تصديقه لم يقبل ذلك منه ، وإن كان فى السياق ما يقبل تصديقه نهي عن العبارة الموهومة وأمر بالعبارة الحسنة .

وأما قوله الحديث المذكور وهو قوله : « الفقر فخري ، وبه أفتخر » فهو كذب موضوع لم يروه أحد من أهل المعرفة بالحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ومعناه باطل ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفتخر بشيء بل قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ، وقال فى الحديث « إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » ولو افتخر بشيء لافتخر بما فضله الله به على سائر الخلق .

و « الفقر » وصف مشــترك بينه وبين ســائر الفقراء سواء أريد به الشرعي وهــو عدم المــال ، أو الفقر الاصطــلاحي وهو مــكارم الأخلاق والزهد ، مع أن لفظه فى كلامه وكلام أصحــابه لا يراد بــه إلا الفقر الشرعي دون الاصطلاحي والله أعلم .

وسئل

عمن قال : إن « الفقير ، والغني » لا يفضل أحدهما صاحبه إلا بالتقوى . فمن كان أتقى لله كان أفضل وأحب إلى الله تعالى . وإن الحديث الصحيح الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام » هذا فى حق ضعفاء المسلمين ، وصعاليكهم القائمين بفرائض الله تعالى ، وليس مختصاً بمجرد ما عرف واشتهر فى هذه الأعصار المتأخرة ، من السجاد والمرقعة والعكاز ، والألفاظ المنمقة ؛ بل هذه الهيئات المعتادة في هذه الأزمنة مخترعة مبتدعة ، فهل الأمر على ما ذكر أم لا ؟؟.

فأجاب ـــ رضي الله عنه ـــ الحمد لله رب العالمين .

قد تنازع كثير من متأخرى المسلمين فى « الغني الشاكر ، والفقير الصابر » أيهما أفضل ؟ فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ، ورجح هذا طائفة من العلماء والعباد ، وقد حكي في ذلك عن الإمام أحمد روايتان . وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين

على الآخر . وقال طائفة ثالثة ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى فأيهما كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل ، وإن استويا فى ذلك استويا فى الفضيلة ، وهذا أصح الأقوال ؛ لأن الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى . وقد قال الله تعالى : (إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا) .

وقد كان فى الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل من أكثر الفقراء ، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر الأغنياء ، والكاملون يقومون بالمقامين ، فيقومون بالشكر والصبر على التمام . كحال نبينا صلى الله عليه وسلم ، وحال أبي بكر وعمر — رضي الله عنهما ؛ ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع من الغنى ، والغنى أنفع لآخرين ، كما تكون الصحة لبعضهم أنفع ، كما في الحديث الذي رواه البغوي وغيره « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى . ولو أفقرته لأفسده ذلك . وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر . ولو أغنيته لأفسده ذلك . وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم . ولو أصححته لأفسده ذلك ، إنى أدبر عبادي إنى بهم خبير بصير » .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم » وفي الحديث الآخر لما علم الفقراء الذكر عقب الصلوات سمع بذلك الأغنياء فقالوا مثل

ما قالوا . فذكر ذلك الفقراء للنبي صلى الله عليـــه وسلم ، فقال : « ذلك فضل الله يؤتيه مـــن يشاء » فالفقراء متقدمون في دخول الجنـــة لخفة الحساب عليهم ، والأغنياء مؤخرون لأجـل الحساب ، ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته فى الجنة فوقه ، وإن تأخر فى الدخول كما أن السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، ومنهم عكاشة بن محصن ، وقد يدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم . وصـــلى الله وسلم على محمد .

وقال شيخ الإسلام

رحمه الله تعالى

فصل

قد كثر تنازع الناس أيهما أفضل « الفقير الصابر ، أو الغني الشاكر » ؟؟ وأكثر كلامهم فيها مشوب بنوع من الهوى ، أو بنوع من قلة المعرفة ، والنزاع فيها بين الفقهاء والصوفية ، والعامة والرؤساء وغيرهم . وقد ذكر القاضي أبو الحسين بن القاضي أبي يعلى فى كتاب « التمام لكتاب الروايتين والوجهين » لأبيه فيها عن أحمد روايتين .

(إحداها) أن الفقير الصابر أفضل . وذكر أنه اختار هذه الرواية أبو إسحاق بن شاقلا ، ووالده القاضى أبو يعلى ، ونصرها هو .

و (الثانية) : أن الغنى الشاكر أفضل ، اختاره جماعة منهم ابن قتيبة . و « القول الأول » يميل إليه كثير من أهل المعرفة والفقه

والصلاح ، من الصوفية والفقراء ، ويحكى هذا القول عن الجنيد وغيره
و « القول الثانى » يرجحه طائفة منهم . كأبى العباس بن عطاء وغيره
وربما حكى بعض الناس فى ذلك إجماعا ، وهو غلط .

وفي المسألة « قول ثالث » وهو الصواب أنه ليس هذا أفضل من
هذا مطلقاً ، ولا هذا أفضل من هذا مطلقاً بل أفضلهما أتقاهما . كما
قال تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) وقال عمر بن الخطاب :
الغنى والفقر مطيتان ، لا أبالى أيتهما ركبت . وقد قال تعالى : (إِن
يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا) وهذا القول اختيار طائفة منهم
الشيخ ابن حفص السهروردى ، وقد يكون هذا أفضل لقوم ، وفى
بعض الأحوال . وهذا أفضل لقوم وفى بعض الأحوال ، فإن استويا فى سبب
الكرامة استويا فى الدرجة ، وإن فضل أحدهما الآخر في سببها ترجح
عليه ؛ هذا هو الحكم العام .

والفقر والغنى حالان يعرضان للعبد باختياره تارة وبغير اختياره أخرى
كالمقام والسفر ، والصحة والمرض ، والإمارة والائتمار ، والإمامة والائتمام .
وكل جنس من هذه الأجناس لا يجوز إطلاق القول بتفضيله على الآخر ؛
بل قد يكون هذا أفضل في حال ؛ وهذا فى حال ، وقد يستويان فى حال
كما فى الحديث المرفوع فى (شرح السنة) للبغوي عن أنس عن النبى
صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تعالى : « وإن من عبادي من

لا يصلحه إلا الغنى ؛ ولو أفقرته لأفسده ذلك ؛ وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة ، ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم ، ولو أصححته لأفسده ذلك ، إنى أدبر عبادى ؛ إنى بهم خبير بصير » .

وفى هذا المعنى ما يروى : « إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا ؛ كما يحمى أحدكم مريضه الطعام والشراب » . ويروى فى مناجاة موسى نحو هذا . ذكره أحمد فى الزهد . فهذا فيمن يضره الغنى ويصلحه الفقر ، كما فى الحديث الآخر « نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

وكما أن الأقوال فى المسألة « ثلاثة » فالناس « ثلاثة أصناف » : غنى ، وهو من ملك ما يفضل عن حاجته . وفقير ؛ وهو من لا يقدر على تمام كفايته . وقسم ثالث : وهو من يملك وفق كفايته ؛ ولهذا كان فى أكابر الأنبياء والمرسلين والسابقين الأولين من كان غنياً : كإبراهيم ، الخليل وأيوب ، وداوود وسليمان ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة والزبير ، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير ، وأسعد بن زرارة وأبى أيوب الأنصارى ، وعبادة بن الصامت ، ونحوهم . ممن هو من أفضل الخلق من النبيين والصديقين .

وفيهم من كان فقيراً : كالمسيح عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري، ومصعب بن عمير، وسلمان الفارسى ونحوهم. ممن هو من أفضل الخلق، من النبيين والصديقين، وقد كان فيهم من اجتمع له الأمران : الغنى تارة والفقر أخرى ؛ وأتى بإحسان الأغنياء وبصبر الفقراء : كنبينا صلى الله عليه وسلم. وأبي بكر وعمر.

والنصوص الواردة فى الكتاب والسنة حاكمة بالقسط ؛ فإن الله فى القرآن لم يفضل أحداً بفقر، ولا غنى، كما لم يفضل أحداً بصحة ولا مرض. ولا إقامة ولا سفر، ولا إمارة ولا ائتمار، ولا إمامة ولا ائتمام ؛ بل قال : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) وفضلهم بالأعمال الصالحة : من الإيمان ودعائمه، وشعبه كاليقين والمعرفة، ومحبة الله والإنابة إليه، والتوكل عليه ورجائه، وخشيته وشكره والصبر له. وقال فى آية العدل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا).

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يعدلون بين المسلمين. غنيهم وفقيرهم في أمورهم. ولما طلب بعض الأغنياء من النبي صلى الله عليه وسلم إبعاد الفقراء نهاه الله عن ذلك. وأثنى عليهم بأنهم يريدون وجهه. فقال : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم) الآية.

وقال : (وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم) ولما طلب بعض الفقراء من النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يصلح له نهاه عن ذلك . وقال : « يا أبا ذر ! إني أراك ضعيفاً . وإني أحب لك ما أحب لنفسي . لا تأمرن على اثنين . ولا تولين مال يتيم » .

وكانوا يستوون في مقاعدهم عنده ، وفي الاصطفاف خلفه ؛ وغير ذلك . ومن اختص منهم بفضل عرف النبي صلى الله عليه وسلم له ذلك الفضل ، كما قنت للقراء السبعين ، وكان يجلس مع أهل الصفة ، وكان أيضا لعثمان وطلحة والزبير ، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وعباد بن بشر ونحوهم ، من سادات المهاجرين والأنصار الأغنياء منزلة ليست لغيرهم من الفقراء ، وهذه سيرة المعتدلين من الأئمة في الأغنياء والفقراء . وهذا هو العدل والقسط الذي جاء به الكتاب والسنة ، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز ، والليث بن سعد ، وابن المبارك ومالك وأحمد بن حنبل . وغيرهم . في معاملتهم للأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء .

وفي الأئمة كالثوري ونحوه من كان يميل إلى الفقراء ، ويميل على الأغنياء مجتهداً في ذلك طالباً به رضا الله ، حتى عتب عليه ذلك في آخر عمره ، ورجع عنه .

وفيهم من كان يميل مع الأغنياء والرؤساء : كالزهرى ، ورجاء بن حيوة ، وأبى الزناد ، وأبى يوسف ومحمد وأناس آخرين ، وتكلم فيهم من تكلم بسبب ذلك ، ولهم فى ذلك تأويل واجتهاد ، والأول هو العدل والقسط ، الذي دل عليه الكتاب والسنة .

ونصوص النبي صلى الله عليه وسلم معتدلة فإنه قد روى « أن الفقراء قالوا له : يارسول الله ! ذهب أهل الدثور بالأجور . يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضول أموال يتصدقون بها ولا نتصدق فقال : ألا أعلمكم شيئاً ؟ إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم ، ولم يلحقكم من بعدكم إلا من عمل مثل عملكم ، فعلمهم التسبيح المائة فى دبر كل صلاة . فجاؤوا إليه فقالوا : إن إخواننا من الأغنياء سمعوا ذلك ففعلوه ، فقال : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » وهذه الزيادة فى صحيح مسلم من مراسيل أبى صالح ، فهذا فيه تفضيل للأغنياء الذين عملوا مثل عمل الفقراء من العبادات البدنية بالقلب والبدن ، وزادوا عليهم بالإنفاق فى سبيل الله ونحوه من العبادات المالية .

وثبت عنه أيضاً فى الصحيح أنه قال : « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم — خمسمائة عام — وفى رواية بأربعين خريفاً » فهذا فيه تفضيل الفقراء المؤمنين بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء المؤمنين ، وكلاهما حق ؛ فإن الفقير ليس معه مال كثير يحاسب على

قبضه وصرفه ، فلا يؤخر عن دخول الجنة لأجل الحساب ، فيسبق فى الدخول ، وهو أحوج إلى سرعة الثواب ، لما فاته فى الدنيا من الطيبات. والغني يحاسب ، فإن كان محسنا فى غناه غير مسيء وهو فوقه ، رفعت درجته عليه بعد الدخول ، وإن كان مثله ساواه ، وإن كان دونه نزل عنه . وليست حاجته إلى سرعة الثواب كحاجة الفقير .

ونظير هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى « حوضه » : الذي طوله شهر وعرضه شهر : « ماؤه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، أول الناس علي وردا فقراء المهاجرين : الدنسين ثيـابا الشعث رؤوساً الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب الملوك ، يموت أحدهم وحاجته تختلج فى صدره لا يجد لها قضاء » فكانوا أسبق إلى الذي يزيل ماحصل لهم فى الدنيا من اللأواء والشدة ، وهذا موضع ضيافة عامة فإنه يقـدم الأشد جوعا فى الإطعـام ، وإن كان لبعض المستأخرين نوع إطعام ليس لبعض المتقدمين لاستحقاقه ذلك ببذله عنده أو غير ذلك ، وليس فى المسألة عن النبي صلى الله عليه وسلم أصح من هذين الحديثين وفيها الحكم الفصل : إن الفقراء لهم السبق والأغنياء لهم الفضل ، وهذا قد يترجح تارة ، وهذا كالسبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومع كل ألف سبعون ألفاً ، وقد يحاسب بعدهم من إذا دخل رفعت درجته عليهم .

وما روى : « أن ابن عوف يدخل الجنة حبوا » . كلام موضوع

لا أصل له ؛ فإنه قد ثبت بأدلة الكتاب والسنة أن أفضل الأمة أهل بدر ، ثم أهل بيعة الرضوان ، والعشرة مفضلون على غيرهم والخلفاء الأربعة أفضل الأمة . وقد ثبت في الصحاح أنه قال : « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء » وثبت فى الصحاح أيضا أنه قال : « احتجت الجنة والنار فقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار : مالي لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون » وقوله : « وقفت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها المساكين ، وإذا أصحاب الجد محبوسون ، إلا أهل النار فقد أمر بهم إلى النار » هذا مع قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » .

فهذه الأحاديث فيها معنيان : أحدهما أن الجنة دار المتواضعين الخاشعين ، لا دار المتكبرين الجبارين سواء كانوا أغنياء أو فقراء ؛ فإنه قد ثبت في الصحيح أنه «لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . فقيل : يارسول الله ! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنا أفمن الكبر . ذاك فقال : لا ـ إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس » فأخبر صلى الله عليه وسلم ؛ أن الله يحب التجمل فى اللباس

الذي لا يحصل إلا بالغنى، وأن ذلك ليس من الكبر . وفى الحديث الصحيح : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : فقير مختال وشيخ زان، وملك كذاب » وكذلك الحديث المروى : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه، ثم يذهب بنفسه، ثم يذهب بنفسه، حتى يكتب عند الله جباراً، وما يملك إلا أهله » .

فعلم بهذين الحديثين : أن من الفقراء من يكون مختالاً ؛ لا يدخل الجنة . وأن من الأغنياء من يكون متجملا غير متكبر ؛ يحب الله جماله . مع قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »

ومن هذا الباب قول هرقل لأبى سفيان : أفضعفاء الناس اتبعه أم اشرافهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . قال : وهم أتباع الأنبياء . وقد قالوا لنوح : (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) فهذا فيه أن أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته ؛ لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك، بخلاف المستضعفين . وفى هذا المعنى الحديث المأثور ــ إن كان محفوظاً ــ « اللهم أحيني مسكيناً، وامتني مسكيناً، واحشرنى فى زمرة المساكين » فالمساكين ضد المتكبرين . وهم الخاشعون لله . المتواضعون لعظمته، الذين لا يريدون علواً فى الأرض . سواء كانوا أغنياء أو فقراء .

ومن هذا الباب إن الله خيره : بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون نبياً ملكا ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً ؛ لأن العبد الرسول يتصرف بأمر سيده ؛ لا لأجل حظه ، وأما الملك فيتصرف لحظ نفسه ، وإن كان مباحا . كما قيل لسليمان : (هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) ففي هذه الأحاديث : أنه اختار العبودية والتواضع . وإن كان هو الأعلى هو ومن اتبعه . كما قال : (وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ) وقال : (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ولم يرد العلو وإن كان قد حصل له . وقد أعطي مع هذا من العطاء ما لم يعطه غيره ، وإنما يفضل الغنى لأجل الإحسان إلى الخلق ، والإنفاق فى سبيل الله ، والاستعانة به على طاعة الله وعبادته ،وإلا فذات ملك المال لا ينفع ، بل قد يضر وقد صبر مع هذا من اللأواء والشدة على ما لم يصبر عليه غيره ، فنال أعلى درجات الشاكرين وأفضل مقامات الصابرين ، وكان سابقاً فى حالي الفقر والغنى ، لم يكن ممن لا يصلحه إلا احدهما ، كبعض اصحابه وامته .

(المعنى الثاني) أن الصلاح فى الفقراء أكثر منه فى الأغنياء . كما أنه إذا كان فى الأغنياء فهو أكمل منه فى الفقراء ، فهذا فى هؤلاء أكثر وفى هؤلاء أكثر ، لأن فتنة الغنى أعظم من فتنة الفقر ، فالسالم منها أقل . ومن سلم منها كان أفضل ممن سلم من فتنة الفقر فقط ؛ ولهذا

صـار الناس يطلبون الصلاح فى الفقراء ، لأن المظنة فيهم أكثر . فهذا هذا والله أعلم .

فلهذا السبب صارت المسكنة نسبته ، وكذلك لما رأوا المسكنة والتواضع في الفقراء أكثر ، اعتقدوا أن التواضع والمسكنة هو الفقر وليس كذلك . بل الفقر هنا عدم المـال ، والمسكنة خضوع القلب ، وكان النبي صـلى الله عليه وسـلم : يستعيذ مـن فتنـة الفقر ، وشر فتنة الغنى ، وقال : بعض الصحابة ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر ، وقـد قال صلى الله عليه وسـلم : « والله ما الفقر أخشى عليـكم ، ولكن أخاف أن تبسط عليـكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلـكم فتنافسوها » ولهذا كان الغالب على المهاجرين الفقر ، والغـالب على الأنصار الغنى ، والمهاجرون أفضل من الأنصار ، وكان فى المهاجرين أغنياء،هم من أفضل المهـاجرين مع أنهم بالهجرة تركوا من أمـوالهم ما صاروا به فقراء بالنسبة إلى ما كانوا عليه .

وسئل

عن « الحمــد والشكر » ما حقيقتهما ؟ هــل هما معنى واحد ، أو معنيان ؟ وعلى أي شيء يكون الحمد ؟ وعلى أي شيء يكون الشكر ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

« الحمد » يتضمن المدح ، والثناء على المحمود بذكر محاسنه ، سواء كان الإحسان إلى الحامد ، أو لم يكن ، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر ، فمن هذا الوجه الحمد أعم مــن الشكر ؛ لأنه يكون عــلى المحاسن والإحسان ، فإن الله تعالى يحمد عــلى ماله من الأسماء الحسنى ، والمثل الأعلى ، وما خلقه فى الآخرة والأولى ؛ ولهذا قال تعالى : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ)

وقال : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ)

وقال : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ) .

وأما « الشكر » فإنه لا يكون إلا على الإنعام ، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه ؛ لكنه يكون بالقلب واليد واللسان ، كما قيل :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة : يدي ، ولساني ، والضمير المحجبا

ولهذا قال تعالى : (ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا) .

و « الحمد » إنما يكون بالقلب واللسان ، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه ، والحمد أعم من جهة أسبابه ، ومن هذا الحديث « الحمد لله رأس الشكر ، فمن لم يحمد الله لم يشكره » وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها) والله أعلم .

تلخيص مناظرة في « الحمد والشكر »

بحث جرى بين شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية

رحمه الله وبين ابن المرحل

كان الكلام فى الحمد والشكر ، وأن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح ، والحمد لا يكون إلا باللسان .

فقال ابن المرحل : قد نقل بعض المصنفين — وسماه — : أن مذهب أهل السنة والجماعة : أن الشكر لا يكون إلا بالاعتقاد . ومذهب الخوارج : أنه يكون بالاعتقاد ، والقول والعمل ، وبنوا على هذا : أن من ترك الأعمال يكون كافراً . لأن الكفر نقيض الشكر ، فإذا لم يكن شاكراً كان كافراً .

قال الشيخ تقي الدين : هذا المذهب المحكى عن أهل السنة خطأ والنقل عن أهل السنة خطأ . فإن مذهب أهل السنة : أن الشكر يكون بالاعتقاد ، والقول والعمل . قال الله تعالى : (ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ

شُكُرًا) وقام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه ، فقيل له : « أتفعل هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً » .

قال ابن المرحل : أنا لا أتكلم فى الدليل ، وأسلم ضعف هذا القول ؛ لكن أنا أنقل أنه مذهب أهل السنة .

قال الشيخ تقي الدين : نسبة هذا إلى أهل السنة خطأ ، فان القول إذا ثبت ضعفه ، كيف ينسب إلى أهل الحق ؟

ثم قد صرح من شاء الله من العلماء المعروفين بالسنة أن الشكر يكون بالاعتقاد ، والقول والعمل ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة .

قلت : وباب سجود الشكر فى الفقه أشهر من أن يذكر ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن سجدة سورة (ص) « سجدها داود توبة ، ونحن نسجدها شكراً » . ثم من الذي قال من أئمة السنة : إن الشكر لا يكون إلا بالاعتقاد ؟ .

قال ابن المرحل : — هذا قد نقل ، والنقل لا يمنع ، لكن يستشكل . ويقال : هذا مذهب مشكل .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية : النقل نوعان . أحدهما : أن ينقل ما سمع أو رأى . والثانى : ما ينقل باجتهاد واستنباط . وقول القائل : مذهب فلان كذا ، أو مذهب أهل السنة كذا ، قد يكون نسبه إليه لاعتقاده أن هذا مقتضى أصوله ، وإن لم يكن فلان قال ذلك . ومثل هذا يدخله الخطأ كثيراً . ألا ترى أن كثيراً من المصنفين يقولون : مذهب الشافعى أو غيره كذا ، ويكون منصوصه بخلافه ؟ وعذرهم فى ذلك : أنهم رأوا أن أصوله تقتضي ذلك القول ، فنسبوه إلى مذهبه من جهة الاستنباط ، لا من جهة النص ؟ . وكذلك هذا ، لما كان أهل السنة لا يكفرون بالمعاصي ، والخوارج يكفرون بالمعاصي . ثم رأى المصنف الكفر ضد الشكر ـ : أعتقد أنا إذا جعلنا الأعمال شكراً لزم انتفاء الشكر بانتفائها ، ومتى انتفى الشكر خلفه الكفر ، ولهذا قال : إنهم بنوا على ذلك : التكفير بالذنوب . فلهذا عزى إلى أهل السنة إخراج الأعمال عن الشكر .

قلت : كما أن كثيراً من المتكلمين أخرج الأعمال عن الإيمان لهذه العلة .

قال : وهذا خطأ ، لأن التكفير نوعان : أحدهما : كفر النعمة . والثانى : الكفر بالله . والكفر الذي هو ضد الشكر : إنما هو كفر

النعمة لا الكفر بالله . فإذا زال الشكر خلفه كفر النعمة ، لا الكفر بالله .

قلت : على أنه لو كان ضد الكفر بالله ، فمن ترك الأعمال شاكراً بقلبه ولسانه فقد أتى ببعض الشكر وأصله . والكفر إنما يثبت إذا عدم الشكر بالكلية . كما قال أهل السنة : إن من ترك فروع الإيمان لا يكون كافراً ، حتى يترك أصل الإيمان . وهو الاعتقاد . ولا يلزم من زوال فروع الحقيقة — التى هي ذات شعب وأجزاء — زوال اسمها ، كالإنسان ، إذا قطعت يده ، أو الشجرة ، إذا قطع بعض فروعها .

قال الصدر ابن المرحل : فإن أصحابك قد خالفوا الحسن البصري فى تسمية الفاسق كافر النعمة ، كما خالفوا الخوارج فى جعله كافراً بالله .

قال الشيخ تقي الدين : أصحابي لم يخالفوا الحسن فى هذا ، فعمن تنقل من أصحابي هذا ؟ بل يجوز عندهم أن يسمى الفاسق كافر النعمة ، حيث أطلقته الشريعة .

قال ابن المرحل : إنى أنا ظننت أن أصحابك قد قالوا هذا ، لكن أصحابى قد خالفوا الحسن فى هذا .

قال الشيخ تقي الدين : — ولا أصحابك خالفوه . فإن أصحابك

قد تأولوا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التى أطلق فيها الكفر على بعض الفسوق ـ مثل ترك الصلاة . وقتال المسلمين ـ على أن المراد به كفر النعمة . فعلم أنهم يطلقون على المعاصي في الجملة أنها كفر النعمة . فعلم انهم موافقوا الحسن ، لا مخالفوه .

ثم عاد ابن المرحل ، فقال : أنا أنقل هذا عن المصنف . والنقل ما يمنع ، لكن يستشكل .

قال الشيخ تقي الدين : إذا دار الأمر بين أن ينسب إلى أهل السنة مذهب باطل ، أو ينسب الناقل عنهم إلى تصرفه فى النقل كان نسبة الناقل إلى التصرف أولى من نسبة الباطل إلى طائفة أهل الحق ، مع أنهم صرحوا فى غير موضع : أن الشكر يكون بالقول ، والعمل ، والاعتقاد . وهذا أظهر من أن ينقل عن واحد بعينه .

ثم إنا نعلم بالاضطرار أنه ليس من أصول أهل الحق : إخراج الأعمال أن تكون شكراً لله . بل قد نص الفقهاء على أن الزكاة شكر نعمة المال . وشواهد هذا أكثر من أن تحتاج إلى نقل .

وتفسير الشكر بأنه يكون بالقول والعمل فى الكتب التى يتكلم فيها على لفظ « الحمد » « والشكر » مثل كتب التفسير واللغة ،

وشروح الحديث ، يعرفه آحاد الناس . والكتاب والسنة قد دلا على ذلك .

فخرج ابن المرحل إلى شيء غير هذا ، فقال : ـ الحسن البصري يسمى الفاسق منافقاً ، وأصحابك لا يسمونه منافقاً .

قال الشيخ تقي الدين له : بل يسمى منافقاً النفاق الأصغر ، لا النفاق الأكبر . والنفاق يطلق على النفاق الأكبر ، الذي هو إضمار الكفر ، وعلى النفاق الأصغر ، الذي هو اختلاف السر والعلانية فى الواجبات .

قال له ابن المرحل : ـ ومن أين قلت : إن الاسم يطلق على هذا وعلى هذا ؟ .

قال الشيخ تقي الدين : ـ هذا مشهور عند العلماء . وبذلك فسروا قول النبي صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » وقد ذكر ذلك الترمذي وغيره . وحكوه عن العلماء .

وقال غير واحد من السلف « كفر دون كفر ، ونفاق دون نفاق وشرك دون شرك » .

وإذا كان النفاق جنساً تحته نوعان، فالفاسق داخل في أحد نوعيه .

قال ابن المرحل : كيف تجعل النفاق اسم جنس ، وقد جعلته لفظاً مشتركا ، وإذا كان اسم جنس كان متواطئاً ، والأسماء المتواطئة غير المشتركة ، فكيف تجعله مشتركا متواطئاً » .

قال الشيخ تقي الدين : أنا لم أذكر أنه مشترك . وإنما قلت : يطلق على هذا وعلى هذا ، والإطلاق أعم .

ثم لو قلت : إنه مشترك لكان الكلام صحيحاً . فإن اللفظ الواحد قد يطلق على شيئين بطريق التواطؤ ، وبطريق الاشتراك . فأطلقت لفظ النفاق على إبطان الكفر ، وإبطان المعصية ، تارة بطريق الاشتراك وتارة بطريق التواطؤ ، كما أن لفظ الوجود يطلق على الواجب والممكن ، عند قوم باعتبار الاشتراك ، وعند قوم باعتبار التواطؤ . ولهذا سمي مشككا .

قال ابن المرحل : — كيف يكون هذا ؟ وأخذ في كلام لا يحسن ذكره .

قال له الشيخ تقي الدين : — المعاني الدقيقة تحتاج إلى إصغاء واستماع وتدبر . وذلك أن الماهيتين إذا كان بينهما قدر مشترك وقدر مميز ، واللفظ يطلق على كل منهما ، فقد يطلق عليهما باعتبار ما به

تمتاز كل ماهية عن الأخرى . فيكون مشتركا كالاشتراك اللفظي . وقد يكون مطلقاً باعتبار القدر المشترك بين الماهيتين . فيكون لفظاً متواطئاً .

قلت : ثم إنه فى اللغة يكون موضوعا للقدر المشترك ، ثم يغلب عرف الاستعمال على استعماله : فى هـذا تارة ، وفى هذا تارة . فيبقى دالا بعرف الاستعمال على ما به الاشتراك والامتياز . وقد يكون قرينة ، مثل لام التعريف ، أو الإضافة ، تكون هي الدالة على ما به الامتياز .

مثال ذلك : « اسم الجنس » إذا غلب فى العرف على بعض أنواعه كلفظ الدابة ، إذا غلب على الفرس ، قد نطلقه على الفرس باعتبار القدر المشترك بينها وبين سائر الدواب . فيكون متواطئاً . وقد نطلقه باعتبار خصوصية الفرس ، فيكون مشتركا بين خصوص الفرس وعموم سائر الدواب ، ويصير استعماله فى الفرس : تارة بطريق التواطؤ ، وتارة بطريق الاشتراك . وهكذا اسم الجنس إذا غلب على بعض الأشخاص وصار علماً بالغلبة : مثل ابن عمرو ، والنجم ، فقد نطلقه عليه باعتبار القدر المشترك بينه وبين سائر النجوم وسائر بنى عمرو . فيكون إطلاقه عليه بطريق التواطؤ . وقد نطلقه عليه باعتبار ما به يمتاز عن غيره من النجوم ، ومن بني عمرو . فيكون بطريق الاشتراك بين هذا المعنى الشخصي وبين المعنى النوعي . وهكذا كل اسم عام غلب على بعض أفراده ، يصح

استعماله فى ذلك الفرد بالوضع الأول العـام ، فيكون بطريق التواطـؤ ، بالوضع الثانى ، فيصير بطريق الاشتراك .

ولفظ « النفاق » من هذا الباب . فإنه فى الشرع إظهـار الدين وإبطان خلافه . وهذا المعنى الشرعي أخص من مسمى النفاق فى اللغة ، فإنه فى اللغة أعم من إظهار الدين .

ثم إبطان ما يخالف الدين ، إما أن يكون كفراً أو فسقـاً . فإذا أظهر أنه مؤمن وأبطن التـكذيب . فهذا هو النفاق الأكبر الذي أوعد صاحبه بأنه في الدرك الأسفل من النار . وإن أظهر أنه صـادق أو موف ، أو أمين ، وأبطن الكذب والغدر والخيانة ونحو ذلك . فهـذا هو النفاق الأصغر الذي يكون صاحبه فاسقاً .

فإطلاق النفاق عليهما فى الأصل بطريق التواطؤ .

وعلى هذا ؛ فالنفاق اسم جنس تحته نوعان . ثم إنه قـد يراد به النفاق فى أصل الدين ، مثل قوله (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ) و (إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ) والمنافق هنا : الـكافر .

وقد يراد به النفاق فى فروعه . مثل قوله صـلى الله عليـه وسلم

« آية المنافق ثلاث » وقوله « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً » وقول ابن عمر : فيمن يتحدث عند الأمراء بحديث . ثم يخرج فيقول بخلافه « كنا نعد هذا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم نفاقا »

فإذا أردت به أحد النوعين . فإما أن يكون تخصيصه لقرينة لفظية مثل لام العهد ؛ والإضافة . فهذا لا يخرجه عن أن يكون متواطئاً ، كما إذا قال الرجل : جاء القاضي . وعنى به قاضى بلده ، لكون اللام للعهد . كما قال سبحانه : (فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ) إن اللام هي أوجبت قصر الرسول على موسى ، لا نفس لفظ « رسول » . وإما أن يكون لغلبة الاستعمال عليه ، فيصير مشتركا بين اللفظ العام والمعنى الخاص . فكذلك قوله (إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ) فإن تخصيص هذا اللفظ بالكافر إما أن يكون لدخول اللام التى تفيد العهد ، والمنافق المعهود : هو الكافر . أو تكون لغلبة هذا الاسم فى الشرع على نفاق الكفر . وقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه كان منافقاً » يعنى به منافقاً بالمعنى العام ، وهو إظهاره من الدين خلاف ما يبطن .

فإطلاق لفظ « النفاق » على الكافر وعلى الفاسق إن أطلقته باعتبار ما يمتاز به عن الفاسق كان إطلاقه عليه وعلى الفاسق باعتبار الاشتراك . وكذلك يجوز أن يراد به الكافر خاصة . ويكون متواطئاً إذا كان الدال على الخصوصية غير لفظ « منافق » بل لام التعريف .

وهـذا البحث الشريف جار فى كل لفـظ عام استعمل فى بعض أنواعه ، إما لغلبة الاستعمال ، أو لدلالة لفظية خصته بذلك النوع . مثل تعريف الإضـافة ، أو تعريف الـلام . فإن كان لغلبـة الاستعمال صح أن يقـال : إن اللفظ مشترك . وإن كان لدلالة لفظية كان اللفظ باقيـاً على مواطأته .

فلهذا صح أن يقال « النفاق » اسم جنس تحتـه نوعان . لكون اللفظ فى الأصل عاما متواطئاً .

وصح أن يقـال : هو مشترك بين النفاق في أصل الدين ، وبين مطلق النفاق فى الدين . لكونه في عرف الاستعمال الشرعى غلب عـلى نفاق الكفر .

بحث ثان

[وهو] أن الحمد والشكر بينهما عموم وخصوص .

فالحمد أعم من جهة أسبابه التى يقع عليها ؛ فإنه يكون عـلى جميـع الصفـات ، والشكر لا يكون إلا على الإحسان . والشكر أعم من جهة ما به يقع ، فإنه يكون بالاعتقاد ، والقول ، والفعل . والحمد يكون بالفعل أو بالقول ، أو بالاعتقاد .

أورد الشيخ الإمام زين الدين ابن المنجـا الحنبلي : أن هذا الفرق إنما هو من جهة متعلق الحمد والشكر ، لأن كونه يقع عـلى كذا ويقع بكذا خارج عن ذاته ، فلا يكون فرقاً فى الحقيقة ، والحدود إنما يتعرض فيها لصفات الذات ، لا لما خرج عنها .

فقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : —

المعاني على قسمين : مفردة ، ومضافة . فالمعانى المفردة : حدودها لا توجد فيها بتعلقاتها . وأما المعانى الإضافيـة فلا بد أن يوجـد فى

حدودها تلك الإضافات . فإنها داخلة فى حقيقتها . ولا يمكن تصورها إلا بتصور تلك المتعلقات ، فتكون المتعلقات جزءاً من حقيقتها فتعين ذكرها فى الحدود .

والحمد والشكر معلقان بالمحمود عليه والمشكور عليه . فلا يتم ذكر حقيقتهما إلا بذكر متعلقهما . فيكون متعلقهما داخلاً فى حقيقتهما .

فاعترض الصدر بن المرحل : بأنه ليس للمتعلق من المتعلق صفة ثبوتية . فلا يكون للحمد والشكر من متعلقهما صفة ثبوتية . فإن المتعلق صفة نسبية . والنسب أمور عدمية . وإذا لم تكن صفة ثبوتية لم تكن داخلة فى الحقيقة . لأن العدم لا يكون جزءاً من الوجود .

فقال الشيخ تقي الدين : قولك : ليس للمتعلق من المتعلق صفة ثبوتية . ليس على العموم . بل قد يكون للمتعلق من المتعلق صفة ثبوتية ، وقد لا يكون . وإنما الذي يقوله أكثر المتكلمين : ليس لمتعلق القول من القول صفة ثبوتية .

ثم الصفات المتعلقة نوعان : أحدها : إضافة محضة . مثل الأبوة والبنوة ، والفوقية ، والتحتية ونحوها . فهذه الصفة هي التى يقال فيها : هي مجرد نسبة وإضافة . والنسب أمور عدمية . والثاني صفة ثبوتية مضافة

إلى غيرها ، كالحب والبغض ، والإرادة والكراهـة ، والقدرة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن الحب صفة ثبوتيـة متعلقة بالمحبوب . فالحب معروض للإضافة ، بمعنى أن الإضـافة صفة عرضت له ؛ لا أن نفس الحب هو الإضافة . ففرق بين ما هو إضافة وبين ما هو صفة مضافة . فالإضافة يقـال فيها : إنها عدمية . قال : وأما الصفة المضـافة فقد تكون ثبوتية ، كالحب .

قال ابن المرحـل : الحب أمر عدمي . لأن الحب نسبـة . والنسب عدمية .

قال الشيـخ تقي الدين : كون الحب ، والبغض والإرادة ، والكراهـة أمراً عدمياً باطل . بالضرورة . وهو خلاف إجماع العقلاء .

ثم هو مذهب بعض المعتزلة فى إرادة الله . فإنه زعم أنها صفة سلبية . بمعنى أنه غير مغلوب ولا مستكره . وأطبق الناس على بطلان هذا القول . وأما إرادة المخلوق وحبه وبغضه فلم نعلم أحداً من العقلاء قال : إنه عدمي .

فأصر ابن المرحل ، على أن الحب ـــ الذي هو ميل القلب إلى المحبوب ـــ أمر عدمي . وقال : المحبة : أمر وجودي .

قال الشيخ تقي الدين : ـــ المحبة هي الحب . فإنه يقال : أحبه وحبه حباً ومحبة . ولا فرق . وكلاهما مصدر .

قال ابن المرحـــل : وأنا أقول : إنهـــما إذا كانا مصدرين فهما أمر عدمي .

قال له الشيخ تقي الدين : الكلام إذا انتهى إلى المقدمات الضرورية فقد انتهى وتم . وكون الحب والبغض أمراً وجودياً معلوم بالاضطرار ؛ فإن كل أحد يعـــلم أن الحي إن كان خاليـــاً عن الحب كان هذا الخلو صفة عدمية . فإذا صار محباً ، فقد تغير الموصوف وصار له صفة ثبوتية زائدة على ما كان قبل أن يقوم به الحب . ومن يحس ذلك من نفسه يجده ، كما يجد شهوته ونفرته ورضاه وغضبه ولذته وألمه .

ودليل ذلك : أنك تقول : أحب يحب محبة . ونقيض أحب : لم يحب . ولم يحب صفة عدمية ، ونقيض العدم الإثبات .

قال ابن المرحل : هذا ينتقض بقولهم : امتنع يمتنع ؛ فإن نقيض الامتناع : لا امتناع . وامتناع صفة عدمية .

قال الشيخ تقي الدين : الامتناع أمر اعتباري عقلي ؛ فإن الممتنع ليس له وجود خارجي . حتى تقوم به صفة . وإنمـــا هو معلوم بالعقل .

وباعتبار كونه معلوماً له ثبوت علمي ، وسلب هذا الثبوت العلمي : عدم هذا الثبوت ؛ فلم ينقض هذا قولنا : نقيض العدم ثبوت ، وأما الحب فإنه صفة قائمة بالمحب . فإنك تشير إلى عين خارجة ، وتقول : هذا الحى صار محباً بعد أن لم يكن محباً . فتخبر عن الوجود الخارجى . فإذا كان نقيضها عدماً خارجياً ، كانت وجوداً خارجياً .

وفى الجملة : فكون الحب والبغض صفة ثبوتية وجودية معلوم بالضرورة . فلا يقبل فيه نزاع ولا يناظر صاحبه إلا مناظرة السوفسطائية .

قلت : وإذا كان الحب والبغض ونحوهما من الصفات المضافة المتعلقة بالغير : صفات وجودية . ظهر الفرق بين الصفات التى هي إضافة ونسبة . وبين الصفات التى هي مضافة منسوبة . فالحمد والشكر من القسم الثاني ؛ فإن الحمد أمر وجودي متعلق بالمحمود عليه . وكذلك الشكر أمر وجودي متعلق بالمشكور عليه . فلا يتم فهم حقيقتها إلا بفهم الصفة الثبوتية لهما التى هي متعلقة بالغير . وتلك الصفة داخلة في حقيقتهما . فإذا كان متعلق أحدهما أكبر من متعلق الآخر ، وذلك التعلق إنما هو عارض لصفة ثبوتية لهما . وجب ذكر تلك الصفة الثبوتية فى ذكر حقيقتهما .

والدليل على هذا : أن من لم يفهم الإحسان امتنع أن يفهم الشكر

فعلم أن تصور متعلق الشكر داخل فى تصور الشكر .

قلت : ولو قيل : إنه ليس هذا إلا أمراً عدمياً . فالحقيقة إن كانت مركبة من وجود وعدم ، وجب ذكرهما فى تعريف الحقيقة . كما أن من عرف الأب ، من حيث هو أب . فإن تصوره موقوف على تصور الأبوة ، التى هي نسبة وإضافة . وإن كان الأب أمراً وجودياً .

فالحمد والشكر متعلقان بالمحمود عليه والمشكور عليه . وإن لم يكن هذا المتعلق عارضاً لصفة ثبوتية . فلا يفهم الحمد والشكر إلا بفهم هذا المتعلق . كما لا يفهم معنى الأب إلا بفهم معنى الأبوة ، الذي هو التعلق . وكذلك الحمد والشكر أمران متعلقان بالمحمود عليه والمشكور عليه .

وهذا التعلق جزء من هذا المسمى . بدليل أن من لم يفهم الصفات الجميلة لم يفهم الحمد . ومن لم يفهم الإحسان لم يفهم الشكر .

فإذا كان فهمها موقوفا على فهم متعلقها ، فوقوفه على فهم التعلق أولى . فإن التعلق فرع على المتعلق . وتبع له . فإذا توقف فهمها على فهم المتعلق الذي هو أبعد عنها من التعلق . فتوقفه على فهم التعلق أولى . وإن كان التعلق أمراً عدمياً . والله أعلم .

قال له الشيخ تقي الدين ابن تيميــة : ــــ قوله : (وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ) قد أتبع بقوله (وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ) وعامة أنواع الربا يسمى بيعاً . والربا ــــ وإن كان اسماً مجملا ــــ فهو مجهول . واستثنـاء المجهول مـن المعلوم يوجب جهالة المستثنى فيبقى المراد إحلال البيع الذي ليس بربا . فما لم يثبت أن الفرد المعين ليس بربا لم يصح إدخاله في البيع الحلال . وهذا يمنع دعوى العموم . وإن كان الربا اسماً عاماً فهو مستثنى مــن البيع أيضــاً . فيبقى البيع لفظــاً مخصوصاً . فـلا يصح ادعاء العموم على الإطلاق .

قال ابن المرحل : ــــ هذا من باب التخصيص . وهنــا عمومان تعارضا ، وليس من باب الاستثناء . فإن صيغ الاستثناء معلومة . وإذا كان هذا تخصيصاً لم يمنع ادعاء العموم فيه .

قال الشيخ تقي الدين : ــــ هذا كلام متصل بعضه ببعض ، وهو من باب التخصيص المتصل. وتسميه الفقهاء استثناء ، كقوله : له هــذه الدار ولى منها هذا البيت . فإن هذا بمنزلة قوله : إلا هــذا البيت . وكذلك لو قال : أكرم هؤلاء القوم ولا تـكرم فلاناً وهو منهم . كان بمنزلة قوله : إلا فلاناً . وإذا كان كذلك صار بمنزلة قوله : أحل الله البيع إلا ما كان منه رباً .

فمن ادعى بعد هذا أنه عام في كل ما يسمى بيعاً فهو مخطئ .

قال ابن المرحل : — أنا أسلم أنه إنما هو عام فى كل بيع لايسمى ربا .

قال له الشيخ تقي الدين : — وهذا كان المقصود . ولكن بطل بهذا دعوى عمومه على الإطلاق ؛ فإن دعوى العموم على الإطلاق ينافى دعوى العموم فى بعض الأنواع دون بعض . وهذا كلام بين .

وادعى مدع . أن فيه قولين . أحدهما : أنه عام مخصوص والثاني : أنه عموم مراد .

فقال الشيخ تقي الدين : — فإن دعوى أنه عموم مراد : باطل قطعاً ، فإنا نعلم أن كثيراً من أفراد البيع حرام .

فاعترض ابن المرحل : بأن تلك الأفراد حرمت بعد ما أحلت . فيكون نسخاً .

قال الشيخ تقي الدين : — فيلزم من هذا أن لا نحرم شيئاً من البيوع بخبر واحد ، ولا بقياس . فإن نسخ القرآن لا يجوز بذلك . وإنما يجوز تخصيصه به . وقد اتفق الفقهاء على التحريم بهذه الطريقة .

قال ابن المرحل : ــ رجعت عن هذا السؤال ؛ لكن أقول هو عموم مراد في كل ما يسمى بيعاً في الشرع . فإن البيع من الأسماء المنقولة إلى كل بيع صحيح شرعي .

قال الشيخ تقي الدين : ــ البيع ليس من الأسماء المنقولة ؛ فإن مسماه فى الشرع والعرف هو المسمى اللغوي ؛ لكن الشارع اشترط لحله وصحته شروطا . كما قد كان أهل الجاهلية لهم شروط أيضاً بحسب اصطلاحهم . وهكذا سائر أسماء العقود ، مثل الإجارة والرهن ، والهبة والقرض والنكاح . إذا أريد به العقد وغير ذلك ــ : هي باقية على مسمياتها . والنقل إنما يحتاج إليه إذا أحدث الشارع معاني لم تكن العرب تعرفها . مثل الصلاة والزكاة ، والتيمم . فحينئذ يحتاج إلى النقل . ومعانى هذه العقود ما زالت معروفة .

قال ابن المرحل : ــ أصحابي قد قالوا : إنها منقولة .

قال الشيخ تقي الدين : ــ لو كان لفظ البيع فى الآية المراد به البيع الصحيح الشرعي لكان التقدير : أحل الله البيع الصحيح الشرعي . أو أحل الله البيع الذي هو عنده حلال . وهذا ــ مع أنه مكرر ــ فإنه يمنع الاستدلال بالآية . فإنا لانعلم دخول بيع من البيوع فى الآية حتى نعلم أنه بيع صحيح شرعي . ومتى علمنا ذلك استغنينا عن الاستدلال بالآية .

قال ابن المرحل : ــ متى ثبت أن هذا الفرد يسمى بيعاً فى اللغة قلت : هو بيع فى الشرع ؛ لأن الأصل عدم النقل ، واذا كان بيعاً فى الشرع دخل فى الآية .

قال الشيخ تقي الدين : ــ هذا إنما يصح لو لم يثبت أن الاسم منقول أما إذا ثبت أنه منقول . لم يصح إدخال فرد فيــه . حتى يثبت أن الاسم المنقول واقع عليه . وإلا فيلزم من هــذا أن كل ما سمي فى اللغة صلاة وزكاة ، وتيمما ، وصوما ، وبيعا ، وإجارة ، ورهنا : أنه يجوز إدخاله فى المسمى الشرعي ، بهذا الاعتبار . وعلى هذا التقدير : فلا يبقى فرق بين الأسماء المنقولة وغيرها . وإنما يقال : الأصل عــدم النقل ، إذا لم يثبت . بل متى ثبت النقل فالأصل عدم دخول هذا الفرد فى الاسم المنقول ، حتى يثبت أنه داخل فيه بعد النقل .

وقال شيخ الإسلام

قدس الله روحه [1]



الحمد لله الذي نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ، فهدى به من الضلالة وبصر به من العمى ، وأرشد به من الغي ، وفتح به أعينا عمياً وآذاناً صما ، وقلوبا غلفاً ، وفرق به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال والرشاد والغي ، والمؤمنين

(١) « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

والكفار . والسعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النـار ، وبين أولياء الله وأعداء الله ، فمن شهد له محمد صلى الله عليه وسلم بأنه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن ، ومن شهـد له بأنه من أعـداء الله فهو من أولياء الشيطان .

وقد بين سبحانه وتعالى فى كتابه وسنة رسوله صـلى الله عليـه وسـلم أن لله أولياء من الناس ، وللشيطان أولياء ، ففرق بـين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، فقال تعـالى (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ) وقال تعالى (ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) وقال تعـالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ

وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ) وقال تعالى (هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) .

وذكر « أولياء الشيطان » فقال تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ) وقال تعالى (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا) وقال تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا) .

وقال تعالى (وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا) وقال تعالى (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) وقال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا) إلى قوله

(إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)

وقال تعالى (وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ)

وقال الخليل عليه السلام (يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا)

وقال تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ) ، الآيات ، إلى قوله (إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) .

فصـــل

وإذا عرف أن الناس فيهم « أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما ، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ) .

وفى الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله : من عادى لي وليا فقد بارزنى بالمحاربة ــ أو فقد آذنته بالحرب ــ وما تقرب إلي

عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي . ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » وهذا أصح حديث يروي فى الأولياء فبين النبي صلى الله عليه وسلم أنه من عادى ولياً لله فقد بارز الله بالمحاربة .

وفي حديث آخر « وإنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب » أى آخذ ثأرهم ممن عاداهم كما يأخذ الليث الحرب ثأره ، وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه ، فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع كما فى الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أوثق عرى الإيمان : الحب فى الله والبغض فى الله » وفى حديث آخر رواه أبو داود قال « ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » .

و « الولاية » ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل

العداوة البغض والبعد . وقد قيل : إن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات أي متابعته لها ، والأول أصح . والولي القريب ، فيقال : هذا يلي هذا أي يقرب منه . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر » أي لأقرب رجل إلى الميت . وأكده بلفظ « الذكر » ليبين أنه حكم يختص بالذكور ، ولا يشترك فيها الذكور والإناث كما قال في الزكاة « فابن لبون ذكر » .

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه كان المعادي لوليه معاديا له كما قال تعالى : (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ) فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ، ومن عاداه فقد حاربه ، فلهذا قال « ومن عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة » .

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم ، قال تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) وقال تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا * لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن

صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا) .

وأفضل أولي العزم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المتقين ، وسيد ولد آدم ، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون وصاحب لواء الحمد ، وصاحب الحوض المورود ، وشفيع الخلائق يوم القيامة وصاحب الوسيلة والفضيلة ، الذي بعثه بأفضل كتبه وشرع له أفضل شرائع دينه ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم ، وهم آخر الأمم خلقاً ، وأول الأمم بعثاً ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح: « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ؛ فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه ـ يعني يوم الجمعة ـ فهدانا الله له : الناس لنا تبع فيه ، غداً لليهود وبعد غد للنصارى »

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا أول من تنشق عنه الأرض » وقال صلى الله عليه وسلم : « آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول أنا محمد ، فيقول بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك » .

وفضائله صلى الله عليه وسلم وفضائل أمته كثيرة ، ومن حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه ، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به ، واتبعه باطناً وظاهراً ، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله ؛ بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان ، قال تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ) قال الحسن البصري رحمه الله : ادعى قوم أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم ، وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه ، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من أولياء الله ، وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه. قال تعالى : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ) الآية . وقال تعالى : (وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) الى قوله (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ، ومجاورتهم البيت ، وكانوا يستكبرون به على غيرهم ، كما قال تعالى (قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ) ، وقال تعالى : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ) إلى قوله (وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ) فبين سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته ، إنما أولياؤه المتقون .

وثبت فى الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جهاراً من غير سر : « إن آل فلان ليسوا لي بأولياء — يعني طائفة من أقاربه — إنما وليي الله وصالح المؤمنين » وهذا موافق لقوله تعالى : (فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) الآية . وصالح المؤمنين هو من كان صالحاً من المؤمنين ، وهم المؤمنون المتقون أولياء الله . ودخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكلهم فى الجنة كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » ومثل هذا الحديث الآخر : « إن أوليائى المتقون أياً كانوا وحيث كانوا » .

كما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله وليس ولياً لله ؛ بل عدو له ، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يقرون فى الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنه مرسل إلى جميع الإنس ؛ بل إلى الثقلين الإنس والجن ، ويعتقدون فى الباطن

ما يناقض ذلك ، مثل ألا يقروا فى الباطن بأنه رسول الله ، وإنما كان ملكا مطاعا ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك ، أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب كما يقوله كثير من اليهود والنصارى ، أو أنه مرسل إلى عامة الخلق وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه ؛ بل لهم طريق إلى الله من غير جهته ، كما كان الخضر مع موسى ، أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها ، وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها ، أو هم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته .

وقد يقول بعض هؤلاء : إن « أهل الصفة » كانوا مستغنين عنه ، ولم يرسل إليهم ، ومنهم من يقول : إن الله أوحى إلى أهل الصفة فى الباطن ما أوحى إليه ليلة المعراج ، فصار أهل الصفة بمنزلته ، وهؤلاء من فرط جهلهم لا يعلمون أن الإسراء كان بمكة كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ ، وأن الصفة لم تكن إلا بالمدينة ، وكانت صفة فى شمالي مسجده صلى الله عليه وسلم ينزل بها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم ؛ فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي صلى

الله عليه وسلم إلى المدينة ؛ فمن أمكنه أن ينزل فى مكان نزل به ، ومن تعذر ذلك عليه نزل فى المسجد إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه .

ولم يكن « أهل الصفة » ناساً بأعيانهم يلازمون الصفة ؛ بل كانوا يقلون تارة ويكثرون أخرى ، ويقيم الرجل بها زماناً ثم ينتقل منها : والذين ينزلون بها من جنس سائر المسلمين ؛ ليس لهم مزية فى علم ولا دين ؛ بل فيهم من ارتد عن الإسلام وقتله النبي صلى الله عليه وسلم كالعرنيين الذين اجتووا المدينة — أي استوخموها — فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم بلقاح — أي إبل لها لبن — وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فلما صحوا قتلوا الراعي ، واستاقوا الذود فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في طلبهم ، فأتى بهم ، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم وتركهم فى الحرة يستسقون فلا يسقون وحديثهم في الصحيحين من حديث أنس ، وفيه أنهم نزلوا الصفة ، فكان ينزلها مثل هؤلاء ، ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبي وقاص وهو أفضل من نزل بالصفة ، ثم انتقل عنها ، ونزلها أبو هريرة وغيره .

وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمى تاريخ من نزل الصفة .

وأما « الأنصار » فلم يكونوا من أهل الصفة ، وكذلك أكابر المهاجرين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن

ابن عوف وأبي عبيدة وغيرهم لم يكونوا من أهل الصفة .

وقد روى أنه بها غلام للمغيرة بن شعبة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هذا واحد من السبعة » وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم وإن كان قد رواه أبو نعيم فى الحلية ، وكذا كل حديث يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى عدة « الأولياء » و « الأبدال » و « النقباء » و « النجباء » و « الأوتاد » و « الأقطاب » مثل أربعة أو سبعة أو اثنى عشر أو أربعين أو سبعين أو ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أو القطب الواحد ، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ « الأبدال » . وروى فيهم حديث أنهم أربعون رجلا وأنهم بالشام وهو فى المسند من حديث علي رضي الله عنه ، وهو حديث منقطع ليس بثابت . ومعلوم أن علياً ومن معه من الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي ، وقد أخرجا في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تمرق مارقة من الدين على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق » وهؤلاء المارقون هم الخوارج الحرورية الذين مرقوا لما حصلت الفرقة بين المسلمين فى خلافة علي ، فقتلهم علي بن أبى طالب وأصحابه . فدل هذا الحديث الصحيح على أن علي

ابن أبي طالب أولى بالحق من معاوية وأصحابه ؛ وكيف يكون الأبدال فى أدنى العسكرين دون أعلاهما ؟

وكذلك ما يرويه بعضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه أنشد منشد

قد لسعت حية الهوى كبدي   فلا طبيب لها ولا راقي

إلا الحبيب الذي شغفت به   فعنده رقيتى وترياقي

وأن النبي صلى الله عليه وسلم تواجد حتى سقطت البردة عن منكبه » فإنه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث ، وأكذب منه ما يرويه بعضهم : « أنه مزق ثوبه ، وأن جبريل أخذ قطعة منه فعلقها على العرش » ، فهذا وأمثاله مما يعرف أهل العلم والمعرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من أظهر الأحاديث كذباً عليه صلى الله عليه وسلم .

وكذلك ما يروونه عن عمر رضي الله عنه أنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يتحدثان وكنت بينهما كالزنجي » ، وهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث .

والمقصود هنا أن فيمن يقر برسالته العامة فى الظاهر من يعتقد في الباطن ما يناقض ذلك فيكون منافقاً وهو يدعى في نفسه وأمثاله

أنهم أولياء الله مع كفرهم فى الباطن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إما عناداً وإما جهلاً ، كما أن كثيراً من النصارى واليهود يعتقدون أنهم أولياء الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ ولكن يقولون إنما أرسل إلى غير أهل الكتاب ، وأنه لا يجب علينا اتباعه ، لأنه أرسل إلينا رسلاً قبله ، فهؤلاء كلهم كفار مع أنهم يعتقدون فى طائفتهم أنهم أولياء الله ، وإنما أولياء الله الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله : (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ) .

ولا بد فى الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويؤمن بكل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله ، كما قال تعالى : (قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)

وقال تعالى : (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ)

إلى آخر السورة . وقال فى أول السورة : (الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ *

وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) .

فلا بد في الإيمان من أن تؤمن أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، لا نبي بعده ، وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن ؛ فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين ؛ ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن ، كما قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

ومن الإيمان به الإيمان بأنه الواسطة بين الله وبين خلقه فى تبليغ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وحلاله وحرامه ؛ فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر من أولياء الشيطان .

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار ، فهذا لله وحده يفعله بما يشاء من الأسباب ،لا يدخل فى مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل فى « الزهد والعبادة والعلم » ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فليس بمؤمن ، ولا ولي لله تعالى كالأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم ؛ وكذلك المنتسبين إلى العلم والعبادة من المشركين مشركي العرب والترك والهند وغيرهم ممن كان من حكماء الهند والترك وله علم أو زهد وعبادة فى دينه وليس مؤمناً بجميع ما جاء به فهو كافر عدو لله ، وإن ظن طائفة أنه ولي لله ، كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً .

وكذلك حكماء « اليونان » مثل أرسطو وأمثاله كانوا مشركين يعبدون الأصنام والكواكب ، وكان أرسطو قبل المسيح عليه السلام بثلاثمائة سنة ، وكان وزيراً للإسكندر بن فيلبس المقدونى ، وهو الذي تؤرخ به تواريخ الروم واليونان ، وتؤرخ به اليهود والنصارى ؛ وليس هذا هو ذو القرنين الذي ذكره الله فى كتابه ، كما يظن بعض الناس أن ارسطو كان وزيراً لذى القرنين لما رأوا أن ذاك اسمه الإسكندر ، وهذا قد يسمى بالإسكندر ظنوا أن هذا ذاك كما يظنه ابن سينا وطائفة معه ،

وليس الأمر كذلك ؛ بل هذا الإسكندر المشرك الذي قد كان أرسطو وزيره متأخر عن ذاك ، ولم يبن هـذا السد ، ولا وصـل إلى بلاد يأجوج ومأجوج ، وهذا الإسكندر الذي كان أرسطو من وزرائه يؤرخ له تاريخ الروم المعروف .

وفي أصناف المشركين مـن مشركى العرب ومشركي الهنـد والترك واليونان وغيرهم من له اجتهاد فى العلم والزهد والعبـادة ؛ ولكن ليس بمتبـع للرسل ولا يؤمن بما جاءوا به ولا يصدقهم بمـا أخبروا به ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ولا أولياء لله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم فيكاشفون الناس ببعض الأمور ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين . قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ) .

وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المـكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل فلا بد أن يكذبوا ، وتـكذبهـم شياطينهم . ولا بد أن يكون فى أعمالهم ما هو إثم وفجور مثل نوع مـن الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغـلو أو البدع في العبادة ؛ ولهـذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن . قال الله تعالى : (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ)

وذكر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم مثل القرآن فمن لم يؤمن بالقرآن ويصدق خبره ويعتقد وجوب أمره فقد أعرض عنه فيقيض له الشيطان فيقترن به، قال تعالى: (وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ) وقال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ) فدل ذلك على أن ذكره هو آياته التى أنزلها، ولهذا لو ذكر الرجل الله سبحانه وتعالى دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد، وعبده مجتهداً فى عبادته ولم يكن متبعاً لذكره الذي أنزله — وهو القرآن — كان من أولياء الشيطان ولو طار فى الهواء أو مشى على الماء؛ فإن الشيطان يحمله فى الهواء. وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع.

فصل

ومن الناس من يكون فيه إيمان، وفيه شعبة من نفاق، كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب؛

وإذا وعـد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، وإذا عاهـد غدر » وفى الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحيـاء شعبة من الإيمان » فبين النبي صلى الله عليـه وسلم أن من كان فيـه خصلة من هذه الخصال ففيه خصلة من النفاق حتى يدعهـا ، وقد ثبت في الصحيحين أنه قال لأبي ذر ـــ وهو من خيار المؤمنـين ـــ « إنك امرؤ فيك جاهلية » فقال يا رسول الله أعلى كبر سني ؟ ! قال : « نعم » ! .

وثبت فى الصحيح عنه أنه قال « أربـع في أمتى من أمر الجاهلية : الفخر فى الأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم » وفى الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صـلى الله عليه وسـلم أنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » وفى صحيح مسـلم « وإن صـام وصلى وزعم أنه مسلم » وذكر البخاري عـن ابن أبي مليـكة قال : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صـلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفـاق على نفسه ، وقد قال الله تعالى : (وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ) فقد جعل هؤلاء إلى

الكفر أقرب منهم للإيمان ، فعلم أنهم مخلطون وكفرهم أقوى ، وغيرهم يكون مخلطاً وإيمانه أقوى .

وإذا كان « أولياء الله » هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون فى ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم فى الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون فى عداوة الله بحسب تفاضلهم فى الكفر والنفاق ، قال الله تعالى : (وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) وقال تعالى : (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) وقال تعالى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) وقال تعالى في المنافقين (فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) . فبين سبحانه وتعالى أن الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب إيمانه ؛ وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه . وقال تعالى (وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا) وقال تعالى (لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ) .

فصل

وأولياء الله على « طبقتين » سابقون مقربون ، وأصحاب يمين مقتصدون . ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز فى أول سورة الواقعة وآخرها وفي سورة الإنسان ؛ والمطففين وفي سورة فاطر ، فإنه سبحانه وتعالى ذكر فى الواقعة القيامة الكبرى فى أولها ، وذكر القيامة الصغرى فى آخرها ، فقال في أولها (إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا * وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً * فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ * وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ) فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التى يجمع الله فيها الأولين والآخرين كما وصف الله سبحانه ذلك فى كتابه في غير موضع .

ثم قال تعالى فى آخر السورة : (فَلَوْلَآ) أي : فهلا (إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ *

فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ) .

وقال تعالى فى سورة الانسان : (إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا * إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا * إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا) الآيات .

وكذلك ذكر فى سورة المطففين فقال :

(كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ) إلى ان قال : (كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف قالوا يمزج

لأصحاب اليمين مزجاً ، ويشرب بها المقربون صرفا ، وهو كما قالوا . فإنه تعالى قال (يَشْرَبُ بِهَا) ولم يقل : يشرب منها لأنه ضمن ذلك قوله يشرب يعني يروى بها ، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى ، فإذا قيل يشربون منها لم يدل على الري ، فإذا قيل يشربون بها كان المعنى يروون بها ، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلى مادونها ؛ فلهذا يشربون منها صرفاً ، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجاً ، وهو كما قال تعالى في سورة الإنسان (كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) .

فعباد الله هم المقربون المذكورون فى تلك السورة ، وهذا لأن الجزاء من جنس العمل فى الخير والشر ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ؛ وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم فى صحيحه . وقال صلى الله

عليه وسلم « الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » قال الترمذي : حديث صحيح .

وفى الحديث الآخر الصحيح الذي في السنن « يقول الله تعالى : أنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته » وقال « ومن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعه الله » ومثل هذا كثير .

وأولياء الله تعالى على نوعين : مقربون وأصحاب يمين كما تقدم . وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عمل القسمين فى حديث الأولياء فقال « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ؛ فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها » .

فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ؛ ولا الكف عن فضول المباحات .

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا

الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حبا تاما ، كما قال تعالى: « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » يعني الحب المطلق ، كقوله تعالى : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) أي أنعم عليهم الانعام المطلق التام المذكور فى قوله تعالى : (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا)

فهؤلاء المقربون صارت المباحات فى حقهم طاعات ، يتقربون بها إلى الله عز وجل فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفا كما عملوا له صرفا ، والمقتصدون كان فى أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم ، فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه ، فلم يشربوا صرفا ؛ بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه فى الدنيا .

ونظير هذا انقسام الأنبياء عليهم السلام إلى عبد رسول ونبي ملك وقد خير الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بين أن يكون عبداً رسولا ، وبين أن يكون نبيا ملكا ، فاختار أن يكون عبداً رسولا ، فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام قال الله تعالى فى قصة سليمان الذي (قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ

وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)
أي أعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك ، فالنبي الملك
يفعل ما فرض الله عليه ويترك ما حرم الله عليه ويتصرف فى الولاية
والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه .

وأما العبد الرسول فلا يعطي أحداً إلا بأمر ربه ولا يعطى من
يشاء ويحرم [من يشاء بل روى عنه] أنه قال « إنى والله لا أعطي
أحداً ولا أمنع أحداً ، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت ، ولهذا يضيف
الله الأموال الشرعية إلى الله والرسول كقوله تعالى : (قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ
وَٱلرَّسُولِ) وقوله تعالى : (مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)
وقوله تعالى : (وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ) .

ولهذا كان أظهر أقوال العلماء أن هذه الأموال تصرف فيما يحبه
الله ورسوله بحسب اجتهاد ولي الأمر كما هو مذهب مالك وغيره من
السلف ، ويذكر هذا رواية عن أحمد ، وقد قيل فى الخمس أنه يقسم
على خمسة ، كقول الشافعي وأحمد فى المعروف عنه ، وقيل : على ثلاثة ،
كقول أبي حنيفة رحمه الله .

و « المقصود هنا » أن العبد الرسول هو أفضل من النبي الملك ، كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام ، كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار أصحاب اليمين الذين ليسوا مقربين سابقين ، فمن أدى ما أوجب الله عليه وفعل من المباحات ما يحبه فهو من هؤلاء ، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ويقصد أن يستعين بما أبيح له على ما أمره الله فهو من أولئك .

فصل

وقد ذكر الله تعالى « أولياءه » المقتصدين والسابقين في سورة فاطر في قوله تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ)

لكن هذه الاصناف الثلاثة فى هذه الآية هم امة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة كما قال تعالى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ

ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ) .

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة ، وليس ذلك مختصاً بحفاظ القرآن ؛ بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء ، وقسمهم إلى ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق ؛ بخلاف الآيات التى فى الواقعة والمطففين والانفطار ، فإنه دخل فيها جميع الأمم المتقدمة كافرهم ومؤمنهم ، وهذا التقسيم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ف « الظالم لنفسه » أصحاب الذنوب المصرون عليها ، ومن تاب من ذنبه أي ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين ، و « المقتصد » المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم . و « السابق للخيرات » هو المؤدي للفرائض والنوافل ، كما فى تلك الآيات ، ومن تاب من ذنبه أي ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين كما فى قوله تعالى : (وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ)

و « المقتصد » المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم ، و « السابق بالخيرات » هو المؤدي للفرائض والنوافل كما فى تلك الآيات .

وقوله (جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا) مما يستدل به أهل السنة على انه لا يخلد فى النار أحد من أهل التوحيد .

واما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم كما تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى أهل الكبائر وإخراج من يخرج من النار بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وشفاعة غيره . فمن قال : إن أهل الكبائر مخلدون فى النار وتأول الآية على أن السابقين هم الذين يدخلونها وأن المقتصد أو الظالم لنفسه لا يدخلها ، كما تأوله من المعتزلة فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول أحد من أهل الكبائر النار ، ويزعمون أن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب ، وكلاهما مخالف للسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولإجماع سلف الأمة وأئمتها .

وقد دل على فساد قول « الطائفتين » قول الله تعالى فى آيتين من كتابه وهو قوله تعالى (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء ، ولا يجوز أن يراد بذلك التائب كما يقوله من يقوله من

المعتزلة لأن الشرك يغفره الله لمن تاب وما دون الشرك يغفره الله أيضاً للتائب فلا تعلق بالمشيئة ؛ ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى :

(قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ) . فهنا عمم المغفرة وأطلقها ، فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه ، فمن تاب من الشرك غفر الله له ، ومن تاب من الكبائر غفر الله له ، وأي ذنب تاب العبد منه غفر الله له . ففي آية التوبة عمم وأطلق ، وفي تلك الآية خصص وعلق ، فخص الشرك بأنه لا يغفره ، وعلق ما سواه على المشيئة ومن الشرك التعطيل للخالق وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب . ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه كتعطيل الخالق ، أو يجوز ألا يعذب بذنب ؛ فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر البعض دون البعض ، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفوراً له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة .

وقوله تعالى : (وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) دليل على أنه يغفر البعض دون البعض ، فبطل النفي والوقف العام .

فصـــل

وإذا كان « أولياء الله عز وجل » هم المؤمنون المتقـون . والنـاس يتفاضلون فى الإيمان والتقوى ، فهم متفاضلون فى ولاية الله بحسب ذلك ، كما أنهم لما كانوا متفاضلين فى الكفر والنفاق كانوا متفاضلين فى عداوة الله بحسب ذلك .

وأصل الإيمـان والتقوى : الإيمـان برسل الله ، وجمـاع ذلك : الإيمان بخاتم الرسل محمد صـلى الله عليـه وسـلم ، فالإيمان به يتضمن الإيمان بجميع كتب الله ورسله ، وأصل الكفر والنفـاق هو الكفر بالرسل ، وبما جاءوا به ، فإن هـذا هو الكفر الذي يستحـق صـاحبه العذاب فى الآخرة ؛ فإن الله تعالى أخبر فى كتابه أنه لا يعذب أحـداً إلا بعد بلوغ الرسالة . قال الله تعـالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)

وقال تعالى (إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا * رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ)

وقال تعالى عن أهل النار (كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ)

فأخبر أنه كلما ألقى فى النار فوج أقروا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه ، فدل ذلك على أنه لا يلقى فيها فوج إلا من كذب النذير . وقال تعالى فى خطابه لا بليس (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)

فأخبر أنه يملؤها بإبليس ومن اتبعه ؛ فإذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم . فعلم أنه لا يدخل النار إلا من تبع الشيطان ، وهذا يدل على أنه لا يدخلها من لا ذنب له فإنه ممن لم يتبع الشيطان ولم يكن مذنباً ، وما تقدم يدل على أنه لا يدخلها إلا من قامت عليه الحجة بالرسل .

فصل

ومن الناس من يؤمن بالرسل إيماناً مجملا ، وأما الإيمان المفصل فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل ولم يبلغه بعض ذلك فيؤمن بما بلغه عن الرسل ، وما لم يبلغه لم يعرفه ولو بلغه لآمن به ؛ ولكن آمن بما جاءت به الرسل إيماناً مجملا ، فهذا إذا عمل بما علم أن الله أمره به مع

إيمانه وتقواه فهو من أولياء الله تعالى ، له من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه ، وما لم تقم عليه الحجة فإن الله تعالى لم يكلفه معرفته والإيمان المفصل به ، فلا يعذبه على تركه ؛ لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاته من ذلك ، فمن علم بما جاء به الرسل وآمن به إيماناً مفصلا وعمل به فهو أكمل إيماناً وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلا ولم يعمل به ؛ وكلاهما ولي لله تعالى .

والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما ، وأولياء الله المؤمنون المتقون فى تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم . قال تبارك وتعالى : (مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .

فبين الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه وأن عطاءه ما كان محظوراً من بر ولا فاجر ، ثم قال تعالى : (ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .
فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس فى الدنيا وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين

تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين ، فقال تعالي :
(تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ)
و قال تعالى : (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا) .

وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » وفي الصحيحين عن أبى هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وقد قال الله تعالى : (لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ)
وقال تعالى : (لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

وقال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

فصـــــل

وإذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقياً لقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ وفى صحيح البخاري الحديث المشهور ـــ وقد تقدم ـــ يقول الله تبارك وتعالى فيه : « ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه » ولا يكون مؤمنا تقياً حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون مــن الأبرار

أهل اليمين ، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين ، فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله .

وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة — وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم رسول — فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين ؛ فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات لم يكن من أولياء الله . وكذلك المجانين والأطفال ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق . وعن الصبي حتى يحتلم . وعن النائم حتى يستيقظ » . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة رضي الله عنهما . واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول . لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء . وأما المجنون الذي رفع عنه القلم فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء . ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ؛ بل لا يصلح هو عند عامة العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة . فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ولا تصح عقوده باتفاق العلماء . فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته . ولا غير ذلك من أقواله ، بل

أقواله كلها لغو لا يتعلق بهـا حكم شرعي ، ولا ثواب ولا عقاب . بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالاً معتبرة فى مواضـع بالنص والإجماع . وفى مواضع فيها نزاع .

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون ولياً لله فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله ؛ لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه ، أو نوع من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع ؛ فإنه قد علم أن الكفار والمنافقـين ـ من المشركين وأهـل الكتاب ـ لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعبـاد المشركين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله وإن لم يعلم منـه ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ؟! مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً ؛ بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة . أو يعتقد أن لأولياء الله طريقـاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام . أو يقول : إن الأنبياء ضيقوا الطريق أو هم على قدوة العامة دون الخاصة ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعى الولاية فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان . فضلاً عن ولاية الله عز وجل . فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى .

وكذلك المجنون ؛ فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات التي هي شرط فى ولاية الله ، ومن كان يجن أحياناً ويفيق أحياناً . إذا كان فى حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ويؤدي الفرائض ويجتنب المحارم ؛ فهذا إذا جن لم يكن جنونه مانعاً من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه الذي أتى به فى حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك . وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه ؛ فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ؛ ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلى به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه فى حال جنونه .

فعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم بل قد يأتى بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول هذا ولي لله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ؛ بل كان متولهاً من غير جنون أو كان يغيب عقله بالجنون تارة ، ويفيق أخرى وهو لا يقوم بالفرائض ، بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر ، وإن كان مجنوناً باطناً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم ؛ فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين فليس هو مستحقا لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل ، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي لله ، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمناً بالله متقياً كان له من ولاية الله بحسب ذلك ،

وان كان له فى حال إفاقته فيه كفر أو نفاق أو كان كافراً أو منافقاً ثم طرأ عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق .

فصل

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحات فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحا ، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحا كما قيل : كم من صديق في قباء وكم من زنديق فى عباء ؛ بل يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ، فيوجدون فى أهل القرآن وأهل العلم ، ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف ويوجدون في التجار والصناع والزراع . وقد ذكر الله أصناف أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ) .

وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « القراء » فيدخل فيهم العلماء والنساك ، ثم حدث بعد ذلك اسم « الصوفية والفقراء » . واسم « الصوفية » هو نسبة إلى لباس الصوف ؛ هذا هو الصحيح وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء ، وقيل إلى صوفة بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفة ، وقيل إلى الصفا ، وقيل إلى الصفوة وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى ، وهذه أقوال ضعيفة ، فإنه لو كان كذلك لقيل صفى أو صفائى أو صفوى أو صفى ، ولم يقل صوفى .

وصار أيضا اسم « الفقراء » يعني به أهل السلوك ، وهذا عرف حادث ، وقد تنازع الناس أيما أفضل مسمى « الصوفى » أو مسمى « الفقير » ؟ ويتنازعون أيضا أيما أفضل : الغني الشاكر أو الفقير الصابر ؟ .

وهذه المسألة فيها نزاع قديم بين الجنيد وبين أبي العباس بن عطاء ، وقد روى عن أحمد بن حنبل فيها روايتان ، والصواب فى هذا كله ما قاله الله تبارك وتعالى حيث قال : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) .

وفي الصحيح عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله

عليـه وسلم أنه سئل : « أي الناس أفضل ؟ قال أتقـاهم . قيـل له : ليس عن هذا نسألك فقال : يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله . فقيل له : ليس عن هذا نسألك . فقال : عن معادن العرب تسألونى ؟ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » .

فدل الكتاب والسنة أن أكرم الناس عند الله أتقاهم .

وفى السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا فضل لعربى على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وعنه أيضا صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله تعالى أذهب عنكم عُبّية الجاهلية وفخرها بالآباء ، الناس رجلان : مؤمن تقى وفاجر شقى » .

فمن كان من هذه الأصناف أتقى لله فهو أكرم عند الله وإذا استويا فى التقوى استويا فى الدرجة .

ولفظ « الفقر » فى الشرع يراد به الفقر من المال ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه كما قال تعالى : (إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ)

وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ) وقد مدح الله تعالى في القرآن صنفين من الفقراء : أهل الصدقات وأهل الفيء ، فقال في الصنف الأول : (لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا) وقال في الصنف الثاني وهم افضل الصنفين (لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ) .

وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات وجاهدوا أعداء الله باطناً وظاهراً ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله » .

أما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » فلا أصل له ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله ، وجهاد الكفار من أعظم الأعمال ؛ بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان قال الله تعالى : (لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ

وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) وقال تعالى : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

وثبت في صحيح مسلم وغيره عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل : ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج ، وقال آخر : ما أبالي أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ، وقال علي بن أبي طالب الجهاد في سبيل الله أفضل مما ذكرتما ، فقال عمر : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن إذا قضيت الصلاة سألته ، فسأله فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ! أي الأعمال أفضل عند الله عز وجل ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » . قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » قال : حدثني بهن رسول الله صلى الله

عليه وسلم ولو استزدته لزادني ، وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله وجهاد في سبيله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال حج مبرور » .

وفى الصحيحين أن رجلاً قال له صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أخبرني بعمل يعدل الجهاد فى سبيل الله قال : « لا تستطيعه أو لاتطيقه » قال فأخبرني به قال : « هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تفتر » ؟

وفى السنن عن معاذ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال : « يامعاذ ! اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » ، وقال : « يامعاذ ! إني لأحبك فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، وقال له — وهو رديفه — يا معاذ : « أتدري ما حق الله على عباده » قلت الله ورسوله أعلم . قال : « حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حقهم عليه ألا يعذبهم » .

وقال أيضاً لمعاذ : « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة

سنامه الجهاد في سبيل الله » ، وقال : « يا معاذ ألا أخبرك بأبواب البر ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وقيام الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ (تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) ثم قال : يا معاذ ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت بلى ! فقال : أمسك عليك لسانك هذا فأخذ بلسانه ، قال يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » .

وتفسير هذا ما ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه ، والصمت عن الشر خير من التكلم به . فأما الصمت الدائم فبدعة منهي عنها ، وكذلك الامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء فذلك من البدع المذمومة أيضاً ، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائماً في الشمس فقال : « ما هذا » فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه » .

وثبت فى الصحيحين عن أنس أن رجالاً سألوا عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنهم تقالوها فقالوا وأينا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟! ثم قال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا ؟! ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » أي سلك غيرها ظاناً أن غيرها خير منها ، فمن كان كذلك فهو بريء من الله ورسوله ، قال تعالى : (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ) . بل يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت عنه فى الصحيح أنه كان يخطب بذلك كل يوم جمعة .

فصل

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ ؛ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى

الله عنه ، ويجوز أن يظن فى بعض الخوارق أنهــا من كرامات أوليـاء الله تعالى وتـكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجتــه ولا يعرف أنها من الشيطان وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعـالى ؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيــان وما استكرهوا عليه ، فقال تعالى : (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ)

وقد ثبت فى الصحيحين أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال : قــد فعلت ، ففي صحيح مسلم عن ابن عبــاس رضي الله عنهما قال لما نزلت هذه الآ ية (وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) قال : دخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها قبل ذلــك شيء أشد منه ، فقـال النبي صلى الله عليــه وسلم « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » قال فألقى الله الإيمان فى قلوبهم فأنزل الله تعالى (لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

إلى قوله (أَوْ أَخْطَأْنَا) قال الله قــد فعلت (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا) قال : قــد فعلت ، (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ) قال قد فعلت . وقد قال تعالى (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) .

وثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليــه وسلم من حديث أبى هريرة وعمرو بن العــاص رضي الله عنهما مرفوعا أنه قال « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر » فلم يؤثم المجتهد المخطئ ؛ بل جعل له أجراً على اجتهاده ، وجعل خطـأه مغفوراً له ، ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه ؛ ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله لئلا يكون نبياً ؛ بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه فى قلبه إلا أن يكون موافقاً [للشرع] وعلى ما يقــع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطابا من الحق ؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعــه على ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف ؟ توقف فيه .

والناس فى هذا الباب « ثلاثة أصنــاف » طرفان ووسط ؛ فمنهم من إذا اعتقد فى شخص أنه ولي لله وافقه فى كل ما يظن أنه حـدث

به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله ، ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهداً مخطئاً ، وخيار الأمور أوساطها وهو أن لا يجعل معصوما ولا مأثوما إذا كان مجتهداً مخطئاً ، فلا يتبع فى كل ما يقوله ، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده .

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله ، وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ، ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقول هذا خالف الشرع .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتى أحد فعمر منهم » وروى الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر » وفى حديث آخر إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه (وفيه) لو كان نبي بعدي لكان عمر ، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر . ثبت هذا عنه من رواية الشعبي . وقال ابن عمر : ما كان عمر يقول فى شيء : إني لأراه كذا ، إلا كان كما يقول . وعن قيس بن طارق قال كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك . وكان عمر يقول

اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة .

وهذه الأمور الصادقة التى أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنها تتجلى للمطيعين هي الأمور التى يكشفها الله عز وجل لهم . فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات ؛ فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر .

وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر بأنه محدث فى هذه الأمة فأي محدث ومخاطب فرض فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فعمر أفضل منه ، ومع هذا فكان عمر رضي الله عنه يفعل ما هو الواجب عليه فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر كما نزل القرآن بموافقته غير مرة ، وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين ، والحديث معروف فى البخاري وغيره ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد اعتمر سنة ست من الهجرة ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة وهم الذين بايعوه تحت الشجرة ، وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع في ذلك العام ويعتمر من العام القابل ، وشرط لهم شروطاً فيها نوع غضاضة على المسلمين فى

الظاهر ، فشق ذلك عـلى كثير من المسلمـين وكان الله ورسوله أعـلم وأحكم بما فى ذلك من المصلحـة ، وكان عمر فيمن كره ذلك حتى قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يارسول الله ! ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : « بلى » قال : أفليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : « بلى » قال : فعلام نعطى الدنية في ديننا ؟ ! فقال له النبي صلى الله عليـه وسـلم « إنى رسول الله وهو ناصري ولست أعصيـه » ثم قال : أفلم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بـلى » . قال: « أفلت لك أنك تأتيه العـام ؟ » قال : لا ، قال : « إنك آتيه ومطوف به » فذهب عمر إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقال له مثل ما قال النبي صلى الله عليـه وسلم ، ورد عليـه أبو بكر مثل جواب النـبي صلى الله عليـه وسلم ، ولم يكن أبو بكـر يسمع جواب النبي صـلى الله عليه وسلم ، فكان أبو بكر رضي الله عنه أكمل موافقة لله وللنبي صـلى الله عليه وسلم من عمر ، وعمر رضي الله عنه رجع عن ذلك ، وقال : فعملت لذلك أعمالاً .

وكذلك لما مات النبي صـلى الله عليه وسلم أنكر عمر موته أولاً ، فلما قال أبو بكر : إنه مات رجع عمر عن ذلك .

وكذلك فى « قتـال مانعـي الزكاة » قال عمر لأبى بكر : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول لله صلى الله عليـه وسـلم : « أمرت أن

أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأني رســول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » فقال له أبو بكر رضي الله عنه : ألم يقل : « إلا بحقها » ؟! فإن الزكاة من حقها ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونهــا إلى رسول الله صــلى الله عليــه وســلم لقاتلتهم على منعها . قال عمر : فو الله ماهو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعلمت أنه الحق .

ولهذا نظائر تبين تقدم أبي بكر على عمر ، مع أن عمر رضي الله عنه محدث ؛ فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحــدث ، لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله ، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء ، وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويناظرهم ويرجع إليهم فى بعض الأمور ، وينازعونه في أشياء فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقررهم عــلى منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدث ملهــم مخاطب فينبغي لــكم أن تقبــلوا مني ولا تعارضونى ، فأي أحد ادعى أو ادعى له أصحابه أنــه ولي لله وأنــه مخاطب يجب عــلى أتباعه أن يقبــلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ، ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة فهو وهم مخطئون ، ومثل هذا من أضل الناس ، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه وهو

أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه فيما يقوله ، وهو وهم على الكتاب والسنة ، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم ، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل وتجب طاعتهم فيما يأمرون به ؛ بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به ؛ بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة ، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله ، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً ، وإن كان صاحبه من أولياء الله ، وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله ، له أجر على اجتهاده . لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئاً ، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع ؛ فإن الله تعالى يقول : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) وهذا تفسير قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) قال ابن مسعود وغيره : حق تقاته ان يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ؛ وأن يشكر فلا يكفر ، أي بحسب استطاعتكم فإن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها ، كما قال تعالى : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) ، وقال تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وقال تعالى : (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ

وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الإيمان بما جاءت به الأنبياء فى غير موضع كقوله تعالى : (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ)

وقال تعالى : (الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

وقال تعالى : (لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ) .

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع فى قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل ، من خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله

باتباعهم ؛ بل إما أن يكون كافرا ، وإما أن يكون مفرطاً فى الجهل .

وهذا كثير في كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني : إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين : الكتاب والسنة .

وقال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم فى علمنا ، أو قال : لا يقتدى بـه . وقال أبو عثمان النيسابوري من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة ؛ لأن الله تعالى يقول فى كلامه القديم (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) وقال أبو عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

وكثير من الناس يغلط فى هذا الموضع فيظن فى شخص أنه ولي لله ، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة فيوافق ذلك الشخص له ، ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه ، وبين أهل الجنة وأهل النار ، وبين السعداء والأشقياء ،

فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين، وجنده المفلحين ، وعباده الصالحين ؛ ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين، فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولاً إلى البدعة والضلال ، وآخراً إلى الكفر والنفاق ، ويكون له نصيب من قوله تعالى : (وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا) وقوله تعالى : (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) وقوله تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ) .

وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم : (ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

وفى المسند وصححه الترمذي عن عدى بن حاتم فى تفسيره هذه الآية لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها فقال : ما عبدوهم ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم، وكانت هذه عبادتهم إياهم » ، ولهذا قيل فى مثل هؤلاء إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول ، فإن أصل الأصول تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا بد من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا بد من الإيمان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق إنسهم وجنهم، وعربهم وعجمهم ، علمائهم وعبادهم ملوكهم وسوقتهم ، وأنه لا طريق إلى الله عز وجل لأحد من الخلق إلا بمتابعته باطناً وظاهراً ، حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه كما قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه ، وقد قال

تعالى . (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا) .

وكل من خالف شيئاً مما جاء به الرسول مقلداً في ذلك لمن يظن أنه ولي الله فإنه بنى أمره على أنه ولي لله ؛ وأن ولي الله لا يخالف فى شيء ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة ؛ فكيف إذا لم يكن كذلك ؟! وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم فى اعتقاد كونه ولياً لله أنه قد صدر عنه مكاشفة فى بعض الأمور أو بعض التصرفات الخارقة للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت ؛ أو يطير فى الهواء إلى مكة أو غيرها

أو يمشي على الماء أحياناً ؛ أو يملأ إبريقاً من الهواء ؛ أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو أن يختفي أحياناً عن أعين الناس ؛ أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته ؛ أو يخبر الناس بما سرق لهم ؛ أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور ؛ وليس فى شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله ؛ بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته لأمره ونهيه ٠

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور ؛ وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله فقد يكون عدواً لله ؛ فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وتكون لأهل البدع ، وتكون من الشياطين ، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله ؛ بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التى دل عليها الكتاب والسنة ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة ٠

مثال ذلك أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد فى أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ ؛ ولا يصلي الصلوات المكتوبة ؛ بل يكون

ملابساً للنجاسات معاشراً للكلاب ؛ يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل ؛ رائحته خبيثة لا يتطهر الطهارة الشرعية ؛ ولا يتنظف ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب ولا كلب » وقال عن هذه الأخلية : « إن هذه الحشوش محتضرة » أي يحضرها الشيطان وقال : « من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا ؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » .

وقال « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » وقال : « إن الله نظيف يحب النظافة » وقال : « خمس من الفواسق يقتلن فى الحل والحرم : الحية والفأرة والغراب والحدأة والكلب العقور » وفي رواية « الحية والعقرب » . وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب وقال : « من اقتنى كلباً لا يغني عنه زرعا ولا ضرعا نقص من عمله كل يوم قيراط » وقال : « لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب » وقال : « إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب » .

وقال تعالى : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا

ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) .

فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التى يحبها الشيطان أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التى تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير ؛ وآذان الكلاب التى هي خبائث وفواسق أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التى يحبها الشيطان . أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخه ، ولا يخلص الدين لرب العالمين ، أو يلابس الكلاب أو النيران أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة ، أو يأوي إلى المقابر ؛ ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغانى والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله ، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل ؛ وقال ابن مسعود : الذكر ينبت الإيمان فى القلب كما ينبت الماء البقل ، والغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل .

وإن كان الرجل خبيراً بحقائق الإيمان الباطنة فارقا بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية، فيكون قد قذف الله فى قلبه من نوره كما قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) وقال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا) فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه ينظر بنور الله » قال الترمذي حديث حسن . وقد تقدم الحديث الصحيح الذي فى البخاري وغيره قال فيه : « لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها ، فبي يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

فإذا كان العبد من هؤلاء فرق بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما يفرق الصيرفى بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف ، وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديئ ، وكما يفرق من يعرف

الفروسية بين الشجاع والجبان . وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبئ الكذاب ، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين وموسى والمسيح وغيرهم ، وبين مسيلمة الكذاب ؛ والأسود العنسي ، وطليحة الأسدي ، والحارث الدمشقي ؛ وباباه الرومي ؛ وغيرهم من الكذابين ؛ وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين وأولياء الشيطان الضالين .

فصل

و « الحقيقة » حقيقة الدين : دين رب العالمين . هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون ؛ وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج . فـ « الشرعة » هي الشريعة قال الله تعالى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) وقال تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) .

و « المنهاج » هو الطريق قال تعالى : (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) .

فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر ، والمنهاج هو الطريق الذي سلك فيه والغاية المقصودة هي حقيقة الدين ، وهي عبادة الله وحده **لا** شريك له وهي حقيقة دين الإسلام ، وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين ، لا يستسلم لغيره ، فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ، والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين ، وقوله تعالى : (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) عام فى كل زمان ومكان .

فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الإسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له ، قال الله تعالى عن نوح : (يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ) إلى قوله : (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) وقال تعالى : (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) وقال تعالى : (وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ) وقال السحرة : (رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) وقال يوسف عليه السلام : (تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ) وقالت بلقيس : (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقال تعالى : (يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ) وقال الحواريون (ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم ، كما فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » قال تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

فصـــل

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء ، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم « أربع مراتب » فقال تعالى : (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا) .

وفى الحديث : « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبى بكر » وأفضل الأمم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وقال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذي في المسند « أنتم توفون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله »

وأفضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرن الأول .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال :

« خير القرون القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وهذا ثابت فى الصحيحين من غير وجه .

وفى الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تسبوا أصحابي . فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل من سائر الصحابة قال تعالى : (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ) وقال تعالى : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) والسابقون الأولون الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ، والمراد بالفتح صلح الحديبية فإنه كان أول فتح مكة ، وفيه أنزل الله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) فقالوا يارسول الله ! أو فتح هو ؟! قال : نعم .

وأفضل السابقين الأولين « الخلفاء الأربعة » وأفضلهم أبو بكر ثم عمر ، وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الأمة وجماهيرها ، وقد دلت على ذلك دلائل بسطناها فى « منهاج

أهل السنة النبوية، فى نقض كلام أهل الشيعة والقدرية » .

وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة، وأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم واتباعا له كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه واتباعه، وأبو بكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به وعملا به، فهو أفضل أولياء الله إذ كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم، وأفضلها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ وأفضلهم أبو بكر رضي الله عنه .

وقد ظن طائفة غالطة أن « خاتم الأولياء » أفضل الأولياء قياساً على خاتم الأنبياء، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي، فإنه صنف مصنفاً غلط فيه فى مواضع، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء، ومنهم من يدعى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته كما يزعم ذلك ابن عربى صاحب « كتاب الفتوحات المكية » و « كتاب الفصوص » فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه كما يقال لمن قال : فخر عليهم السقف من تحتهم لا عقل ولا قرآن .

ذلك أن الأنبياء أفضل فى الزمان من أولياء هذه الأمة ، والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام أفضل من الأولياء فكيف الأنبياء كلهم؟ والأولياء إنما يستفيدون معرفة الله ممن يأتى بعدهم ويدعى أنه خاتم الأولياء ؟! وليس آخر الأولياء أفضلهم ، كما أن آخر الأنبياء أفضلهم ؛ فإن فضل محمد صلى الله عليه وسلم ثبت بالنصوص الدالة على ذلك ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » . وقوله : « آتى باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول محمد ، فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك »

و « ليلة المعراج » رفع الله درجته فوق الأنبياء كلهم فكان أحقهم بقوله تعالى : (تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ) إلى غير ذلك من الدلائل ، كل منهم يأتيه الوحي من الله ، لا سيما محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فى نبوته محتاجاً إلى غيره ، فلم تحتج شريعته إلى سابق ولا إلى لاحق ؛ بخلاف المسيح أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة ، وجاء المسيح فكملها ؛ ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح : كالتوراة والزبور ، وتمام الأربع وعشرين نبوة ، وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدثين ؛ بخلاف أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله أغناهم به فلم يحتاجوا معه إلى نبي ولا إلى محدث ؛ بل جمع له من الفضائل والمعارف

والأعمال الصالحة ما فرقه فى غيره من الأنبياء ؛ فكان ما فضله الله به من الله بما أنزله إليه وأرسله إليه لا بتوسط بشر .

وهذا بخلاف « الأولياء » فإن كل من بلغه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا يكون ولياً لله إلا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل ما حصل له من الهدى ودين الحق هو بتوسط محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه لا يكون ولياً لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسل إليه .

ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد فهذا كافر ملحد ، وإذا قال : أنا محتاج إلى محمد فى علم الظاهر دون علم الباطن ، أو فى علم الشريعة دون علم الحقيقة ؛ فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا : إن محمداً رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب . فان أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا كفاراً بذلك ، وكذلك هذا الذي يقول إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ، وهو أكفر من أولئك ؛ لأن علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة ، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة .

فإذا ادعى المدعي أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان ؛ وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة ، فقد ادعى أن بعض الذي آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر ، وهذا شر ممن يقول : أو من ببعض ، وأكفر ببعض ، ولا يدعى أن هذا البعض الذي آمن به أدنى القسمين .

وهؤلاء الملاحدة يدعون أن « الولاية » أفضل من « النبوة » ويلبسون على الناس فيقولون : ولايته أفضل من نبوته وينشدون :

مقام النبوة فى برزخ فويق الرسول ودون الولي

ويقولون نحن شاركناه فى ولايته التى هي أعظم من رسالته ، وهذا من أعظم ضلالهم ، فإن ولاية محمد لم يماثله فيها أحد لا إبراهيم ولا موسى ، فضلا عن أن يماثله هؤلاء الملحدون .

وكل رسول نبي ولي ، فالرسول نبي ولي . ورسالته متضمنة لنبوته ، ونبوته متضمنة لولايته ، وإذا قدروا مجرد إنباء الله إياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع ، فإنه حال إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا ولياً لله ، ولا تكون مجردة عن ولايته ، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلا للرسول فى ولايته .

وهؤلاء قد يقولون – كما يقول صاحب « الفصوص » ابن عربي – : إنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول ؛ وذلك أنهم اعتقدوا « عقيدة المتفلسفة » ثم أخرجوها فى قالب « المكاشفة » وذلك أن المتفلسفة الذين قالوا إن الأفلاك قديمة أزلية لها علة تتشبه بها ، كما يقوله أرسطو وأتباعه ؛ أو لها موجب بذاته كما يقوله متأخروهم : كابن سينا وأمثاله ، ولا يقولون إنها لرب خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ولا خلق الأشياء بمشيئته وقدرته ، ولا يعلم الجزئيات ؛ بل إما أن ينكروا علمه مطلقاً ، كقول أرسطو ؛ أو يقولوا إنما يعلم فى الأمور المتغيرة كلياتها كما يقوله ابن سينا ، وحقيقة هذا القول إنكار علمه بها ؛ فإن كل موجود فى الخارج فهو معين جزئي : الأفلاك كل معين منها جزئي ، وكذلك جميع الأعيان وصفاتها وأفعالها ، فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات ، والكليات إنما توجد كليات فى الأذهان لا فى الأعيان .

والكلام على هؤلاء مبسوط فى موضع آخر فى « رد تعارض العقل والنقل » وغيره .

فإن كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى ، بل ومشركي العرب ، فإن جميع هؤلاء يقولون إن الله خلق السموات والأرض ، وإنه خلق المخلوقات بمشيئته وقدرته ، وأرسطو ونحوه من المتفلسفة

واليونان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام ، وهم لا يعرفون الملائكة والأنبياء ، وليس فى كتب أرسطو ذكر شيء من ذلك ، وإنما غالب علوم القوم الأمور الطبيعية ، وأما الأمور الإلهية فكل منهم فيها قليل الصواب ، كثير الخطأ ، واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالإلهيات منهم بكثير ؛ ولكن متأخروهم كابن سينا أرادوا أن يلفقوا بين كلام أولئك وبين ما جاءت به الرسل ؛ فأخذوا أشياء من أصول الجهمية والمعتزلة ، وركبوا مذهباً قد يعتزى إليه متفلسفة أهل الملل ؛ وفيه من الفساد والتناقض ما قد نبهنا على بعضه فى غير هذا الموضع .

وهؤلاء لما رأوا أمر الرسل كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم قد بهر العالم ، واعترفوا بأن الناموس الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أعظم ناموس طرق العالم ، ووجدوا الأنبياء قد ذكروا الملائكة والجن ، أرادوا أن يجمعوا بين ذلك وبين أقوال سلفهم اليونان الذين هم أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأولئك قد أثبتوا عقولاً عشرة يسمونها « المجردات » « والمفارقات » . وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن ، وسموا تلك « المفارقات » لمفارقتها المادة وتجردها عنها . وأثبتوا الأفلاك لكل فلك نفساً ، وأكثرهم جعلوها أعراضاً ، وبعضهم جعلها جواهر .

وهذه « المجردات » التى أثبتوها ترجع عند التحقيق إلى أمور

موجودة فى الأذهان لا فى الأعيان ، كما أثبت أصحاب افلاطون « الأمثال الأفلاطونية المجردة » أثبتوا هيولى مجردة عن الصورة ، ومدة وخلاء مجردين ، وقد اعترف حذاقهم بأن ذلك إنما يتحقق فى الأذهان لا فى الأعيان ؛ فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم كابن سينا أن يثبت أمر النبوات على أصولهم الفاسدة وزعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة من اتصف بها فهو نبي .

(الأول): أن تكون له قوة علمية يسمونها القوة القدسية ينال بها من العلم بلا تعلم .

(الثاني) : أن يكون له قوة تخيلية تخيل له ما يعقل فى نفسه بحيث يرى فى نفسه صوراً أو يسمع فى نفسه أصواتاً كما يراه النائم ويسمعه ولا يكون لها وجود فى الخارج ، وزعموا أن تلك الصور هي ملائكة الله وتلك الأصوات هي كلام الله تعالى .

(الثالث) : أن يكون له قوة فعالة يؤثر بها فى هيولى العالم وجعلوا معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وخوارق السحرة، هي قوى النفس، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم من قلب العصا حية ، دون انشقاق القمر ونحو ذلك ؛ فإنهم ينكرون وجود هذا .

وقد بسطنا الكلام على هؤلاء فى مواضع . وبينا أن كلامهم هذا أفسد الكلام ، وأن هذا الذي جعلوه من الخصائص يحصل ما هو أعظم منه لآحاد العامة ولأتباع الأنبياء ، وأن الملائكة التى أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله وهم كثيرون ، كما قال تعالى: (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) ، وليسوا عشرة ، وليسوا أعراضاً ، لا سيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الأول هو « العقل الأول » ، وعنه صدر كل ما دونه ، و « العقل الفعال العاشر » رب كل ما تحت فلك القمر .

وهذا كله يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل ، فليس أحد من الملائكة مبدع لكل ما سوى الله . وهؤلاء يزعمون أنه العقل المذكور فى حديث يروى « أن أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل فأقبل ، فقال له : أدبر ، فأدبر ، فقال وعزتي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك ، فبك آخذ وبك أعطى ، ولك الثواب وعليك العقاب » . ويسمونه أيضاً « القلم » لما روى « إن أول ما خلق الله القلم » الحديث رواه الترمذي .

والحديث الذي ذكروه فى العقل كذب موضوع عند أهل المعرفة بالحديث ، كما ذكر ذلك أبو حاتم البستى والدار قطني وابن الجوزي وغيرهم . وليس فى شيء من دواوين الحديث التى يعتمد عليها ، ومع

هذا فلفظه لو كان ثابتاً حجة عليهم ؛ فإن لفظه « أول ما خلق الله تعالى العقل قال له — ويروى — لما خلق الله العقل قال له » فمعنى الحديث أنه خاطبه فى أول أوقات خلقه ؛ ليس معناه أنه أول المخلوقات و « أول » منصوب على الظرف كما فى اللفظ الآخر (لما) وتمام الحديث « ما خلقت خلقاً أكرم علي منك » فهذا يقتضي أنه خلق قبله غيره ، ثم قال « فبك آخذ ، وبك أعطي ، ولك الثواب ، وعليك العقاب » فذكر أربعة أنواع من الأعراض ، وعندهم أن جميع جواهر العالم العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل . فأين هذا من هذا ؟!.

وسبب غلطهم أن لفظ « العقل » فى لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل فى لغة هؤلاء اليونان ، فإن « العقل » في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً ، كما فى القرآن (وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ) (إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) ويراد « بالعقل » الغريزة التى جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها .

وأما أولئك ف « العقل » عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل ، وليس هذا مطابقاً للغة الرسل والقرآن . وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبو حامد عالم الأجسام العقل والنفوس فيسميها عالم الأمر ، وقد يسمى « العقل » عالم الجبروت « والنفوس » عالم الملكوت ؛ و « الأجسام »

عالم الملك ، ويظن من لم يعرف لغة الرسـل ولم يعرف معنى الكتـاب والسنة أن مافى الكتاب والسنة من ذكر الملك والملكوت والجـبروت موافق لهذا ، وليس الأمر كذلك .

وهؤلاء يلبسون على المسلمين تلبيساً كثيراً ، كإطلاقهم أن « الفلك » محدث : أي معلول مع إنه قديم عندهم ، والمحدث لا يكون إلا مسبوقا بالعدم ، ليس فى لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى القديم الأزلي محدثا ، والله قد أخبر أنه خالق كل شيء ، وكل مخلوق فهو محدث ، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن ؛ لكن ناظرهم أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ما أخبرت بـه الرسل ، ولا أحكموا فيها قضايا العقول ، فـلا للإسـلام نصروا ، ولا للأعـداء كسروا ، وشاركوا أولئـك فى بعض قضـاياهم الفاسـدة ، ونازعوهم فى بعض المعقولات الصحيحة ، فصار قصور هؤلاء فى العـلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون « جبريل » هو الخيال الذي يتشكل فى نفس النبي صلى الله عليـه وسلم ، والخيال تابع للعقل ، فجاء الملاحدة الذين شاركوا هؤلاء الملاحـدة المتفلسفة وزعموا أنهم « أولياء الله » ، وأن أولياء الله أفضل من أنبيـاء الله ، وأنهم يأخذون عن الله بـلا واسطة كابن عربى صاحب « الفتوحات » و « الفصوص » ، فقـال :

إنه يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذى يوحي به إلى الرسول ، و « المعدن » عنده هو العقل و « الملك » هو الخيال و « الخيال » تابع للعقل ، وهو بزعمه يأخذ عن الذي هو أصل الخيال والرسول يأخذ عن الخيال ؛ فلهذا صار عند نفسه فوق النبي ولو كان خاصة النبي ما ذكروه لم يكن هو من جنسه ، فضلا عن أن يكون فوقه ، فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين ؟! والنبوة أمر وراء ذلك ، فإن ابن عربى وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية ، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل العلم ، فضلا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة : كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى ومعروف الكرخي ، والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهم — رضوان الله عليهم أجمعين .

والله سبحانه وتعالى قد وصف الملائكة فى كتابه بصفات تباين قول هؤلاء كقوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

وقال تعالى : (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ) وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ

لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) وقال تعالى : (وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) .

وقد أخبر أن الملائكة جاءت لإبراهيم عليه السلام فى صورة البشر ، وأن الملك تمثل لمريم بشراً سويا ، وكان جبريل عليه السلام يأتى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة دحية الكلبي ، وفى صورة أعرابى ، ويراهم الناس كذلك .

وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بأنه ذو قوة عند ذى العرش مكين ؛ مطاع ثم أمين ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم رآه بالأفق المبين ، ووصفه بأنه (شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ) .

وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم « إنه لم ير جبريل فى صورته التى خلق عليها غير مرتين » يعني المرة الأولى بالأفق الأعلى ، والنزلة الأخرى عند سدرة المنتهى ، ووصف جبريل عليه السلام فى موضع آخر بأنه الروح الأمين ، وأنه روح القدس ، إلى غير ذلك من الصفات التى تبين أنه من أعظم مخلوقات الله تعالى الأحياء العقلاء ، وأنه جوهر قائم بنفسه ، ليس خيالا فى نفس النبي كما زعم هؤلاء الملاحدة المتفلسفة ، والمدعون ولاية الله ، وأنهم أعلم من الأنبياء ..

وغاية حقيقة هؤلاء إنكار « أصول الإيمان » بأن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وحقيقة أمرهم جحد الخالق ، فإنهم جعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق ، وقالوا : الوجود واحد ، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع ، فإن الموجودات تشترك في مسمى الوجود ، كما تشترك الأناسي في مسمى الإنسان ، والحيوانات في مسمى الحيوان ، ولكن هذا المشترك الكلي لا يكون مشتركا كلياً إلا فى الذهن ، وإلا فالحيوانية القائمة بهذا الإنسان ليست هي الحيوانية القائمة بالفرس ، ووجود السموات ليس هو بعينه وجود الإنسان ، فوجود الخالق جل جلاله ليس هو كوجود مخلوقاته .

وحقيقة قولهم قول فرعون الذي عطل الصانع ، فإنه لم يكن

منكراً هذا الوجود المشهود ؛ لكن زعم أنه موجود بنفسه ، لا صانع له ، وهؤلاء وافقوه فى ذلك ؛ لكن زعموا بأنه هو الله ، فكانوا أضل منه وإن كان قوله هذا هو أظهر فساداً منهم ، ولهذا جعلوا عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله ، وقالوا : « لما كان فرعون فى منصب التحكم صاحب السيف وإن جار فى العرف الناموسي ، كذلك قال أنا ربكم الأعلى ـــ أى وإن كان الكل أربابا بنسبة ما ، فأنا الأعلى منكم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم » .

قالوا : « ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله أقروا له بذلك وقالوا : (فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ) قالوا : فصح قول فرعون (أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) وكان فرعون عين الحق » ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر ، فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة ، فصاروا كافرين بالله واليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله مع دعواهم أنهم خلاصة خاصة الخاصة من أهل ولاية الله ، وأنهم أفضل من الأنبياء وأن الأنبياء إنما يعرفون الله من مشكاتهم .

وليس هذا موضع بسط إلحاد هؤلاء ؛ ولكن لما كان الكلام فى « أولياء الله » والفرق بين « أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » وكان هؤلاء من أعظم الناس ادعاء لولاية الله ، وهم من أعظم الناس ولاية للشيطان ، نبهنا على ذلك . ولهذا عامة كلامهم إنما هو فى الحالات

الشيطانية ، ويقولون ما قاله صاحب الفتوحات : (باب أرض الحقيقة) ويقولون هي أرض الخيال . فتعرف بأن الحقيقة التى يتكلم فيها هي خيال ، ومحل تصرف الشيطان ، فإن الشيطان يخيل للإنسان الأمور بخلاف ما هي عليه قال تعالى : (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) وقال تعالى :

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا - إلى قوله : - يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا) وقال تعالى : (وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وقال تعالى :

(وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح

« إنه رأى جبريل يزع الملائكة) والشياطين إذا رأت ملائكة الله التى يؤيد بها عباده هربت منهم ، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته . قال تعالى : (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا)
وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا) وقال تعالى : (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) وقال تعالى : (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

وهؤلاء تأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم ، وهي جن وشياطين فيظنونها ملائكة ، كالأرواح التى تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام وكان من أول ما ظهر من هؤلاء فى الإسلام : المختار بن أبي عبيد الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم فى صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « سيكون فى ثقيف كذاب ومبير » وكان الكذاب : المختار بن أبي عبيد ، والمبير : الحجاج بن يوسف . فقيل لابن عمر وابن عباس : إن المختار يزعم أنه ينزل إليه ، فقالا : صدق ، قال الله تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) . وقال الآخر وقيل له إن

المختار يزعم أنه يوحى إليه ، فقال : قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ ﴾ .

وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب « الفتوحات » أنه ألقى إليه ذلك الكتاب ؛ ولهذا يذكر أنواعا من الخلوات بطعام معين وشيء معين ، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالاً بالجن والشياطين ، فيظنون ذلك من كرامات الأولياء ، وإنما هو من الأحوال الشيطانية ، وأعرف من هؤلاء عدداً ، ومنهم من كان يحمل فى الهواء إلى مكان بعيد ويعود ، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به ، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس ، أو بعطاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك .

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ، كما يوجد فى كلام صاحب « الفتوحات المكية » و « الفصوص » وأشباه ذلك يمدح الكفار ، مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم ، ويتنقص الأنبياء : كنوح وإبراهيم وموسى وهارون ، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين : كالجنيد بن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، ويمدح المذمومين عند المسلمين : كالحلاج ونحوه كما ذكره فى تجلياته الخيالية الشيطانية ؛ فإن الجنيد ــ قدس الله روحه ــ كان من أئمة الهدى ، فسئل عن التوحيد

فقال : « التوحيد » إفراد الحدوث عن القدم . فبين أن التوحيد أن تميز بين القديم والمحدث ، وبين الخالق والمخلوق . وصاحب « الفصوص » أنكر هذا ؛ وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية له : يا جنيد ! هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما ؟ فخطأ الجنيد في قوله : (إفراد الحدوث عن القدم) ؛ لأن قوله هو : إن وجود المحدث هو عين وجود القديم . كما قال في فصوصه : « ومن أسمائه الحسنى « العلي » على من ؟ وما ثم إلا هو ، وعن ماذا ؟ وما هو إلا هو ، فعلوه لنفسه وهو عين الموجودات . فالمسمى محدثات هي العلية لذاته وليست إلا هو » . إلى أن قال :

« هو عين ما بطن وهو عين ما ظهر ، وما ثم من يراه غيره ، وما ثم من ينطق عنه سواه ، وهو المسمى أبو سعيد الخراز وغير ذلك من الأسماء المحدثات » .

فيقال لهذا الملحد : ليس من شرط المميز بين الشيئين بالعلم والقول أن يكون ثالثاً غيرهما ، فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره ، وليس هو ثالث ، فالعبد يعرف أنه عبد ويميز بين نفسه وبين خالقه ، والخالق جل جلاله يميز بين نفسه وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم وأنهم عباده ، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع ، والاستشهاد بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطناً وظاهراً . وأما هؤلاء

الملاحدة فيزعمون ما كان يزعمه التلمساني منهم — وهو أحذقهم فى اتحادهم — لما قرئ عليه « الفصوص » فقيل له : القرآن يخالف فصوصكم . فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد فى كلامنا . فقيل له : فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالا والأخت حراماً ؟ فقال : الكل عندنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام ، فقلنا حرام عليكم .

وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهر فإن الوجود إذا كان واحداً فمن المحجوب ومن الحاجب ؟ ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده : من قال لك : إن فى الكون سوى الله فقد كذب . فقال له مريده : فمن هو الذي يكذب ؟ وقالوا لآخر : هذه مظاهر . فقال لهم : المظاهر غير الظاهر أم هي ؟ فإن كانت غيرها فقد قلتم بالنسبة وإن كانت إياها فلا فرق .

وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء فى موضع آخر ، وبينا حقيقة قول كل واحد منهم ، وأن صاحب « الفصوص » يقول المعدوم شيء ؛ ووجود الحق فاض عليه ، فيفرق بين الوجود والثبوت . والمعتزلة الذين قالوا : المعدوم شيء ثابت فى الخارج مع ضلالهم خير منه ، فإن أولئك قالوا : إن الرب خلق لهذه الأشياء الثابتة فى العدم وجوداً ليس هو وجود الرب . وهذا زعم أن عين وجود الرب فاض عليه

فليس عنده وجود مخلوق مباين لوجود الخالق ، وصاحبه الصدر القونوي يفرق بين المطلق والمعين ، لأنه كان أقرب إلى الفلسفة ، فلم يقر بأن المعدوم شيء ؛ لكن جعل الحق هو الوجود المطلق ، وصنف « مفتاح غيب الجمع والوجود » .

وهذا القول أدخل فى تعطيل الخالق وعدمه ، فإن المطلق بشرط الإطلاق — وهو الكلي العقلي لا يكون إلا فى الأذهان لا فى الأعيان والمطلق لا بشرط وهو الكلي الطبيعي — وإن قيل إنه موجود فى الخارج فلا يوجد فى الخارج إلا معيناً ، وهو جزء من المعين عند من يقول بثبوته فى الخارج ، فيلزم أن يكون وجود الرب إما منتفيا فى الخارج وإما أن يكون جزءاً من وجود المخلوقات ، وإما أن يكون عين وجود المخلوقات . وهل يخلق الجزء الكل أم يخلق الشيء نفسه ؟ أم العدم يخلق الوجود ؟ أو يكون بعض الشيء خالقاً لجميعه ؟! .

وهؤلاء يفرون من لفظ « الحلول » لأنه يقتضى حالا ومحلا ، ومن لفظ «الاتحاد » لأنه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وعندهم الوجود واحد . ويقولون : النصارى إنما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو الله ، ولو عمموا لما كفروا .

وكذلك يقولون فى عباد الأصنام : إنما أخطأوا لما عبدوا بعض

المظاهر دون بعض فلو عبدوا الجميع لما أخطأوا عندهم . والعارف المحقق عندهم لايضره عبادة الأصنام .

وهذا مع مافيه من الكفر العظيم ففيه ما يلزمهم دائماً من التناقض لأنه يقال لهم : فمن المخطئ ؟ لكنهم يقولون : إن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق . ويقولون : إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق ، ويقولون ما قاله صاحب « الفصوص » : « فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب به جميع النعوت الوجودية ، والنسب العدمية ، سواء كانت محمودة عرفا أو عقلا أو شرعا ، أو مذمومة عرفا وعقلا وشرعا ، وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة » .

وهم مع كفرهم هذا لا يندفع عنهم التناقض ، فإنه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس هو ذاك ، وهؤلاء يقولون ما كان يقوله التلمساني : إنه ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل . ويقولون : من أراد التحقيق — يعني تحقيقهم — فليترك العقل والشرع .

وقد قلت لمن خاطبته منهم : ومعلوم أن كشف الأنبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم ، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم ؛ والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته ؛ لا بما

يعرف الناس بعقولهم أنه ممتنع ، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول، ويمتنع أن يكون فى إخبار الرسول ما يناقض صريح العقول ، ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان : سواء كانا عقليين أو سمعيين ، أو كان أحدهما عقليـــا والآخر سمعيـــا ، فكيف بمن ادعى كشفاً يناقض صريـــح الشرع والعقل ؟ .

وهؤلاء قد لا يتعمدون الـكذب ، لـكن يخيل لهـم أشياء تكون فى نفوسهم ويظنونهــا في الخــارج ، وأشياء يرونها تكون موجودة فى الخــارج لـكن يظنونهــا من كرامــات الصالحـــين ، وتكون من تلبيسات الشياطين .

وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة قـد يقدمون الأولياء على الأنبياء ، ويذكرون أن النبوة لم تنقطــع ، كما يذكر عن ابن سبعـــين وغيره ، ويجعلون المراتب « ثلاثة » يقولون : العبد يشهد أولا طاعة معصية ، ثم طــاعة بلا معصية ، ثم لا طاعة ولا معصية ، و « الشهود الأول » هو الشهود الصحيح وهو الفرق بين الطاعات والمعاصي ، وأما « الشهود الثاني » فيريدون بــه شهود القدر كما أن بعض هؤلاء يقول : أنا كافر برب يعصى ، وهذا يزعم أن المعصية مخالفة الإرادة الــتى هي المشيئة . والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ويقول شاعرهم :

أصبحت منفعلا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ؛ فإن المعصية التى يستحق صاحبها الذم والعقاب مخالفة أمر الله ورسوله كما قال تعالى : (تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ) وسنذكر الفرق بين الإرادة الكونية والدينية ، والأمر الكوني والديني .

وكانت هذه « المسألة » قد اشتبهت على طائفة من الصوفية فبينها الجنيد رحمه الله لهم ، من اتبع الجنيد فيها كان على السداد ، ومن خالفه ضل ، لأنهم تكلموا فى أن الأمور كلها بمشيئة الله وقدرته ، وفى شهود هذا التوحيد ، وهذا يسمونه الجمع الأول ، فبين لهم الجنيد أنه لابد من شهود الفرق الثاني ، وهو أنه مع شهود كون الأشياء كلها مشتركة فى مشيئة الله وقدرته وخلقه يجب الفرق بين ما يأمر به ويحبه ويرضاه ، وبين ما ينهى عنه ويكرهه ويسخطه ، ويفرق بين أوليائه وأعدائه كما قال تعالى : (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) وقال تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ) وقال تعالى : (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن

نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ)
وقال تعالى : (وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ)

ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ لا رب غيره ، وهو مع ذلك أمر بالطاعة ، ونهى عن المعصية ، وهو لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يأمر بالفحشاء ، وإن كانت واقعة بمشيئته فهو لا يحبها ولا يرضاها ، بل يبغضها ويذم أهلها ويعاقبهم .

وأما « المرتبة الثالثة » أن لا يشهد طاعة ولا معصية — فإنه يرى أن الوجود واحد ، وعندهم أن هذا غاية التحقيق والولاية لله ؛ وهو فى الحقيقة غاية الإلحاد فى أسماء الله وآياته ، وغاية العداوة لله ، فإن صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء ، وقد قال تعالى : (وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ) ولا يتبرأ من الشرك والأوثان فيخرج عن ملة إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، قال الله تعالى :
(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ) وقال الخليل عليه السلام لقومه المشركين : (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ

تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

وقال تعالى : (لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) .

وهؤلاء قد صنف بعضهم كتباً وقصائد على مذهبه مثل قصيدة ابن الفارض المسماة بـ « نظم السلوك » يقول فيها :

لها صلاتى بالمقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلت

كلانا مصلّ واحد ساجد إلى حقيقته بالجمع في كل سجدة

وما كان لي صلى سوائى ولم تكن صلاتى لغيري فى أدا كل ركعة

☆ (إلى أن قال) ☆

وما زلت إياها وإياي لم تزل ولا فرق بل ذاتى لذاتى أحبت

إليّ رسولا كنت مني مرسلا وذاتى بآياتى علىّ استدلت

فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن منادى أجابت من دعانى ولبت

إلى أمثال هذا الكلام ؛ ولهذا كان هذا القائل عند الموت ينشد ويقول :

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد لقيت فقـد ضيعت أيامي

أمنية ظفرت نفسي بهـا زمنـا واليوم أحسبها أضغاث أحـلام

فإنه كان يظن أنه هو الله فلما حضرت ملائكة الله لقبض روحـه تبين له بطلان ما كان يظنه ، وقال الله تعالى : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) فجميع ما في السموات والارض يسبح لله ؛ ليس هـو الله ، ثم قال تعالى : (لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

وفي صحيح مسلم عن النبي صـلى الله عليـه وسلم أنه كان يقول في دعائه : « اللهـم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنـا ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعـدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، إقض عني الدين واغنني مـن الفقر » . ثم قال : (هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

فذكر أن السموات والأرض ـــ وفى موضع آخر ـــ (وَمَا بَيْنَهُمَا) مخلوق مسبح له ، وأخبر سبحانه أنه يعلم كل شيء .

وأما قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ) فلفظ (مَعَ) لا تقتضي فى لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطاً بالآخر كقوله تعالى (اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وقوله تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) .

ولفظ (مع) جاءت فى القرآن عامة وخاصة ، فـ « العامة » فى هذه الآية وفى آية المجادلة (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)
فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ؛ ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل : هو معهم بعلمه .

وأما « المعية الخاصة » ففي قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) وقوله تعالى لموسى : (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) وقال تعالى : (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) يعني النبي

صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه ، فهو مع موسى وهارون دون فرعون ، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه ، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين.

فلو كان معنى « المعية » أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام ؛ بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك. وقوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ) أي هو إله من في السموات وإله من في الأرض ، كما قال الله تعالى: (وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) ، وكذلك قوله تعالى: (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ) كما فسره أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره : أنه المعبود في السموات والأرض.

وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته ، يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ، ويعلم أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال ، كما قال الله تعالى: (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) قال ابن عباس : الصمد العليم الذي كمل في علمه ، العظيم الذي كمل في عظمته ، القدير الكامل في قدرته ، الحكيم الكامل في حكمته ، السيد الكامل في سؤدده.

وقال ابن مسعود وغيره : هو الذي لا جوف له . و الأحد الذي لا نظير له . فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه ، واسمه الأحد يتضمن اتصافه أنه لا مثل له . وقد بسطنا الكلام على ذلك فى تفسير هذه السورة وفى كونها تعدل ثلث القرآن .

فصل

وكثير من الناس تشتبه عليهم الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية بالحقائق الخلقية القدرية الكونية ؛ فإن الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر كما قال تعالى :

(إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) فهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه ، لا خالق غيره ، ولا رب سواه ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما فى الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وخلقه ، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله ونهى عن معصيته ومعصية رسله ، أمر بالتوحيد والإخلاص ، ونهى عن الإشراك بالله ، فأعظم الحسنات

التوحيد ، وأعظم السيئات الشرك . قال الله تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) وقال تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ) .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « قلت يا رسول الله ! أي الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل الله تصديق ذلك (وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) .

وأمر سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وأخبر أنه يحب المتقين ، ويحب المحسنين ؛ ويحب المقسطين ؛ ويحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وهو يكره ما نهى عنه كما قال فى سورة سبحان (كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) وقد نهى عن الشرك وعقوق الوالدين ؛ وأمر بإيتاء ذى القربى الحقوق

ونهى عن التبذير ؛ وعن التقتير ؛ وأن يجعل يده مغلولة إلى عنقه ؛ وأن يبسطها كل البسط ، ونهى عن قتل النفس بغير الحق ، وعن الزنا وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن إلى أن قال (كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر .

والعبد مأمور أن يتوب إلى الله تعالى دائماً قال الله تعالى : (وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

وفي صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فو الذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » وفى صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه ليغان على قلبي وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » وفى السنن عن ابن عمر قال : كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول « رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة » أو قال « أكثر من مائة مرة »

وقد أمر الله سبحانه عباده أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثاً ويقول « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام »

كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه ، وقد قال تعالى : (وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ) فأمرهم أن يقوموا بالليل ، ويستغفروا بالأسحار . وكـذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله تعـالى : (وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ) وكذلك قال فى الحج : (فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٖ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ) ؛ بل أنزل سبحانه وتعـالى فى آخر الأمر لما غزا النبي صـلى الله عليـه وسلم غزوة تبوك وهي آخر غزواته : (لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ * وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) وهي آخر ما نزل من القرآن .

وقد قيل : إن آخر سورة نزلت قوله تعالى : (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجٗا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا) فأمره تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليـه وسلم كان

يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي — يتأول القرآن » وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، لا إله إلا أنت »

وفي الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي ، قال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » وفي السنن عن أبي بكر رضي الله عنه قال يارسول الله علمني دعاء أدعو به إذا أصبحت وإذا أمسيت ، فقال « قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً او أجره إلى مسلم . قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك » .

فليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب؛ بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائما . قال الله تبارك وتعالى : (وَحَمَلَهَا

ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا)

فالإنسان ظالم جاهل وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة ، وقد أخبر الله تعالى فى كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم .

وثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن يدخل الجنة أحد بعمله ، قالوا ولا أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » وهـذا لا ينافى قوله (كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ) فإن الرسول نفى باء المقابلة والمعادلة والقرآن أثبت باء السبب .

وقول من قال : إذا أحب الله عبداً لم تضره الذنوب . معناه أنه إذا أحب عبداً ألهمه التوبة والاستغفار فلم يصر على الذنوب ومن ظن أن الذنوب لا تضر من أصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنة ، وإجماع السلف والأئمة ؛ بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وإنما عباده الممدوحون هم المذكورون فى قوله تعالى : (وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟

لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

ومن ظن أن « القدر » حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين الذين قال الله تعالى عنهم : (سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ) قال الله تعالى راداً عليهم : (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ) .

ولو كان « القدر » حجة لأحد لم يعذب الله المكذبين للرسل كقوم نوح وعاد وثمود والمؤتفكات ، وقوم فرعون ، ولم يأمر بإقامة الحدود على المعتدين ، ولا يحتج أحد بالقدر إلا إذا كان متبعاً لهواه بغير هدى من الله ، ومن رأى القدر حجة لأهل الذنوب يرفع عنهم الذم والعقاب فعليه أن لا يذم أحداً ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه ؛ بل يستوي عنده ما يوجب اللذة وما يوجب الألم ، فلا يفرق بين من يفعل معه خيراً وبين من يفعل معه شراً ، وهذا ممتنع طبعاً وعقلا وشرعا ، وقد قال تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ) ؟ وقال تعالى : (أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ) ؟ وقال تعالى : (أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ

ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ) وقال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى) أي مهملا لايؤمر ولا ينهى .

وقد ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « احتج آدم وموسى ، قال موسى : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ، فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه وكتب لك التوراة بيده ، فكم وجدت مكتوبا عليّ قبل أن أخلق (وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ) ؟ قال : بأربعين سنة ، [قال] : فلم تلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ قال : فحج آدم موسى » أي : غلبه بالحجة .

وهذا الحديث ضلت فيه طائفتان :

« طائفة » كذبت به لما ظنوا أنه يقتضي رفع الذم والعقاب عمن عصى الله لأجل القدر .

و « طائفة » شر من هؤلاء جعلوه حجة ، وقد يقولون : القدر

حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه ، أو الذين لا يرون أن لهم فعلا .
ومن الناس من قال : إنما حج آدم موسى لأنه أبوه ، أو لأنه كان قد تاب ، أو لأن الذنب كان في شريعة واللوم فى أخرى ، أو لأن هذا يكون فى الدنيا دون الأخرى . وكل هذا باطل .

ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التى لحقتهم من أجل أكله من الشجرة ، فقال له : لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنباً وتاب منه ؛ فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يلام ، وهو قد تاب منه أيضاً ، ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) . والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلم ، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب ، قال الله تعالى : (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ) فأمره بالصبر على المصائب ، والاستغفار من المعائب .

وقال تعالى : (مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ) قال ابن مسعود : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ، فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة ، مثل المرض والفقر والذل صبروا لحكم الله ، وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم ، كمن أنفق أبوه ماله فى المعاصي فافتقر أولاده لذلك فعليهم أن يصبروا

لما أصابهم ، وإذا لاموا الأب لحظوظهم ذكر لهم القدر .

و « الصبر » واجب باتفاق العلماء ، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله ، و « الرضا » قد قيل : إنه واجب ، وقيل : هو مستحب ، وهو الصحيح ، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها ، حيث جعلها سبباً لتكفير خطاياه ، ورفع درجاته وإنابته وتضرعه إليه ، وإخلاصه له فى التوكل عليه ورجائه دون المخلوقين ، وأما أهل البغي والضلال فتجدهم يحتجون بالقدر إذا أذنبوا واتبعوا أهواءهم ، ويضيفون الحسنات إلى أنفسهم إذا أنعم عليهم بها ، كما قال بعض العلماء أنت عند الطاعة قدري ، وعند المعصية جبري ؛ أي مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وأهل الهدى والرشاد إذا فعلوا حسنة شهدوا إنعام الله عليهم بها ، وأنه هو الذي أنعم عليهم وجعلهم مسلمين ، وجعلهم يقيمون الصلاة وألهمهم التقوى ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به فزال عنهم بشهود القدر العجب والمن والأذى ، وإذا فعلوا سيئة استغفروا الله وتابوا إليه منها ؛ ففي صحيح البخاري عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي

فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة » .

وفى الحديث الصحيح عن أبى ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي ! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالي فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادي ! كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي ! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، ياعبادى ! كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا ضري ! فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعونى ، يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكي شيئاً ، ياعبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط غمسة واحدة ، ياعبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

فأمر سبحانه بحمد الله على ما يجده العبد من خير ، وأنه إذا وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه .

وكثير من الناس يتكلم بلسان « الحقيقة » ، ولا يفرق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيئته ، وبين الحقيقة الدينية الأمرية المتعلقة برضاه ومحبته ، ولا يفرق بين من يقوم بالحقيقة الدينية موافقاً لما أمر الله به على ألسن رسله ، وبين من يقوم بوجده وذوقه غير معتبر ذلك بالكتاب والسنة ، كما أن لفظ « الشريعة » يتكلم به كثير من الناس ، ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسنة الذي بعث الله به رسوله ؛ فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر ، وبين الشرع الذي هو حكم الحاكم فالحاكم تارة يصيب وتارة يخطيء . هذا إذا كان عالماً عادلا وإلا ففى السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « القضاة ثلاثة قاضيان فى النار ، وقاض فى الجنة : رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار ، ورجل علم الحق فقضى بغيره فهو فى النار »

وأفضل القضاة العالمين العادلين سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم فقد ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : « إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بنحو مما أسمع ، فمن

قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار »
فقد أخبر سيد الخلق أنه إذا قضى بشيء مما سمعه وكان فى الباطن
بخلاف ذلك ، لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قضى به له ، وأنه إنما يقطع
له به قطعة من النار .

وهذا متفق عليه بين العلماء فى الأملاك المطلقة إذا حكم الحاكم بما
ظنه حجة شرعية كالبينة والإقرار ، وكان الباطن بخلاف الظاهر ، لم يجز
للمقضي له أن يأخذ ما قضي به له بالاتفاق . وإن حكم فى العقود والفسوخ
بمثل ذلك ؛ فأكثر العلماء يقول إن الأمر كذلك ، وهو مذهب مالك
والشافعي وأحمد بن حنبل ، وفرق أبو حنيفة رضي الله عنه بين النوعين .

فلفظ « الشرع ، والشريعة » إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن
لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه ، ومن ظن أن لأحد من
أولياء الله طريقاً إلى الله ، غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم باطناً
وظاهراً فلم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر .

ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غالطاً من وجهين :
« أحدهما » أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ولا كان على
الخضر اتباعه ؛ فإن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل ، وأما محمد
صلى الله عليه وسلم فرسالته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس ، ولو

أدركه مــن هو أفضل من الخضر : كإبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم ؛ اتبــاعه فكيف بالخضر سواء كان نبيا أو وليــا ؛ ولهــذا قال الخضر لموسى : « أنا عــلى علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمــه ؛ وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه » وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول مثل هذا .

« الثاني » أن ما فعــله الخضر لم يكن مخالفــا لشريعة موسى عليه السلام ، وموسى لم يكن علم الأسباب التى تبيح ذلك فلما بينها له وافقه على ذلك ، فإن خرق السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أهلها خوفاً مــن الظالم أن يأخذها إحسان إليهم وذلك جائز ، وقتل الصــائل جائز وإن كان صغيراً ، ومن كان تــكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتــله . قال : ابن عباس رضي الله عنهما لنجدة الحروري لمــا سأله عن قتــل الغلمان ـــ قال له ـــ إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغــلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم ، رواه البخاري . وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض والصبر على الجوع ، فهذا من صالح الأعمال فلم يكن فى ذلك شيء مخالفاً شرع الله .

وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم فقد يكون ظالماً وقد يــكون عادلا ، وقد يكون صواباً وقد يكون خطأ ، وقد يراد بالشرع قول أئمة الفقه : كأبي حنيفة والثوري ومالك بن أنس والأوزاعى والليث بن

سعد والشافعي وأحمد وإسحاق وداود وغيرهم ، فهؤلاء أقوالهم يحتج لها بالكتاب والسنة ، وإذا قلد غيره حيث يجوز ذلك كان جائزاً أي ليس اتباع أحدهم واجباً على جميع الأمة كاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم .

وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة ، أو تأول النصوص بخلاف مراد الله ونحو ذلك ؛ فهذا من نوع التبديل ، فيجب الفرق بين الشرع المنزل ، والشرع المؤول ، والشرع المبدل ، كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية ، وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة ، وبين ما يكتفى فيها بذوق صاحبها ووجده .

فصل

وقد ذكر الله في كتابه الفرق بين « الإرادة » و « الأمر » و « القضاء » و « الإذن » و « التحريم » و « البعث » و « الإرسال » و « الكلام » و « الجعل » : بين الكونى الذي خلقه وقدره وقضاه ؛ وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثيب أصحابه ، ولا يجعلهم من أوليائه المتقين ، وبين الديني الذي أمر به وشرعه وأثاب عليه وأكرمهم ، وجعلهم من أوليائه المتقين

وحزبه المفلحين وجنده الغالبين ؛ وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين أولياء الله وأعدائه . فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه ، ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من أعدائه .

فـ « الإرادة الكونية » هي مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة فى مشيئته وإرادته الكونية ، والإرادة الدينية هي المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعاً وديناً . وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح قال الله تعالى : (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ) وقال نوح عليه السلام لقومه : (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ) وقال تعالى : (وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ) وقال تعالى فى الثانية : (وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) وقال فى آية الطهارة : (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ولما ذكر ما أحله وما حرمه من النكاح قال : (يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن

يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا) وقال لما ذكر ما أمر به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وما نهاهم عنه : (إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) والمعنى أنه أمركم بما يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، فمن أطاع أمره كان مطهراً قد أذهب عنه الرجس بخلاف من عصاه .

وأما « الأمر » فقال في الأمر الكوني : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) وقال تعالى : (وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ) وقال تعالى : (أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ) وأما « الأمر الديني » فقال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وقال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا) .

وأما « الإذن » فقال فى الكونى لما ذكر السحر : (وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ) أي بمشيئته وقدرته ؛ وإلا فالسحر لم يبحه الله عز وجل . وقال في « الإذن الدينى » : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ) وقال تعالى : (إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ) وقال تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) وقال تعالى : (مَاقَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْتَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ) .

وأما « القضاء » فقال فى الكونى : (فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ) وقال سبحانه : (إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) وقال فى الدينى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ) أي أمر ، وليس المراد به قدر ذلك فإنه قد عبد غيره كما أخبر فى غير موضع كقوله تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ) وقول الخليل عليه السلام لقومه : (أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ) وقال تعالى :

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ) وقال تعالى : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) وهذه كلمة تقتضي براءته من دينهم ولا تقتضي رضاه بذلك ؛ كما قال تعالي في الآية الأخرى : (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) .

ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضا منه بدين الكفار فهو من أكذب الناس وأكفرهم ، كمن ظن أن قوله (وَقَضَىٰ رَبُّكَ) بمعنى قدر ، وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع ، وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله ؛ فإن هذا من أعظم الناس كفراً بالكتب .

وأما لفظ « البعث » فقال تعالى فى البعث الكوني : (فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) وقال فى البعث الدينى : (هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ) قال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ) .

وأما لفظ « الإرسال » فقال في الإرسال الكونى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) وقال تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ) وقال فى الدينى : (إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) وقال تعالى : (إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ) وقال تعالى : (إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا) وقال تعالى : (ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ) .

وأما لفظ « الجعل » فقال فى الكونى : (وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ

إِلَى ٱلنَّارِ) وقال فى الدينى : (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) وقال تعالى : (مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ) .

وأما لفظ « التحريم » فقال فى الكوني : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ) وقال تعالى : (فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ) وقال في الديني : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ) وقال تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ) الآية .

وأما لفظ « الكلمات » فقال فى الكلمات الكونية (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ) ، وثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامة كلها من شر ماخلق ، ومن غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » وقال صلى الله عليه وسلم : « من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » وكان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ذرأ فى الأرض ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن ! » .

و « كلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » هي التى كون بها الكائنات فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته. وأما « كلماته الدينية » وهي كتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه، فأطاعها الأبرار، وعصاها الفجار.

وأولياء الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية وجعله الديني وإذنه الدينى وإرادته الدينية.

وأما كلماته الكونية التى لا يجاوزها بر ولا فاجر؛ فإنه يدخل تحتها جميع الخلق حتى إبليس وجنوده وجميع الكفار وسائر من يدخل النار. فالخلق وإن اجتمعوا فى شمول الخلق والمشيئة والقدرة والقدر لهم، فقد افترقوا فى الأمر والنهي والمحبة والرضا والغضب.

وأولياء الله المتقون هم الذين فعلوا المأمور، وتركوا المحظور، وصبروا على المقدور، فأحبهم وأحبوه، ورضى عنهم ورضوا عنه. وأعداؤه أولياء الشياطين، وإن كانوا تحت قدرته فهو يبغضهم، ويغضب عليهم، ويلعنهم ويعاديهم.

وبسط هذه الجمل له موضع آخر، وإنما كتبت هنا تنبيها على مجامع « الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » وجمع الفرق بينهما

اعتبارهم بموافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه هو الذي فرق الله تعالى به بين أوليائه السعداء وأعدائه الأشقياء ، وبين أوليائه أهل الجنة وأعدائه أهل النار ، وبين أوليائه أهل الهدى والرشاد وبين أعدائه أهل الغي والضلال والفساد وأعدائه حزب الشيطان وأوليائه الذين كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه . قال تعالى : (لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ) الآية وقال تعالى : (إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) .

وقال فى أعدائه (وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ) وقال : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا) وقال : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ * وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) وقال تعالى : (فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ * وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ) وقال تعالى : (فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) إلى قوله : (إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ) .

فنزه سبحانه وتعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم عمن تقترن به الشياطين، من الكهان والشعراء والمجانين ؛ وبين أن الذي جاءه بالقرآن ملك كريم اصطفاه . قال الله تعالى : (ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ) وقال تعالى : (وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ) وقال تعالى : (قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) الآية . وقال تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ) إلى قوله (وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) فسماه الروح الأمين وسماه روح القدس .

وقال تعالى : (فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ) يعني : الكواكب التي تكون في السماء خانسة أي : مختفية قبل طلوعها ، فإذا ظهرت رآها الناس جارية في السماء ، فإذا غربت ذهبت إلى كناسها الذي يحجبها (وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) أي إذا أدبر ، وأقبل الصبح (وَٱلصُّبْحِ إِذَا

تَنَفَّسَ) أي أقبل (إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ) وهو جبريل عليه السلام (ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ) أي مطاع في السماء أمين ثم قال : (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ) أي صاحبكم الذي من الله عليكم به إذ بعثه إليكم رسولا من جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون أن تروا الملائكة كما قال تعالى : (وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا) الآية .

وقال تعالى : (وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ) أي رأى جبريل عليه السلام (وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ) أي بمتهم ، وفي القراءة الأخرى : (بضنين) أي ببخيل يكتم العلم ولا يبذله إلا بجعل ، كما يفعل من يكتم العلم إلا بالعوض . (وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ) فنزه جبريل عليه السلام عن أن يكون شيطاناً ، كما نزه محمداً صلى الله عليه وسلم عن أن يكون شاعراً أو كاهناً .

فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد صلى الله عليه وسلم فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر ؛ ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه ، فيؤيدهم بملائكته وروح منه ، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره ، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين . وخيار أولياء الله كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين ، كما كانت معجزات نبيهم صلى الله عليه وسلم كذلك .

وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فهي في الحقيقة تدخل فى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم : مثل انشقاق القمر ، وتسبيح الحصا فى كفه ، وإتيان الشجر إليه ، وحنين الجذع إليه ، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس ، وإخباره بما كان وما يكون ، وإتيانه بالكتاب العزيز ، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة ، كما أشبع فى الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص في حديث أم سلمة المشهور ، وأروى العسكر فى غزوة خيبر من مزادة ماء ولم تنقص ، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص وهم نحو ثلاثين ألفاً ، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه ، كما كانوا فى غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة ، ورده لعين أبي قتادة حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه ، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرئت ، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلا كلا منهم حز له قطعة وجعل منها قطعتين فأكلوا منها جميعهم ثم فضل فضلة ، ودين عبد الله أبي جابر لليهودي وهو ثلاثون وسقا . قال جابر : فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر جميعه بالذي كان له فلم يقبل فمشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لجابر جد له فوفاه الثلاثين وسقا وفضل سبعة عشر وسقا ، ومثل هذا كثير قد جمعت نحو ألف معجزة .

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً : مثل ما كان « أسيد بن حضير » يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته ، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين ؛ وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان فى صحفة فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها ، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما . رواه البخاري وغيره .

وقصة « الصديق » فى الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربى من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت ، فرفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا .

و « خبيب بن عدى » كان أسيراً عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة .

و « عامر بن فهيرة » قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه

وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفـع ، وقال : عروة : فيرون الملائـكة رفعته .

وخرجت « أم أيمن » مهاجرة وليس معهـا زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صـائمة سمعت حساً على رأسهـا فرفعته فإذا دلو معـلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها .

و « سفينة » مولى رسول الله صلى الله عليـه وسلم أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله صلى الله عليـه وسلـم فمشى معـه الأسد حتى أوصله مقصده .

و « البراء بن مالك » كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه ، وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين فى الجهاد يقولون : يا براء ! أقسم على ربك ، فيقول : يا رب ! أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فيهزم العدو ، فلما كان يوم « القادسية » قال : أقسمت عليـك يا رب لما منحتنا أكتافهـم وجعلتنى أول شهيد ، فمنحوا أكتافهـم ، وقتـل البراء شهيداً .

و « خالد بن الوليد » حاصر حصناً منيعاً فقالوا لا نسلم حتى تشرب

السم فشربه فلم يضره .

و « سعد بن أبي وقاص » كان مستجاب الدعوة ما دعا قط إلا استجيب له وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق .

و « عمر بن الخطاب » لما أرسل جيشاً أمر عليهم رجلاً يسمى « سارية » فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل ، فقدم رسول الجيش فسأل فقال يا أمير المؤمنين لقينا عدواً فهزمونا فإذا بصائح : يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

ولما عذبت « الزبيرة » على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها قال المشركون أصاب بصرها اللات والعزى قالت كلا والله فرد الله عليها بصرها .

ودعا « سعيد بن زيد » على أروى بنت الحكم فأعمى بصرها لما كذبت عليه فقال : اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها ، واقتلها فى أرضها ، فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت .

« والعلاء بن الحضرمي » كان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين وكان يقول فى دعائه : يا عليم ! يا حليم ! يا علي ! يا عظيم !

فيستجاب له ، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضأوا لما عدموا الماء والإسقاء لما بعدم فأجيب ، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم ؛ ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات ، فلم يجدوه فى اللحد .

وجرى مثل ذلك « لأبي مسلم الخولانى » الذي ألقى فى النار ، فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمى بالخشب من مدها ثم التفت إلى أصحابه فقال : تفقدون من متاعكم شيئاً حتى أدعو الله عز وجل فيه فقال بعضهم : فقدت مخلاة ، فقال اتبعني فتبعه فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها ، وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له : أتشهد أنى رسول الله . قال ما أسمع ، قال أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال نعم ، فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائماً يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً ؛ وقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فأجلسه عمر بينه وبين أبى بكر الصديق رضي عنهما وقال الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله . ووضعت له جارية السم فى طعامه فلم يضره . وخببت امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت ، وجاءت وتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها .

وكان « عامر بن عبد قيس » يأخذ عطاءه ألفي درهم فى كمه وما

يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد ، ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها . ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه الأسد ثم وضع رجله على عنقه وقال : إنما أنت كلب من كلاب الرحمن وإني أستحي أن أخاف شيئاً غيره ، ومرت القافلة ، ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء ، فكان يؤتى بالماء له بخار ، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو فى الصلاة فلم يقدر عليه .

وتغيب « الحسن البصري » عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه ، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتاً .

و « صلة بن أشيم » مات فرسه وهو فى الغزو ، فقال اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه . فلما وصل إلى بيته قال يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية ، فأخذ سرجه فمات الفرس ، وجاع مرة بالأهواز ، فدعا الله عز وجل واستطعمه ، فوقعت خلفه دوخلة رطب فى ثوب حرير فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زماناً . وجاء الأسد وهو يصلي فى غيضة بالليل فلما سلم قال له اطلب الرزق من غير هذا الموضع فولى الأسد وله زئير .

وكان « سعيد بن المسيب » فى أيام الحرة يسمع الأذان من قبر

رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقات الصلوات ، وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره .

ورجل من « النخع » كان له حمار فمات فى الطريق فقال له أصحابه هلم نتوزع متاعك على رحالنا فقال لهم : أمهلونى هنيهة ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه .

ولما مات « أويس القرنى » وجدوا في ثيابه أكفاناً لم تكن معه قبل ، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحد فى صخرة فدفنوه فيه وكفنوه فى تلك الأثواب .

وكان « عمرو بن عقبة بن فرقد » يصلي يوماً في شدة الحر فأظلته غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه فى الغزو أنه يخدمهم .

وكان « مطرف بن عبد الله بن الشخير » إذا دخل بيته سبحت معه آنيته ، وكان هو وصاحب له يسيران فى ظلمة فأضاء لهما طرف السوط .

ولما مات الأحنف بن قيس وقعت قلنسوة رجل فى قبره فأهوى

ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر .

وكان « إبراهيم التيمي » يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً وخرج يمتار لأهله طعاماً فلم يقدر عليه فمر بسهلة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله ففتحها فإذا هي حنطة حمراء فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً .

وكان « عتبة الغلام » سأل ربه ثلاث خصال صوتاً حسناً ودمعاً غزيراً وطعاماً من غير تكلف . فكان إذا قرأ بكى وأبكى ودموعه جارية دهره ، وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه .

وكان « عبد الواحد بن زيد » أصابه الفالج فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ثم تعود بعده .

وهذا باب واسع قد بسط الكلام على كرامات الأولياء فى غير هذا الموضع .

وأما ما نعرفه عن أعيان ونعرفه فى هذا الزمان فكثير .

ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته ؛ ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها فى الصحابة ؛ بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة .

وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال « عبد الله بن صياد » الذي ظهر فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال ، وتوقف النبي صلى الله عليه وسلم فى أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال ؛ لكنه كان من جنس الكهان قال له النبي صلى الله عليه وسلم قد خبأت لك خبأ قال : الدخ الدخ . وقد كان خبأ له سورة الدخان فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « اخسأ فلن تعدو قدرك » يعني إنما أنت من إخوان الكهان ؛ والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع ، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي فى السماء فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم »

وفى الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

« بينما النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما كنتم تقولون لمثل هذا فى الجاهلية إذا رأيتموه ؟ قالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ؛ ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء ، ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا ؟ فيخبرونهم ، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا ، وتخطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون » .

وفي رواية قال معمر قلت للزهري : أ كان يرمى بها فى الجاهلية قال نعم ولكنها غلظت حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم .

و « الأسود العنسي » الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة ، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه : حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه .

وكذلك « مسيلمة الكذاب » كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور ، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل « الحارث الدمشقي » الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد ، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه ، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده ، وكان يرى الناس رجالاً وركباناً على خيل في الهواء ويقول : هي الملائكة ، وإنما كانوا جناً ، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه ، فقال له عبد الملك : إنك لم تسم الله فسمى الله فطعنه فقتله .

وهكذا أهل « الأحوال الشيطانية » تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي ، فإنه قد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما وكله النبي صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة الفطر فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه ، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم « ما فعل أسيرك البارحة » فيقول زعم أنه لا يعود ، فيقول « كذبك وإنه سيعود » فلما كان فى المرة الثالثة . قال : دعني حتى أعلمك ما ينفعك : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي (ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ) إلى آخرها ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم قال « صدقك

وهو كذوب » وأخبره أنه شيطان .

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها مثل من يدخل النار بحال شيطانى أو يحضر سماع المكاء والتصدية فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلاماً لا يعلم وربما لا يفقه ، وربما كاشف بعض الحاضرين بما فى قلبه ، وربما تكلم بألسنة مختلفة كما يتكلم الجنى على لسان المصروع ، والإنسان الذي حصل له الحال لا يدري بذلك بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ولبسه ، وتكلم على لسانه ، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال ، ولهذا قد يضرب المصروع ، وذلك الضرب لا يؤثر فى الإنسي ويخبر إذا أفاق أنه لم يشعر بشيء لأن الضرب كان على الجني الذي لبسه .

ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لايكون فى ذلك الموضع ، ومنهم من يطير بهم الجني إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرها ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من ليلته فلا يحج حجاً شرعياً ؛ بل يذهب بثيابه ، ولا يحرم إذا حاذى الميقات ، ولا يلبي ، ولا يقف بمزدلفة ولا يطوف بالبيت ؛ ولا يسعى بين الصفا والمروة ، ولا يرمي الجمار ، بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته . وهذا ليس بحج ، [ولهذا رأى بعض هؤلاء الملائكة تكتب الحجاج] فقال ألا تكتبوني ؟ فقالوا لست من الحجاج . يعني حجاً شرعياً .

وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة .

منها أن « كرامات الأولياء » سببها الإيمان والتقوى ، و « الأحوال الشيطانية » سببها مانهى الله عنه ورسوله . وقد قال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرمها الله تعالى ورسوله فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها ، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ، بل تحصل بما يحبه الشيطان وبالأمور التي فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوقات ، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش ، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية .

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزل عليه شيطانه حتى يحمله فى الهواء ويخرجه من تلك الدار ، فإذا حصل رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط كما جرى هذا لغير واحد .

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حى أو ميت سواء كان ذلك الحي مسلماً أو نصرانياً أو مشركا فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث

به ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث فيظن أنه ذلــك الشخص أو هو ملك على صورته وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله ، كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين .

ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ، ويقول له : أنا الخضر ، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه ، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الـكفار بأرض المشرق والمغرب ، يموت لهم الميت فيأتي الشيطان بعد موته على صورته ، وهم يعتقدون أنــه ذلك الميت ، ويقضي الديون ، ويرد الودائــع ، ويفعل أشياء تتعلق بالميت ، ويدخل على زوجته ويذهب ، وربما يكونون قـد أحرقوا ميتهم بالنـــار كما تصنع كفـــار الهنـــد فيظنون أنـــه عاش بعـــد موته .

ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه فقال : إذا أنا مت فلا تدع أحداً يغسلني فأنا أجيء وأغسل نفسي فلما مات رأى خادمه شخصاً في صورته فاعتقد أنــه هو دخل وغسل نفسه فلــما قضى ذلك الداخل غسله ـــ أي غسل الميت ـــ غاب وكان ذلك شيطانا ، وكان قد أضل الميت ، وقال : إنك بعد الموت تجيء فتغسل نفسك ، فلما مات جاء أيضاً في صورته ليغوى الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك .

ومنهم من يرى عرشاً فى الهواء وفوقه نور ، ويسمع من يخاطبه ويقول أنا ربك ، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه فيزول . ومنهم من يرى أشخاصاً فى اليقظة يدعى أحدهم أنه نبي أو صديق أو شيخ من الصالحين ، وقد جرى هذا لغير واحد ومنهم من يرى فى منامه أن بعض الأكابر : إما الصديق رضى الله عنه أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقيته أو ثوبه فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصر وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة وهم درجات والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وهم على مذهبهم ، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ ، فإن كان الإنسي كافراً أو فاسقاً أو جاهلا دخلوا معه فى الكفر والفسوق والضلال ، وقد يعاونونه إذا وافقهم على مايختارونه من الكفر ، مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم ، ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص أو آية الكرسي أو غيرهن ويكتبهن بنجاسة فيغورون له الماء ، وينقلونه بسبب ما يرضيهم به من الكفر . وقد يأتونه بما يهواه من امرأة أو صبي إما فى الهواء وإما مدفوعا ملجأ إليه .

إلى أمثال هذه الأمور التى يطول وصفها ، والإيمان بها إيمان

بالجبت والطاغوت . والجبت السحر ، والطاغوت الشياطين والأصنام ، وإن كان الرجل مطيعاً لله ورسوله باطناً وظاهراً لم يمكنهم الدخول معه فى ذلك أو مسالمته .

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة فى المساجد التى هي بيوت الله كان عمار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية ، وكان أهل الشرك والبدع يعظمون القبور ومشاهد الموتى فيدعون الميت أو يدعون به أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب أقرب إلى الأحوال الشيطانية ، فإنه ثبت فى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وثبت فى صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس ليال : « إن من أمن الناس علي في صحبته وذات يده أبو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله . لا يبقين فى المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر ، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وفى الصحيحين عنه أنه ذكر له فى مرضه كنيسة بأرض الحبشة ، وذكروا من حسنها وتصاوير فيها فقال « إن أولئك إذا مات فيهم

الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيها تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة ».

وفي المسند وصحيح أبي حاتم عنه صلى الله عليه وسلم قال « إن من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين اتخذوا القبور مساجد ».

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » وفى الموطأ عنه أنه قال « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ».

وفى السنن عنه أنه قال « لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى ».

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام » وقال صلى الله عليه وسلم : « أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة ؛ فإن صلاتكم معروضة علي . قالوا : يا رسول الله ! كيف تعرض صلاتنا عليك وقد

أرمت ـــ أي بليت ؟ ـــ فقال إن الله حرم عـلى الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء » .

وقد قال الله تعالى في كتابه عن المشركين مـن قوم نوح عليـه السلام : (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال ابن عباس وغيره مـن السلف : هؤلاء قوم كانوا صالحين من قوم نوح . فلما ماتوا عكفوا عـلى قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، فـكان هذا مبدأ عبادة الأوثان . فنهى النبي صـلى الله عليه وسـلم عن اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها ؛ لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ ، والشيطان يقارنهـا وقت الطلوع ووقت الغروب ، فتكون في الصلاة حينئذ مشابهة لصـلاة المشركين ، فسد هذا الباب .

والشيطان يضل بنى آدم بحسب قدرته ، فمـن عبد الشمس والقمر والكواكب ودعاها ـــ كما يفعل أهل دعوة الكواكب ـــ فإنـه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور ويسمون ذلك روحانيـة الكواكب ، وهو شيطان ، والشيطان وإن أعان الإنسان على بعض مقاصده فإنه يضره أضعاف ما ينفعه ، وعاقبة مـن أطاعه إلى شر إلا أن يتوب الله عليه ، وكذلك عبـاد الأصنام قد تخاطبهـم الشياطين ،

وكذلك من استغاث بميت أو غائب ، وكذلك من دعا الميت أو دعا به أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضل منه فى البيوت والمساجد ، ويروون حديثاً هو كذب باتفاق أهل المعرفة وهو : « إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور » وإنما هذا وضع من فتح باب الشرك .

ويوجد لأهل البدع وأهل الشرك المتشبهين بهم من عباد الأصنام والنصارى والضلال من المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات وهي من الشياطين : مثل أن يضعوا سراويل عند القبر فيجدونه قد انعقد ، أو يوضع عنده مصروع فيرون شيطانه قد فارقه . يفعل الشيطان هذا ليضلهم ، وإذ قرأت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا ، فإن التوحيد يطرد الشيطان ؛ ولهذا حمل بعضهم فى الهواء فقال : لا إله إلا الله فسقط ، ومثل أن يرى أحدهم أن القبر قد انشق وخرج منه إنسان فيظنه الميت وهو شيطان .

وهذا باب واسع لايتسع له هذا الموضع .

ولما كان الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التى لم يشرعها الله ولا رسوله صارت الشياطين كثيراً ما تأوي إلى المغارات والجبال : مثل مغارة الدم التى بجبل قاسيون ، وجبل لبنان الذي بساحل الشام ، وجبل الفتح بأسوان بمصر ، وجبال بالروم وخراسان وجبال بالجزيرة ،

وغير ذلك، وجبل اللكام ، وجبل الأحيش ، وجبل سولان قرب أردبيل ، وجبل شهنك عند تبريز وجبل ماشكو عند أقشوان، وجبل نهاوند ، وغير ذلك من الجبال التى يظن بعض الناس أن بها رجالا من الصالحين من الإنس ويسمونهم رجال الغيب ، وإنما هناك رجال من الجن ، فالجن رجال كما أن الإنس رجال ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ .

ومن هؤلاء من يظهر بصورة رجل شعراني جلده يشبه جلد الماعز فيظن من لايعرفه أنه إنسي وإنما هو جنى ، ويقال بكل جبل من هذه الجبال الأربعون الأبدال ، وهؤلاء الذين يظن أنهم الأبدال هم جن بهذه الجبال ، كما يعرف ذلك بطرق متعددة .

وهذا باب لا يتسع هذا الموضع لبسطه وذكر ما نعرفه من ذلك فإنا قد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه فى هذا المختصر الذي كتب لمن سأل أن نذكر له من الكلام على أولياء الله تعالى ما يعرف به جمل ذلك .

والناس فى خوارق العادات على ثلاثة أقسام :

« قسم » يكذب بوجود ذلك لغير الأنبياء ، وربما صدق به

مجملا وكذب ما يذكر له عن كثير من الناس لكونه عنده ليس من الأولياء .

ومنهم من يظن أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان وليا لله وكلا الأمرين خطأ ، ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين وأنهم من أولياء الله . وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة ، والصواب القول الثالث وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله عز وجل كما قال الله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ) وهؤلاء العباد والزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة تقترن بهم الشياطين فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله ؛ لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضا ، وإذا حصل من له تمكن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم ، ولا بد أن يكون فى أحدهم من الكذب جهلاً أو عمداً ، ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين وبين المتشبهين بهم من أولياء الشياطين . قال الله تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) والافاك الكذاب . والأثيم الفاجر .

ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهي ، وهو سماع المشركين ، قال الله تعالى : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً

وَتَصْدِيَةً) قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهما من السلف ، «التصدية» التصفيق باليد ، و «المكاء» مثل الصفير ، فكان المشركون يتخذون هذا عبادة ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك ، والاجتماعات الشرعية ، ولم يجتمع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على استماع غناء قط لا بكف ولا بدف ، ولا تواجد ولا سقطت بردته ؛ بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه .

وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ ، والباقون يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري : ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون ، ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له : « مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً » أي لحسنته لك تحسينا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال صلى الله عليه وسلم : « لله أشهد أذناً أي استماعا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » : وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ علي القرآن فقال أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : إني أحب أن أسمعه من غيري فقرأت عليه سورة النساء ، حتى انتهيت إلى

هذه الآية (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا)
قال : حسبك ، فإذا عيناه تذرفان من البكاء » .

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم ، كما ذكره الله فى القرآن فقال : (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا) وقال فى أهل المعرفة :

(وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ) ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ) وقال تعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

وأما السماع المحدث ، سماع الكف والدف والقصب فلم تكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين يجعلون هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى ، ولا يعدونه من القرب والطاعات ،

بل يعدونه من البدع المذمومة ، حتى قال الشافعي : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك ، ويعلمون أن للشيطان فيه نصيباً وافراً ، ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم .

ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله كان نصيب الشيطان منه أكثر وهو بمنزلة الخمر ، يؤثر في النفوس أعظم من تأثير الخمر ؛ ولهذا إذا قويت سكرة أهله نزلت عليهم الشياطين ، وتكلمت على ألسنة بعضهم ، وحملت بعضهم فى الهواء ، وقد تحصل عداوة بينهم ، كما تحصل بين شراب الخمر فتكون شياطين أحدهم أقوى من شياطين الآخر فيقتلونه ، ويظن الجهال أن هذا من كرامات أولياء الله المتقين وإنما هذا مبعد لصاحبه عن الله وهو من أحوال الشياطين ؛ فإن قتل المسلم لا يحل إلا بما أحله الله ، فكيف يكون قتل المعصوم مما يكرم الله به أولياءه ؟! وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة ، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه ، ويزيده مما يقربه إليه ، ويرفع به درجته .

وذلك أن الخوارق منها ما هو من جنس العلم كالمكاشفات ، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك كالتصرفات الخارقة للعادات ، ومنها ما هو

من جنس الغنى عن جنس ما يعطاه الناس فى الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى .

وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله ، ازداد بذلك رفعة وقربا إلى الله ورسوله ، وعلت درجته وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش ، استحق بذلك الذم والعقاب ، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ماحية وإلا كان كأمثاله من المذنبين ؛ ولهذا كثيراً ما يعاقب أصحاب الخوارق تارة بسلبها ، كما يعزل الملك عن ملكه ويسلب العالم علمه . وتارة بسلب التطوعات ، فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة ، وتارة ينزل إلى درجة الفساق ، وتارة يرتد عن الإسلام . وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية ؛ فإن كثيراً من هؤلاء يرتد عن الإسلام ، وكثير منهم لا يعرف أن هذه شيطانية بل يظنها من كرامات أولياء الله ، ويظن من يظن منهم أن الله عز وجل إذا أعطى عبداً خرق عادة لم يحاسبه على ذلك ، كمن يظن أن الله [إذا] أعطى عبداً ملكا ومالا وتصرفا لم يحاسبه عليه ، ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة لا مأموراً بها ولا منهياً عنها ، فهذا يكون من عموم الأولياء ، وهم الأبرار المقتصدون ، وأما السابقون المقربون فأعلى من هؤلاء ، كما أن العبد

الرسول أعلى من النبي الملك .

ولما كانت الخوارق كثيراً ما تنقص بها درجة الرجل كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك ويستغفر الله تعالى ، كما يتوب من الذنوب : كالزنا والسرقة ، وتعرض على بعضهم فيسأل الله زوالها ، وكلهم يأمر المريد السالك أن لا يقف عندها ولا يجعلها همته ولا يتبجح بها ؛ مع ظنهم أنها كرامات . فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها ، فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع ، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها ، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر وتقول : هنيئاً لك يا ولي الله ، فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك ، وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول : خذني حتى يأكلني الفقراء ، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الانس ويخاطبه بذلك ، ومنهم من يكون فى البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس ، وكذلك فى أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار ، أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه ، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله .

وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له أنا من أمر الله ، ويعده بأنه المهدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم ويظهر له الخوارق ،

مثل أن يخطر بقلبه تصرف فى الطير والجراد فى الهواء ؛ فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً أو شمالاً ذهب حيث أراد ، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه فى الظاهر ، وتحمله إلى مكة وتأتى به ، وتأتيه بأشخاص فى صورة جميلة وتقول له هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك ، فيقول فى نفسه : كيف تصوروا بصورة المردان ؟! فيرفع رأسه فيجدهم بلحى ويقول له علامة إنك أنت المهدي إنك تنبت فى جسدك شامة فتنبت ويراها وغير ذلك ، وكله من مكر الشيطان .

وهذا باب واسع لو ذكرت ما أعرفه منه لا حتاج إلى مجلد كبير ، وقد قال تعالى : (فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ) قال الله تبارك وتعالى : (كلا)، ولفظ (كلا) فيها زجر وتنبيه : زجر عن مثل هذا القول ، وتنبيه على ما يخبر به ويؤمر به بعده ، وذلك أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله عز وجل مكرماً له بها ، ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهيناً له بذلك ؛ بل هو سبحانه يبتلى عبده بالسراء والضراء ، فقد يعطى النعم الدنيوية لمن لا يحبه . ولا هو كريم عنده ليستدرجه بذلك . وقد يحمى منها من يحبه ويواليه لئلا تنقص بذلك مرتبته عنده أو يقع بسببها فيما يكرهه منه .

وأيضاً «كرامات الأولياء» لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله ، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء ، وإنما تحصل عند الشرك : مثل دعاء الميت والغائب ، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات : كالحيات والزنابير والخنافس والدم وغيره من النجاسات ، ومثل الغناء والرقص ؛ لاسيما مع النسوة الأجانب والمردان ، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان فيرقص ليلا طويلاً . فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً أو ينقر الصلاة نقر الديك ، وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده ، ويحب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد . فهذه أحوال شيطانية ؛ وهو ممن يتناوله قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ .

فالقرآن هو ذكر الرحمن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

يعني تركت العمل بها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما :

تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه أن لا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ؛ ثم قرأ هذه الآية .

فصـــــل

ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع الإنس والجـن ، فـلم يبق إنسي ولا جني إلا وجب عليه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، فعليه أن يصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ومـن قامت عليه الحجة برسـالته فلم يؤمن به فهو كافر ، سواء كان إنسياً أو جنياً .

ومحمد صـلى الله عليـه وسـلم مبعوث إلى الثقلين باتفاق المسلمـين وقد استمعت الجن القرآن وولوا إلى قومهم منذرين لمـا كان النبي صلى الله عليـه وسلم يصلى بأصحابه ببطن نخلة لما رجع من الطائف ، وأخبره الله بذلك فى القرآن بقوله

(وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ * قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى

ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) .

وأنزل الله تعالى بعد ذلك (قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا * وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

أي السفيه منا فى أظهر قولي العلماء .

وقال غير واحد من السلف : كان الرجل من الإنس إذا نزل بالوادي قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فلما استغاثت الإنس بالجن ازدادت الجن طغياناً وكفراً كما قال تعالى : (وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا)

وكانت الشياطين ترمى بالشهب قبل أن ينزل القرآن ؛ لكن كانوا أحياناً يسترقون السمع قبل أن يصل الشهاب إلى أحدهم ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً ، وصارت الشهب مرصدة لهم قبل أن يسمعوا ، كما قالوا : (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا)

وقال تعالى فى الآية الاخرى : (وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ) ، قالوا : (وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا) أي على مذاهب شتى ، كما قال العلماء منهم المسلم والمشرك والنصرانى والسنى والبدعي (وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا) أخبروا أنهم لا يعجزونه : لا إن أقاموا فى الأرض ولا إن هربوا منه (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ)

أي الظالمون ، يقال أقسط إذا عدل ، وقسط إذا جار وظلم (فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا * وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا * وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا) أي ملجأ ومعاذا

(إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا * حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا) .

ثم لما سمعت الجن القرآن أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به وهم جن نصيبين ، كما ثبت ذلك فى الصحيح من حديث ابن مسعود ، وروى أنه قرأ عليهم سورة الرحمن ، وكان إذا قال : (فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

ولما اجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم سألوه الزاد لهم ولدوابهم فقال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة علفا لدوابكم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد لإخوانكم من الجن » وهذا النهي ثابت عنه من وجوه متعددة ، وبذلك احتج العلماء على النهي عن الاستنجاء بذلك ، وقالوا فإذا منع من الاستنجاء بما للجن ولدوابهم فما أعد للإنس ولدوابهم من الطعام والعلف أولى وأحرى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع الإنس والجن ، وهذا أعظم قدراً عند الله تعالى من كون الجن سخروا لسليمان عليه السلام ؛ فإنهم سخروا له يتصرف فيهم بحكم الملك ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم يأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، لأنه عبد الله ورسوله ، ومنزلة العبد الرسول فوق منزلة النبي الملك .

وكفار الجن يدخلون النار بالنص والإجماع ، وأما مؤمنوهم فجمهور

العلماء على أنهم يدخلون الجنة ، وجمهور العلماء على أن الرسل من الإنس ولم يبعث مـن الجن رسول . لكن منهم النذر ، وهـذه المسائل لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن الجن مع الإنس على أحوال :

فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ، ويأمر الإنس بذلك ، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى ، وهو فى ذلك من خلفاء الرسول ونوابه .

ومن كان يستعمل الجن فى أمور مباحة له فهـو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له ، وهذا كأن يأمرهم بمـا يجب عليهم وينهاهم عما حرم عليهم ويستعملهم فى مباحات له ، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك ، وهذا إذا قدر أنه من أولياء الله تعالى فغايته أن يكون فى عموم أولياء الله مثل النبي الملك مـع العبد الرسول : كسليمان ويوسف مـع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صـلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما فى الشرك وإما فى قتل معصوم الدم أو فى العدوان عليهم بغير القتـل كتمريضه

وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم ، وإما في فاحشة كجلب من يطلب منه الفاحشة ، فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ، ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر ، وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص : إما فاسق وإما مذنب غير فاسق ، وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات : مثل أن يستعين بهم على الحج ، أو أن يطيروا به عند السماع البدعى ، أو أن يحملوه إلى عرفات ولا يحج الحج الشرعى الذي أمره الله به ورسوله ، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة ، ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به .

وكثير من هؤلاء قد لا يعرف أن ذلك من الجن ، بل قد سمع أن أولياء الله لهم كرامات وخوارق للعادات ، وليس عنده من حقائق الإيمان ومعرفة القرآن ما يفرق به بين الكرامات الرحمانية ، وبين التلبيسات الشيطانية فيمكرون به بحسب اعتقاده ، فإن كان مشركاً يعبد الكواكب والأوثان أوهموه أنه ينتفع بتلك العبادة ، ويكون قصده الاستشفاع والتوسل ممن صور ذلك الصنم على صورته من ملك أو نبي أو شيخ صالح ، فيظن أنه صالح ، وتكون عبادته فى الحقيقة للشيطان ، قال الله تعالى :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) .

ولهذا كان الذين يسجدون للشمس والقمر والكواكب يقصدون السجود لها فيقارنها الشيطان عند سجودهم ليكون سجودهم له؛ ولهذا يتمثل الشيطان بصورة من يستغيث به المشركون. فإن كان نصرانياً واستغاث بجرجس أو غيره جاء الشيطان فى صورة جرجس أو من يستغيث به، وإن كان منتسباً إلى الإسلام واستغاث بشيخ يحسن الظن به من شيوخ المسلمين جاء فى صورة ذلك الشيخ، وإن كان من مشركي الهند جاء فى صورة من يعظمه ذلك المشرك.

ثم إن الشيخ المستغاث به إن كان ممن له خبرة بالشريعة لم يعرفه الشيطان أنه تمثل لأصحابه المستغيثين به، وإن كان الشيخ ممن لا خبرة له بأقوالهم نقل أقوالهم له فيظن أولئك أن الشيخ سمع أصواتهم من البعد وأجابهم، وإنما هو بتوسط الشيطان.

ولقد أخبر بعض الشيوخ الذين كان قد جرى لهم مثل هذا بصورة مكاشفة ومخاطبة، فقال: يروني الجن شيئا براقاً مثل الماء والزجاج، ويمثلون له فيه ما يطلب منه الإخبار به، قال: فأخبر الناس به، ويوصلون إلى كلام من استغاث بي من أصحابي فأجيبه فيوصلون جوابى إليه.

وكان كثير من الشيوخ الذين حصل لهم كثير من هذه الخوارق إذا كذب بها من لم يعرفها وقال إنكم تفعلون هذا بطريق الحيلة كما

يدخل النار بحجر الطلق وقشور النارنج ، ودهن الضفادع ، وغير ذلك من الحيل الطبيعية فيعجب هؤلاء المشايخ ويقولون نحن والله لا نعرف شيئاً من هذه الحيل . فلما ذكر لهم الخبير إنكم لصادقون فى ذلك ، ولكن هذه الأحوال شيطانية أقروا بذلك وتاب منهم من تاب الله عليه لما تبين لهم الحق ، وتبين لهم من وجوه أنها من الشيطان ، ورأوا أنها من الشياطين لما رأوا أنها تحصل بمثل البدع المذمومة في الشرع وعند المعاصي لله ، فلا تحصل عندما يحبه الله ورسوله من العبادات الشرعية ، فعلموا أنها حينئذ من مخارق الشيطان لأوليائه ؛ لا من كرامات الرحمن لأوليائه .

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله وسلم على محمد سيد رسله وأنبيائه وعلى آله وصحبه وأنصاره وأشياعه وخلفائه صلاة وسلاماً نستوجب بهما شفاعته « آمين » .

وقال الشيخ الإمام العالم العلامة

العارف الربانى ، المقذوف فى قلبه النور القرآني ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه وأرضاه (١) .

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضاه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ولا إله سواه ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه واجتباه وهداه ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين .

قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات

وإن كان اسم « المعجزة » يعم كل خارق للعادة فى اللغة وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ـ ويسمونها : الآيات ـ لكن كثير من المتأخرين يفرق فى اللفظ بينهما ، فيجعل « المعجزة »

---

(١) هذه « قاعدة في المعجزات والكرامات » .

للنبي ، و « الكرامة » للولي ، وجماعها الأمر الخارق للعادة .

فنقول : صفات الكمال ترجع إلى « ثلاثة » : العلم ، والقدرة ، والغنى . وإن شئت أن تقول : العلم ، والقدرة . والقدرة إما على الفعل وهو التأثير ، وإما على الترك وهو الغنى ، والأول أجود . وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده ؛ فإنه الذي أحاط بكل شيء علما ، وهو على كل شيء قدير ، وهو غني عن العالمين .

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله : (قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ) وكذلك قال نوح عليه السلام . فهذا أول أولي العزم ، وأول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض ، وهذا خاتم الرسل وخاتم أولى العزم كلاهما يتبرأ من ذلك . وهذا لأنهم يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلم تارة بعلم الغيب كقوله : (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) و (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى) وتارة بالتأثير ، كقوله : (وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا) — إلى قوله — (قُلْ

سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا) وتارة يعيبون عليه الحاجة البشرية ، كقوله : (وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا) .

فأمره أن يخبر أنه لا يعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الله ، ولا هو ملك غني عن الأكل والمال ، إن هو إلا متبع لما أوحى اليه ، واتباع ما أوحى إليه هو الدين ، وهو طاعة الله ، وعبادته علما وعملا بالباطن والظاهر وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى فيعلم منه ما علمه إياه ، ويقدر منه على ما أقدره الله عليه ، ويستغني عما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة غالب الناس .

فما كان من الخوارق من « باب العلم » فتارة بأن يسمع العبد مالا يسمعه غيره . وتارة بأن يرى مالا يراه غيره يقظة ومناما . وتارة بأن يعلم مالا يعلم غيره وحياً وإلهاما ، أو إنزال علم ضروري ، أو فراسة صادقة ، ويسمى كشفاً ومشاهدات ، ومكاشفات ومخاطبات : فالسماع مخاطبات ، والرؤية مشاهدات ، والعلم مكاشفة ، ويسمى ذلك كله « كشفاً » و « مكاشفة » أي كشف له عنه .

وما كان من « باب القدرة » فهو التأثير ، وقد يكون همة وصدقا ودعوة مجابة ، وقد يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه بحال ، مثل هلاك عدوه بغير أثر منه ، كقوله « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب » . ومثل تذليل النفوس له ومحبتها إياه ونحو ذلك .

وكذلك ما كان من « باب العلم والكشف » . قد يكشف لغيره من حاله بعض أمور ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى المبشرات : « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » وكما قال : النبي صلى الله عليه وسلم « أنتم شهداء الله فى الأرض » .

وكل واحد « من الكشف والتأثير » قد يكون قائماً به ، وقد لا يكون قائما به ، بل يكشف الله حاله ويصنع له من حيث لا يحتسب ، كما قال يوسف بن أسباط : « ما صدق الله عبد إلا صنع له » وقال : أحمد بن حنبل « لو وضع الصدق على جرح لبرأ » لكن من قام بغيره له من الكشف والتأثير فهو سببه أيضاً ، وإن كان خرق عادة فى ذلك الغير ، فمعجزات الأنبياء وأعلامهم ودلائل نبوتهم تدخل فى ذلك .

وقد جمع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم جميع أنواع « المعجزات والخوارق » : أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية فمثل إخبار نبينا صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطباته لهم وأحواله معهم ، وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ماعند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر أو بغيره من غير تعلم له منهم ، وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم ، ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء ، تارة بما فى أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر ، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم ، وفى مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب وهو من حكمة إبقائهم بالجزية وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه .

فإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من « باب العلم الخارق » وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلة مثل مملكة أمته وزوال مملكة فارس والروم ، وقتال الترك ، وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها مذكور بعضها في « كتب دلائل النبوة » ، و« سيرة الرسول » و« فضائله » و « كتب التفسير » ، و « الحديث » و « المغازي » مثل دلائل النبوة لأبي نعيم والبيهقي وسيرة ابن إسحق ، وكتب الأحاديث المسندة كمسند الإمام أحمد ، والمدونة كصحيح البخاري ، وغير ذلك مما

هو مذكور أيضا فى « كتب أهل الكلام والجدل » : كأعلام النبوة للقاضي عبد الجبار وللماوردي، والرد على النصارى للقرطبي، ومصنفات كثيرة جداً . وكذلك ما أخبر عنه غيره مما وجد فى كتب الأنبياء المتقدمين وهي فى وقتنا هذا اثنان وعشرون نبوة بأيدي اليهود والنصارى ، كالتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وكتاب شعيا ، وحبقوق ، ودانيال ، وأرميا وكذلك إخبار غير الأنبياء من الأحبار والرهبان وكذلك إخبار الجن والهوانف المطلقة ، وإخبار الكهنة كسطيح وشق وغيرهما ، وكذلك المنامات وتعبيرها : كمنام كسرى وتعبير الموبذان ، وكذا إخبار الأنبياء المتقدمين بما مضى وما عبر هو من أعلامهم .

وأما « القدرة والتأثير » فإما أن يكون فى العالم العلوي أو مادونه وما دونه إما بسيط أو مركب ، والبسيط إما الجو وإما الأرض ؛ والمركب إما حيوان وإما نبات وإما معدن . والحيوان إما ناطق وإما بهيم ؛ فالعلوي كانشقاق القمر ، ورد الشمس ليوشع بن نون ، وكذلك ردها لما فاتت علياً الصلاة و النبي صلى الله عليه وسلم نائم فى حجره ــ إن صح الحديث ــ فمن الناس من صححه كالطحاوي والقاضي عياض . ومنهم من جعله موقوفا كأبي الفرج بن الجوزي وهذا أصح . وكذلك معراجه إلى السماوات .

وأما « الجو » فاستسقاؤه ، واستصحاؤه غير مرة : كحديث الأعرابي الذي فى الصحيحين وغيرهما وكذلك كثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره وكذلك إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

وأما « الأرض والماء » فكاهتزاز الجبل تحته وتكثير الماء فى عين تبوك وعين الحديبية ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة ومزادة المرأة .

وأما « المركبات » فتكثيره للطعام غير مرة فى قصة الخندق من حديث جابر وحديث أبي طلحة ، وفى أسفاره ، وجراب أبي هريرة ، ونخل جابر بن عبد الله ، وحديث جابر وابن الزبير فى انقلاع النخل له وعوده إلى مكانه ، وسقياه لغير واحد من الأرض كعين أبي قتادة .

وهذا باب واسع لم يكن الغرض هنا ذكر أنواع معجزاته بخصوصه وإنما الغرض التمثيل .

وكذلك من باب « القدرة » عصا موسى صلى الله عليه وسلم وفلق البحر والقمل والضفادع والدم ، وناقة صالح ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى ، كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون

وما يدخرون في بيوتهم .

وفى الجملة لم يكن المقصود هنا ذكر المعجزات النبوية بخصوصها ، وإنما الغرض التمثيل بها .

وأما المعجزات التى لغير الأنبياء من « باب الكشف والعلم » فمثل قول عمر فى قصة سارية ، وإخبار أبي بكر بأن ببطن زوجته أنثى ، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً ، وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام .

و « القدرة » مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب ، وقصة أهل الكهف ، وقصة مريم ، وقصة خالد بن الوليد ، وسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي مسلم الخولاني ، وأشياء يطول شرحها فإن تعداد هذا مثل المطر . وإنما الغرض التمثيل بالشيء الذي سمعه أكثر الناس . وأما القدرة التى لم تتعلق بفعله فمثل نصر الله لمن ينصره وإهلاكه لمن يشتمه .

فصـــــل

الخارق كشفاً كان أو تأثيراً إن حصل به فائدة مطلوبة فى الدين كان من الأعمـال الصالحة المأمور بهـا ديناً وشرعا ، إما واجب وإما مستحب ، وإن حصل به أمر مبـاح كان من نعم الله الدنيوية التى تقتضي شكراً ، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سبباً للعـذاب أو البغض ، كقصة الذي أوتي الآيات فانسلخ منها : بلعام بن باعوراء ؛ لـكن قد يكون صاحبهـا معذوراً لاجتهاد أو تقليد أو نقص عقل أو علم أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة. فيكون من جنس برح العابد .

و « النهي » قد يعود إلى سبب الخارق وقد يعود إلى مقصوده فالأول مثل أن يدعو الله دعاء منهياً عنه اعتداء عليه . وقد قال تعالى: (ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ) ومثل الأعمال المنهي عنها إذا أورثت كشفاً أو تأثيراً . والثانى أن يدعو على غيره بما لا يستحقه أو يدعو للظالم بالإعانة ، ويعينه بهمته : كخفراء العدو وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال ؛ فإن كان صاحبه مـن عقلاء المجـانين والمغلوبين غلبة

بحيث يعذرون والناقصين نقصاً لا يلامون عليه كانوا برحية . وقد بينت في غير هذا الموضع ما يعذرون فيه وما لا يعذرون فيه ، وإن كانوا عالمين قادرين كانوا بلعامية ، فإن من أتى بخارق على وجه منهي عنه أو لمقصود منهي عنه فإما أن يكون معذوراً معفواً عنه كبرح ، أو يكون متعمداً للكذب كبلعام .

فتلخص أن الخارق « ثلاثة أقسام » : محمود فى الدين ، ومذموم فى الدين ، ومباح لا محمود ولا مذموم في الدين ؛ فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة ، وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التى لا منفعة فيها كاللعب والعبث .

قال أبو علي الجوزجانى : كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة . فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة . قال الشيخ السهروردي فى عوارفه : وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير فى الباب ، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب . وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا عن سلف الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك ، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك . ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهماً لنفسه فى صحة عمله حيث لم يكاشف بشيء من ذلك ، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر ، فيعلم أن الله

يفتح على بعض المجاهدين الصادقين مـن ذلك بابا ، والحكمة فيـه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القـدرة تفننا ، فيقوى عزمه على هذا الزهد في الدنيا ، والخروج من دواعى الهوى ، وقد يـكون بعض عباده يكاشف بصدق اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومـن كوشف بصدق اليقين أغني بذلك عن رؤية خرق العادات ؛ لأن المراد منها كان حصول اليقين ، وقد حصل اليقين فلو كوشف هـذا المرزوق صدق اليقين بشيء من ذلك لازداد يقيناً . فلا تقتضي الحكمة كشف القـدرة بخوارق العادات لهـذا الموضع استغناء به ، وتقتضي الحكمة كشف ذلك الآخر لموضع حاجته ، وكان هذا الثانى يكون أتم استعداداً وأهلية من الأول . فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ، فهي كل الكرامة . ثم إذا وقـع في طريقـه شيء خارق كان كأن لم يقـع فما يبالي ولا ينقص بذلك . وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة .

فتعلم هذا ؛ لأنه أصل كبير للطالبين ، والعلماء الزاهدين ، ومشايـخ الصوفيـة .

فصـــــل

كلمات الله تعالى « نوعان » : كلمات كونية ، وكلمات دينية . فكلماتـه الكونية هي : التى استعاذ بها النبي صلى الله عليـه وسلم فى قوله « أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر » وقال سبحانه : (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ) وقال تعـالى (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) والكون كلـه داخل تحت هذه الـكلمات وسائر الخوارق الكشفية التأثيرية .

و« النوع الثاني » الـكلمات الدينية وهي : القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله وهي : أمره ونهيه وخبره ، وحظ العبد منها العلم بها والعمل والأمر بما أمر الله به ، كما أن حظ العبد عموماً وخصوصـاً من الأول العلم بالكونيات ، والتأثير فيها . أي بموجبها .

فالأولى قدرية كونية والثـانية شرعية دينية ، وكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية ، وكشف الثـانية العلم بالمأمورات الشرعية ، وقـدرة الأولى التأثير فى الكونيات ، وقدرة الثانية التأثير في الشرعيـات ، وكما

أن الأولى تنقسم إلى تأثير فى نفسه ، كمشيه على الماء وطيرانه فى الهواء وجلوسه على النار، وإلى تأثير فى غيره بإسقام وإصحاح ، وإهلاك وإغناء وإفقار فكذلك الثانية تنقسم إلى تأثير فى نفسه بطاعته لله ورسوله ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله باطناً ، وظاهراً ، وإلى تأثير فى غيره بأن يأمر بطاعة الله ورسوله ؛ فيطاع فى ذلك طاعة شرعية ؛ بحيث تقبل النفوس ما يأمرها به من طاعة الله ورسوله فى الكلمات الدينيات . كما قبلت من الأول ما أراد تكوينه فيها بالكلمات الكونيات .

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن عدم الخوارق علماً وقدرة لا تضر المسلم في دينه ، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ، ولم يسخر له شيء من الكونيات ، لا ينقصه ذلك فى مرتبته عند الله ؛ بل قد يكون عدم ذلك أنفع له فى دينه إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأموراً به أمر إيجاب ولا استحباب ، وأما عدم الدين والعمل به فيصير الإنسان ناقصاً مذموماً إما أن يجعله مستحقاً للعقاب ، وإما أن يجعله محروما من الثواب ، وذلك لأن العلم بالدين وتعليمه والأمر به ينال به العبد رضوان الله وحده وصلاته وثوابه ، وأما العلم بالكون والتأثير فيه فلا ينال به ذلك إلا إذا كان داخلا فى الدين ، بل قد يجب عليه شكره ، وقد يناله به إثم .

إذا عرف هذا فالأقسام ثلاثة : إما أن يتعلق بالعلم والقدرة [أو] بالدين

فقط ، أو بالكون فقط .

(فالأول) كما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا)
فإن السلطان النصير يجمع الحجة والمنزلة عند الله ، وهو كلماته الدينية ، والقدرية والكونية عند الله بكلماته الكونيات ، ومعجزات الأنبياء عليهم السلام تجمع الأمرين ، فإنها حجة على النبوة من الله وهي قدرية . وأبلغ ذلك القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه هو شرع الله وكلماته الدينيات ، وهو حجة محمد صلى الله عليه وسلم على نبوته ، ومجيئه من الخوارق للعادات ، فهو الدعوة وهو الحجة والمعجزة .

(وأما القسم الثانى) فمثل من يعلم بما جاء به الرسول خبراً وأمراً ويعمل به ويأمر به الناس ، ويعلم بوقت نزول المطر وتغير السعر ، وشفاء المريض ، وقدوم الغائب ، ولقاء العدو ، وله تأثير إما فى الأناسي ، وإما فى غيرهم بإصحاح وإسقام وإهلاك ، أو ولادة أو ولاية أو عزل . وجماع التأثير إما جلب منفعة كالمال والرياسة ؛ وإما دفع مضرة كالعدو والمرض ، أولا واحد منهما مثل ركوب أسد بلا فائدة ؛ أو إطفاء نار ونحو ذلك .

(وأما الثالث) فمن يجتمع له الأمران ؛ بأن يؤتى من الكشف

والتأثير الكونى ما يؤيد به الكشف والتأثير الشرعي . وهو علم الدين
والعمل به ، والأمر به ، ويؤتى من علم الدين والعمل به ، ما يستعمل
به الكشف والتأثير الكوني ؛ بحيث تقع الخوارق الكونية تابعة للأوامر
الدينية ، أو أن تخرق له العادة فى الأمور الدينيـة ؛ بحيث ينـال من
العلوم الدينية ، ومن العمل بها ، ومن الأمر بها ، ومن طـاعة الخلق
فيهـا ، ما لم ينله غيره فى مطرد العـادة . فهـذه أعظم الكرامـات
والمعجزات وهو حال نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر الصديق
وعمر وكل المسلمين .

فهذا القسم الثالث هو مقتضى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) إذ
الأول هو العبادة ، والثانى هو الاستعانة ، وهو حال نبينا محمد صـلى
الله عليـه وسـلم والخواص من أمته المتمسكين بشرعته ومنهاجه باطنـاً
وظاهراً ، فإن كراماتهم كمعجزاته لم يخرجها إلا لحجة أو حاجة ، فالحجة
ليظهر بهـا دين الله ليؤمـن الـكافر ويخلص المنـافق ويزداد الذين
آمنوا إيماناً ، فكانت فائدتها اتباع دين الله علماً وعملاً ، كالمقصود
بالجهاد . والحاجة كجلب منفعة يحتاجون إليهـا كالطعام والشراب وقت
الحاجة إليه ، أو دفع مضرة عنهم ككسر العدو بالحصى الذي رماهم به
فقيل له : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ) . وكل من هذين
يعود إلى منفعـة الدين كالأكل والشرب وقتـال العدو والصدقة على

المسلمين ؛ فإن هذا من جملة الدين والأعمال الصالحة .

وأما « القسم الأول » وهو المتعلق بالدين فقط فيكون منه ما لا يحتاج إلى الثاني ولا له فيه منفعة ، كحال كثير من الصحابة ، والتابعين وصالحي المسلمين ، وعلمائهم وعبادهم ، مع أنه لا بد أن يكون لهم حاجة أو انتفاع بشيء من الخوارق ، وقد يكون منهم من لا يستعمل أسباب الكونيات ولا عمل بها ، فانتفاء الخارق الكونى في حقه إما لانتفاء سببه وإما لانتفاء فائدته ، وانتفاؤه لانتفاء فائدته لا يكون نقصاً ، وأما انتفاؤه لانتفاء سببه فقد يكون نقصاً وقد لا يكون نقصاً ، فإن كان لإخلاله بفعل واجب وترك محرم كان عدم الخارق نقصاً وهو سبب الضرر ، وإن كان لإخلاله بالمستحبات فهو نقص عن رتبة المقربين السابقين وليس هو نقصاً عن رتبة أصحاب اليمين المقتصدين ، وإن لم يكن كذلك بل لعدم اشتغاله بسبب بالكونيات التى لا يكون عدمها ناقصاً لثواب لم يكن ذلك نقصاً ، مثل من يمرض ولده ويذهب ماله فلا يدعو ليعافى أو يجيء ماله ، أو يظلمه ظالم فلا يتوجه عليه لينتصر عليه .

وأما « القسم الثانى » وهو صاحب الكشف والتأثير الكونى فقد تقدم أنه تارة يكون زيادة فى دينه ، وتارة يكون نقصاً ، وتارة لا له ولا عليه وهذا غالب حال أهل الاستعانة ، كما أن الأول غالب حال أهل العبادة ،

وهذا الثانى بمنزلة الملك والسلطان الذي قد يكون صاحبه خليفة نبياً ، فيكون خير أهل الأرض ، وقد يكون ظالماً من شر الناس ، وقد يكون ملكا عادلاً فيكون من أوساط الناس ؛ فإن العلم بالكونيات والقدرة على التأثير فيها بالحال والقلب كالعلم بأحوالها والتأثير فيها بالملك وأسبابه ، فسلطان الحال والقلب كسلطان الملك واليد ، إلا أن أسباب هذا باطنة روحانية ، وأسباب هذا ظاهرة جسمانية . وبهذا تبين لك أن القسم الأول إذا صح فهو أفضل من هذا القسم ، وخير عند الله وعند رسوله وعباده الصالحين المؤمنين العقلاء .

وذلك من وجوه :

(أحدها) أن علم الدين طلباً وخبراً لا ينال إلا من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأما العلم بالكونيات فأسبابه متعددة ، وما اختص به الرسل وورثتهم أفضل مما شركهم فيه بقية الناس ، فلا ينال علمه إلا هم وأتباعهم ، ولا يعلمه إلا هم وأتباعهم .

(الثانى) أن الدين لا يعمل به إلا المؤمنون الصالحون الذين هم أهل الجنة وأحباب الله ، وصفوته وأحباؤه وأولياؤه ، ولا يأمر به إلا هم .

وأما « التأثير الكونى » فقد يقع من كافر ومنافق وفاجر ، تأثيره فى نفسه وفى غيره كالأحوال الفاسدة والعين والسحر ، وكالملوك والجبابرة المسلطين والسلاطين الجبابرة ، وما كان من العلم مختصاً بالصالحين أفضل مما يشترك فيه المصلحون والمفسدون .

(الثالث) أن العلم بالدين والعمل به ينفع صاحبه فى الآخرة ولا يضره . وأما الكشف والتأثير فقد لا ينفع فى الآخرة بل قد يضره كما قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) .

(الرابع) أن الكشف والتأثير إما أن يكون فيه فائدة أو لا يكون ، فإن لم يكن فيه فائدة ؛ كالاطلاع على سيئات العباد وركوب السباع لغير حاجة ، والاجتماع بالجن لغير فائدة ، والمشي على الماء مع إمكان العبور على الجسر ؛ فهذا لا منفعة فيه لا في الدنيا ولا فى الآخرة ، وهو بمنزلة العبث واللعب وإنما يستعظم هذا من لم ينله . وهو تحت القدرة والسلطان فى الكون ، مثل من يستعظم الملك أو طاعة الملوك لشخص وقيام الحالة عند الناس بلا فائدة ، فهو يستعظمه من جهة سببه لا من جهة منفعته كالمال والرياسة ، ودفع مضرة كالعدو والمرض ؛ فهذه المنفعة تنال غالباً بغير الخوارق أكثر مما تنال بالخوارق ، ولا يحصل بالخوارق منها إلا القليل ، ولا تدوم إلا بأسباب أخرى .

وأما الآخر أيضاً فلا يحصل بالخوارق إلا مع الدين . والدين وحده موجب للآخرة بلا خارق ، بل الخوارق الدينية الكونية أبلغ من تحصيل الآخرة كحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وكذلك المال والرياسة التى تحصل لأهل الدين بالخوارق إنما هو مع الدين ٠ وإلا فالخوارق وحدها لا تؤثر فى الدنيا إلا أثراً ضعيفاً .

فإن قيل : مجرد الخوارق إن لم تحصل بنفسها منفعة لا فى الدين ولا فى الدنيا فهي علامة طاعة النفوس له ، فهو موجب الرياسة والسلطان، ثم يتوسط ذلك فتجتلب المنافع الدينية والدنيوية ٠ وتدفع المضار الدينية والدنيوية .

قلت : نحن لم نتكلم إلا فى منفعة الدين أو الخارق فى نفسه من غير فعل الناس . وأما إن تكلمنا فيما يحصل بسببها من فعل الناس فنقول أولا : الدين الصحيح أوجب لطاعة النفوس وحصول الرياسة من الخارق المجرد كما هو الواقع ، فإنه لا نسبة لطاعة من أطيع لدينه إلى طاعة من أطيع لتأثيره ، إذ طاعة الأول أعم وأكثر ، والمطيع بها خيار بني آدم عقلا وديناً ، وأما الثانية فلا تدوم ولا تكثر ولا يدخل فيها إلاجهال الناس ، كأصحاب مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي ونحوهم وأهل البوادى والجبال ونحوهم ممن لا عقل له ولا دين .

ثم نقول ثانياً : لو كان الخارق يناله من الرياسة والمال أكثر من صاحب الدين لكان غايته أن يكون ملكا من الملوك ، بل ملكه إن لم يقرنه بالدين فهو كفرعون وكمقدمي الإسماعيلية ونحوهم ، وقد قدمنا أن رياسة الدنيا التى ينالها الملوك بسياستهم وشجاعتهم وإعطائهم أعظم من الرياسة بالخارق المجرد ، فإن هذه أكثر ما يكون مدة قريبة .

(الخامس) أن الدين ينفع صاحبه فى الدنيا والآخرة ويدفع عنه مضرة الدنيا والآخرة من غير أن يحتاج معه إلى كشف أو تأثير .

وأما الكشف أو التأثير فإن لم يقترن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة ، أما فى الآخرة فلعدم الدين الذي هو أداء الواجبات وترك المحرمات ، وأما فى الدنيا فإن الخوارق هي من الأمور الخطرة التى لا تنالها النفوس إلا بمخاطرات فى القلب والجسم والأهل والمال ، فإنه إن سلك طريق الجوع والرياضة المفرطة خاطر بقلبه ومزاجه ودينه ، وربما زال عقله ومرض جسمه وذهب دينه ، وإن سلك طريق الوله والاختلاط بترك الشهوات ليتصل بالأرواح الجنية وتغيب النفوس عن أجسامها ، — كما يفعله مولهو الأحمدية — فقد أزال عقله وأذهب ماله ومعيشته ، وأشقى نفسه شقاء لا مزيد عليه ، وعرض نفسه لعذاب الله فى الآخرة لما تركه من الواجبات وما فعله من المحرمات ، وكذلك إن قصد تسخير الجن بالأسماء والكلمات من الأقسام والعزائم فقد عرض نفسه لعقوبتهم

ومحاربتهم ، بل لو لم يكن الخارق إلا دلالة صاحب المال المسروق والضال على ماله أو شفاء المريض أو دفع العدو من السلطان والمحاربين ـ فهذا القدر إذا فعله الإنسان مع الناس ولم يكن عمله ديناً يتقرب به إلى الله كان كأنه قهرمان للناس يحفظ أموالهم ، أو طبيب أو صيدلي يعالج أمراضهم، أو أعوان سلطان يقاتلون عنه ، إذ عمله من جنس عمل أولئك سواء .

ومعلوم أن من سلك هذا المسلك على غير الوجه الدينى فإنه يحابى بذلك أقواما ولا يعدل بينهم ، وربما أعان الظلمة بذلك كفعل بلعام وطوائف من هذه الأمة وغيرهم . وهذا يوجب له عداوة الناس التى هي من أكثر أسباب مضرة الدنيا ولا يجوز أن يحتمل المرء ذلك إلا إذا أمر الله به ورسوله ؛ لأن ما أمر الله به ورسوله وإن كان فيه مضرة فمنفعته غالبة على مضرته والعاقبة للتقوى .

(السادس) أن للدين علما وعملا إذا صح فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه . قال الله تعالى : (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) وقال تعالى : (إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا) وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا) وقال تعالى : (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ) رواه الترمذي وحسنه من رواية أبي سعيد .

وقال الله تعالى فيما روى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بدله منه » فهذا فيه محاربة الله لمن حارب وليه ، وفيه أن محبوبه به يعلم سمعاً وبصراً ، وبه يعمل بطشاً وسعياً ، وفيه أنه يجيبه إلى ما يطلبه منه من المنافع ، ويصرف عنه ما يستعيذ به من المضار . وهذا باب واسع .

وأما الخوارق فقد تكون ، مع الدين ، وقد تكون مع عدمه أو فساده أو نقصه .

(السابع) أن الدين هو إقامة حق العبودية وهو فعل ماعليك وما أمرت به ، وأما الخوارق فهي من حق الربوبية إذا لم يؤمر العبد بها ، وإن كانت بسعي من العبد فإن الله هو الذي يخلقها بما ينصبه من الأسباب ، والعبد ينبغي له أن يهتم بما عليه وما أمر به ، وأما اهتمامه بما يفعله الله إذا لم يؤمر بالاهتمام به فهو إما فضول فتكون لما فيها من المنافع كالمنافع السلطانية المالية التى يستعان بها على الدين ، كتكثير الطعام والشراب وطاعة الناس إذا رأوها . ولما فيها من دفع المضار عن الدين بمنزلة الجهاد الذي فيه دفع العدو وغلبته .

ثم هل الدين محتاج إليها في الأصل ، ولأن الإيمان بالنبوة لايتم إلا بالخارق أو ليس بمحتاج في الخاصة بل فى حق العامة ؟ هذا نتكلم عليه .

وأنفع الخوارق الخارق الدينى وهو حال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال صلى الله عليه وسلم « ما من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » أخرجاه في الصحيحين . وكانت آيته هي دعوته وحجته بخلاف غيره من الأنبياء . ولهذا نجد كثيراً من المنحرفين منا إلى العيسوية يفرون من القرآن ، والقال إلى الحال ، كما أن المنحرفين منا إلى الموسوية يفرون من الإيمان والحال إلى

القال ، ونبينا صلى الله عليه وسلم صاحب القال والحال ، وصاحب القرآن والإيمان .

ثم بعده الخارق المؤيد للدين المعين له ، لأن الخارق فى مرتبة (إياك نستعين) والدين في مرتبة (إياك نعبد) . فأما الخارق الذي لم يعن الدين فإما متاع دنيا أو مبعد صاحبه عن الله تعالى .

فظهر بذلك أن الخوارق النافعة تابعة للدين حادثة له ، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين ، وكذلك المال النافع ، كما كان السلطان والمال بيد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فمن جعلها هي المقصودة وجعل الدين تابعاً لها ووسيلة إليها لا لأجل الدين في الأصل فهو يشبه بمن يأكل الدنيا بالدين ، وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب أو رجاء الجنة فإن ذلك مأمور به وهو على سبيل نجاة وشريعة صحيحة .

والعجب أن كثيراً ممن يزعم أن همه قد ارتفع وارتقى عن أن يكون دينه خوفا من النار أو طلباً للجنة يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا ، ولعله يجتهد اجتهاداً عظيما فى مثله وهذا خطأ ؛ ولكن منهم من يكون قصده بهذا تثبيت قلبه وطمأنينته وإيقانه بصحة طريقه وسلوكه ، فهو يطلب الآية علامة وبرهانا على صحة دينه ، كما

تطلب الأمم من الأنبياء الآيات دلالة على صدقهم ، فهذا أعذر لهم في ذلك .

ولهذا لما كان الصحابة رضي الله عنهم مستغنين فى علمهم بدينهم وعملهم به عن الآيات بما رأوه من حال الرسول ونالوه من علم ، صار كل من كان عنهم أبعد مع صحة طريقته يحتاج إلى ماعندهم فى علم دينه وعمله .

فيظهر مع الأفراد فى أوقات الفترات وأماكن الفترات من الخوارق مالا يظهر لهم ولا لغيرهم من حال ظهور النبوة والدعوة .

فصل

العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة : حسية وعقلية وكشفية وسمعية ، ضرورية ونظرية وغير ذلك ، وينقسم إلى قطعي وظني وغير ذلك ، وسنتكلم إن شاء الله تعالى على ما يتبع منها وما لا يتبع فى الأحكام الشرعية ، أعني الأحكام الشرعية على العلم بالكائنات من طريق الكشف يقظة ومناما كما كتبته فى الجهاد .

أما العلم بالدين وكشفه فالدين نوعان : أمور خبرية اعتقادية وأمور

طلبية عملية . فالأول كالعلم بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، ويدخل فى ذلك أخبار الأنبياء وأممهم ومراتبهم فى الفضائل ، وأحوال الملائكة وصفاتهم وأعمالهم ، ويدخل في ذلك صفة الجنة والنار وما في الأعمال من الثواب والعقاب ، وأحوال الأولياء والصحابة وفضائلهم ومراتبهم وغير ذلك .

وقد يسمى هذا النوع أصول دين . ويسمى العقد الأكبر ، ويسمى الجدال فيه بالعقل كلاماً . ويسمى عقائد واعتقادات ، ويسمى المسائل العلمية والمسائل الخبرية ، ويسمى علم المكاشفة .

(والثانى) الأمور العملية الطلبية من أعمال الجوارح والقلب كالواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات والمباحات ، فإن الأمر والنهي قد يكون بالعلم والاعتقاد ، فهو من جهة كونه علماً واعتقاداً أو خبراً صادقاً أو كاذباً يدخل فى القسم الأول ، ومن جهة كونه مأموراً به أو منهياً عنه يدخل فى القسم الثانى ، مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذه الشهادة من جهة كونها صادقة مطابقة لمخبرها فهي من القسم الأول ، ومن جهة أنها فرض واجب وأن صاحبها بها يصير مؤمناً يستحق الثواب ، وبعدمها يصير كافراً يحل دمه وماله ، فهي من القسم الثاني .

وقد يتفق المسلمون على بعض الطرق الموصلة إلى القسمين كاتفاقهم على أن القرآن دليل فيهما فى الجملة ، وقد يتنازعون فى بعض الطرق كتنازعهم فى أن الأحكام العملية من الحسن والقبيح والوجوب والحظر هل تعلم بالعقل كما تعلم بالسمع ، أم لا تعلم إلا بالسمع ؟ وأن السمع هل هو منشأ الأحكام أو مظهر لها كما هو مظهر للحقائق الثابتة بنفسها ؟ وكذلك الاستدلال بالكتاب والسنة والإجماع على المسائل الكبار فى القسم الأول مثل مسائل الصفات والقدر وغيرهما مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف ، وأبى ذلك كثير من أهل البدع المتكلمين بما عندهم على أن السمع لا تثبت به تلك المسائل فإثباتها بالعقل[1] حتى يزعم كثير من القدرية والمعتزلة أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن على حكمة الله وعدله وأنه خالق كل شيء وقادر على كل شيء ، وتزعم الجهمية من هؤلاء ومن اتبعهم من بعض الأشعرية وغيرهم أنه لا يصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته وعبادته ، وأنه مستو على العرش .

ويزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقاً ؛ بناء على أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين بما زعموا .

ويزعم كثير من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوهما مما يطلب فيه القطع واليقين .

---

(١) بالأصل سقط ولعل ما أثبت هنا هو المقصود .

ويزعم قوم من غالية المتكلمين أنه لا يستدل بالإجماع على شيء ، ومنهم من يقول لا يصح الاستدلال به على الأمور العلمية لأنه ظني . وأنواع من هذه المقالات التي ليس هذا موضعها .

فإن طرق العلم والظن وما يتوصل به إليهما من دليل أو مشاهدة ، باطنة أو ظاهرة ، عام أو خاص ، فقد تنازع فيه بنو آدم تنازعا كثيراً .

وكذلك كثير من أهل الحديث والسنة قد ينفي حصول العلم لأحد بغير الطريق التي يعرفها ، حتى ينفي أكثر الدلالات العقلية من غير حجة على ذلك . وكذلك الأمور الكشفية التي للأولياء من أهل الكلام من ينكرها ، ومن أصحابنا من يغلو فيها ، وخيار الأمور أوساطها .

فالطريق العقلية والنقلية والكشفية والخبرية والنظرية طريقة أهل الحديث وأهل الكلام وأهل التصوف قد تجاذبها الناس نفياً وإثباتاً ، فمن الناس من ينكر منها ما لا يعرفه ، ومن الناس من يغلو فيما يعرفه ، فيرفعه فوق قدره وينفي ما سواه . فالمتكلمة والمتفلسفة تعظم الطرق العقلية وكثير منها فاسد متناقض ، وهم أكثر خلق الله تناقضاً واختلافاً ، وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعياً .

وطائفة ممن تدعي السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة وحكايات مصنوعة يعلم أنها كذب وقد يحتجون بالضعيف فى مقابلة القوي ، وكثير من المتصوفة والفقراء يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفاً وهي خيالات غير مطابقة ، وأوهام غير صادقة (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا) فنقول :

أما طرق الأحكام الشرعية التى نتكلم عليها فى أصول الفقه فهي — بإجماع المسلمين — « الكتاب » لم يختلف أحد من الأئمة فى ذلك ، كما خالف بعض أهل الضلال فى الاستدلال على بعض المسائل الاعتقادية .

(والثاني) — « السنة المتواترة » التى لا تخالف ظاهر القرآن ؛ بل تفسره ، مثل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها ، ونصب الزكاة وفرائضها وصفة الحج والعمرة وغير ذلك من الأحكام التى لم تعلم إلا بتفسير السنة .

وأما السنة المتواترة التى لا تفسر ظاهر القرآن ، أو يقال تخالف ظاهره كالسنة فى تقدير نصاب السرقة ورجم الزانى وغير ذلك ، فمذهب جميع السلف العمل بها أيضاً إلا الخوارج ؛ فإن من قولهم — أو قول بعضهم — مخالفة السنة ، حيث قال أولهم للنبى صلى الله عليه وسلم فى وجهه : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله . ويحكى عنهم أنهم لا يتبعونه صلى الله عليه وسلم إلا فيما بلغه عن الله

من القرآن والسنة المفسرة له ، وأما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول فلا يعملون إلا بظاهره ، ولهذا كانوا مارقة مرقوا من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأولهم: « لقد خبت وخسرت إن لم أعدل » فإذا جوز أن الرسول يجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه الله عليه من الأموال ، وهو معتقد أنه أمين الله على وحيه ، فقد اتبع ظالماً كاذباً ، وجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه من المال من هو صادق أمين فيما ائتمنه الله عليه من خبر السماء ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أيأمنني من فى السماء ولا تأمنونى ؟ » أو كما قال . يقول صلى الله عليه وسلم إن أداء الأمانة فى الوحي أعظم والوحي الذي أوجب الله طاعته هو الوحي بحكمه وقسمه .

وقد ينكر هؤلاء كثيراً من السنن طعناً فى النقل لا رداً للمنقول كما ينكر كثير من أهل البدع السنن المتواترة عند أهل العلم كالشفاعة والحوض والصراط والقدر وغير ذلك .

(الطريق الثالث) ـ « السنن المتواترة » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إما متلقاة بالقبول بين أهل العلم بها ؛ أو برواية الثقات لها . وهذه أيضاً مما اتفق أهل العلم على اتباعها من أهل الفقه والحديث والتصوف وأكثر أهل العلم ، وقد أنكرها بعض أهل الكلام . وأنكر كثير منهم أن يحصل العلم بشيء منها وإنما يوجب العلم فلم

يفرقوا بين المتلقى بالقبول وغيره ، وكثير من أهل الرأي قد ينكر كثيراً منها بشروط اشترطها ، ومعارضات دفعها بها ووضعها ، كما يرد بعضهم بعضاً ، لأنه بخلاف ظاهر القرآن فيما زعم ، أو لأنه خلاف الأصول ، أو قياس الأصول ، أو لأن عمل متأخري أهل المدينة على خلافه أو غير ذلك من المسائل المعروفة فى كتب الفقه والحديث وأصول الفقه .

(الطريق الرابع) الإجماع وهو متفق عليه بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم فى الجملة ، وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة ، لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة ، وأما ما بعد ذلك فتعذر العلم به غالباً ، ولهذا اختلف أهل العلم فيما يذكر من الإجماعات الحادثة بعد الصحابة واختلف فى مسائل منه كإجماع التابعين على أحد قولي الصحابة ، والإجماع الذي لم ينقرض عصر أهله حتى خالفهم بعضهم ، والإجماع السكوتى وغير ذلك .

(الطريق الخامس) ــ « القياس على النص والإجماع » . وهو حجة أيضاً عند جماهير الفقهاء ، لكن كثيراً من أهل الرأي أسرف فيه حتى استعمله قبل البحث عن النص ، وحتى رد به النصوص ، وحتى استعمل منه الفاسد ، ومن أهل الكلام وأهل الحديث وأهل القياس من ينكره رأسا ، وهي مسألة كبيرة والحق فيها متوسط بين الإسراف والنقص .

(الطريق السادس) ـ « الاستصحاب » وهو البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع ، وهو حجة على عدم الاعتقاد بالاتفاق ، وهل هو حجة فى اعتقاد العدم ؟ فيه خلاف ، ومما يشبهه الاستدلال بعدم الدليل السمعي على عدم الحكم الشرعي ، مثل أن يقال : لو كانت الأضحية أو الوتر واجبا لنصب الشرع عليه دليلا شرعياً ، إذ وجوب هذا لا يعلم بدون الشرع ، ولا دليل ، فلا وجوب .

فالأول يبقى على نفي الوجوب والتحريم المعلوم بالعقل حتى يثبت المغير له ، وهذا استدلال بعدم الدليل السمعي المثبت على عدم الحكم ، إذ يلزم من ثبوت مثل هذا الحكم ثبوت دليله السمعي ؛ كما يستدل بعدم النقل لما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ، وما توجب الشريعة نقله ، وما يعلم من دين أهلها وعادتهم أنهم ينقلونه على أنه لم يكن ؛ كالاستدلال بذلك على عدم زيادة فى القرآن وفى الشرائع الظاهرة ، وعدم النص الجلي بالإمامة على علي أو العباس أو غيرهما ؛ ويعلم الخاصة من أهل العلم بالسنن والآثار وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه انتفاء أمور من هذا ، لا يعلم انتفاءها غيرهم ؛ ولعلمهم بما ينفيها من أمور منقولة يعلمونها هم ؛ ولعلمهم بانتفاء لوازم نقلها ، فإن وجود أحد الضدين بنفي الآخر ، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم .

(الطريق السابع) ـ « المصالح المرسلة » وهو أن يرى المجتهد أن هذا

الفعل يجلب منفعة راجحة ؛ وليس فى الشرع ما ينفيه ؛ فهذه الطريق فيها خلاف مشهور ، فالفقهاء يسمونها « المصالح المرسلة » ، ومنهم من يسميها الرأي ، وبعضهم يقرب إليها الاستحسان ، وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم ؛ فإن حاصلها أنهم يجدون فى القول والعمل مصلحة فى قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته ، وهذه مصلحة ، لكن بعض الناس يخص المصالح المرسلة بحفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول والأديان . وليس كذلك ، بل المصالح المرسلة فى جلب المنافع وفى دفع المضار ، وما ذكروه من دفع المضار عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين .

وجلب المنفعة يكون فى الدنيا وفى الدين ، ففي الدنيا كالمعاملات والأعمال التى يقال فيها مصلحة للخلق من غير حظر شرعى ، وفى الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهادات التى يقال فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي . فمن قصر المصالح على العقوبات التى فيها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط فقد قصر .

وهذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به فإن من جهته حصل فى الدين اضطراب عظيم ، وكثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها بناء على هذا الأصل ، وقد يكون منها ماهو محظور فى الشرع ولم يعلموه

وربما قدم على المصالح المرسلة كلاما بخلاف النصوص ، وكثير منهم من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعا بناء على أن الشرع لم يرد بها ، ففوت واجبات ومستحبات ، أو وقع فى محظورات ومكروهات ، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه .

وحجة الأول : أن هذه مصلحة والشرع لا يهمل المصالح ، بل قد دل الكتاب والسنة والإجماع على اعتبارها ، وحجة الثاني : أن هذا أمر لم يرد به الشرع نصا ولا قياساً .

والقول بالمصالح المرسلة يشرع من الدين مالم يأذن به الله [غالبا] . وهي تشبه من بعض الوجوه مسئلة الاستحسان والتحسين العقلي والرأي ونحو ذلك . فإن الاستحسان طلب الحسن والأحسن كالاستخراج ، وهو رؤية الشيء حسناً كما أن الاستقباح رؤيته قبيحاً ، والحسن هو المصلحة ، فالاستحسان والاستصلاح متقاربان ، والتحسين العقلي قول بأن العقل يدرك الحسن ، لكن بين هذه فروق .

والقول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط ، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة ، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي صلى الله عليه وسلم وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك ، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وإن كان

الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له ، إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر أو أنه ليس بمصلحة ، وإن اعتقده مصلحة ؛ لأن المصلحة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة ، وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا ويكون فيه منفعة مرجوحة بالمضرة ، كما قال تعالى فى الخمر والميسر : ﴿ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ .

وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك حسبوه منفعة أو مصلحة نافعاً وحقاً وصوابا ولم يكن كذلك ، بل كثير من الخارجين عن الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس يحسب كثير منهم أن ماهم عليه من الاعتقادات والمعاملات والعبادات مصلحة لهم فى الدين والدنيا ، ومنفعة لهم ، ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ وقد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً .

فإذا كان الإنسان يرى حسنا ماهو سيء كان استحسانه أو استصلاحه قد يكون من هذا الباب . وهذا بخلاف الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً . فإن باب جحود الحق ومعاندته غير باب جهله والعمى عنه ، والكفار فيهم هذا وفيهم هذا ، وكذلك فى أهل الأهواء من المسلمين القسمان . فإن الناس كما أنهم فى باب الفتوى والحديث

يخطئون تارة ويتعمدون الكذب أخرى ، فكذلك هم فى أحوال الديانات ، وكذلك في الأفعال قد يفعلون ما يعلمون أنه ظلم وقد يعتقدون أنه ليس بظلم هو ظلم فإن الإنسان كما قال الله تعالى : (وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) فتارة يجهل وتارة يظلم : ذلك فى قوة علمه وهذا فى قوة عمله .

واعلم أن هذا الباب مشترك بين أهل العلم والقول وبين أهل الإرادة والعمل فذلك يقول هذا جائز أو حسن بناء على مارآه وهذا يفعله من غير اعتقاد تحريمه أو اعتقاد أنه خير له كما يجد نفعاً فى مثل السماع المحدث : سماع المكاء والتصدية واليراع التى يقال لها الشبابة والصفارة والأوتار وغير ذلك وهذا يفعله لما يجده من لذته وقد يفعله لما يجده من منفعة دينه بزيادة أحواله الدينية كما يفعل مع القرآن .

وهذا يقول هذا جائز لما يرى من تلك المصلحة والمنفعة ، وهو نظير المقالات المبتدعة . وهذا يقول هو حق لدلالة القياس العقلي عليه . وهذا يقول يجوز ويجب اعتقادها وإدخالها فى الدين إذا كانت كذلك ، وكذلك سياسات ولاة الأمور من الولاة والقضاة وغير ذلك .

واعلم أنه لا يمكن العاقل أن يدفع عن نفسه أنه قد يميز بعقله بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، وبين النافع والضار ،

والمصلحة والمفسدة . ولا يمكن المؤمن أن يدفع عن إيمانه أن الشريعة جاءت بما هو الحق والصدق فى المعتقدات ، وجاءت بما هو النافع والمصلحة في الأعمال التى تدخل فيها الاعتقادات ، ولهذا لم يختلف الناس أن الحسن أو القبيح إذا فسر بالنافع والضار والملائم للإنسان والمنافى له واللذيذ والأليم — فإنه قد يعلم بالعقل ، هذا فى الأفعال.

وكذلك إذا فسر حسنه بأنه موجود أو كمال الموجود يوصف بالحسن ومنه قوله تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) وقوله (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) كما نعلم أن الحي أكمل من الميت في وجوده ، وأن العالم أكمل من الجاهل ، وأن الصادق أكمل من الكاذب — فهذا أيضاً قد يعلم بالعقل . وإنما اختلفوا فى أن العقل هل يعتبر المنفعة والمضرة. وأنه هل « باب التحسين » واحد فى الخالق والمخلوق ؟

فأما الوجهان الأولان فثابتان فى أنفسهما ، ومنهما ما يعلم بالعقل : الأول فى الحق المقصود ، والثانى فى الحق الموجود . (الأول) متعلق بحب القلب وبغضه وإرادته وكراهته وخطابه بالأمر والنهي . و(الثانى) متعلق بتصديقه وتكذيبه وإثباته ونفيه وخطابه الخبري المشتمل على النفي والإثبات ، والحق والباطل يتناول النوعين ، فإن الحق يكون بمعنى الموجود الثابت ، والباطل بمعنى المعدوم المنتفي ، والحق بإزاء ما ينبغي قصده وطلبه وعمله ، وهو النافع . والباطل بإزاء ما لا ينبغي قصده ولا طلبه ولا عمله ، وهو

غير النافع . والمنفعة تعود إلى حصول النعمة واللذة والسعادة التى هي حصول اللذة، ودفع الألم هو حصول المطلوب ، وزوال المرهوب . حصول النعيم وزوال العذاب . وحصول الخير وزوال الشر . ثم الموجود والنافع قد يكون ثابتاً دائماً ، وقد يكون منقطعاً لا سيما إذا كان زمناً يسيراً فيستعمل الباطل كثيراً بإزاء ما لا يبقى من المنفعة ، وبإزاء ما لا يدوم من الوجود . كما يقال الموت حق والحياة باطل ، وحقيقته أنه يستعمل بإزاء ما ليس من المنافع خالصاً أو راجحاً ، كما تقدم القول فيه فيما يزهد فيه ، وهو ما ليس بنافع . والمنفعة المطلقة هى الخالصة أو الراجحة . وأما ما يفوت أرجح منها أو يعقب ضرراً ليس هو دونها فإنها باطل فى الاعتبار ، والمضرة أحق باسم الباطل من المنفعة . وأما مايظن فيه منفعة وليس كذلك أو يحصل به لذة فاسدة فهذا لا منفعة فيه بحال . فهذه الأمور التى يشرع الزهد فيها وتركها وهي باطل ؛ ولذلك ما نهى الله عنه ورسوله باطل ممتنع أن يكون مشتملاً على منفعة خالصة أو راجحة. ولهذا صارت أعمال الكفار والمنافقين باطلة لقوله (لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ) الآية . أخبر أن صدقة المرائى والمنان باطلة لم يبق فيها منفعة له . وكذلك قوله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ) وكذلك الإحباط في

مثل قوله (وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ) ولهذا تسميه الفقهاء العقود .

« والعبادات » بعضها صحيح وبعضها باطل وهو ما لم يحصل به مقصوده ولم يترتب عليه أثره ، فلم يكن فيه المنفعة المطلوبة منه . ومن هذا قوله (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً) الآية وقوله (مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ) وقوله (وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) ولذلك وصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة ليست مطابقة ولا حقاً ، كما أن الأعمال ليست نافعة .

وقد توصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة إذا كانت غير مطابقة إن لم يكن فيها منفعة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع » فيعود الحق فيما يتعلق بالإنسان إلى ما ينفعه من علم وقول وعمل وحال ، قال الله تعالى (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا) ـــ إلى قوله ـــ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ)
وقال تعالى : (ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ـــ إلى قوله ـــ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ) .

وإذا كان كذلك وقد علم أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل حابط لا ينفع صاحبه وقت الحاجة إليه . فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ، لأن ما لم يرد به وجهه إما ألا ينفع بحال ، وإما أن ينفع فى الدنيا أو فى الآخرة . فالأول ظاهر ، وكذلك منفعته فى الآخرة بعد الموت ، فإنه قد ثبت بنصوص المرسلين أنه بعد الموت لا ينفع الإنسان من العمل إلا ما أراد به وجه الله . وأما فى الدنيا فقد يحصل له لذات وسرور ، وقد يجزى بأعماله فى الدنيا . لكن تلك اللذات إذا كانت تعقب ضرراً أعظم منها وتفوت أنفع منها وأبقى ، فهي باطلة أيضاً ، فثبت أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل وإن كان فيه لذة ما .

وأما الكائنات فقد كانت معدومة منتفية ، فثبت أن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وكما قال صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وإنها تجمع الحق الموجود والحق المقصود ، وكل موجود بدون الله باطل ، وكل مقصود بدون قصد الله فهو باطل ، وعلى هذين فقد فسر قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) إلا ما أريد به وجهه ، وكل شيء معدوم إلا من جهته . هذا على قول ، وأما القول الآخر وهو المأثور عن طائفة من السلف وبه فسره الإمام أحمد رحمه

الله تعالى فى رده على الجهمية والزنادقة قال أحمد : وأما قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) وذلك أن الله أنزل (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) فقالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، وطمعوا فى البقاء ، فأنزل الله تعالى أنه يخبر عن أهل السموات والأرض أنكم تموتون فقال : كل شيء من الحيوان هالك — يعني ميتاً — إلا وجهه ، فإنه حي لا يموت ، فلما ذكر ذلك أيقنوا عند ذلك بالموت » ذكر ذلك فى رده على الجهمية قولهم إن الجنة والنار تفنيان .

وقد تبين مما ذكرناه أن الحسن هو الحق والصدق والنافع والمصلحة والحكمة والصواب . وأن الشيء القبيح هو الباطل والكذب والضار والمفسدة والسفه والخطأ .

وأما مواضع الاشتباه والنزاع واختلاف الخلائق فموضع واحد وذلك أن فعل الله كله حسن جميل ، قال الله عز وجل : (ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ) وقال تعالى (صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ) وقال تعالى (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله جميل يحب الجمال » وهو حكم عدل قال الله تعالى (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ

قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ) وقال تعالى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا) وقال تعالى : (وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ). وهذا كله متفق عليه بين الأمة مجملاً غير مفسر فإذا فسر تنازعوا فيه .

وذلك أن هذه الأعمال الفاسدة والآلام وهذا الشر الوجودي المتعلق بالحيوان ، وأنه لا يخلو عن أن يكون عملاً من الأعمال ، أو أن يكون ألماً من الآلام الواقعة بالحيوان ، وذلك العمل القبيح والألم شره من ضرره ، وهذا العمل والتألم : المعتزلة ومن اتبعها من الشيعة تزعم أن الأعمال ليست من خلقه ولا كونها شيء ، وأن الآلام لا يجوز أن يفعلها إلا جزاء على عمل سابق ، أو تعوض بنفع لاحق ، وكثير من أهل الإثبات ومن اتبعهم من الجبرية يقولون بل الجميع خلقه ، وهو يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ولا فرق بين خلق المضار والمنافع ، والخير والشر بالنسبة إليه . ويقول هؤلاء : إنه لا يتصور أن يفعل ظلماً ولا سفهاً أصلاً ، بل لو فرض أنه فعل أي شيء كان فعله حكمة وعدلاً وحسناً ، إذ لا قبيح إلا ما نهى عنه وهو لم ينهه أحد ، ويسوون بين تنعيم الخلائق وتعذيبهم ، وعقوبة المحسن ، ورفع درجات الكفار والمنافقين .

والفريقان متفقان على أنه لا ينتفع بطاعات العباد ولا يتضرر

بمعصيتهم ، لكن الأولون يقولون : الإحسان إلى الغير حسن لذاته وان لم يعد إلى المحسن منه فائدة .

والآخرون يقولون : ما حسن منا حسن منه ، وما قبح منا قبح منه ، والآخرون مع جمهور الخلائق ينكرون ، والأولون يقولون : إذا أمر بالشيء فقد أراده منا . لا يعقل الحسن والقبيح إلا ما ينفع أو يضر ، كنحو ما يأمر الواحد منا غيره بشيء فإنه لابد أن يريده منه ويعينه عليه ، وقد أقدر الكفار بغاية القدرة ، ولم يبق يقدر على أن يجعلهم يؤمنون اختياراً ، وإنما كفرهم وفسوقهم وعصيانهم بدون مشيئته واختياره . وآخرون يقولون : الأمر ليس بمستلزم الإرادة أصلا ، وقد بينت التوسط بين هذين فى غير هذا الموضع ، وكذلك أمره . والأولون يقولون لايأمر إلا بما فيه مصلحة العباد ، والآخرون يقولون أمره لايتوقف على المصلحة .

وهنا مقدمات ، تكشف هذه المشكلات .

(إحداها) أنه ليس ما حسن منه حسن منا وليس ماقبح منه يقبح منا ، فإن المعتزلة شبهت الله بخلقه ، وذلك أن الفعل يحسن منا لجلبه المنفعة ، ويقبح لجلبه المضرة ، ويحسن لأنا أمرنا به ، ويقبح لأنا نهينا عنه ، وهذان الوجهان منتفيان فى حق الله تعالى قطعاً ، ولو كان

الفعل يحسن باعتبار آخر كما قال بعض الشيوخ :

ويقبح من سواك الفعل عندي وتفعله فيحسن منـك ذا كا

(المقدمة الثانية) أن الحسن والقبح قد يكونان صفة لأفعالنا ، وقد يدرك بعض ذلك بالعقل ، وإن فسر ذلك بالنافع والضار والمكمل والمنقص فإن أحكام الشارع فيما يأمر به وينهى عنه تارة تكون كاشفـة للصفات الفعلية ومؤكدة لها وتارة تكون مبينة للفعل صفات لم تكن له قبل ذلك ، وأن الفعل تارة يكون حسنه من جهة نفسه ، وتارة من جهة الأمر به وتارة من الجهتين جميعاً . ومن أنكر أن يكون للفعل صفات ذاتيـة لم يحسن إلا لتعلق الأمر به وأن الأحكام بمجرد نسبة الخطاب إلى الفعل فقط ، فقد أنكر ماجاءت به الشرائع من المصالح والمفاسـد ، والمعروف والمنكر ، وما فى الشريعة من المناسبات بين الأحكام وعللها ، وأنكر خاصة الفقه فى الدين الذي هو معرفة حكمة الشريعة ومقاصدها ومحاسنها .

(المقدمة الثالثة) أن الله خلق كل شيء وهو على كل شيء قدير . ومن جعل شيئا من الأعمال خارجا عن قدرته ومشيئته فقد ألحد فى أسمائه وآياته بخلاف ما عليه القدرية .

(المقدمة الرابعة) أن الله إذا أمر العبـد بشيء فقد أراده منه

إرادة شرعية دينية وإن لم يرده منه إرادة قدرية كونيـة . فإثبات إرادته في الأمر مطلقـاً خطأ ، ونفيهـا عن الأمر مطلقـاً خطأ ، وإنما الصواب التفصيل كما جاء في التنزيل (يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ) (يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ) (مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ) وقال (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا) وقال (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ) وقال (وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) وأمثال ذلك كثير .

(المقدمة الخامسة) أن محبته ورضاه مستلزم للإرادة الدينية والأمر الديني،وكذلك بغضه وغضبه وسخطه مستلزم لعدم الإرادة الدينية.فالمحبة والرضا والغضب والسخط ليس هو مجرد الإرادة . هـذا قول جمهور أهـل السنة . ومن قال إن هذه الأمور بمعنى الإرادة كما يقوله كثير من القدرية وكثير من أهل الإثبات فإنه يستلزم أحد الأمرين:إما [أن] الـكفر والفسوق والمعاصي مما يكرهها دينا فقد كره كونها وإنهـا واقعـة بدون مشيئته وإرادته . وهذا قول القدرية ، أو يقول إنه لما كان مريداً لها شاءها فهو محب لها راض بها كما تقوله طائفة من أهل الإثبات ، وكلا القولين فيه ما فيه ، فإن الله تعالى يحب المتقين ويحب المقسطين وقـد رضي عن المؤمنين ، ويحب ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وليس هـذا

المعنى ثابتاً فى الكفار والفجار والظالمين ، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب كل مختال فخور ، ومع هذا فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وأحسن ما يعتذر به من قال هذا القول من أهل الإثبات : أن المحبة بمعنى الإرادة أنه أحبها كما أرادها كونا . فكذلك أحبها ورضيها كونا . وهذا فيه نظر مذكور فى غير هذا الموضع .

(فإن قيل) تقسيم الإرادة لا يعرف فى حقنا بل إن الأمر منه بالشيء إما أن يريده أو لا يريده ، وأما الفرق بين الإرادة والمحبة فقد يعرف فى حقنا (فيقال) وهذا هو الواجب فإن الله تعالى ليس كمثله شيء ، وليس أمره لنا كأمر الواحد منا لعبده وخدمه ، وذلك أن الواحد منا إذا أمر عبده فإما أن يأمره لحاجته إليه أو إلى المأمور به أو لحاجته إلى الأمر فقط ، فالأول كأمر السلطان جنده بما فيه حفظ ملكه ومنافعهم له ، فإن هداية الخلق وإرشادهم بالأمر والنهي هي من باب الإحسان إليهم ، والمحسن من العباد يحتاج إلى إحسانه قال الله تعالى (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) وقال (مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا) .

والله تعالى لم يأمر عباده لحاجته إلى خدمتهم ولا هو محتاج إلى

أمرهم وإنما أمرهم إحساناً منـه ونعمة أنعم بها عليهم ، فأمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم . وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب من أعظم نعمه على خلقه كما قال (وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ) وقال تعالى (لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ) وقال (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ) فمن أنعم الله عليه مع الأمر بالامتثال فقد تمت النعمة فى حقـه كما قال (ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي) وهؤلاء هم المؤمنون. ومن لم ينعم عليه بالامتثال بل خذله حتى كفر وعصى فقد شقي لما بدل نعمة الله كفراً كما قال (أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ) والأمر والنهي الشرعيان لما كانا نعمة ورحمة عامة لم يضر ذلك عـدم انتفاع بعض الناس بهما من الكفـار ، كإنزال المطر وإنبات الرزق هو نعمة عامة وإن تضرر بها بعض الناس لحكمة أخرى كذلك مشيئته لما شاءه من المخلوقات وأعيانها وأفعالهـا لا يوجب أن يحب كل شيء منها فإذا أمر العبد بأمر فذاك إرشاد ودلالة ، فإن فعل المأمور به صـار محبوبا لله وإلا لم يـكن محبوبا له وإن كان مراداً له ، وإرادته له تكويناً لمعنى آخر . فالتكوين غير التشريع .

(فإن قيل) المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومنـاسبة بين المحب

والمحبوب ويوجب للمحب بدرك محبوبه فرحا ولذة وسروراً ، وكــذلك البغض لا يكون إلا عن منافرة بين المبغِض والمبغَض ، وذلك يقتضي للمبغض بدرك المبغض أذى وبغضاً ونحو ذلك . والملاءمة والمنافرة تقتضي الحاجة ، إذ ما لا يحتاج الحي إليه لا يحبه ، وما لا يضره كيف يبغضه ؟ والله غني لا تجوز عليه الحاجة ، إذ لو جازت عليه الحاجة للزم حدوثه وإمكانه وهو غني عن العالمين ، وقد قال تعالى [أي فى الحديث القدسي] « ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعــي فتنفعوني » فلهذا فسرت المحبــة والرضا بالإرادة إذ يفعل النفع والضر . فيقــال الجواب من وجهين :

(أحدهما) الإلزام وهو أن نقول : الإرادة لا تـكون إلا للمناسبة بين المريد والمراد ، وملاءمته فى ذلك تقتضي الحاجة ، وإلا فما لا يحتـاج إليه الحي لا ينتفع به ولا يريده ، ولذلك إذا أراد به العقوبة والإضرار لا يكون إلا لنفرة وبغض ، وإلا فما لم يتألم به الحي أصلا لا يكرهه ولا يدفعه ، وكذلك نفس نفع الغير وضرره هو في الحي متنافر من الحاجة فإن الواحد منا إنما يحسن إلى غيره لجلب منفعة أو لدفع مضرة ، وإنما يضر غيره لجلب منفعة أو دفع مضرة ، فإذا كان الذي يثبت صفــة وينفي أخرى يلزمــه فيما أثبته نظير ما يلزمه فيما نفاه لم يكن إثبــات إحداهما ونفي الأخرى أولى من العكس ، ولو عكس عاكس فنفى ما أثبته من الإرادة

وأثبت مانفاه من المحبة لما ذكره لم يكن بينهما فرق ، وحينئذ فالواجب إما نفي الجميع ولا سبيل إليه للعلم الضروري بوجود نفع الخلق والإحسان إليهم وأن ذلك يستلزم الإرادة ، وإما إثبات الجميع كما جاءت به النصوص ، وحينئذ فمن توهم أنه يلزم من ذلك محذور فأحد الأمرين لازم : إما أن ذلك المحذور لا يلزم أو أنه إن لزم فليس بمحذور .

(الجواب الثانى) أن الذي يعلم قطعاً [هو] أن الله قديم واجب الوجود كامل ، وأنه لا يجوز عليه الحدوث ولا الإمكان ولا النقص ، لكن كون هذه الأمور التى جاءت بها النصوص مستلزمة للحدوث والإمكان أو النقص هو موضع النظر ، فإن الله غني واجب بنفسه ، وقد عرف أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه ولا إمكانه ولا حاجته . وإن قول القائل بلزوم افتقاره إلى صفاته اللازمة بمنزلة قوله مفتقر إلى ذاته ، ومعلوم أنه غني بنفسه ، وأنه واجب الوجود بنفسه ، وأنه موجود بنفسه ، فتوهم حاجة نفسه إلى نفسه ، إن عنى به أن ذاته لا تقوم إلا بذاته فهذا حق ، فإن الله غني عن العالمين وعن خلقه ، وهو غني بنفسه .

وأما إطلاق القول بأنه غنى عن نفسه فهو باطل فإنه محتاج إلى نفسه ، وفى إطلاق كل منهما إيهام معنى فاسد ، ولا خالق إلا الله تعالى فإذا كان سبحانه عليما يحب العلم ، عفواً يحب العفو ، جميلا يحب

الجمال ، نظيفاً يحب النظافة ، طيباً يحب الطيب ، وهو يحب المحسنين والمتقين والمقسطين ، وهو سبحـانه الجامع لجميع الصفـات المحبوبة ؛ والأسماء الحسنى والصفات العلى ، وهو يحب نفسـه ويثنى بنفسـه على نفسه ، والخلق لا يحصون ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه . فالعبد المؤمن يحب نفسه ، ويحب فى الله من أحب الله وأحبه الله ؛ فالله سبحانه أولى بأن يحب نفسـه ، ويحب فى نفسه عبـاده المؤمنين ، ويبغض الـكافرين ، ويرضى عن هؤلاء ويفرح بهم ، ويفرح بتوبة عبده التائب من أولئك ، ويمقت الكفار ويبغضهم ، ويحب حمد نفسه والثناء عليه ، كما قال النبي صـلى الله عليه وسـلم للأسود بن سريع لما قال : إنني حمدت ربى بمحامد فقال « إن ربك يحب الحمد » وقال صلى الله عليـه وسـلم « لا أحد أحب إليه المدح من الله ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل ، ولا أحد أصبر على أذى من الله ، يجعلون له ولداً وشريكا وهو يعافيهم ويرزقهم » فهو يفرح بمـا يحبه ، ويؤذيه ما يبغضه ، ويصبر على ما يؤذيه ، وحبه ورضاه وفرحـه وسخطه وصبره على ما يؤذيه كل ذلك من كماله وكل ذلك من صفـاته وأفعاله ، وهو الذي خلق الخلائق وأفعالهم ، وهم لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعـه فينفعوه . وإذا فرح ورضي بمـا فعله بعضهم فهو سبحانه الذي خلق فعله ، كما أنه إذا فرح ورضي بما يخلقه فهو الخالق ، وكل الذين يؤذون الله ورسوله هو الذي مكنهم وصبر على أذاهم بحكمته

فلم يفتقر إلى غيره ، ولم يخرج شيء عن مشيئته ولم يفعل أحد ما لا يريد ، وهذا قول عامة القدرية ونهاية الكمال والعزة .

وأما الإمكان لو افتقر وجوده إلى فرح غيره ، وأما الحدوث فيبنى على قيام الصفات فيلزم منه حدوثه ، وقد ذكر فى غير هذا الموضع أن ما سلكه الجهمية فى نفي الصفات فمبناه على القياس الفاسد المحض وله شرح مذكور فى غير هذا الموضع .

ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة وجدها فى غاية الإحكام والإتقان وأنها مشتملة على التقديس لله عن كل نقص ، والإثبات لكل كمال ، وأنه تعالى ليس له كمال ينتظر بحيث يكون قبله ناقصاً ؛ بل من الكمال أنه يفعل ما يفعله بعد أن لم يكن فاعله ، وأنه إذا كان كاملاً بذاته وصفاته وأفعاله لم يكن كاملاً بغيره ولا مفتقراً إلى سواه ، بل هو الغني ونحن الفقراء ، وقال تعالى (لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ) وهو سبحانه في محبته ورضاه ومقته وسخطه وفرحه وأسفه وصبره وعفوه ورأفته له الكمال الذي لا تدركه الخلائق وفوق الكمال ، إذ كل كمال فمن كماله يستفاد ، وله الثناء الحسن الذي لا تحصيه العباد ، وإنما هو كما أثنى على نفسه ، له الغنى الذي لايفتقر إلى سواه ، (إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا * لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا * وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا) .

فهذا الأصل العظيم وهو مسألة خلقه وأمره وما يتصل به من صفاته وأفعاله من محبته ورضاه وفرحه بالمحبوب وبغضه وصبره على مايؤذيه هي متعلقة بمسائل القدر ومسائل الشريعة . والمنهاج الذي هو المسئول عنه ومسائل الصفات ومسائل الثواب والعقاب والوعد والوعيد ، وهذه الأصول الأربعة كلية جامعة وهي متعلقة به وبخلقه .

وهي في عمومها وشمولها وكشفها للشبهات تشبه مسألة الصفات الذاتية والفعلية ، ومسألة الذات والحقيقة والحد وما يتصل بذلك من مسائل الصفات والكلام فى حلول الحوادث ونفي الجسم وما فى ذلك من تفصيل وتحقيق .

فإن المعطلة والملحدة فى أسمائه وآياته كذبوا بحق كثير جاءت به الرسل بناء على ما اعتقدوه من نفي الجسم والعرض ونفي حلول الحوادث ونفي الحاجة .

وهذه الأشياء يصح نفيها باعتبار ولكن ثبوتها يصح باعتبار آخر ، فوقعوا فى نفي الحق الذي لا ريب فيه الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وفطرت عليه الخلائق ودلت عليه الدلائل السمعية والعقلية والله أعلم .

قال شيخ الإسلام

قدس الله روحه

فصـــــل

تكلم طائفة من الصوفيــة فى « خاتم الأوليـاء » ، وعظموا أمره كالحكيم الترمذي ، ـــ وهو من غلطاته ؛ فإن الغالب على كلامه الصحة بخلاف ابن عربي ، فإنه كثير التخليط ، لا سيما فى الاتحاد ، ـــ وابن عربي وغيرهم ، وادعى جماعة كل واحد أنه هو ، كابن عربى ، وربمـا قيــده بأنه ختم الولاية المحمدية ، أو الكاملة ، أو نحو ذلك ؛ لئلا يلزمه ألّا يخلق بعده لله ولي ، وربما غلوا فيه ، كما فعل ابن عربى فى فصوصه فجعلوه مُمِدا فى الباطن لخاتم الأنبياء ، تبعاً لغلوهم الباطل ، حيث قد يجعلون الولاية فوق النبوة ، موافقة لغلاة المتفلسفة الذين قد يجعلون الفيلسوف الكامل فوق النبي .

وكذلك جهال القدرية ، والأحمدية ، واليونسية ، قد يفضلون شيخهم

على النبي ، أو غيره من الأنبياء ، وربما ادعوا فى شيخهم نوعاً من الإلهية .

وكذلك طائفة من السعدية : يفضلون الولي على النبي . وقال بعضهم يقلد الشافعي ولا يقلد أبو بكر وعمر ، وكذلك غالية الرافضة ، الذين قد يجعلون الإمام كان ممدا للنبي فى الباطن ، كما قد يجعلونه إلهاً . فأما الغلو فى ولي غير النبي حتى يفضل على النبي ، سواء سمى ولياً أو إماما ، أو فيلسوفاً ، وانتظارهم للمنتظر الذي هو : محمد بن الحسن . أو اسماعيل ابن جعفر ، نظير ارتباط الصوفية على الغوث ، وعلى خاتم الأولياء ، فبطلانه ظاهر بما علم من نصوص الكتاب والسنة ، وما عليه إجماع الأمة فإن الله جعل الذين أنعم عليهم أربعة : النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، فغاية من بعد النبي أن يكون صديقا ، كما كان خير هذه الأمة بعد نبيها صديقا ؛ ولهذا كانت غاية مريم ذلك فى قوله : (مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ) .

وبهذا استدللت على ما ذكره طائفة : كالقاضي أبي يعلي ، وغيره من أصحابنا ، وأبي المعالي ، وأظن الباقلاني من الإجماع على أنها لم تكن نبية ليقرروا كرامات الأولياء ، بما جرى على يديها ، فإن بعض الناس زعم أنها كانت نبية ، فاستدللت بهذه الآية ، ففرح مخاطبي بهذه الحجة ؛ فإن الله ذكر ذلك فى بيان غاية فضلها ، دفعا لغلو النصارى فيها ؛ كما

يقال لمن ادعى فى رجل أنه ملك من الملوك ؛ أو غنى من الأغنياء ونحو ذلك ، فيقال : ما هو إلا رئيس قرية ، أو صاحب بستان ، فيذكر غاية ماله من الرئاسة والمال ، فلو كان للمسيح مرتبة فوق الرسالة أولها مرتبة فوق الصديقية لذكرت .

ولهذا كان أصل الغلو فى النصارى ، ويشابههم فى بعضه غالية المتصوفة والشيعة ، ومن انضم إليهم من الصابئة المتفلسفة ، فالرد عليهم من جهة واحدة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في أبي بكر وعمر : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين » فهذه المسألة لشرحها موضع غير هذا وهي أن كل من سوى الأنبياء دونهم .

وإنما الكلام هنا فيما يذكرونه من خاتم الأولياء ، فنقول : هذه تسمية باطلة ، لا أصل لها فى كتاب ولا سنة ولا كلام مأثور عمن هو مقبول عند الأمة قبولا عاما ؛ لكن يعلم من حيث الجملة أن آخر من بقي من المؤمنين المتقين فى العالم فهو آخر أولياء الله .

ونقول ثانيا : إن آخر الأولياء ، أو خاتمهم ، سواء كان المحقق ، أو فرض مقدر . ليس يجب أن يكون أفضل من غيره من الأولياء ، فضلاً عن أن يكون أفضلهم ، وإنما نشأ هذا من مجرد القياس على خاتم الأنبياء . لما رأوا خاتم الأنبياء هو سيدهم . توهموا من ذلك قياسا بمجرد الاشتراك فى لفظ خاتم . فقالوا : خاتم

الأولياء أفضلهم . وهذا خطأ فى الاستدلال ؛ فإن فضل خاتم الأنبياء عليهم لم يكن لمجرد كونه خاتماً . بل لأدلة أخرى دلت على ذلك .

ثم نقول : بل أول الأولياء فى هذه الأمة ، وسابقهم هو أفضلهم فإن أفضل الأمة خاتم الأنبياء . وأفضل الأولياء سابقهم إلى خاتم الأنبياء ؛ وذلك لأن الولي مستفيد من النبي وتابع له . فكلما قرب [من النبي كان أفضل] وكلما بعد عنه كان بالعكس . بخلاف خاتم الأنبياء فإن استفادته إنما هي من الله . فليس فى تأخره زمانا ما يوجب تأخر مرتبته . بل قد يجمع الله له ما فرقه فى غيره من الأنبياء ، فهذا الأمر الذي ذكرناه من أن السابقين من الأولياء هم خيرهم . هو الذي دل عليه الكتاب والسنن المتواترة وإجماع السلف ، ويتصل بهذا ظن طوائف أن من المتأخرين من قد يكون أفضل من أفاضل الصحابة ، ويوجد هذا فى المتنسبين إلى العلم ، وإلى العبادة ، وإلى الجهاد ، والإمارة . والملك . حتى فى المتفقهة من قال : أبو حنيفة افقه من علي . وقال بعضهم يقلد الشافعي ولا يقلد أبو بكر وعمر .

ويتمسكون تارة بشبه عقلية ، أو ذوقية ، من جهة أن متأخري كل فن يحكمونه أكثر من المتقدمين . فإنهم يستفيدون علوم الأولين مع العلوم التى اختصوا بها ، كما هو موجود فى أهل الحساب ، والطبائعيين والمنجمين وغيرهم .

ومن جهة الذوق ، وهو ما وجدوه لأواخر الصالحين ، من المشاهدات العرفانية ، والكرامات الخارقة ، مالم ينقل مثله عن السلف ، وتارة يستدلون بشبه نقلية مثل قوله : « للعامل منهم أجر خمسين منكم » وقوله : « أمتى كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره » ؟ وهذا خلاف السنن المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود ، وعمران بن حصين و [1] مما هو فى الصحيحين ، أو أحدهما ، من قوله : « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وقوله : « والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً : مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه » وغير ذلك من الأحاديث .

وخلاف إجماع السلف : كقول ابن مسعود : « إن الله نظر فى فى قلوب العباد : فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد » وقول حذيفة « يامعشر القراء استقيموا . وخذوا سبيل من كان قبلكم ، فوالله لئن اتبعتموهم لقد سبقتم سبقا بعيداً » ولئن أخذتم يمينا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً وقول ابن مسعود : « من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد ، أبر هذه الأمة قلوبا

---

(١) بياض بالأصل .

وأعمقها علما ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »
وقول جندب وغيره مما هو كثير مكتوب في غير هـذا الموضع ، بل خلاف نصوص القرآن في مثل قوله : ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الآية .
وقوله : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ﴾ الآيـة .
وقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ الآية ، وغير ذلك ؛ فإنه لم يكن الغرض بهـذا الموضع هـذه المسئلة ، وإنمـا الغرض : الـكلام عـلى خاتم الأولياء .

ومما يشبه هـذا ظن طائفة كابن هود ، وابن سبعـين ، والنفري والتلمساني : أن الشيء المتأخر ينبغي أن يكون أفضل من المتقـدم ؛ لاعتقادهم أن العـالم متنقل من الابتداء إلى الانتهاء ، كالصبي الذي يكبر بعد صغره ، والنبات الذي ينمو بعـد ضعفه ، ويبنون عـلى ذلك أن المسيح أفضل من موسى ، ويبعدون ذلك إلى أن يجعلوا بعد محمد واحدا من البشر أكمل منه ، كما تقوله الإسماعيلية ، والقرامطة ، والباطنيـة ، فليس على هذا دليل أصلا : أن كل من تأخر زمانه من نوع ، يكون أفضل ذلك النوع ، فلا هو مطرد ولا منعكس . بل إبراهيم الخليل قد ثبت بقول النبي صـلى الله عليـه وسلم : « أنه خير البرية » أي بعد النبي . وكذلك قال الربيع بن خيثم : « لا أفضل عـلى نبينا أحداً ،

ولا أفضل على إبراهيم بعد نبينا أحداً وبعده جميع الأنبياء المتبعين لملته مثل موسى وعيسى وغيرهما » وكذلك أنبياء بـني إسرائيل كلهم بعـد موسى ، وقد أجمع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى : عـلى أن موسى أفضل من غيره من أنبياء بـني إسرائيل ، إلا ما يتنازعون فيه من المسيح .

والقرآن قد شهد فى آيتـين لأولي العزم فقال في قوله :
(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ)
وقال : (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ) فهؤلاء الخمسـة أولوا العزم ، وهم الذين قد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحاح : أنهم يترادون الشفاعة فى أهل الموقف بعد آدم ، فيجب تفضيلهم على بنيهم ، وفيـه تفضيل لمتقدم على متأخر ، ولمتأخر على متقدم .

وأصل الغلط فى هذا الباب : أن تفضيل الأنبياء ، أو الأولياء أو العلماء أو الأمراء بالتقدم فى الزمان ، أو التأخر أصل باطل ، فتارة يكـون الفضل فى متقدم النوع ، وتارة فى متأخر النوع ؛ ولهذا يوجد فى أهل النحو ، والطب والحساب ما يفضل فيه المتقدم كبطليموس ، وسيبويه ، وبقراط وتارة بالعكس .

وأما توهمهم أن متأخري كل فن أحذق مـن متقدميه ؛ لأنهم كملوه، فهذا منتقض أولا : ليس بمطرد، فإن كتاب سيبويه فى العربية لم يصنف بعده مثله ، بل وكتاب بطليموس ، بل نصوص بقراط لم يصنف بعدها أكمل منها .

ثم نقول هذا قد يسلم فى الفنون التى تنـال : بالقياس، والرأي والحيلة . أما الفضائل المتعلقة باتباع الأنبياء فـكل من كان إلى الأنبياء أقرب مع كمال فطرته : كان تلقيه عنهم أعظم . وما يحسن فيه هو من الفضائل الدينية ، المأخوذة عن الأنبياء ؛ ولهذا كان من يخالف ذلك هو من المبتدعة ، الخارج عن سنن الأنبياء ، المعتقد أن له نصيباً من العلوم والأحوال خارجاً عن طور الأنبياء . فكل من كان بالنبوة وقدرها أعظم : كان رسوخه في هذه المسألة أشد .

وأما الأذواق والكرامات فمنها ما هو باطل ، والحق منه كان للسلف أكمل ، وأفضل بلا شك ، وخرق العادة : تارة يكون لحاجة العبد إلى ذلك ، وقد يكون أفضل منه لا تخرق له تلك العادة ، فإن خرقهـا له سبب ، وله غاية ، فالـكامل قد يرتقى عن ذلك السبب ، وقد لا يحتاج إلى تلك الغاية المقصودة بها ، ومع هذا فما للمتأخرين كرامة إلا وللسلف من نوعها ما هو أكمل منها .

وأما قوله : « لهم أجر خمسين منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون على الخير أعواناً » فهذا صحيح ، إذا عمل الواحد من المتأخرين ، مثل عمل عمله بعض المتقدمين كان له أجر خمسين ؛ لكن لا يتصور أن بعض المتأخرين يعمل مثل عمل بعض أكابر السابقين ؛ كأبي بكر وعمر ، فإنه ما بقي يبعث نبي مثل محمد ، يعمل معه مثلما عملوا مع محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله : « أمتي كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره » مع أن فيه لينا فمعناه : في المتأخرين من يشبه المتقدمين ، ويقاربهم حتى يبقى لقوة المشابهة والمقارنة ، لا يدرى الذي ينظر إليه ، أهذا خير أم هذا ؟ وإن كان أحدهما فى نفس الأمر خيراً . فهذا فيه بشرى للمتأخرين بأن فيهم من يقارب السابقين ، كما جاء فى الحديث الآخر : « خير أمتي أولها وآخرها . وبين ذلك ثبج أو عوج . وددت أني رأيت إخوانى قالوا : أولسنا إخوانك ؟ قال : أنتم أصحابى » هو تفضيل للصحابة ، فإن لهم خصوصية الصحبة التى هي أكمل من مجرد الإخوة .

وكذلك قوله : « أي الناس أعجب إيماناً » إلى قوله : « قوم يأتون بعدي يؤمنون بالورق المعلق » هو يدل على أن إيمانهم عجب ، أعجب من إيمان غيرهم ، ولا يدل على أنهم أفضل . فإن فى الحديث أنهم

ذكروا الملائكة والأنبياء ، ومعلوم أن الأنبياء أفضل من هؤلاء الذين يؤمنون بالورق المعلق .

ونظيره كون الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء ، فإنه لا يدل على أنهم بعد الدخول يكونون أرفع مرتبة من جميع الأغنياء ، وإنما سبقوا لسلامتهم من الحساب .

وهذا باب التفضيل بين الأنواع فى الأعيان ، والأعمال والصفات أو بين أشخاص النوع باب عظيم ، يغلط فيه خلق كثير ، والله يهدينا سواء الصراط .

وقال شيخ الإسلام

قدس الله روحه

فصـــــل

تـكلم أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي في كتاب « ختم الولاية » : بـكلام مردود ، مخالف للـكتاب والسنة ، وإجماع السلف والأئمة ، حيث غلا فى ذكر الولاية ، وما ذكره من خاتم الأوليـاء ، وعصمة الأولياء ونحو ذلك مما هو مقدمة لضلال ابن عربى ، وأمثـاله ، الذين تكلموا في هذا الباب بالباطل والعدوان ، منها قوله :

فيقال لهذا المسكين : صف لنا منازل الأولياء — إذا استفرغوا مجهود الصدق — كم عدد منازلهم ؟ وأين منازل أهل القربة ؟ وأين الذين جازوا العساكر ؟. بأي شيء جازوا ؟ وإلى أين منتهـاهم ؟ وأين مقام أهل المجالس والحديث ؟ وكم عددهم ؟ وبأي شيء استوجبوا هـذا على ربهم ؟ وما حديثهم ونجواهم ؟ وبأى شيء يفتتحون المناجاة ؟ وبأي

شيء يختمونها ؟ وماذا يخافون ؟ وكيف يكون صفة سيرهم ؟ ومن ذا الذي يستحق خاتم الولاية كما استحق محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة ؟ وبأي صفة يكون ذلك المستحق لذلك ؟ وما سبب [١] ؟ وكم مجالس هذه الأبدان حتى ترد إلى مالك الملك ؟ إلى مسائل أخر كثيرة ذكرها من هذا النمط .

ومنها فيه قال له قائل : فهل يجوز أن يكون فى هذا الزمان من يوازي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ قال : إن كنت تعنى فى العمل فلا ، وإن كنت تعنى في الدرجات فغير مدفوع ، وذلك أن الدرجات بوسائل القلوب ، وتسمية ما فى الدرجات بالأعمال فمن الذي حول رحمة الله عن أهل هذا الزمان حتى لا يكون فيهم سابق ولا مقرب ولا مجتبى ، ولا مصطفى . أو ليس المهدي كائناً فى آخر الزمان ؟ فهو في الفتنة يقوم بالعدل ؛ فلا يعجز عنها . أو ليس كائناً فى آخر الزمان من له ختم الولاية ؟ وهو حجة الله على جميع الأولياء يوم الموقف ؟ فكما أن محمداً صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، فأعطى ختم النبوة وهو حجة الله على جميع الأنبياء . فكذلك هذا الولي آخر الأولياء فى آخر الزمان .

---

(١) بالأصل كلمتان لم تتضحا .

قال له قائل : فأين حديث النبي صلى الله عليه وسلم « خرجت من باب الجنة ، فأتيت بالميزان فوضعت فى كفة ، وأمتى فى كفة فرجحت بالأمة . ثم وضع أبو بكر مكانى فرجح بالأمة . ثم وضع عمر مكان أبى بكر فرجح بالأمة » ! فقال هذا وزن الأعمال ؛ لا وزن مافى القلوب أين يذهب بكم ياعجم ؟ ما هذا إلا من غباوة أفهامكم . ألا ترى أنه يقول : خرجت من باب الجنة والجنة للأعمال ؛ والدرجات للقلوب ؛ والوزن للأعمال ؛ لا لما فى القلوب ؛ إن الميزان لا يتسع لما فى القلوب .

وقال فيه : « ثم لما قبض الله نبيه صير فيهم أربعين صديقاً ؛ بهم تقوم الأرض فهم أهل بيته ، وهم آله ؛ فكلما مات منهم رجل خلفه من يقوم مقامه ؛ حتى إذا انقرض عددهم ، وأتى وقت زوال الدنيا ؛ بعث الله ولياً اصطفاه واجتباه وقربه وأدناه وأعطاه ما أعطى الأولياء وخصه بخاتم الولاية ، فيكون حجة الله يوم القيامة على سائر الأولياء . فيوجد عنده ذلك الختم صدق الولاية ، على سبيل ما وجد عند محمد صلى الله عليه وسلم صدق النبوة ؛ لم ينله القدر ، ولا وجدت النفس سبيلا إلى الأخذ بحظها من الولاية ، فإذا برز الأولياء يوم القيامة ، وأقبضوا صدق الولاية والعبودية ؛ وجد ألوفاً عند هذا الذي ختم الولاية تماماً ؛ فكان حجة الله عليهم وعلى سائر الموحدين من بعدهم ،

وكان شفيعهم يوم القيامة ؛ فهو سيدهم . ساد الأولياء كما ساد محمد صلى الله عليه وسلم الأنبياء ، فينصب له مقام الشفاعة ، ويثنى على الله ثناء ، ويحمده بمحامد يقر الأولياء بفضله عليهم فى العلم بالله ، فلم يزل هذا الولي مذكوراً أولاً فى البدء أولا فى الذكر ، وأولا فى العلم ، ثم الأول فى المسألة ، ثم الأول فى الموازنة ، ثم الأول في اللوح المحفوظ ثم الأول فى الميثاق ، ثم الأول فى الحشر ، ثم الأول فى الخطاب ، ثم الأول فى الوفادة ، ثم الأول في الشفاعة ، ثم الأول فى الجواز وفى دخول الدار ، ثم الأول في الزيارة ، فهو فى كل مكان أول الأولياء ، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم أول الأنبياء ، فهو من محمد صلى الله عليه وسلم عند الأذن ، والأولياء عند القفا .

فهذا عند مقامه بين يديه في ملك الله ونجواه . مثال فى المجلس الأعظم ، فهو فى منصته ، والأولياء من خلفه درجة درجة ، ومنازل الأنبياء مثال بين عينيه ، فهؤلاء الأربعون فى كل وقت هم أهل بيته . ولست أعني من النسب ، إنما أهل بيت الذكر .

وقال شيخ الإسلام

رحمه الله تعالى

فصل (١)

قال القاضي أبو يعلى فى عيون المسائل : [مسألة] ومثبتو النبوات حصل لهم المعرفة بالله تعالى بثبوت النبوة من غير نظر واستدلال فى دلائل العقول ، خلافاً للأشعرية فى قولهم : لا تحصل حتى تنظر وتستدل بدلائل العقول .

وقال : نحن لا نمنع صحة النظر ، ولا نمنع حصول المعرفة به وإنما خلافنا هل تحصل بغيره ؛ واستدل بأن النبوة إذا ثبتت بقيام المعجزة علمنا أن هناك مرسلاً أرسله ؛ إذ لا يكون هناك نبي إلا وهناك مرسل وإذا ثبت أن هناك مرسل أغنى ذلك عن النظر والاستدلال فى دلائل العقول على إثباته .

وقال البيهقي فى كتاب الاعتقاد ما ذكره الخطابى أيضاً فى « الغنية

(١) هذه الرسالة تأخر الحصول عليها وإلا فمحلها كتاب توحيد الربوبية .

عن الكلام وأهله » وقد سلك بعض من بحث فى إثبات الصانع وحدوث العالم طريق الاستدلال بمقـدمات النبوة ، ومعجزات الرسالة ؛ لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها . ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها ؛ فلمـا ثبتت النبوة صارت أصلاً في وجوب قبول ما دعا إليه النبي ؛ وعلى هـذا الوجه كان إيمـان أكثر المستجيبين للرسول ؛ وذكر قصة جعفر وأصحابه مع النجاشي ، وقصة الأعرابى الذي قال : من خلق السماء وغير ذلك ؟

قلت : كثير من المتكلمين يقولون : لابد أن تتقدم المعرفة أولاً بثبوت الرب وصفاته التى يعلم بها أنه هو ، ويظهر المعجزة ، وإلا تعذر الاستدلال بها على صدق الرسول ، فضلاً عن وجود الرب .

وأما الطريقة التى ذكرها المتقدمون فصحيحة إذا حررت ، وقد جاء القرآن بها في قصة فرعون فإنه كان منكراً للرب . قال تعـالى : (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا) ــــ إلى قوله ــــ (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ

* قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ) .

فهنا : قد عرض عليه موسى الحجة البينة التى جعلها دليلاً على صدقه فى كونه رسول رب العالمين . وفى أن له إلهاً غير فرعون يتخذه . وكذلك قال تعالى : (فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ) فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة ، وذلك ؛ لأن المعجزة — التى هي فعل خارق للعادة — تدل بنفسها على ثبوت الصانع ، كسائر الحوادث ، بل هي أخص من ذلك ؛ لأن الحوادث المعتادة ليست فى الدلالة كالحوادث الغريبة ؛ ولهذا يسبح الرب عندها ، ويمجد ويعظم مالا يكون عند المعتاد ، ويحصل في النفوس ذلة [من ذكر] عظمته ما لا يحصل للمعتاد ، إذ هي آيات جديدة فتعطى حقها ، وتدل بظهورها على الرسول ، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله . فتتقرر بها الربوبية والرسالة ، لاسيما عند من يقول دلالة المعجزة على صدق الرسول ضرورية ، كما هو قول طائفة من متكلمي المعتزلة : كالجاحظ ، وطوائف من غيرهم ، كالأشعرية والحنبلية الذين يقولون : يحصل الفرق بين المعجزة والسحر والكرامة بالضرورة .

ومن يقول : إن شهادة المعجزة على صدق النبي معلوم بالضرورة ، وهم كثير من الأشعرية والحنبلية ، وكثير من هؤلاء يقول : لأن عدم دلالتها على الصدق مستلزم عجز الباري ، إذ لا طريق سواها .

وأما المعتزلة : فلأن عندهم أن ذلك قبيح ، لا يجوز من الباري فعله . والأولون يقولون : ليس [1] كأمور كثيرة جداً ، وقد بينت في غير هذا الموضع أن العلم موجود ضروري ، وهو الذي عليه جمهور [1] .

---

(١) بياض بالاصل .

وسئل

أيما أولى معالجة مايكره الله من قلبك مثل : الحسد والحقد والغل والكبر والرياء والسمعة ورؤية الأعمال وقسوة القلب . وغير ذلك . مما يختص بالقلب من درنه ، وخبثه ؟ أو الاشتغال بالأعمال الظاهرة : من الصلاة والصيام وأنواع القربات : من النوافل والمنذورات مع وجود تلك الأمور فى قلبه ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب — رحمه الله : الحمد لله — من ذلك ما هو عليه واجب : وأن للأوجب فضل وزيادة . كما قال تعالى فيما يرويه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم « ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه » . ثم قال « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب ، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده . فإذا خبث الملك خبثت جنوده ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله » وكذلك أعمال القلب لا بد أن تؤثر فى عمل الجسد ، وإذا كان المقدم هو الأوجب ، [سواء] سمي

باطناً أو ظاهراً ، فقد يكون ما يسمى باطنا أوجب مثل ترك الحسد والكبر فإنه أوجب عليه من نوافل الصيام ، وقد يكون ما سمي ظاهراً أفضل : مثل قيام الليل ، فإنه أفضل من مجرد ترك بعض الخواطر التى تخطر فى القلب من جنس الغبطة ونحوها ، وكل واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتورث الخشوع ، ونحو ذلك من الآثار العظيمة : هي أفضل الأعمال والصدقة والله أعلم .

وسئل

هل قال النبي صلى الله عليـه وسلم : « زدني فيك تحيراً ؟ » وقال بعض العارفين أول المعرفة الحيرة ، وآخرها الحيرة . قيـل : من أين تقع الحيرة ؟ قيل : من معنيين :

(أحدهما) كثرة اختلاف الأحوال عليه، والآخر شدة الشر ، وحذر الإياس. وقال الواسطي : نازلة تنزل بقلوب العارفـين بين الإياس والطمـع لا تطمعهم فى الوصل فيستريحون ، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحون ، وقال بعضهم : متى أصل إلى طريق الراجين ، وأنا مقيم فى حيرة المتحيرين ؟. وقال محمد بن الفضل العارف : كلما انتقـل من حال إلى حال استقبلته الدهشة والحيرة . وقال : أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيراً وقال الجنيد : انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة وقال ذو النون : غاية العارفين التحير . وأنشد بعضهم :

قد تحيرت فيك خذ بيدي　　　يا دليـلا لمن تحـير فيـه

فبينوا لنا القول فى ذلك بياناً شافياً ؟ .

فأجاب :

(الحمد لله) هذا الكلام المذكور « زدني فيك تحيراً » من الأحاديث المكذوبة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يروه أحد من أهل العلم بالحديث وإنما يرويه جاهل أو ملحد ؛ فإن هذا الكلام يقتضي أنه كان حائراً ، وأنه سأل الزيادة في الحيرة ، وكلاهما باطل ؛ فإن الله هداه بما أوحاه إليه وعلمه مالم يكن يعلم ، وأمره بسؤال الزيادة من العلم بقوله : (رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا) وهذا يقتضي أنه كان عالماً ، وأنه أمر بطلب المزيد من العلم ، ولذلك أمر هو والمؤمنون بطلب الهداية في قوله : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ) وقد قال تعالى : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) فمن يهدي الخلق كيف يكون حائراً . والله قد ذم الحيرة في القرآن في قوله : (قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ) .

وفي الجملة فالحيرة من جنس الجهل والضلال ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق علماً بالله وبأمره ، وأكمل الخلق اهتداء في نفسه ، وهديا لغيره ، وأبعد الخلق عن الجهل والضلال . قال تعالى (وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ) وقال تعالى :

(كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ) وقال تعالى : (وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ) — إلى قوله — (فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

فالله قد هدى المؤمنين به ، وقال تعالى : (ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) فقد كفل الله لمن آمن به أن يجعل له نوراً يمشي به . كما قال تعالى : (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا) وقال تعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) ومثل هذا كثير في القرآن والحديث .

ولم يمدح الحيرة أحد من أهل العلم والإيمان ، ولكن مدحها طائفة من الملاحدة : كصاحب « الفصوص » ابن عربي وأمثاله من الملاحدة ، الذين هم حيارى ، فمدحوا الحيرة وجعلوها أفضل من الاستقامة ، وادعوا أنهم أكمل الخلق ، وأن خاتم الأولياء منهم يكون أفضل في العلم بالله من خاتم الأنبياء ، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله منهم ، وكانوا فى

ذلك . كما يقال فيمن قال : فخر عليهم السقف من تحتهم لا عقل ولا قرآن ، فإن الأنبياء أقدم ، فكيف يستفيد المتقدم من المتأخر ، وهم عند المسلمين واليهود والنصارى [ليسوا] أفضل من الأنبياء ، فخرج هؤلاء عن العقل والدين : دين المسلمين واليهود والنصارى . وهؤلاء قد بسطنا الرد عليهم في غير هذا الموضع .

ولهم فى « وحدة الوجود والحلول والاتحاد » كلام من شر كلام أهل الإلحاد ، وأما غير هؤلاء من الشيوخ الذين يذكرون الحيرة : فإن كان الرجل منهم يخبر عن حيرته . فهذا لا يقتضي مدح الحيرة ؛ بل الحائر مأمور بطلب الهدى ، كما نقل عن الإمام أحمد أنه علم رجلا أن يدعو يقول : يا دليل الحائرين دلنى على طريق الصادقين ، واجعلنى من عبادك الصالحين .

فأما الذي قال : أول المعرفة الحيرة ، وآخرها الحيرة . فقد يريد بذلك معنى صحيحا مثل أن يريد أن الطالب السالك يكون حائراً قبل حصول المعرفة والهدى ، فإن كل طالب للعلم والهدى هو قبل حصول مطلوبه فى نوع من الحيرة ، وقوله آخرها الحيرة قد يراد به أنه لا يزال طالب الهدى والعلم فهو بالنسبة إلى ما لم يصل إليه حائراً ، وليس فى ذلك مدح الحيرة ، ولكن يراد به أنه لا بد أن يعترى الإنسان نوع من الحيرة التى يحتاج معها إلى العلم والهدى .

وقوله : والحيرة من معنيين :

« أحدهما » . كثرة اختلاف الأحوال ، و« الآخر » شدة الشر ، وحذر الإياس ـ إخبار عن سلوك معين ؛ فإنه ليس كل سالك يعتريه هذا ، ولكن من السالكين من تختلف عليه الأحوال ، حتى لا يدري ما يقبل وما يرد وما يفعل وما يترك ، والواجب على من كان كذلك دوام الدعاء لله سبحانه وتعالى ، والتضرع إليه والاستهداء بالكتاب والسنة .

وكذلك بشدة الشر وحذر الإياس ، فإن فى السالكين من يبتلى بأمور من المخالفات يخاف معها أن يصير إلى اليأس من رحمة الله ، لقوة خوفه وكثرة المخالفة عند نفسه ، ومثل هذا ينبغي أن يعلم سعة رحمة الله ، وقبول التوبة من عباده وفرحه بذلك .

وقول الآخر : نازلة تنزل بقلوب العارفين بين اليأس والطمع ، فلا تطمعهم فى الوصول فيستريحون ، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحون فيقال : هذا أيضاً حال عارض لبعض السالكين ، ليس هذا أمراً لازماً لكل من سلك طريق الله ، ولا هو أيضاً غاية محمودة » ولكن بعض السالكين يعرض له هذا . كما يذكر عن الشبلي أنه كان ينشد في هذا المعنى :

أظلت علينا منك يوماً سحابة   أضاءت لنا برقا وأبطا رشاشها

فلا غيمها يجلو فييأس طامع   ولا غيثها يأتى فيروى عطاشها

وصاحب هذا الكلام إلى أن يعفو الله عنه ويغفر له مثل هذا الكلام أحوج منه إلى أن يمدح عليه أو يقتدى به فيه ، ومثل هذا كثير قد تكلمنا عليه فى غير هذا الموضع ؛ لما تكلمنا على ما يعرض لطائفة من كلام فيه معاتبة لجانب الربوبية ، وإقامة حجة عليه بالمجنون المتحير ، وإقامة عذر المحب ، وأمور تشبه هذا . قد تحيز من قال بموجبها إلى الكفر والإلحاد ؛ إذ الواجب الإقرار لله بفضله وجوده وإحسانه ، وللنفس بالتقصير والذنب . كما فى الحديث الصحيح « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة »

وفى الحديث الصحيح الإلهي : « يقول الله تعالى : يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » وفى الحديث الصحيح

« يقول الله : من تقرب إليّ شبراً تقربت منه ذراعا . ومن تقرب إليّ ذراعا تقربت منه باعا ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » وفي الحديث الصحيح « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني » وقد ثبت : أن الله تعالى كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، وقد ثبت من حكمته ورحمته وعدله ما يبهر العقول ؛ لأن هذه المسألة تتعلق بأصول كبار من مسائل « القدر » و « الأمر » و « الوعد » و « الوعيد » . و « الأسماء والصفات » قد بسط الكلام عليها فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : الكلام على ما ذكر عن هؤلاء الشيوخ ، فقول القائل : لا تطمعهم فى الوصول فيستريحون ، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحون . هي حال عارض لشخص قد تعلقت همته بمطلوب معين وهو يتردد فيه بين اليأس والطمع ، وهذا حال مذموم ؟ لأن العبد لا ينبغي له أن يقترح على الله شيئاً معيناً ؛ بل تكون همته فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور . فمتى أعين على هذه الثلاثة جاء بعد ذلك من المطالب : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولو تعلقت همته بمطلوب فدعا الله به فإن الله يعطيه إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الخير مثلها ، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها .

ولفظ « الوصول » لفظ مجمل ؛ فإنه ما من سالك إلا وله غاية

يصل إليها . وإذا قيل : وصل إلى الله ، أو إلى توحيده أو معرفته أو نحو ذلك . ففي ذلك من الأنواع المتنوعة والدرجات المتباينة ما لا يحصيه إلا الله تعالى .

ويأس الإنسان أن يصل إلى ما يحبه الله ويرضاه من معرفته وتوحيده كبيرة من الكبائر ؛ بل عليه أن يرجو ذلك ويطمع فيه . لكن من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف من شيء هرب منه ، وإذا اجتهد واستعان بالله تعالى ولازم الاستغفار والاجتهاد فلا بد أن يؤتيه الله من فضله ما لم يخطر ببال ، وإذا رأى أنه لا ينشرح صدره ولا يحصل له حلاوة الإيمان ونور الهداية فليكثر التوبة والاستغفار وليلازم الاجتهاد بحسب الإمكان ، فإن الله يقول : (وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) وعليه بإقامة الفرائض ظاهراً وباطناً ؛ ولزوم الصراط المستقيم مستعيناً بالله ؛ متبرئاً من الحول والقوة إلا به .

ففي الجملة ليس لأحد أن ييأس ؛ بل عليه أن يرجو رحمة الله كما أنه ليس له أن لا ييأس ؛ بل عليه أن يخاف عذابه . قال تعالى : (أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) . قال بعضهم : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو

حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد .

وأما قول القائل : متى أصل إلى طريق الراجين ؟ وأنا مقيم فى حيرة المتحيرين ؛ فهذا إخبار منه عن حال مذموم هو فيها ، كما يخبر الرجل عن نقص إيمانه ، وضعف عرفانه ، وريب فى يقينه ؛ وليس مثل هذا مما يطلب ؛ بل هو مما يستعاذ بالله منه .

وأما قول محمد بن الفضل : إنه قال : العارف كلما انتقل من حال إلى حال استقبلته الدهشة والحيرة . فهذا قد يراد به أنه كلما انتقل إلى مقام من المعرفة واليقين حصل له تشوق إلى مقام لم يصل إليه من المعرفة ؛ فهو حائر بالنسبة إلى ما لم يصل إليه دون ما وصل إليه .

وقوله : أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيراً ؛ أي أطلبهم لزيادة العلم والمعرفة ؛ فإن كثرة علمه ومعرفته توجب له الشعور بأمور لم يعرفها بعد ؛ بل هو حائر فيها طالب لمعرفتها والعلم بها ، ولا ريب أن أعلم الخلق بالله قد قال : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » والخلق ما أوتوا من العلم إلا قليلاً .

وما نقل عن « الجنيد » أنه قال : إنتهى عقل العقلاء إلى الحيرة ؛

فهذا ما أعرفه من كلام الجنيد. وفيه نظر هل قاله ؟! ولعل الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود ؛ فإن كان قد قال هذا فأراد عدم العلم بما لم يصل إليه ؛ لم يرد بذلك أن الأنبياء والأولياء لم يحصل لهم يقين ومعرفة وهدى وعلم ؛ فان الجنيد أجل من أن يريد هذا ، وهذا الكلام مردود على من قاله . لكن إذا قيل : إن أهل المعرفة مهما حصلوا من المعرفة واليقين والهدى فهناك أمور لم يصلوا إليها فهذا صحيح . كما فى الحديث الذي رواه الإمام أحمد فى المسند ، وأبو حاتم فى صحيحه : « اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري ، وجلاء حزني وذهاب همي وغمي » قال : « من قال هذا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحا » فقد أخبر أن لله أسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده وهذه لا يعلمها ملك ولا بشر .

فإذا أراد المريد أن عقول العقلاء لم تصل إلى معرفة مثل هذه الأمور فهذا صحيح وأما إذا أراد أن العقلاء ليس عندهم علم ولا يقين بل حيرة وريب ، فهذا باطل قطعاً .

وما ذكر عن « ذي النون » فى هذا الباب مع أن ذا النون قد وقع منه كلام أنكر عليه ، وعزره الحارث بن مسكين ، وطلبه

المتوكل إلى بغداد واتهم بالزندقة ، وجعله الناس من الفلاسفة ، فما أدري هل قال هذا أم لا ؟ بخلاف الجنيد فإن الاستقامة والمتابعة غالبة عليه ، وإن كان كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ثم معصوم من الخطأ غير الرسول ؛ لكن الشيوخ الذين عرف صحة طريقتهم علم أنهم لا يقصدون ما يعلم فساده بالضرورة من العقل والدين .

وهذا قدر ما احتملته هذه الورقة . والله أعلم .

سئل

عن رجل يحب رجلاً عالماً . فإذا التقيا ثم افترقا حصل لذلك الرجل شبه الغشي من أجل الافتراق . وإذا كان الرجل العالم مشغولاً بحيث لا يلتفت إليه لم يحصل له هذا الحال . فهل هذا من الرجل المحب ؟. أم هو تأثير الرجل العالم ؟

فأجاب : —

الحمد لله ، سببه من هذا ومن هذا ، مثل الماء إذا شربه العطشان حصل له لذة وطيب ، وسببها عطشه وبرد الماء ، وكذلك النار إذا وقعت فى القطن سببه منها ، ومن القطن . والعالم المقبل على الطالب يحصل له لذة وطيب وسرور بسبب إقبال هذا وتوجهه ، وهذا حال المحب مع المحبوب ، والله أعلم .

سئل

ما الحكمة فى أن المشتغلين بالذكر والفكر والرياضة ومجاهدة النفس وما أشبهه يفتح عليهم من الكشوفات والكرامات وما سوى ذلك من الأحوال — مع قلة علمهم ، وجهل بعضهم — ما لا يفتح على المشتغلين بالعلم ودرسه ؟. والبحث عنه ؟ حتى لو بات الإنسان متوجها مشتغلا بالذكر والحضور لا بد أن يرى واقعة أو يفتح عليه شيء ، ولو بات ليلة يكرر على باب من أبواب الفقه لا يجد ذلك ، حتى إن كثيراً من المتعبدين يجد للذكر حلاوة ولذة ، ولا يجد ذلك عند قراءة القرآن ، مع أنه قد وردت السنة بتفضيل العالم على العابد ، لا سيا إذا كان العابد محتاجا إلى علم هو مشتغل به عن العبادة .

فني الحديث « إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل للعابدين والمجاهدين : ادخلوا الجنة ، فيقول العلماء بفضل علمنا عبدوا وجاهدوا ، فيقول الله عز وجل

لهم : أنتم عندي كملائكتى ،اشفعوا فيشفعون . ثم يدخلون الجنة » وغيرذلك من الأحاديث والآثار .

ثم إن كثيراً من المتعبدين يؤثر العبادة على طلب العلم ، مع جهله بما يبطل كثيراً من عبادته ، كنواقض الوضوء ، أو مبطلات الصلاة والصوم ، وربما يحكي بعضهم حكاية فى هذا المعنى : بأن « رابعة العدوية » ـ رحمها الله ـ أتت ليلة بالقدس تصلي حتى الصباح ، وإلى جانبها بيت فيه فقيه يكرر على باب الحيض إلى الصباح ، فلما أصبحت رابعة قالت له : يا هذا ! وصل الواصلون إلى ربهم ، وأنت مشتغل بحيض النساء . أو نحوها ، فما المانع أن يحصل للمشتغلين بالعلم ما يحصل للمشتغلين بالعبادة مع فضله عليه ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . لاريب أن الذي أوتى العلم والإيمان أرفع درجة من الذين أوتوا الإيمان فقط ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، والعلم الممدوح الذى دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثته الأنبياء . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن العلماء ورثة الأنبياء ؛ إن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا ديناراً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وهذا العلم ثلاثة أقسام ،

«علم بالله وأسمائه وصفاتـه» ، وما يتبع ذلك ، وفى مثله أنزل الله سورة الإخلاص ، وآية الـكرسي ، ونحوهما .

و « القسم الثانى » : العلم بما أخبر الله بـه ، مما كان من الأمور الماضيـة ، ومـا يكون من الأمور المستقبلة ، وما هو كائن من الأمور الحاضرة ، وفي مثل هذا أنزل الله آيات القصص ، والوعد ، والوعيـد ، وصفة الجنة والنار ، ونحو ذلك .

و « القسم الثالث » : العلم بمـا أمر الله بـه من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله من معارف القلوب وأحوالها وأقوال الجوارح وأعمالها وهذا العلم يندرج فيـه العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام ويندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة ، وهذا العلم يندرج فيه ما وجد فى كتب الفقهاء من العلم بأحـكام الأفعال الظاهرة ، فإن ذلك جزء من جزء من جزء من علم الدين كما أن المـكاشفات التى تكون لأهل الصفا جزء من جزء من جزء من علم الأمور الـكونية .

والناس إنما يغلطون فى هـذه المسائل ؛ لأنهـم يفهمون مسميات الأسماء الواردة فى الـكتاب والسنة ، ولا يعرفون حقائق الأمور الموجودة فرب رجل يحفظ حروف العلم التى أعظمهـا حفظ حروف القرآن ولا يكون له من الفهم ؛ بل ولا من الإيمـان ما يتميز به عـلى من أوتى

القرآن ولم يؤت حفظ حروف العلم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن : مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لهـا . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن : كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر . ومثل المنافـق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها » .

فقد يكون الرجل حافظاً لحروف القرآن وسوره ، ولا يكون مؤمناً بل يكون منافقاً . فالمؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه . وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحان . وأمـا الذي أوتى العلم والإيمـان فهو مؤمن عليم ، فهو أفضـل من المؤمن الذي ليس مثله فى العلم مثل اشتراكهما فى الإيمان ؛ فهذا أصل تجب معرفته .

وههنا « أصل آخر » : وهو أنه ليس كل عمل أورث كشوفـاً أو تصرفاً فى الـكون يكون أفضل من العمل الذي لا يورث كشفـاً وتصرفاً ؛ فإن الـكشف والتصرف إن لم يكن مما يستعان به على دين الله وإلا كان من متاع الحياة الدنيا . وقد يحصل ذلك للـكفار من المشركين وأهل الـكتاب ؛ وإن لم يحصل لأهل الإيمان الذين هم أهل الجنـة ؛ وأولئك أصحاب النار .

ففضائل الأعمال ودرجاتها لا تتلقى من مثل هذا ؛ وإنما تتلقى من دلالة الكتاب والسنة ؛ ولهذا كان كثير من الأعمال يحصل لصاحبه فى الدنيا رئاسة ومال ، فأكرم الخلق عند الله أتقاهم . ومن عبد الله بغير علم فقد أفسد أكثر مما يصلح ، وإن حصل له كشف وتصرف ؛ وإن اقتدى به خلق كثير من العامة ؛ وقد بسطنا الكلام في هذا الباب فى مواضعه ؛ فهذا « أصل ثان » .

و « أصل ثالث » أن تفضيل العمل على العمل قد يكون مطلقاً مثل تفضيل أصل الدين على فرعه ، وقد يكون مقيداً . فقد يكون أحد العملين فى حق زيد أفضل من الآخر ، والآخر فى حق عمرو أفضل ، وقد يكونان متماثلين فى حق الشخص ، وقد يكون المفضول فى وقت أفضل من الفاضل ؛ وقد يكون المفضول فى حق من يقدر عليه وينتفع به أفضل من الفاضل فى حق من ليس كذلك .

مثال ذلك أن قراءة القرآن أفضل من مجرد الذكر بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الأمة ـ ولا اعتبار بمن يخالف ذلك من جهال العباد ـ ثم الركوع والسجود ينهى فيه عن قراءة القرآن ، ويؤمر فيه بالذكر ، وكذلك الذكر والدعاء فى الطواف وعرفة ونحوهما ، أفضل من قراءة القرآن ، وكذلك الأذكار المشروعة : مثل ما يقال عند سماع النداء ودخول المسجد والمنزل والخروج منها ، وعند سماع

الدبكة والحمر ونحو ذلك أفضل من قراءة القرآن في هـذا الموطن ، وأيضـاً فأكثر السالكين إذا قرأوا القرآن لا يفهمونه . وهم بعد لم يذوقوا حلاوة الإيمان الذي يزيدهم بها القرآن إيمـاناً ، فإذا أقبلوا على الذكر أعطاهم الذكر من الإيمان ما يجدون حلاوته ولذته ، فيكون الذكر أنفع لهم حينئذ من قراءة لا يفهمونها ، ولا معهم من الإيمان ما يزداد بقراءة القرآن أما إذا أوتي الرجل الإيمان فالقرآن يزيده من الإيمـان ما لا يحصل بمجرد الذكر ، فهذا « أصل ثالث »

و « أصل رابع » : وهو أن الرجل قد يأتى بالعمل الفـاضل من غير قيام بشروطه ، ولا إخلاص فيه ، فيكون بتفويت شرائطـه دون من أتى بالمفضول المكمل .

فهذه الأصول ونحوها تبين جواب هذا السائل ، وإن كان تفصيل ذلك لا تتسع له الورقة والله أعلم .

سئل الشيخ رحمه الله

عن قوم داوموا على « الرياضة » مرة فرأوا أنهم قد تجوهروا ، فقالوا : لا نبالي الآن ما عملنا ، وإنما الأوامر والنواهي رسوم العوام ، ولو تجوهروا لسقطت عنهم ، وحاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة والمراد منها ضبط العوام ، ولسنا نحن من العوام ، فندخل فى حجر التكليف ، لأنا قد تجوهرنا ، وعرفنا الحكمة . فهل هذا القول كفر من قائله ؟ أم يبدع من غير تكفير ؟ وهل يصير ذلك عمن فى قلبه خضوع للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟.

فأجاب : ـ لا ريب عند أهل العلم والإيمان أن هذا القول من أعظم الكفر ، وأغلظه . وهو شر من قول اليهود والنصارى ؛ فإن اليهودي والنصراني آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعض . وأولئك هم الكافرون حقا كما ذكر أنهم يقرون بأن لله أمراً ونهياً ، ووعداً ووعيداً ، وأن ذلك متناول لهم إلى حين الموت . هذا إن كانوا متمسكين باليهودية والنصرانية المبدلة المنسوخة .

وأما إن كانوا من منافقي أهل ملتهم ـ كما هو الغالب على متكلمهم

ومتفلسفهم ـ كانوا شراً من منافقي هـذه الأمة ، حيث كانوا مظهرين للكفر ومبطنين للنفاق ، فهم شر ممن يظهر إيماناً ويبطن نفاقا .

والمقصود أن المتمسكين بجملة منسوخة فيها تبديل خير من هؤلاء الذين يزعمون سقوط الأمر والنهي عنهم بالكلية ؛ فإن هؤلاء خارجون في هذه الحال عن جميع الكتب والشرائع والملل ؛ لا يلتزمون لله أمراً ولا نهياً بحال ؛ بل هؤلاء شر من المشركين المستمسكين ببقايا من الملل : كمشركي العرب الذين كانوا مستمسكين ببقايا من دين إبراهيم عليه السلام ، فإن أولئك معهم نوع من الحق يلتزمونه ، وإن كانوا مع ذلك مشركين ، وهؤلاء خارجون عن التزام شيء من الحق ، بحيث يظنون أنهم قد صاروا سدى لا أمر عليهم ولا نهي .

فمن كان من قوله هو أنه أو طائفة غيره قد خرجت عن كل أمر ونهي ، بحيث لا يجب عليها شيء ، ولا يحرم عليها شيء ، فهؤلاء أكفر أهل الأرض ، وهم من جنس فرعون وذويه ، وهم مع هذا لا بد أن يلتزموا بشيء يعيشون به ، إذ لا يمكن النوع الإنساني أن يعيش إلا بنوع أمر ونهي ، فيخرجون عن طاعة الرحمن وعبادته إلى طاعة الشيطان وعبادته ؛ ففرعون هو الذي قال لموسى : (وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ) ثم كانت له آلهة يعبدها . كما قال له قومه : (وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ) .

ولكن كثير من هؤلاء لايطلقون السلب العام ، ويخرجون عن ربقة العبودية مطلقاً ، بل يزعمون سقوط بعض الواجبات عنهم ، أو حل بعض المحرمات لهم ، فمنهم من يزعم أنه سقطت عنه الصلوات الخمس لوصوله إلى المقصود وربما قد يزعم سقوطها عنه إذا كان فى حال مشاهدة وحضور ، وقد يزعمون سقوط الجماعات عنهم استغناء عنها بما هو فيه من التوجه والحضور ومنهم من يزعم سقوط الحج عنه مع قدرته عليه ؛ لأن الكعبة تطوف به، أو لغير هذا من الحالات الشيطانية . ومنهم من يستحل الفطر فى رمضان لغير عذر شرعي زعما منه استغناؤه عن الصيام. ومنهم من يستحل الخمر زعما منه أنها إنما تحرم على العامة الذين إذا شربوها تخاصموا وتضاربوا دون الخاصة العقلاء ، ويزعمون أنها تحرم على العامة الذين ليس لهم أعمال صالحة ، فأما أهل النفوس الزكية والأعمال الصالحة : فتباح لهم دون العامة .

وهذه « الشبهة » كانت قد وقعت لبعض الأولين فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك فإن قدامة بن عبد الله شربها هو وطائفة وتأولوا قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فلما ذكر ذلك لعمر بن الخطاب اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا ، وإن أصروا على استحلالها قتلوا. وقال عمر

لقدامة : أخطأت إستك الحفرة . أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر ؛ وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب : أن الله سبحانه لما حرم الخمر ـ وكان تحريمها بعد وقعة أحد ـ قال بعض الصحابة : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ . فأنزل الله هذه الآية يبين فيها أن من طعم الشيء فى الحال التى لم تحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين .

وهذا كما أنه لما صرف القبلة وأمرهم باستقبال الكعبة بعد أن كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس ، فقال الله تعالى : (وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ) أي صلاتكم إلى بيت المقدس . فبين سبحانه أن من عمل بطاعة الله أثابه الله على ذلك ، وإن نهى عن ذلك فى وقت آخر ، ومن استحل ما لم يحرمه لم يكن عليه جناح ، إذا كان من المؤمنين المتقين وإن حرم الله ذلك في وقت آخر . فأما بعد أن حرم الخمر فاستحلالها بمنزلة الصلاة إلى الصخرة بعد تحريم ذلك ، وبمنزلة التعبد بالسبت واستحلال الزنا ، وغير ذلك مما استقرت الشريعة على خلاف ما كان ، وإلا فليس لأحد أن يستمسك من شرع منسوخ بأمر . ومن فعل ذلك كان بمنزلة المستمسك بما نسخ من الشرائع ؛ فلهذا اتفق الصحابة على أن من استحل الخمر قتلوه ، ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك ندموا ، وعلموا أنهم أخطأوا وأيسوا من التوبة . فكتب

عمر إلى قدامة يقول له : (حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ) ما أدري أي ذنبيك أعظم استحلالك المحرم أولاً ؟ أم يأسك من رحمة الله ثانياً ؟

وهذا الذي اتفق عليه الصحابة ، هو متفق عليه بين أئمة الإسلام لا يتنازعون في ذلك ، ومن جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة : كالصلوات الخمس ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت العتيق أو جحد تحريم بعض المحرمات الظاهرة المتواترة : كالفواحش ، والظلم والخمر والميسر والزنا وغير ذلك . أو جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة : كالخبز واللحم والنكاح . فهو كافر مرتد ، يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، وإن أضمر ذلك كان زنديقاً منافقاً ، لا يستتاب عند أكثر العلماء ؛ بل يقتل بلا استتابة ، إذا ظهر ذلك منه .

ومن هؤلاء من يستحل بعض الفواحش : كاستحلال مؤاخاة النساء الأجانب والخلو بهن ، زعما منه أنه يحصل لهن البركة بما يفعله معهن وإن كان محرماً في الشريعة . وكذلك من يستحل ذلك من المردان ويزعم أن التمتع بالنظر إليهم ومباشرتهم هو طريق لبعض السالكين حتى يترقى من محبة المخلوق [إلى محبة الخالق] ويأمرون بمقدمات الفاحشة الكبرى ، وقد يستحلون الفاحشة الكبرى ، كما يستحلها من يقول : إن التلوط مباح بملك اليمين . فهؤلاء كلهم كفار باتفاق المسلمين ؛ وهم

بمنزلة من يستحل قتل المسلمين بغير حق . ويسبي حريمهم ويغنم أموالهم ، وغير ذلك من المحرمات ، التي يعلم أنها من المحرمات تحريماً ظاهراً متواتراً .

لكن من الناس من يكون جاهلا ببعض هذه الأحكام جهلا يعذر به ، فلا يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) وقال تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه ؛ أو لم يعلم أن الخمر يحرم لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا ؛ بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية . بل قد اختلف العلماء فيمن أسلم بدار الحرب ولم يعلم أن الصلاة واجبة ثم علم . هل يجب عليه قضاء ما تركه فى حال الجهل ؟ على قولين في مذهب الإمام أحمد وغيره :

(أحدهما) : لا يجب عليه القضاء ، وهو مذهب أبي حنيفة .

و (الثاني) : يجب عليه القضاء ، وهو المشهور عند أصحاب الشافعي بل النزاع بين العلماء فى كل من ترك واجبا قبل بلوغ الحجة : مثل ترك الصلاة عند عدم الماء يحسب أن الصلاة لا تصح بتيمم ، أو من أكل حتى تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ويحسب أن ذلك هو المراد بالآية ، كما جرى ذلك

لبعض الصحابة ، أو مس ذكره ، أو أكل لحم الإبل ولم يتوضأ ، ثم تبين له وجوب ذلك ، وأمثال هذه المسائل هل يجب عليه القضاء ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره . وأصل ذلك هل يثبت حكم الخطاب فى حق المكلف قبل التمكن من سماعه ؟ على « ثلاثة أقوال » فى مذهب أحمد وغيره .

قيل : يثبت مطلقاً ، وقيل : لا يثبت مطلقاً ؛ وقيل : يفرق بين الخطاب الناسخ ؛ والخطاب المبتدأ . كأهل القبلة ، والصحيح الذي تدل عليه الأدلة الشرعية : أن الخطاب لا يثبت فى حق أحد قبل التمكن من سماعه ؛ فإن القضاء لا يجب عليه فى الصور المذكورة ونظائرها مع اتفاقهم على انتفاء الإثم ؛ لأن الله عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان فإذا كان هذا فى التأثيم فكيف في التكفير ؟!

وكثير من الناس قد ينشأ فى الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات ، حتى لا يبقى من يبلغ مابعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة ، فلا يعلم كثيراً مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك ، ومثل هذا لا يكفر ؛ ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان ، وكان حديث العهد بالإسلام ، فأنكر شيئاً من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول ؛ ولهذا جاء فى الحديث « يأتى على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا

صوماً ولا حجا إلا الشيخ الكبير ، والعجوز الكبيرة ، يقول أدركنا آباءنا وهم يقولون : لا إله إلا الله ، وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجا . فقال : ولا صوم ينجيهم من النار » .

وقد دل على هذا الأصل ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال رجل ـــ لم يعجل حسنة قط ـــ لأهله إذا مات فحرقوه ، ثم أذْرَوا نصفه في البر ، ونصفه في البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذاباً لا يعذبنه أحداً من العالمين . فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم ، فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه ، ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب ! وأنت أعلم ؛ فغفر الله له » وفى لفظ آخر « أسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال : إذا أنامت فأحرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم أذرونى فى البحر . فوالله لئن قدر علي ربى ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً . قال : ففعلوا ذلك به . فقال للأرض : أدِّ ما أخذت ، فإذا هو قائم . فقال له : ما حملك على ما صنعت . قال : خشيتك يارب . أو قال : مخافتك ، فغفر له بذلك » وفى طريق آخر « قال الله لكل شيء أخذ منه شيئاً : أد ما أخذت منه » .

وقد أخرج البخاري هذه القصة من حديث حذيفة وعقبة بن عمرو أيضاً عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان

رجل فيمن كان قبلــكم كان بسيء الظن بعمله . فقال لأهله : إذا أنامت فخذونى فذرونى في البحر فى يوم صائف ففعلوا ، فجمعه الله . ثم قال : ما حملك على الذي فعلت (١) ؟ فقال : ما حملني إلا مخافتك . فغفر له » .

وفى طريق آخر : « أن رجلاً حضره الموت ، فلما يئس مــن الحياة أوصى أهله إذا أنامت ، فاجمعوا لي حطباً كثيراً ، وأوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت لحمي ، ووصلت إلى عظمي ، فامتحشت ، فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يوماً فذرونى فى اليم . فجمعه الله فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك . فغفر الله له » قال عقبة بن عمرو أنا سمعته ـــ يعنى النبي صلى الله عليــه وسلم ـــ يقول ذلك . وكان نباشاً .

فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هــذا التفرق ، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك ، وكل واحد مــن إنــكار قدرة الله تعالى ، وإنكار معاد الأبدان وإن تفرقت كفر . لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلاً بذلك ، ضالاً فى هــذا الظن مخطئاً . فغفر الله له ذلك . والحديث صريح فى أن الرجــل طمع أن لا يعيده إذا فعل ذلك ، وأدنى هذا أن يكون شا كا فى المعــاد ، وذلك كفر ـ إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره ـ هو بين فى عدم إيمانه

---

(١) نسخة صنعت .

بالله تعالى ، ومن تأول قوله : لئن قدر الله علي بمعنى قضى ، أو بمعنى ضيق ، فقد أبعد النجعة ، وحرف الكلم عن مواضعه ، فإنه إنما أمر بتحريقه وتفريقه لئلا يجمع ويعاد . وقال : إذا أنامت فأحرقونى ثم اسحقونى ، ثم ذرونى فى الريح في البحر ، فوالله لئن قدر علي ربى ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً .

فذكر هذه الجملة الثانية بحرف الفاء عقيب الأولى يدل على أنه سبب لها ، وأنه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك ، فلو كان مقراً بقدرة الله عليه إذا فعل ذلك كقدرته عليه إذا لم يفعل لم يكن فى ذلك فائدة له ؛ ولأن التقدير عليه والتضييق موافقان للتعذيب ، وهو قد جعل تفريقه مغايراً ، لأن يقدر الرب . قال : فوالله ! لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين . فلا يكون الشرط هو الجزاء ؛ ولأنه لو كان مراده ذلك لقال : فوالله لئن جازانى ربى أو لئن عاقبني ربى ليعذبني عذاباً ، كما هو الخطاب المعروف فى مثل ذلك : ولأن لفظ « قدر » بمعنى ضيق لا أصل له فى اللغة .

ومن استشهد على ذلك بقوله : (وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ) وقوله : (وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) فقد استشهد بمالا يشهد له . فإن اللفظ كان بقوله : (وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ) أي اجعل ذلك بقدر ، ولا تزد ولا تنقص وقوله : (وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) أي جعل رزقه قدر ما يغنيه

من غير فضل ، إذ لو ينقص الرزق عن ذلك لم يعش .

وأما « قَـدِرَ » بمعنى قَـدَّرَ . أي أراد تقدير الخير والشر فهو لم يقل : إن قدر علي ربي العذاب ، بل قال : لئن قدر علي ربى ، والتقدير يتناول النوعين ، فلا يصح أن يقال ؛ لئن قضى الله علي ؛ لأنه قـد مضى وتقرر عليه ما ينفعه وما يضره ؛ ولأنه لو كان المراد التقـدير أو التضييق لم يكن ما فعله مانعا من ذلك فى ظنـه . ودلائل فساد هـذا التحريف كثيرة ليس هذا موضع بسطها ، فغاية مافى هذا أنه كان رجلا لم يكن عالما بجميع ما يستحقه الله من الصفات ، وبتفصيل أنـه القادر ، وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك ، فلا يكون كافراً .

ومن تتبع الأحاديث الصحيحة وجد فيها من هذا الجنس ما يوافقه كما روى مسلم في صحيحه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : « ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ـــ صلى الله عليـه وسلم ـــ قلنا : بلى! قالت : لما كانت ليلتى الـتى النـبي صلى الله عليه وسلم فيها عنـدي ، انقلب فوضع رداءه ، وخلع نعليه فوضعها عند رجليه ، وبسط طرف إزاره على فراشه ، واضطجع فلم يثبت إلا ريثما ظن أني رقـدت ، فأخذ رداءه رويداً ، وانتقل رويداً ، وفتح الباب رويداً ، فخرج ، ثم أجافه رويداً ، فجعلت درعي فى رأسي ، واختمرت وتقنعت إزاري ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع . فقام فأطال القيام ، ثم رفع يديه

ثلاث مرات ، ثم انحرف فانحرفت وأسرع فأسرعت فهرول وهرولت وأحضر وأحضرت ، فسبقته فدخلت ، فليس إلا أن اضطجعت فقال : مالك يا عائشة حشيي رابية ؟ قالت : لا شيء . قال : لتخبريني ، أو ليخبرني اللطيف الخبير . قالت : قلت : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي فأخبرته . قال : فأنت السواد الذي رأيت أمامي ؟ قلت : نعم فلهزني فى صدري لهزة أوجعتني . ثم قال : أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله ؟! قالت : قلت مهما يكتم الناس يعلمه الله ، قال : نعم ! قال : فإن جبريل — عليه السلام — أتانى حين رأيت فناداني — فأخفاه منك فأجبته وأخفيته منك ، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك ، وظننت أنك رقدت ، وكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي — فقال : إن ربك يأمرك أن تأتى أهل البقيع فتستغفر لهم . قلت : كيف أقول يا رسول الله ؟ قال : قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين ، والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله للاحقون » .

فهذه عائشة أم المؤمنين : سألت النبي — صلى الله عليه وسلم — هل يعلم الله كل ما يكتم الناس ؟ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : نعم ، وهذا يدل على أنها لم تكن تعلم ذلك ، ولم تكن قبل معرفتها بأن الله عالم بكل شيء يكتمه الناس كافرة ، وإن كان الإقرار [بذلك]

بعد قيام الحجة من أصول الإيمان ، وإنكار علمه بكل شيء كإنكار قدرته على كل شيء ، هذا مع أنها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب ، ولهذا لهزها النبي صلى الله عليه وسلم وقال : أتخافين أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ ! وهذا الأصل مبسوط في غير هذا الموضع .

فقد تبين أن هذا القول كفر ، ولكن تكفير قائله لا يحكم به حتى يكون قد بلغه من العلم ما تقوم به عليه الحجة التي يكفر تاركها ، ودلائل فساد هذا القول كثيرة في الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة وأئمتها ومشايخها ، لا يحتاج إلى بسطها . بل قد علم بالاضطرار من دين الإسلام : أن الأمر والنهي ثابت في حق العباد إلى الموت .

وأما قول القائل : هل يصدر ذلك عمن في قلبه خضوع للنبي صلى الله عليه وسلم ؟ .

فيقال : هذا لا يصدر عمن هو مقر بالنبوات مطلقاً ، بل قائل ذلك كافر بجميع الأنبياء والمرسلين ؛ لأنهم جميعاً أتوا بالأمر والنهي للعباد إلى حين الموت بل لا يصدر هذا القول ممن في قلبه خضوع لله وإقرار بأنه إله العالم ، فإن هذا الاقرار يستلزم أن يكون الإنسان عبداً لله خاضعا له ، ومن سوغ لإنسان أن يفعل ما يشاء من غير تعبد بعبادة الله ، فقد أنكر أن يكون الله إلهه .

وأما قولهم إنهم قد تجوهروا ، فقالوا : لا نبالي الآن ما عملنا ؟ .

فيقال لهم : ماذا تعنون بقولكم ؟ فإن أرادوا أن النفس بقيت صافية طاهرة ، لا تنازع إلى الشهوات والأهواء المردية ، فهذا لو كان حقاً لكان معناه أن النفس قد صارت مطيعة ليس فيها دواعي المعصية فتكون منقادة إلى فعل المأمور ، ولا تميل إلى المحظور ، وهذا غايته أن تكون معصومة لا تطلب فعل القبيح ، وهذا ما يخرجها أن تكون مأمورة منهية كالملائكة .

وإذا قال مثل هؤلاء : لا ينافى ما عملنا ، قيل لهم : الذي تعملونه إن كان من جنس الأهواء المردية فقد تناقضتم فى زعمكم أن نفوسكم لم يبق لها هوى ، وإن كان من جنس الأعمال الصالحة فهذا جنس لاينكر ، فعلم أنهم متناقضون فى هذا الكلام إذا أرادوا بتجوهر النفس صفاءها وطهارتها عن الأكدار البشرية ، مع أن هذا الكمال ممتنع فى حق البشر ما دامت الأرواح فى الأجسام ؛ ولهذا أنكر المشايخ ذلك على من ادعاه ، كالآثار المعروفة فى ذلك عن الشيخ أبي علي الروذباري وغيرهم وأعظم الناس درجة الأنبياء عليهم السلام ، وقد أمرهم الله بالتوبة والاستغفار ، حتى خاتم الرسل أمره الله فى أواخر ما أنزل عليه من القرآن ما أمره به بقوله : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا) .

ولهذا كان الذي عليه سلف الأمة وأئمتها أن الأنبياء إنما هم معصومون من الإقرار على الذنوب، وأن الله يستدركهم بالتوبة التي يحبها الله — (يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ) — وإن كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأن ما صدر منهم من ذلك إنما كان لكمال النهاية بالتوبة لا لنقص البداية بالذنب . وأما غيرهم فلا تجب له العصمة، وإنما يدعي العصمة المطلقة لغير الأنبياء الجهال من الرافضة وغالية النساك، وهذا مبسوط في موضعه .

وأما قولهم : حاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة، فلا ريب أن الله يبعث الأنبياء لما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد، ولا ريب أن الله أمر العباد بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم، ولا ريب أن الحكمة هي العلم والعمل بها، كما فسرها بذلك مالك بن أنس وغيره من الأئمة؛ لكن أي شيء في هذا مما يوجب سقوطها عن بعض العباد؟ وإنما يخرج عن الحكمة والمصلحة من يكون سفيها مفسداً (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ) (وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ) .

وأما قولهم: المراد منها ضبط العوام ولسنا نحن من العوام .

فالكلمة الأولى : زندقة ونفاق، والثانية كذب واختلاق، فإنه ليس المراد من الشرائع مجرد ضبط العوام؛ بل المراد منها الصلاح باطنا

وظاهراً ، للخاصة والعامة في المعاش والمعاد ، ولكن في بعض فوائد العقوبات المشروعة فى الدنيا ضبط العوام . كما قال عثمان بن عفان ــ رضي الله عنــه ــ : « إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن » فإن من يكون من المنافقين والفجار فإنه ينزجر بمــا يشاهده من العقوبات ، وينضبط عن انتهاك المحرمات ، فهذا بعض فوائد العقوبات السلطانية المشروعة .

وأما فوائد الأمر والنهي : فأعظـم من أن يحصيهــا خطاب أو كتاب ؛ بل هي الجامعة لــكل خير يطلب ويراد ، وفي الخروج عنهــا كل شر وفساد .

ودعوى هؤلاء أنهم من الخواص ، يوجب أنهم من حثالة منافقي العامة ، وهم داخلون فيما نعت الله به المنافقين في قوله : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ــ إلى قوله ــ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) . وفى مثل قوله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا * وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) ولبسط الكلام على أمثال هؤلاء موضع غير هذا .

ومن هؤلاء من يحتج بقوله : (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) ويقول معناها : اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة ، فإذا حصل ذلك سقطت العبادة . وربما قال بعضهم : اعمل حتى يحصل لك حال ، فإذا حصل لك حال تصوفي [سقطت عنك العبادة] وهؤلاء فيهم من إذا ظن حصول مطلوبه من المعرفة والحال استحل ترك الفرائض ، وارتكاب المحارم ، وهذا كفر كما تقدم .

ومنهم من يظن استغناءه عن النوافل حينئذ ، وهذا مغبون منقوص جاهل ضال خاسر باعتقاد الاستغناء عن النوافل واستخفافه بها حينئذ ،

بخلاف من تركها معتقداً كمال من فعلها حينئذ معظما لحاله ، فإن هـذا ليس مذموماً ، وإن كان الفاعل لها مع ذلك أفضل منــه ، أو يكون هذا من المقربين السابقين ، وهذا من المقتصدين ، أصحاب اليمين .

ومن هؤلاء من يظن أن الاستمساك بالشريعة ــ أمراً ونهياً ــ إنما يجب عليه ما لم يحصل له من المعرفة أو الحال ، فإذا حصل له لم يجب عليه حينئذ الاستمساك بالشريعة النبوية ، بل له حينئــذ أن يمشي مع الحقيقة الكونية القدرية ، أو يفعل بمقتضى ذوقه ووجده وكشفه ورأيه من غير اعتصام بالكتاب والسنة ، وهؤلاء منهم من يعاقب بسلب حاله حتى يصير منقوصاً عاجزاً محرومــاً ، ومنهم من يعاقب بسلب الطـاعة حتى يصير فاسقاً ، ومنهم من يعاقب بسلب الإيمان حتى يصير مرتـداً منافقاً ، او كافراً ملعناً . وهؤلاء كثيرون جداً ، وكثير من هؤلاء يحتج بقصة موسى والخضر .

فأما استدلالهم بقوله تعالى : (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) فهي عليهم لا لهم ، قال الحسن البصري : إن الله لم يجعــل لعمــل المؤمنين أجلا دون الموت ، وقرأ قوله : (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) ؛ وذلك أن اليقين هنا الموت وما بعده باتفاق علمـاء المسلمين وهؤلاء من المستيقنين . وذلك مثــل قوله : (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ــ إلى قوله ــ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ * وَكُنَّا

نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ) فهذا قالوه وهم في جهنم .
وأخبروا أنهم كانوا [على] ماهم عليه من ترك الصلاة والزكاة والتكذيب بالآخرة ، والخوض مع الخائضين حتى أتاهم اليقين . ومعلوم أنهم مع هذا الحال لم يكونوا مؤمنين بذلك فى الدنيا ، ولم يكونوا مع الذين قال الله فيهم : (وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) وإنما أراد بذلك أنه أتاهم ما يوعدون ، وهو اليقين . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح — لما توفي عثمان بن مظعون — وشهدت له بعض النسوة بالجنة . فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ؟ إنى والله وأنا رسول الله ما أدري ما يفعل بى » وقال : « أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه » أي أتاه ما وعده وهو اليقين .

و « يقين » على وزن فعيل . وسواء كان فعيل بمعنى مفعول ، أي الموت . كالحبيب والنصيح والذبيح ، أو كان مصدراً وضع موضع المفعول . كقوله : (هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ) وقوله : (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ) وقوله : ضرب الأمير ؛ وغفر الله لك . قيل : وقولهم قدرة عظيمة . وأمثال ذلك ؛ فإنه كثير . فعلى التقديرين المعنى لا يختلف ؛ بل اليقين هو ما وعد به العباد من أمر الآخرة ، وقوله : (حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) كقولك : يأتيك ما توعد .

فأما أن يظن أن المراد : اعبده حتى يحصل لك إيقان ، ثم لاعبادة

عليك . فهذا كفر باتفاق أئمة المسلمين ؛ ولهذا لما ذكر للجنيد بن محمد أن قوماً يزعمون أنهم يصلون من طريق البر إلى ترك العبادات . فقال : الزنا والسرقة وشرب الخمر خير من قول هؤلاء ، وما زال أئمة الدين ومشايخه يعظمون النكير على هؤلاء المنافقين ، وإن كانوا من الزهاد العابدين وأهل الكشف والتصرف فى الكون وأرباب الكلام والنظر فى العلوم ، فإن هذه الأمور قد يكون بعضها فى أهل الكفر والنفاق ومن المشركين وأهل الكتاب . وإنما الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار؛ الإيمان والتقوى. الذي هو نعت أوليـاء الله. كما قال: (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ)

وأما احتجاجهم بقصة موسى والخضر فيحتجون بها على وجهين :

(احدهما) : أن يقولوا : إن الخضر كان مشاهداً الإرادة الربانية الشاملة ، والمشيئة الإلهية العامة ، وهي « الحقيقة الكونية » . فلذلك سقط عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والنهي الشرعي ، وهو من عظيم الجهل والضلال ، بل من عظيم النفاق والكفر ، فإن مضمون هذا الكلام : أن من آمن بالقدر وشهد أن الله رب كل شيء ، لم يكن عليه أمر ولا نهي ، وهذا كفر بجميع كتب الله ورسله ، وما جاءوا به من الأمر والنهي ، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا : (لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ) قال الله

تعالى : (كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ)

ونظير هذا فى سورة النحل ، وفى سورة يس . (وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ) وكذلك فى سورة الزخرف : (وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ) .

وهؤلاء هم « القدرية المشركية » الذين يحتجون بالقدر على دفع الأمر والنهي هم شر من القدرية الذين هم مجوس هـذه الأمة ، الذين روى فيهم : « إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » ؛ لأن هؤلاء يقرون بالأمر والنهي والثواب والعقاب ،لكن أنـكروا عموم الإرادة والقدرة والخلق ، وربما أنـكروا سابق العلم .

وأما « القدرية المشركية » فإنهم ينكرون الأمر والنهي والثواب والعقاب ، لكن [وإن لم ينكروا] عموم الإرادة والقدرة والخلق ، فإنهم ينكرون الأمر والنهي والوعد والوعيد ، ويكفرون بجميع الرسـل والكتب ؛ فإن الله إنمـا أرسل الرسل مبشرين من أطاعهم بالثواب ، ومنذرين مـن عصاهم بالعقاب . وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع غير هذا .

و « أيضاً » فإن موسى عليه السلام كان مؤمناً بالقدر ، وعالماً به بل أتباعه من بني إسرائيل كانوا أيضاً مؤمنين بالقدر ، فهل يظن من له أدنى عقل أن موسى طلب أن يتعلم من الخضر الإيمان بالقدر ، وأن ذلك يدفع الملام ، مع أن موسى أعلم بالقدر من الخضر ، بل عموم أصحاب موسى يعلمون ذلك .

و « أيضاً » فلو كان هذا هو السر فى قصة الخضر بين ذلك لموسى . وقال : إني كنت شاهداً للإرادة والقدر ، وليس الأمر كذلك . بل بين له أسباباً شرعية تبيح له ما فعل . كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وأما « الوجه الثاني » : فإن من هؤلاء من يظن : أن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية ، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى ، وأنه قد يكون للولي فى المكاشفة والمخاطبة مايستغني به عن متابعة الرسول فى عموم أحواله أو بعضها ، وكثير منهم يفضل الولي فى زعمه ، إما مطلقاً ، وإما من بعض الوجوه على النبي ، زاعمين أن فى قصة الخضر حجة لهم ، وكل هذه المقالات من أعظم الجهالات والضلالات ؛ بل من أعظم أنواع النفاق والإلحاد والكفر .

فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام : أن رسالة محمد بن عبد

الله — صلى الله عليه وسلم — لجميع الناس : عربهم وعجمهم ، وملوكهم وزهادهم وعلمائهم وعامتهم ، وأنها باقية دائمة إلى يوم القيامة ؛ بل عامة الثقلين الجن والإنس ، وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين . وما سنه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات ، بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياء لوجب عليهم متابعته ومطاوعته .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ . قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره بأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه .

وفي سنن النسائي عن جابر أن النبي — صلى الله عليه وسلم — رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال : « أمتهوكون يا ابن الخطاب ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي » — هذا أو نحوه — ورواه أحمد فى المسند ولفظه : « ولو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم » وفى مراسيل أبى داود قال : « كفى بقوم ضلالة أن يبتغوا كتاباً غير كتابكم . أنزل على

نبي غير نبيهم » وأنزل الله تعالى : (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) الآية .

بل قد ثبت بالأحاديث الصحيحة « أن المسيح عيسى بن مريم إذا نزل من السماء فإنه يكون متبعاً لشريعة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم » فإذا كان صلى الله عليه وسلم يجب اتباعه ونصره على من يدركه من الأنبياء . فكيف بمن دونهم ؟

بل مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز لمن بلغته دعوته أن يتبع شريعة رسول غيره ، كموسى وعيسى . فإذا لم يجز الخروج عن شريعته إلى شريعة رسول ، فكيف بالخروج عنه والرسل؟ كما قال تعالى : (قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ) . وقال تعالى : (ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ) .

ولهذا لما كان قد دخل فيما ينقله أهل الكتاب عن الأنبياء تحريف وتبديل : كان ما علمنا أنه صدق عنهم آمنا به ، وما علمنا أنه كذب رددناه ، وما لم نعلم حاله لم نصدقه ولم نكذبه ، كما روى البخاري فى صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ، ولا تكذبوهم . فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوهم ، وإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوهم . وقولوا : آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » .

ومما يبين الغلط الذي وقع لهم فى الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة : أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولا أوجب الله على الخضر متابعته وطاعته ؛ بل قد ثبت في الصحيحين « إن الخضر قال له : يا موسى ! إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، وأنت على علم من علم الله ، علمكه الله لا أعلمه » وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة .

وقد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : فيما فضله الله به على الأنبياء قال : « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » فدعوة محمد صلى الله عليه وسلم شاملة لجميع العباد ، ليس لأحد الخروج عن متابعته وطاعته ، ولا استغناء عن رسالته ، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته

مستغنياً عنه بما علمه الله . وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد : إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، ومن سوغ هذا أو اعتقد أن أحداً من الخلق : الزهاد والعباد أو غيرهم له الخروج عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ومتابعته ، فهو كافر باتفاق المسلمين . ودلائل هذا من الكتاب والسنة اكثر من أن تذكر هنا .

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة ؛ ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التى فعل لأجلها ما فعل وافقه موسى ، ولم يختلفا حينئذ . ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى لما وافقه .

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل فى الشريعة ، والآخر لا يعلم ذلك السبب ، وإن كان قد يكون أفضل من الأول . مثل شخصين : دخلا إلى بيت شخص ، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله ، إما بإذن لفظي أو غيره ، فيتصرف . وذلك مباح فى الشريعة ، والآخر الذي لم يعلم هذا السبب لا يتصرف ، وخرق السفينة كان من هذا الباب ، فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، وكان من المصلحة التى يختارها أصحاب السفينة ، إذا علموا ذلك ؛ لئلا يأخذها[1] خير من انتزاعها منهم .

---

(١) بياض بالأصل .

ونظير هذا حديث الشاة التي أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها . فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عنها فأذن لهم فى أكلها ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح ؛ لأنه كان مأذوناً فيه عرفاً والإذن العرفي كالإذن اللفظي ؛ ولهذا بايع النبى صلى الله عليه وسلم عن عثمان فى غيبته بدون استئذانه لفظاً ، ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفرا قليلاً إلى بيته ، قام بجميع أهل المسجد ، لما علم من طيب نفس أبي طلحة ، وذلك لما يجعله الله من البركة . وكذلك حديث جابر .

وقد ثبت أن لحاماً دعاه فاستأذنه فى شخص يستتبعه ؛ لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما ، وكذلك قتل الغلام كان من باب دفع الصائل على أبويه ، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما ، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين ، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال ؛ فلهذا ثبت فى صحيح البخاري أن نجدة الحروري لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال : « إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم ، وإلا فلا تقتلهم » .

وكذلك فى الصحيحين « أن عمر لما استأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى قتل ابن صياد ، وكان مراهقاً ، لما ظنه الدجال ، فقال : « إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله » فلم يقل إن يكنه فلا خير لك فى قتله ، بل قال : « فلن تسلط عليه » .

وذلك يدل على أنه لو أمكن إعدامه قبل بلوغه لقطع فساده لم يكن ذلك محذوراً ، وإلا كان التعليل بالصغر كافياً . فإن الأعم إذا كان مستقلاً بالحكم كان الأخص عديم التأثير ، كما قال فى الهرة : « إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات » .

وأما بناء الجدار فإنما فيه ترك أخذ الجعل مع جوعهم ، وقد بين الخضر : أن أهله فيهم من الشيم وصلاح الوالد ما يستحقون به التبرع ؛ وإن كان جائعاً .

ومن ذلك أن من أسباب الوجوب والتحريم والإباحة ما قد يكون ظاهراً ، فيشترك فيها الناس ، ومنه ما يكون خفياً عن بعضهم ظاهراً لبعضهم على الوجه المعتاد ، ومنه ما يكون خفياً يعرف بطريق الكشف ، وقصة الخضر من هذا الباب . وذلك يقع كثيراً فى أمتنا . مثل أن يقدم لبعضهم طعام فيكشف له أنه مغصوب فيحرم عليه أكله ، وإن لم يحرم ذلك على من لم يعلم ذلك ، أو يظفر بمال يعلم أن صاحبه أذن له فيه فيحل له أكله ، فإنه لا يحل ذلك لمن لم يعلم الإذن . وأمثال ذلك .

فمثل هذا إذا كان الشيخ من المعروفين بالصدق والإخلاص كان مثل هذا من مواقع الاجتهاد ، الذي يصيب فيه تارة ويخطىء أخرى

فإن المكاشفات يقع فيها من الصواب والخطأ نظير ما يقع فى الرؤيا وتأويلها، والرأي، والرواية، وليس شيء معصوماً على الإطلاق إلا ما ثبت عن الرسول؛ ولهذا يجب رد جميع الأمور إلى ما بعث به ولهذا كان الصديق المتلقي عن الرسول كل شيء؛ مثل أبى بكر أفضل من المحدث مثل عمر؛ وكان الصديق يبين للمحدث المواضع التى اشتبهت عليه؛ حتى يرده إلى الصواب. كما فعل أبو بكر بعمر يوم الحديبية؛ ويوم موت النبي صلى الله عليه وسلم، وفى قتال ما نعى الزكاة، وغير ذلك. وهذا الباب قد بسطناه فى غير هذا الموضع.

والمقصود أنه ليس في قصة الخضر ما يسوغ مخالفة شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من الخلق. نعم لفظ « الشرع » قد صار فيه اشتراك فى عرف العامة، منهم من يجعله عبارة عن حكم الحكام، ولا ريب أن حكم الحاكم قد يطابق الحق فى الباطن، وقد يخالفه، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه عن أم سلمة: « إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضى بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار »

وقد اتفق المسلمون على أن حكم الحاكم بالحقوق المرسلة لا يغير الشيء عن صفته فى الباطن، فلو حكم بمال زيد لعمر، لإقرار أو بينة

كان ذلك باطلا فى الباطن ، ولم يبح ذلك له فى البـاطن ، ولا يجوز له أخذه مع العلم بالحال باتفاق المسلمين ، وكذلك عند جماهير الأمة لو حكم بعقد أو فسخ نـكاح أو طلاق وبيع فإن حكمه لا يغير البـاطن عندهم ، وإن كان منهم من يقول : حكمه يغير ذلك فى هذا الموضع ؛ لأن له ولاية العقود والفسوخ . فالصحيح قول الجمهور ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد ، وسائر فقهاء أهل الحجاز والحديث ، وكثير من فقهاء العراق .

وأيضاً فلفظ « الشرع » فى هذا الزمان ، يطلق على ثلاثة معان :

شرع منزل ، وشرع متأول ، وشرع مبدل .

« فالمنزل » الكتاب والسنة . فهذا الذي يجب اتباعــه على كل واحد ، ومن اعتقد أنه لا يجب اتبـاعه على بعض الناس فهو كافر .

و « المتأول » موارد الاجتهاد التى تنازع فيها العلماء ، فاتباع أحد المجتهدين جائز لمن اعتقد أن حجته هي القوية ، أو لمن ساغ له تقليـده ولا يجب على عموم المسلمين اتبـاع أحد بعينه إلا رسول الله صلى الله عليه وسـلم . فكثير من المتفقهة إذا رأى بعض النـاس من المشايخ الصالحين ، [يرى أنه] يكون الصواب مـع ذلك ، وغيره قـد خالف

الشرع ، وإنما خالف ما يظنه هو الشرع ، وقد يكون ظنه خطأ فيثاب على اجتهاده ، وخطؤه مغفور له وقد يكون الآخر مجتهداً مخطئاً .

وأما « الشرع المبدل » : فمثل الأحاديث الموضوعة ، والتأويلات الفاسدة ، والأقيسة الباطلة والتقليد المحرم ، فهذا يحرم أيضاً . وهذا من مثار النزاع ، فإن كثيراً من المتفقهة والمتكلمة قد يوجب على كثير من المتصوفة والمتفقرة اتباع مذهبه المعين ، وتقليد متبوعه ؛ والتزام حكم حاكمه باطناً وظاهراً ، ويرى خروجه عن ذلك خروجاً عن الشريعة المحمدية ، وهذا جهل منه وظلم ؛ بل دعوى ذلك على الإطلاق كفر ونفاق .

كما أن كثيراً من المتصوفة والمتفقرة يرى مثل ذلك في شيخه ومتبوعه ، وهو في هذا نظير ذلك . وكل من هؤلاء قد يسوغ الخروج عما جاء به الكتاب والسنة ، لما يظنه معارضاً لهما ، إما لما يسميه هذا ذوقا ووجداً ، ومكاشفات ومخاطبات ، وإما لما يسميه هذا قياساً ورأيا وعقليات وقواطع ، وكل ذلك من شعب النفاق ، بل يجب على كل أحد تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع ما أخبر به ، وطاعته فى جميع ما أمر به ، وليس لأحد أن يعارضه بضرب الأمثال ، ولا بآراء الرجال ، وكل ما عارضه فهو خطأ وضلال .

وقـد ذكرنا من تفصيل ذلك في غير هذا الموضع ما لا يتسع له هـذا المجال .

والله تعـالى يوفقنا وسائر إخواننا لما يحبه ويرضـاه ؛ من الأقوال والأفعال الباطنة والظاهرة ، وفى جميع الأحوال . والله سبحانه وتعالى أعلم . والحمـد لله وحـده ، وصلواته وسلامـه على نبيـه محمد وآله وصحبه وسلم .

سئل شيخ الإسلام

عن الحديث المروي فى « الأبدال هل هو صحيح أم مقطوع ؟ وهل « الأبدال » مخصوصون بالشام ؟ أم حيث تكون شعائر الإسلام قائمة بالكتاب والسنة يكون بها الأبدال بالشام وغيره من الأقاليم ؟ وهل صحيح أن الولي يكون قاعداً فى جماعة ويغيب جسده ؟

وما قول السادة العلماء فى هذه الأسماء التى تسمى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة ، ويقولون هذا غوث الأغوات ، وهذا قطب الأقطاب وهذا قطب العالم ، وهذا القطب الكبير ، وهذا خاتم الأولياء ؟!

فأجاب : أما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل « الغوث » الذي بمكة ، و « الأوتاد الأربعة » و « الأقطاب السبعة » و « الأبدال الأربعين » و « النجباء الثلاثمائة » : فهذه أسماء ليست موجودة فى كتاب الله تعالى ؛ ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح ، ولا ضعيف يحمل [عليه] ألفاظ الأبدال .

فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن فيهم ـ يعني أهل الشام ـ الأبدال الأربعين رجلا، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلا، ولا توجد هذه الأسماء فى كلام السلف، كما هي على هذا الترتيب؛ ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعانى عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً؛ وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ؛ وقد قالها إما آثراً لها عن غيره أو ذاكراً.

وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله، ومن الباطل مايوجب رده، وصار كثير من الناس على طرفى نقيض.

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل.

وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل، وهذا تحقيق لما أخبر به النبي عليه السلام عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها حذو القذة بالقذة.

فإن أهل الكتابين لبسوا الحق بالباطل، وهذا هو التبديل

والتحريف الذي وقع فى دينهم ؛ ولهذا يتغير الدين بالتبديل تارة ، وبالنسخ أخرى ، وهذا الدين لا ينسخ أبداً لكن يكون فيه من يدخل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يلبس به الحق بالباطل ، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفاً عن الرسل ، فينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون .

فالكتب المنزلة من السماء ، والأثارة من العلم المأثورة عن خاتم الأنبياء ، يميز الله بها الحق من الباطل ، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وبذلك يتبين أن هذه الأسماء على هذا العدد ، والترتيب والطبقات ليست حقاً فى كل زمان ، بل يجب القطع بأن هذا على عمومه وإطلاقه باطل ؛ فإن المؤمنين يقلون تارة ويكثرون أخرى ، ويقل فيهم السابقون المقربون تارة ، ويكثرون أخرى ، وينتقلون فى الأمكنة ، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين لزوم مكان واحد فى جميع الأزمنة ، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين تعيين العدد .

وقد بعث الله رسوله بالحق وآمن معه بمكة نفر قليل كانوا أقل من سبعة ، ثم أقل من أربعين ، ثم أقل من سبعين ، ثم أقل من

ثلاثمائة فيعلم أنه لم يكن فيهم هذه الأعـداد ، ومن الممتنع أن يكون ذلك فى الكفار ثم هاجر هو وأصحابه إلى المدينـــة ، وكانت هي دار الهجرة والسنة والنصرة ، ومستقر النبوة وموضع خلافة النبوة ، وبهـا انعقدت بيعة الخلفاء الراشدين ، أبى بكـر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وإن كان قد خرج منها بعد أن بويع فيها ؛ ومن الممتنع أنه قد كان بمكة فى زمنهم من يكون أفضل منهم .

ثم إن الإسلام انتشر فى مشارق الأرض ومغاربها، وكان فى المؤمنين فى كل وقت من أولياء الله المتقين ؛ بل من الصديقين السابقين المقربين عدد لا يحصى عدده إلا رب العالمين ، لا يحصرون بثلاثمائة ولا بثلاثـة آلاف ، ولما انقرضت القرون الثلاثة الفاضلة كان فى القرون الخاليـة من أولياء الله المتقـين ؛ بل من السابقين المقربـين من لا يعرف عدده ، وليسوا بمحصورين بعدد ولا محدودين بأمد ، وكل من جعل لهم عدداً محصوراً فهو من المبطلين عمـداً أو خطـأ ، فنسأله من كان القطب والثلاثة إلى سبعمائة ، فى زمن آدم ونوح وإبراهيم ، وقبل محمد عليهم الصلاة والسلام فى الفترة حـين كان عامـة الناس كفرة ؟! قال الله تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا) أي كان مؤمنـاً وحده وكان الناس كفاراً جميعا . وفى صحيح البخاري « أنه قال لسارة : ليس عـلى الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك » وقال الله تعـالى : (هُوَ الَّذِى

بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ) .

وإن زعموا أنهم كانوا بعد رسولنا عليه السلام نسألهم فى أي زمان كانوا ؟ ومن أول هؤلاء ؟ وبأية آية ؟ وبأي حديث مشهور فى الكتب الستة ؟ وبأي إجماع متواتر من القرون الثلاثة ثبت وجود هؤلاء بهذه الأعداد حتى نعتقده ؟ لأن العقائد لا تعتقد إلا من هذه الأدلة الثلاثة ، ومن البرهان العقلي (قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) فإن لم يأتوا بهذه الأدلة الأربعة الشرعية فهم الكاذبون بلا ريب ، فلا نعتقد أكاذيبهم .

ويلزم منه أن يرزق الله سبحانه وتعالى الكفار وينصرهم على عدوهم بالذات بلا واسطة ، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات ، والتعظيم فى عدم الواسطة ، كروح الله ، وناقة الله . تدبر ولا تتحير ، واحفظ القاعدة حفظاً .

« فأما لفظ الغوث والغياث » فلا يستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين ، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره ، لا بملك مقرب ولا نبي مرسل .

ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التى يطلبون بها

كشف الضر عنهم ، ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة ، والثلاثمائة إلى السبعين والسبعون إلى الأربعين ، والأربعون إلى السبعة ، والسبعة إلى الأربعة ، والأربعة إلى الغوث فهو كاذب ضال مشرك ، فقد كان المشركون كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : (وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ) وقال سبحانه وتعالى : (أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) .

فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعده بوسائط من الحجاب ؟ وهو القائل تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) وقال إبراهيم عليه السلام داعياً لأهل مكة (رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ * ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ) .

وقال النبي عليه السلام لأصحابه لما رفعوا أصواتهم بالذكر « أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا وإنما تدعون

سميعا قريباً ؛ إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »
وهذا باب واسع .

وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم ، لا ظاهراً ولا باطناً بهذه الوسائط والحجاب ، فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقوله الظالمون علواً كبيراً ، وهذا من جنس دعوى الرافضة أنه لابد فى كل زمان من إمام معصوم يكون حجة الله على المكلفين لا يتم الإيمان إلا به ، ثم مع هذا يقولون إنه كان صبياً دخل السرداب من أكثر من أربعمائة وأربعين سنة ، ولا يعرف له عين ولا أثر ، ولا يدرك له حس ولا خبر .

وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهاة للرافضة من بعض الوجوه ؛ بل هذا الترتيب والإعداد تشبه من بعض الوجوه ترتيب الإسماعيلية ، والنصيرية ، ونحوهم فى السابق والتالي والناطق ، والأساس والجسد (١) وغير ذلك من الترتيب ، الذي ما نزل الله به من سلطان .

---

(١) نسخة والحد .

(وأما الأوتاد) فقد يوجد في كلام البعض أنه يقول : فلان من الأوتاد ، يعنى بذلك أن الله تعالى يثبت به الإيمان ، والدين فى قلوب من يهديهم الله به ، كما يثبت الأرض بأوتادها ، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء ، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة ، والجبال الكبيرة ، ومن كان بدونه كان بحسبه ، وليس ذلك محصوراً في أربعة ولا أقل ولا أكثر ، بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين فى أوتاد الأرض .

(وأما القطب) فيوجد أيضاً فى كلامهم فلان من الأقطاب ، أو فلان قطب ، فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا ، باطنا أو ظاهراً ، فهو قطب ذلك الأمر ومداره ، سواء كان الدائر عليه أمر داره أو دربه ، أو قريته أو مدينته ، أمر دينها أو دنياها ، باطناً أو ظاهراً ، ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولا أكثر ؛ لكن الممدوح من ذلك من كان مداراً لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا ؛ فهذا هو القطب في عرفهم ، فقد يتفق فى بعض الأعصار أن يكون شخص أفضل أهل عصره ، وقد يتفق فى عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة فى الفضل عند الله سواء ، ولا يجب أن يكون فى كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقاً .

وكذلك لفظ « البدل » جاء فى كلام كثير منهم ، فأما الحديث المرفوع فالأشبه أنه ليس من كلام النبي عليه السلام ، فإن الإيمان كان بالحجاز وباليمن قبل فتوح الشام ، وكانت الشام والعراق دار كفر ، ثم لما كان فى خلافة علي رضي الله عنه قد ثبت عنه عليه السلام أنه قال : « تمرق مارقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق فكان علي وأصحابه أولى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام ؛ ومعلوم أن الذين كانوا مع علي رضي الله عنه من الصحابة مثل عمار بن ياسر ، وسهل بن حنيف ونحوهما ، كانوا أفضل من الذين كانوا مع معاوية ، وإن كان سعد بن أبي وقاص ونحوه من القاعدين أفضل ممن كان معهما ، فكيف يعتقد مع هذا أن الأبدال جميعهم الذين هم أفضل الخلق كانوا فى أهل الشام ؟ ! هذا باطل قطعاً ، وإن كان قد ورد فى الشام وأهله فضائل معروفة فقد جعل الله لكل شيء قدراً .

والكلام يجب أن يكون بالعلم والقسط ، فمن تكلم فى الدين بغير علم دخل فى قوله تعالى : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ) وفى قوله تعالى : (وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ومن تكلم بقسط وعدل دخل فى قوله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ) وفى قوله تعالى : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟) وفى قوله تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ) .

والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان : منها أنهم أبدال الأنبياء

ومنها أنه كلما مات منهم رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً ، ومنها أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات . وهذه الصفات كلها لا تختص بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر ، ولا تحصر بأهل بقعة من الأرض ؛ وبهذا التحرير يظهر المعنى في اسم « النجباء » .

فالغرض أن هذه الأسماء تارة تفسر بمعان باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، مثل تفسير بعضهم « الغوث » هو الذي يغيث الله به أهل الأرض في رزقهم ونصرهم ، فإن هذا نظير ما تقوله النصارى في الباب وهو معدوم العين والأثر شبيه بحال المنتظر الذي دخل السرداب من نحو أربعمائة وأربعين سنة .

وكذلك من فسر « الأربعين الأبدال » بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل ؛ بل النصر والرزق يحصل بأسباب من آكدها دعاء المؤمنين ، وصلاتهم وإخلاصهم ، ولا يتقيد ذلك لا بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر ؛ كما جاء في الحديث المعروف أن سعد بن أبي وقاص قال : يا رسول الله ! الرجل يكون حامية القوم ، أيسهم له مثل ما يسهم لأضعفهم ؟ فقال : « يا سعد ! وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم »

وقد يكون للرزق والنصر أسباب أخر ؛ فإن الفجار والكفار

أيضاً يرزقون وينصرون ؛ وقد يجدب الأرض على المؤمنين ويخيفهم من عدوهم لينيبوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم ، فيجمع لهم بين غفران الذنوب وتفريج الكروب ، وقد يملى للكفار ويرسل السماء عليهم مدراراً ؛ ويمددهم بأموال وبنين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إما ليأخذهم فى الدنيا أخذ عزيز مقتدر ، وإما ليضعف عليهم العذاب فى الآخرة فليس كل إنعام كرامة ، ولا كل امتحان عقوبة ؛ قال الله تعالى : (فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ * كَلَّا)

وليس فى أولياء الله المتقين ؛ ولا عباد الله المخلصين ، الصالحين ولا أنبيائه المرسلين ؛ من كان غائب الجسد دائماً عن أبصار الناس بل هذا من جنس قول القائلين إن علياً فى السحاب ، وإن محمد بن الحنفية في جبال رضوى ، وإن محمد بن الحسن بسرداب سامرى ، وإن الحاكم بجبل مصر ، وإن الأبدال الأربعين رجال الغيب بجبل لبنان ، فكل هذا ونحوه من قول أهل الإفك والبهتان ؛ نعم قد تخرق العادة فى حق الشخص ، فيغيب تارة عن أبصار الناس إما لدفع عدو عنه ، وإما لغير ذلك ، وأما أنه يكون هكذا طول عمره فباطل ، نعم ! يكون نور قلبه وهدى فؤاده وما فيه من أسرار الله تعالى وأماناته وأنواره ، ومعرفته غيباً عن أعين الناس ، ويكون صلاحه وولايته غيباً عن

أكثر النـاس ، فهذا هو الواقع ، وأسرار الحق بينـه وبين أوليـائه ، وأكثر الناس لا يعلمون ، وقد بينا بطلان اسم الغوث مطلقاً ، واندرج فى ذلك غوث العجم ومكة والغوث السابع .

وكذا لفظ « خاتم الأولياء » لفظ باطل لا أصـل له ، وأول من ذكره محمد بن عـلي الحكيم الترمذي ، وقد انتحله طائفة كل منهم يدعى أنه خاتم الأولياء : كابن حمويه وابن عربي وبعض الشيوخ الضالين بدمشق وغيرها ، وكل منهم يدعى أنه أفضل من النبي عليه السلام من بعض الوجوه ، إلى غير ذلك من الكفر والبهتان ، وكل ذلك طمعـاً في رياسة خاتم الأولياء لما فاتتهم رياسة خاتم الأنبياء ، وقد غلطوا : فإن خاتم الأنبياء إنما كان أفضلهم للأدلة الدالة على ذلك ، وليس كذلك خاتم الأولياء ، فإن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه ، ثم عمر رضي الله عنه ، ثم عثمان رضي الله عنه، ثم علي رضي الله عنـه ، وخير قرونهـا القرن الذي بعث فيـه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وخاتم الأولياء فى الحقيقـة آخر مؤمن تقي يكـون فى النـاس ، وليس ذلـك بخـير الأوليـاء ، ولا أفضلهـم بل خيرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق رضي الله تعـالى عنه ، ثم عمر : اللذان ما طلعت شمس ولا غربت على أحـد بعـد النبيين والمرسلين أفضل منهما .

قال شيخ الإسلام

قدس الله روحه



الحمـد لله رب العـالمين ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله رب السموات والأرضين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليما دائماً إلى يوم الدين [1]

(أما بعد) فقد كتبت ما حضرني ذكره فى المشهد الكبير بقصر الإمارة والميدان بحضرة الخلق من الأمراء والكتاب والعلمـاء والفقراء العامـة وغيرهم فى أمر « البطائحية » يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة خمس ، لتشوف الهمم إلى معرفة ذلك وحرص الناس على الاطلاع عليه ، فإن من كان غائباً عن ذلك قد يسمع بعض أطراف الواقعـة ،

---

(١) مناظرة ابن تيمية لدجاجلة البطائحية .

ومن شهدها فقد رأى وسمع ما رأى وسمع ، ومن الحاضرين من سمع ورأى ما لم يسمع غيره ويره لانتشار هذه الواقعة العظيمة ، ولما حصل بها من عز الدين ، وظهور كلمته العليا ، وقهر الناس على متابعة الكتاب والسنة ، وظهور زيف من خرج عن ذلك من أهل البدع المضلة ، والأحوال الفاسدة والتلبيس على المسلمين .

وقد كتبت فى غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء « البطائحية » ، وطريقهم وطريق (الشيخ أحمد بن الرفاعى) وحاله ، وما وافقوا فيه المسلمين وما خالفوهم ؛ ليتبين ما دخلوا فيه من دين الإسلام وما خرجوا فيه عن دين الإسلام ؛ فإن ذلك يطول وصفه في هذا الموضع ، وإنما كتبت هنا ما حضرنى ذكره من حكاية هذه الواقعة المشهورة فى مناظرتهم ومقابلتهم .

وذلك أنى كنت أعلم من حالهم بما قد ذكرته فى غير هذا الموضع ـــ وهو أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك ويوجد فى بعضهم التعبد والتأله والوجد والمحبة والزهد والفقر والتواضع ولين الجانب والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة والكشف والتصرف ونحو ذلك ما يوجد ـــ فيوجد أيضاً فى بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر ، ومن الغلو والبدع فى الإسلام والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول ، والاستخفاف بشريعة الإسلام ، والكذب والتلبيس ،

وإظهـار المخارق البـاطلة وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله ما يوجد . . . .

وقد تقدمت لي معهم وقائع متعددة بينت فيهـا لمن خاطبته منهم ومن غيرهم بعض مافيهم من حق وباطـل ، وأحوالهم التى يسمونهـا الإشـارات ، وتاب منهم جماعة ، وأدب منهم جماعـة من شيوخهم ، وبينت صورة ما يظهرونه من المخاريق : مثل ملابسة النار والحيـات ، وإظهار الدم ، واللاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغـير ذلك ، وإن عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة ، وأراد غير مرة منهم قوم إظهار ذلك فلما رأوا معارضتى لهم رجعوا ودخـلوا على أن أسترهم فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة ، حتى قال لي شيخ منهم فى مجلس عام فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين لما عارضتهم بأنى أدخل معكم النار بعد أن نغتسل بمـا يذهب الحيلة ، ومن احترق كان مغلوبا ، فلمـا رأوا الصدق أمسكوا عن ذلك .

وحكى ذلك الشيخ أنه كان مرة عند بعض أمراء التتر بالمشرق ، وكان له صنم يعبده ، قال : فقال لي : هذا الصنم يأكل من هـذا الطعام كل يوم ويبقى أثر الأكل فى الطعـام بينا يرى فيه ! ! فأنكرت ذلك ، فقـال لي إن كان يأكل أنت تمـوت ؟ فقلت نعـم ، قال فأقمت عنده إلى نصف النهار ولم يظهر فى الطعام أثر ! فاستعظم ذلك

التتري وأقسم بأيمان مغلظة أنه كل يوم يرى فيه أثر الأكل ، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك . فقلت لهذا الشيخ : أنا أبين لك سبب ذلك . ذلك التتري كافر مشرك ، ولصنمه شيطان يغويه بما يظهره من الأثر فى الطعام ، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك ، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتتري بالنسبة إلى أمثالك ، فالتتري وأمثاله سود ، وأهل الاسلام المحض بيض ، وأنتم بلق فيكم سواد وبياض . فأعجب هذا المثل من كان حاضراً ! ! !

وقلت لهم فى مجلس آخر لما قالوا تريد أن نظهر هذه الإشارات ؟ قلت : إن عملتموها بحضور من ليس من أهل الشأن : من الأعراب والفلاحين ، أو الأتراك أو العامة أو جمهور المتفقهة والمتفقرة والمتصوفة — لم يحسب لكم ذلك . فمن معه ذهب فليأت به إلى سوق الصرف إلى عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش ومن الصفر ؛ لا يذهب إلى عند أهل الجهل بذلك . فقالوا لي : لا نعمل هذا إلا أن تكون همتك معنا ، فقلت : همتي ليست معكم ؛ بل أنا معارض لكم مانع لكم ؛ لأنكم تقصدون بذلك إبطال شريعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن كان لكم قدرة على إظهار ذلك فافعلوا . فانقلبوا صاغرين .

فلما كان قبل هذه الواقعة بمدة كان يدخل منهم جماعة مع شيخ لهم من شيوخ البر ، مطوقين بأغلال الحديد فى أعناقهم ، وهو وأتباعه معروفون بأمور ، وكان يحضر عندي مرات فأخاطبه بالتى هي أحسن ؛ فلما ذكر الناس ما يظهرونه من الشعار المبتدع الذي يتميزون به عن المسلمين ، ويتخذونه عبادة وديناً يوهمون به الناس أن هـذا لله سر من أسرارهم ، وإنه سيماء أهل الموهبة الإلهية السالكين طريقهم ـــ أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه ـــ خاطبته فى ذلك بالمسجد الجامع ، وقلت هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ، ولا فعل ذلك أحد من سلف هذه الأمة ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم ، ولا يجوز التعبد بذلك ، ولا التقرب به إلى الله تعالى لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة ، ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرهه من كرهه من العلماء للحديث المروي فى ذلك وهو أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رأى على رجل خاتماً من حديد فقال « مالي أرى عليك حلية أهل النار » . وقد وصف الله تعالى أهل النار بأن فى أعناقهم الأغلال ، فالتشبه بأهل النار من المنكرات وقال بعض الناس قد ثبت فى الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث الرؤيا قال فى آخره « أحب القيد وأكره الغل . القيد ثبات فى الدين » فإذا كان مكروهاً في المنام فكيف فى اليقظة ؟! .

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحواً منه مع

زيادة ، وخوفته من عاقبة الإصرار على البدعة ، وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله ، ونحو ذلك من الكلام الذي نسيت أكثره لبعد عهدي به . وذلك أن الأمور التى ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين ، ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك ، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيراً عند الله وقربة إليه ، ولا أن يجعل شعاراً للتائبين المريدين وجه الله ، الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم .

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به ، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات ، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله ، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها ، فلا حرام إلا ما حرمه الله ؛ ولا دين إلا ما شرعه الله ؛ ولهذا عظم ذم الله فى القرآن لمن شرع ديناً لم يأذن الله به ، ولمن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه فإذا كان هذا فى المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات ؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر ، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه ؛ بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره ، وعند آخرين لا شيء عليه ، فلا

يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة [طاعة وعبادة] .

ونحو ذلك العهود التى تتخذ على الناس لالتزام طريقة شيخ معين كعهود أهل « الفتوة » و « رماة البندق » ونحو ذلك ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله إلا ما كان ديناً وطاعة لله ورسوله فى شرع الله ؛ لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث في ذلك ؛ ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البدع إلى ما هو خير منها من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم واتباع الكتاب والسنة ؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل : إنه قربة وطاعة وبر وطريق إلى الله واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك ، وما علم باتفاق الأمة أنه ليس بواجب ولا مستحب ولا قربة لم يجز أن يعتقد أو يقال إنه قربة وطاعة .

فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب بــه إلى الله ، ولا التعبد به ولا اتخاذه دينا ولا عمله من الحسنات ، فــلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول ، ولا بإرادة وعمل .

وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعباد يرون الشيء

إذا لم يكن محرما لا ينهى عنه ؛ بل يقال إنه جائز ، ولا يفرقون بين اتخاذه دينا وطاعـة وبراً ، وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضة ، ومعـلوم أن اتخاذه دينا بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما أو بالقول أو بالعمل أو بهما من أعظم المحرمات وأكبر السيئات ، وهذا من البدع المنـكرات التى هي أعظم من المعاصي التى يعلم أنها معاصي وسيئات .

فصـــــل

فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهـم الإصرار عـلى الابتداع فى الدين ، وإظهار ما يخالف شرعة المسلمين ، ويطلبون الإيقاع بهم ، وأنا أسلك مسلك الرفق والأناة ، وأنتظر الرجوع والفيئة ، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) لمسجد الجامع . وكان قد كتب إلي كتابا بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار ، وعتب وآثار ، وهو كلام باطـل لا تقوم به حجة ، بل إما أحاديث موضوعة ، أو إسرائيليات غير مشروعة ، وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل .

فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب . فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك وحضر عنـدنا منهم شخص فنزعنـا الغل من عنقـه ،

وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ ؛ ولهذا غالب وجدهم هوى مطلق لا يدرون من يعبدون، وفيهم شبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾

ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع أهل الأهواء .

فحملهم هواهم على أن تجمعوا تجمع الأحزاب ، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب ، بالأحوال التى يعدونها للغلاب . فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونتفق على اتباع سبيله — فخرجوا من المسجد الجامع فى جموعهم إلى قصر الإمارة ، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم ، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو — على ما ذكر لي — وهم من الصياح والاضطراب ، على أمر من أعجب العجاب . فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعذرة ، وطلباً للبيان والتبصرة ، ورجاء المنفعة والتذكرة . فعمدوا إلى القصر مرة ثانية ، وذكر لي أنهم قدموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد ، واضطراب الرءوس والأعضاء ، والتقلب فى نهر بردى ، وإظهار التوله

الذي يخيلون به على الردى ، وإبراز مايدعونه من الحال والمحال ، الذى يسلمه إليهم من أضلوا من الجهال .

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر ، وسأل عنهم فقيل له هم مشتكون ، فقال ليدخل بعضهم ، فدخل شيخهم ، وأظهر من الشكوى عليّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلاماً كثيراً لم يبلغني جميعه ؛ لكن حدثنى من كان حاضراً أن الأمير قال لهم : فهذا الذي يقوله من عنده أو يقوله عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا بل يقوله عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال فأي شيء يقال له ؟ قالوا : نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا ، قال فنسمع كلامه فمن كان الحق معه نصرناه ، قالوا نريد أن تشد منا ، قال : لا ، ولكن أشد من الحق سواء كان معكم أو معه ، قالوا : ولا بد من حضوره ؟ قال : نعم ، فكرروا ذلك فأمر بإخراجهم ، فأرسل إلي بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم وعرفني بصورة الحال وأنه يريد كشف أمر هؤلاء .

فلما علمت ذلك ألقي في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين ، وكشف حال أهل النفاق المبتدعين ، لانتشارهم فى أقطار الأرضين ، وما أحببت البغي عليهم والعدوان ، ولا أن أسلك معهم إلا أبلغ ما يمكن من الإحسان ، فأرسلت إليهم من عرفهم بصورة

الحال ، وإني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال ، وكثر فيكم القيل والقال ، وإن من قعد أو قام قدام رماح أهل الإيمان ، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان . فجاء الرسول وأخبر أنهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار ، الذين يعرفون حقيقة الأسرار ، وأشاروا عليهم بموافقة ما أمروا به من اتباع الشريعة ، والخروج عما ينكر عليهم من البدع الشنيعة . وقال شيخهم الذي يسيح بأقطار الأرض كبلاد الترك ومصر وغيرها : أحوالنا تظهر عند التتار لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله . وأنهم نزعوا الأغلال من الأعناق ، وأجابوا إلى الوفاق .

ثم ذكر لي أنه جاءهم بعض أكابر غلمان المطاع وذكر أنه لا بد من حضورهم لموعد الاجتماع . فاستخرت الله تعالى تلك الليلة واستعنته ، واستنصرته واستهديته ، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك ، حتى ألقي في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك ، وأنها تكون برداً وسلاماً على من اتبع ملة الخليل ، وأنها تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل . وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم إمام الحنفاء بنواحي البطائح منضمين إلى من يضاهيهم من نصارى الدهماء .

وبين الصابئة ومن ضل من العباد المنتسبين إلى هذا الدين ، نسب يعرفه من عرف الحق المبين ، فالغالية من القرامطة والباطنية

كالنصيرية والإسماعيلية . يخرجون إلى مشابهة الصابئة الفلاسفة ، ثم إلى الإشراك ، ثم إلى جحود الحق تعالى . ومن شركهم الغلو فى البشر ، والابتداع فى العبادات ، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك بحسب ما هو به لائق ،كالملحدين من أهل الاتحاد ، والغالية من أصناف العباد .

فلما أصبحنا ذهبت للميعاد ، وما أحببت أن أستصحب أحداً للإسعاد ، لكن ذهب أيضاً بعض من كان حاضراً من الأصحاب ، والله هو المسبب لجميع الأسباب . وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء ، وقالوا أنواعاً مما جرت به عادتهم من التلبيس والافتراء ، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء ، مثل زعمهم أن لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء ، وأن لهم طريقاً لا يعرفها أحد من العلماء . وأن شيخهم هو فى المشايخ كالخليفة ، وأنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المنيفة ، وأن المنكر عليهم هو آخذ بالشرع الظاهر ، غير واصل إلى الحقائق والسرائر . وأن لهم طريقاً وله طريق . وهم الواصلون إلى كنه التحقيق ، وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق .

وكانوا لفرط انتشارهم فى البلاد ، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد ، لخفاء نور الإسلام ، واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام ،

وطموس آثار الرسول فى أكثر الأمصار ، ودروس حقيقة الإسلام فى دولة التتار ، لهم فى القلوب موقع هائل ، ولهم فيهم مـن الاعتقاد مالا يزول بقول قائل .

قال المخبر : فغـدا أولئك الأمراء الأكابر ، وخاطبوا فيهـم نائب السلطان بتعظيم أمرهم الباهر ، وذكر لي أنواعا مـن الخطاب ، والله تعـالى أعلم بحقيقة الصواب ، والأمير مستشعر ظهور الحق عند التحقيق . فأعاد الرسول ، إلي مرة ثانية فبلغه أنا فى الطريق ، وكان كثير من أهل البدع الأضداد ، كطوائف من المتفقهة والمتفقرة وأتباع أهل الاتحاد . مجدين فى نصرهم بحسب مقدورهم ، مجهزين لمـن يعينهم فى حضورهم . فلما حضرت وجدت النفوس فى غاية الشوق إلى هذا الاجتماع ، متطلعين إلى ما سيكون طالبين للاطلاع . فذكر لي نائب السلطان وغيره من الأمراء بعض ما ذكروه من الأقوال المشتملة على الافتراء . وقال إنهم قالوا : إنك طلبت منهم الامتحان ، وأن يحموا الأطواق ناراً ويلبسوها فقلت هذا من البهتان .

وها أنا ذا أصف ما كان . قلت للأمير : نحن لا نستحل أن نأمر أحداً بأن يدخل ناراً ، ولا تجوز طاعة من يأمر بدخول النار . وفى ذلك الحديث الصحيح . وهؤلاء يكذبون فى ذلك ، وهم كذابون مبتدعون قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما الله به عليـم . وذكرت

تلبيسهم على طوائف من الأمراء ، وأنهم لبسوا على الأمير المعروف بالأيدمرى . وعلى قفجق نائب السلطنة وعلى غيرها ، وقد لبسوا أيضاً على الملك العادل كتغا فى ملكه ، وفى حالة ولاية حماه ، وعلى أمير السلاح أجل أمير بديار مصر ، وضاق المجلس عن حكاية جميع تلبيسهم . فذكرت تلبيسهم على الأيدمرى ، وأنهم كانوا يرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة ، ثم يخبرونه بها على طريق المكاشفة ، ووعدوه بالملك ، وأنهم وعدوه أن يروه رجال الغيب ، فصنعوا خشباً طوالاً وجعلوا عليها من يمشي كهيئة الذي يلعب بأكر الزجاج ، فجعلوا يمشون على جبل المزة وذاك يرى من بعيد قوماً يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض وأخذوا منه مالاً كثيراً ثم انكشف له أمرهم .

قلت للأمير : وولده هو الذي فى حلقة الجيش يعلم ذلك ، وهو ممن حدثني بهذه القصة . وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلاً فى القبر يتكلم وأوهموه أن الموتى تتكلم ، وأتوا به فى مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعرانى الذي بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته ، وقالوا إنه طلب منه جملة من المال ؛ فقال قفجق الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كله ، وتقرب قفجق منه وجذب الشعر فانقلع الجلد الذى ألصقوه على جلده من جلد الماعز

فذكرت للأمير هذا ؛ ولهذا قيل لي إنه لما انقضى المجلس وانكشف حالهم للناس كتب أصحاب قفجق إليه كتابا وهو نائب السلطنة بحماه يخبره بصورة ما جرى .

وذكرت للأمير أنهم مبتدعون بأنواع من البدع مثل الأغلال ونحوها وأنا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة ، فذكر الأمير حديث البدعة وسألني عنه ، فذكرت حديث العرباض بن سارية ، وحديث جابر بن عبد الله ، وقد ذكرتهما بعد ذلك بالمجلس العام كما سأذكره .

قلت للأمير : أنا ما امتحنت هؤلاء ، لكن هم يزعمون أن لهم أحوالا يدخلون بها النار ، وأن أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك ، ويقولون لنا هذه الأحوال التى يعجز عنها أهل الشرع ليس لهم أن يعترضوا علينا ، بل يسلم إلينا ما نحن عليه ــ سواء وافق الشرع أو خالفه ــ وأنا قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله ، وكان مغلوبا ، وذلك بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار .

فقال الأمير ولم ذاك ؟ قلت : لأنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع ، وباطن قشر النارنج ، وحجر الطلق وغير ذلك

من الحيل المعروفة لهم ، وأنا لا أطلي جلدى بشيء فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق . فاستعظم الأمير هجومى على النار ، وقال : أتفعل ذلك ؟ فقلت له : نعم ! قد استخرت الله فى ذلك وألقى فى قلبي أن أفعله ، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء ؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المتبعين له باطنا وظاهراً لحجة أو حاجة ، فالحجة لإقامة دين الله ، والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله ، وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التى يزعمون أنها تبطل دين الله وشرعه وجب علينا أن ننصر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونقوم فى نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا ، فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا الله به من الآيات .

وليعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة لما أظهروا سحرهم أيد الله موسى بالعصا التى ابتلعت سحرهم . فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السماط بذلك ، وفرح بذلك ، وكأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال لا يقدر أحد على رده ، وسمعته يخاطب الأمير الكبير الذي قدم من مصر الحاج بهادر وأنا جالس بينهما على رأس السماط بالتركي ما فهمته منه إلا أنه قال اليوم ترى حربا عظيما ، ولعل ذلك كان

جوابا لمن كان خاطبه فيهم على ماقيل .

وحضر شيوخهم الأكابر فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح وإطفاء هذه القضية ويترفقون ، فقال الأمير ، إنما يكون الصلح بعد ظهور الحق ، وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر أنا وهو وبها در فسمعته يذكر له أيوب الحمال بمصر والمولهين ونحو ذلك ، فدل ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة ، وأن لهم فيهم ظناً حسناً والله أعلم بحقيقة الحال ؛ فإنه ذكر لي ذلك .

وكان الأمير أحب أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده ، وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه ، فأمر ببساط يبسط فى الميدان . وقد قدم البطائحية وهم جماعة كثيرون ، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء وحركة الرؤوس والأعضاء ، والطفر والحبو والتقلب ، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات ، والحركات الخارجة عن العادات ، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه فى قوله (وَٱقۡصِدۡ فِى مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ) .

فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم ، وحضر شيخهم الأول المشتكي ، وشيخ آخر

يسمى نفسه خليفة سيده أحمد ، ويركب بعلمين ، وهم يسمونه : عبد الله الكذاب ، ولم أكن أعرف ذلك . وكان من مدة قد قدم علي منهم شيخ بصورة لطيفة وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيته طلبته ولم أتفطن لكذبه حتى فارقني ، فبقي فى نفسي أن هذا خفي على تلبيسه إلى أن غاب ، وما يكاد يخفى علي تلبيس أحد ، بل أدركه فى أول الأمر فبقي ذلك فى نفسي ولم أره قط إلى حين ناظرته ، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بى قديما فتعجبت من حسن صنع الله أنه هتكه فى أعظم مشهد يكون حيث كتم تلبيسه بيني وبينه .

فلما حضروا تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة ، وإنا مجيبون إلى ما طلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع ، ومتبعون للشريعة . (فقلت) أما التوبة فمقبولة . قال الله تعالى : (غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ) هذه إلى جنب هذه . وقال تعالى (نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ) .

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للبسهم الأطواق وذكر أن وهب ابن منبه روى أنه كان فى بني إسرائيل عابد وأنه جعل فى عنقه طوقا فى حكاية من حكايات بني إسرائيل لا تثبت .

(فقلت) لهم : ليس لنا أن نتعبد فى ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا ، قد روى الإمام أحمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال : « أمتهوكون يا ابن الخطاب ؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم » وفى مراسيل أبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى مع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب فقال « كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتابا غير كتابهم أنزل إلى نبي غير نبيهم » وأنزل الله تعالى (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ)

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعنا ، وإنما علينا أن نتبع ما أنزل علينا من ربنا ونتبع الشرعة والمنهاج الذي بعث الله به إلينا رسولنا . كما قال تعالى : (فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) . فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بنى إسرائيل فى حكاية لا تعلم صحتها ؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل ؟! (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ) هات ما فى القرآن وما فى الأحاديث الصحاح كالبخاري ومسلم وذكرت هذا وشبهه بكيفية قوية .

فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير : نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قوم شافعية .

(فقلت) له هذا غير مستحب ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين ؛ بل كلهم ينهى عن التعبد به ويعده بدعة ، وهذا الشيخ كمال الدين بن الزملكاني مفتى الشافعية ودعوته وقلت : ياكمال الدين ! ما تقول فى هذا ؟ فقال هذا بدعة غير مستحبة بل مكروهة ، أو كما قال . وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من العلماء بذلك .

(وقلت) ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ولا الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأشك هل تكلمت هنا فى قصة موسى والخضر ؛ فإنى تكلمت بكلام بعد عهدي به .

فانتدب ذلك الشيخ « عبد الله » ورفع صوته . وقال : نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها ، وذكر كلاما لم أضبط لفظه : مثل المجالس والمدارس والباطن والظاهر ؛ ومضمونه أن لنا الباطن ولغيرنا الظاهر ، وأن لنا أمراً لا يقف [1] عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا ،

---

(١) نسخة : لا يقدر .

(فقلت) له ــ ورفعت صوتى وغضبت ــ : الباطن والظاهر والمجالس والمدارس ، والشريعة والحقائق ، كل هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا من المشايخ والفقراء ، ولا من الملوك والأمراء ، ولا من العلماء والقضاة وغيرهم ؛ بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وذكرت هذا ونحوه .

فقال ــ ورفع صوته ــ : نحن لنا الأحوال وكذا وكذا . وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها ، واختصاصهم بها ، وأنهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها .

فقلت ــ ورفعت صوتي وغضبت ــ أنا أخاطب كل أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها أي شيء فعلوه فى النار فأنا أصنع مثل ما تصنعون ، ومن احترق فهو مغلوب ؛ وربما قلت فعليه لعنة الله ؛ ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار ؛ فسألني الأمراء والناس عن ذلك ؟ فقلت : لأن لهم حيلا فى الاتصال بالنار يصنعونها من أشياء : من دهن الضفادع . وقشر النارنج . وحجر الطلق . فضج الناس بذلك . فأخذ يظهر القدرة على ذلك فقال : أنا وأنت نلف فى بارية بعد أن تطلى جسومنا بالكبريت . (فقلت) فقم ؛

وأخذت أكرر عليه فى القيام إلى ذلك ، فمد يده يظهر خلع القميص فقلت : لا ! حتى تغتسل في الماء الحار والخل ، فأظهر الوهم على عادتهم فقــال من كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو قال حزمــة حطب . فقلت هذا تطويل وتفريق للجمع ؛ ولا يحصل به مقصود ؛ بل قنديل يوقد وأدخل إصبعي وإصبعك فيه بعد الغسل ؛ ومن احترقت إصبعه فعليــه لعنة الله ؛ أو قلت : فهو مغلوب . فلما قلت ذلك تغير وذل . وذكر لي أن وجهه اصفر .

ثم قلت لهم : ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منهــا سالمين حقيقة ، ولو طرتم فى الهواء ؛ ومشيتم على الماء ؛ ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع . ولا على إبطــال الشرع ؛ فإن الدجال الأكبر يقــول للسماء أمطري فتمطر ؛ وللأرض أنبتى فتنبت ، وللخربة أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها تتبعه ؛ ويقتل رجلا ثم يمشي بين شقيه ، ثم يقول له قم فيقوم ، ومع هــذا فهو دجال كذاب ملعون ، لعنه الله ، ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقع عظيم في القلوب .

وذكرت قول أبي يزيد البسطامي : لو رأيتم الرجل يطير فى الهواء ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عنــد الأوامر والنواهي ، وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعي أتدري

ما قال صاحبنـا يعني الليث بن سعد ؟ قال : لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء فلا تغتر به . فقال الشافعي : لقد قصر الليث لو رأيت صاحب هوى يطير فى الهواء فلا تغتر به ؛ وتكلمت في هـذا ونحوه بكلام بعد عهدي به . ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير فى طلب الصلح وجعلت ألح عليه فى إظهار ما ادعوه من النار مرة بعد مرة وهم لا يجيبون . وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين فى البلد والفقراء المولهون منهـم ، وهم عدد كثـير ، والنـاس يضجون فى الميدان ، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها .

فذكر بعض الحاضرين أن الناس قالوا ما مضمونه : (فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ) وذكروا أيضاً أن هذا الشيخ يسمى عبد الله الكذاب . وأنه الذي قصدك مرة فأعطيته ثلاثين درهما ، فقلت : ظهر لي حـين أخذ الدراهم وذهب أنـه ملبس ، وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها أنه أدخل النـار فى لحيته قدام صاحب حماة ، ولما فارقني وقع فى قلبي أن لحيتـه مدهونة . وأنه دخل إلى الروم واستحوذ عليهم .

فلما ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم وتلبيسهم ، وتبين للأمراء الذين كانوا يشدون منهم أنهـم مبطلون رجعوا ، وتخاطب الحاج بهـادر ونائب السلطان وغيرهما بصورة الحال ، وعرفوا حقيقة المحال ؛ وقمنا إلى

داخل ودخلنا ، وقد طلبوا التوبة عما مضى ، وسألني الأمير عما تطلب منهم فقلت : متابعة الكتاب والسنة مثل أن [لا] يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعها ، أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمها ونحو ذلك ، أو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمها ، ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنة التى توجب الكفر . وقد توجب القتل دون الكفر ، وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه .

فقالوا : نحن ملتزمون الكتاب والسنة أتنكر علينا غير الأطواق ؟ نحن نخلعها . فقلت : الأطواق وغير الأطواق ، ليس المقصود شيئاً معيناً ؛ وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم . فقال الأمير فأي شيء الذي يلزمهم من الكتاب والسنة ؟ فقلت : حكم الكتاب والسنة كثير لا يمكن ذكره فى هذا المجلس ، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً ، ومن خرج عنه ضربت عنقه ــ وكرر ذلك وأشار بيده إلى ناحية الميدان ــ وكان المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً فى حق جميع الناس ؛ فإن هذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمم عليه ، فيتقرر عند المقاتلة ، وأهل الديوان ، والعلماء والعباد ، وهؤلاء وولاة الأمور ــ أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه .

قلت : ومن ذلك الصلوات الخمس فى مواقيتها كما أمر الله ورسوله ؛ فإن من هؤلاء من لا يصلي ، ومنهم من يتكلم فى صلاته ، حتى إنهم بالأمس بعد أن اشتكوا علي فى عصر الجمعة جعل أحدهم يقول فى صلب الصلاة : يا سيدي أحمد شيء لله . وهذا مع أنه مبطل للصلاة فهو شرك بالله ودعاء لغيره فى حال مناجاته التى أمرنا أن نقول فيها : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾وهذا قد فعل بالأمس بحضرة شيخهم فأمر قائل ذلك لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار على عادتهم في صغير الذنوب . ولم يأمره بإعادة الصلاة . وكذلك يصيحون فى الصلاة صياحاً عظيماً وهذا منكر يبطل الصلاة .

فقال : هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس .

فقلت : العطاس من الله والله يحب العطاس ويكره التثاؤب ولا يملك أحدهم دفعه ، وأما هذا الصياح فهو من الشيطان ، وهو باختيارهم وتكلفهم ، ويقدرون على دفعه ، ولقد حدثني بعض الخبيرين بهم بعد المجلس أنهم يفعلون فى الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى : مثل قول أحدهم أنا على بطن امرأة الإمام ، وقول الآخر كذا وكذا من الإمام ، ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة ، وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر ترك الصلاة يصلون بالنوبة ، وأنا أعلم أنهم متولون للشياطين ليسوا

مغلوبين على ذلك كما يغلب الرجل فى بعض الأوقات على صيحة أو بكاء في الصلاة أو غيرها .

فلما أظهروا التزام الكتاب والسنة وجموعهم بالميدان بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية يظهرون أحوالهم (قلت له) أهذا موافق للكتاب والسنة ؟ فقال : هذا من الله حال يرد عليهم ، فقلت : هذا من الشيطان الرجيم لم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ولا أحبه الله ولا رسوله ، فقال : ما فى السموات والأرض حركة ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وإرادته ، فقلت له : هذا من باب القضاء والقدر ، وهكذا كل ما فى العالم من كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئته وإرادته ، وليس ذلك بحجة لأحد فى فعله ؛ بل ذلك مما زينه الشيطان وسخطه الرحمن .

فقال : فبأي شيء تبطل هذه الأحوال . فقلت : بهذه السياط الشرعية . فأعجب الأمير وضحك ، وقال : إي والله ! بالسياط الشرعية ، تبطل هذه الأحوال الشيطانية ، كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ، ومن لم يجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية . وأمسكت سيف الأمير وقلت : هذا نائب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلامه ، وهذا السيف سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله ، وأعاد الأمير

هذا الكلام ، وأخذ بعضهم يقول : فاليهود والنصارى يُقرُّون ولا نقر نحن ؟ . فقلت : اليهود والنصارى يقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دورهم ، والمبتدع لا يقر على بدعته . فأفحموا لذلك .

و « حقيقة الأمر » أن من أظهر منكراً فى دار الإسلام لم يقر على ذلك ، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يقر ، ولا يقر من أظهر الفجور ، وكذلك أهل الذمة لا يقرون على إظهار منكرات دينهم ، ومن سواهم فإن كان مسلماً أخذ بواجبات الإسلام وترك محرماته ، وإن لم يكن مسلماً ولا ذمياً فهو إما مرتد وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة .

وذكرت ذم « المبتدعة » فقلت روى مسلم فى صحيحه عن جعفر ابن محمد الصادق عن أبيه أبي جعفر الباقر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته « إن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . وفى السنن عن العرباض بن سارية ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل يا رسول كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال « أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين

من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » وفى رواية « وكل ضلالة فى النار » .

فقال لي : البدعة مثل الزنا ، وروى حديثاً فى ذم الزنا ، فقلت هذا حديث موضوع على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والزنا معصية ، والبدعة شر من المعصية ، كما قال سفيان الثوري : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها . وكان قد قال بعضهم : نحن نتوب الناس ، فقلت : مما ذا تتوبونهم ؟ قال : من قطع الطريق ، والسرقة ، ونحو ذلك . فقلت : حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم ؛ فإنهم كانوا فساقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه ، ويرجون رحمة الله ، ويتوبون إليه ، أو ينوون التوبة ، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام ، يحبون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله ، وبينت أن هذه البدع التى هم وغيرهم عليها شر من المعاصي .

قلت مخاطباً للأمير والحاضرين : أما المعاصي فمثل ماروى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلا كان يدعى حماراً ، وكان يشرب الخمر ، وكان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان كلما أتي به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جلده الحد فلعنه رجل مرة . وقال :

لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ ! فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » . قلت : فهذا رجل كثير الشرب للخمر ، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك ونهى عن لعنه .

وأما المبتدع فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما — دخل حديث بعضهم فى بعض — أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم ، فجاءه رجل ناتئ الجبين كث اللحية ، محلوق الرأس ، بين عينيه أثر السجود ، وقال ما قال . فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « يخرج من ضئضيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » وفى رواية ؛ « لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل » وفى رواية « شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه » .

« قلت » : فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وماهم عليه من العبادة والزهادة أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهم ، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته ، وأظن أنى ذكرت قول الشافعي : لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتلى بشيء من هذه الأهواء . فلما ظهر قبح البدع فى الإسلام ، وأنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وأنهم مبتدعون بدعا منكرة فيكون حالهم أسوأ من حال الزانى والسارق وشارب الخمر أخذ شيخهم عبد الله يقول : يامولانا لا تتعرض لهذا الجناب العزيز — يعني أتباع أحمد ابن الرفاعي — فقلت منكراً بكلام غليظ : ويحك ؛ أي شيء هو الجناب العزيز ، وجناب من خالفه أولى بالعز ياذو الزرجنة [1] تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله ، فقال : يامولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم ، فقلت : مثل ما أحرقني الرافضة لما قصدت الصعود إليهم وصار جميع الناس يخوفونى منهم ومن شرهم ، ويقول أصحابهم إن لهم سراً مع الله فنصر الله وأعان عليهم . وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسره الله في أمر غزو الرافضة بالجبل .

وقلت لهم : يا شبه الرافضة يابيت الكذب — فإن فيهم من الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة فى بعض صفاتهم ، وفيهم من الكذب ماقد يقاربون به الرافضة فى ذلك ، أو يساوونهم ،

---

(١) كذا بالأصل .

أو يزيدون عليهم ، فإنهم من أكذب الطوائف حتى قيل فيهم : لاتقولوا أكذب من اليهود على الله ، ولكن قولوا أكذب من الأحمدية على شيخهم ، وقلت لهم : أنا كافر بكم وبأحوالكم (فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ) .

ولما رددت عليهم الأحاديث المكذوبة أخذوا يطلبون مني كتبا صحيحة ليهتدوا بها فبذلت لهم ذلك ، وأعيد الكلام أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه ، وأعاد الأمير هذا الكلام واستقر الكلام على ذلك . والحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

سئل شيخ الإسلام

وناصر السنة ، فريد الوقت ، وبحر العلوم، بقية المجتهدين ، وحجة المتأخرين ، تاج العارفين ، وقدوة المحققين ، رحلة الطالبين ، ونخبة الراسخين ، إمام الزاهدين ومنال المجتهدين ، الإمام الحجة النوراني ، والعالم المجتهد الربانى ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أدام الله علو قدره فى الدارين ، وجعله يتسنم ذروة الكمال مسرور القلب قرير العين ، عن « المرشدة » كيف كان أصلها وتأليفها ؟ وهل تجوز قراءتها أم لا ؟

فأجاب ـ رحمه الله تعالى ـ قائلا :

الحمد لله رب العالمين . أصل هذه : أنه وضعها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن التومرت ، الذي تلقب بالمهدي ، وكان قد ظهر فى المغرب فى أوائل المائة الخامسة من نحو مائتى سنة ، وكان قد دخل إلى بلاد العراق ، وتعلم طرفا من العلم ، وكان فيه طرف من الزهد والعبادة .

ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب ؛ إلى قوم من البربر .

وغيرهم : جهال لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء الله ، فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام ، واستجاز أن يظهر لهم أنواعا من الخاريق ، ليدعوهم بها إلى الدين ، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقواماً ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم ، ويشهدوا له بما طلبه منهم ، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي ، الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي يواطئ اسمه اسمه ، واسم أبيه اسم أبيه . وأنه الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت جوراً وظلما . وأن من اتبعه أفلح ، ومن خالفه خسر ، ونحو ذلك من الكلام . فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك ، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره .

ثم إن أولئك المقبورين يهدم عليهم القبور ليموتوا ، ولا يظهروا أمره ، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا ، وأنه يجوز له إظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه . وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا أخباره من هذه الحكايات أنواعا . وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه .

ومن الحكايات التي يأثرونها عنه أنه واطأ رجلاً على إظهار الجنون وكان ذلك عالماً يحفظ القرآن والحديث والفقه ، فظهر بصورة الجنون والناس لا يعرفونه إلا مجنوناً . ثم أصبح ذات يوم وهو عاقل يقرأ القرآن والحديث والفقه ، وزعم أنه علم ذلك في المنام ، وعوفي مما كان

به ، وربما قيل : إنه ذكر لهم أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه ذلك فصاروا يحسنون الظن بذلك الشخص ، وأنـه كان لهم يوم يسمونه يوم الفرقان ، فرق فيه بين أهل الجنة وأهل النار بزعمه ، فصـار كل من علموا أنه من أوليائهم جعلوه من أهل الجنـة ، وعصموا دمـه ، ومن علموا أنه من أعدائهم جعلوه من أهل النار ، فاستحلوا دمه ، واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية ، الذين كانوا من أهـل الكتـاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة ، يقرؤون القرآن والحـديث : كالصحيحين ، والموطأ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هـذه المقالة ، ولا يعرف عـن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم .

واستحل أيضاً أموالهم ، وغير ذلك مـن المحرمات بهـذا التأويل ونحوه ، مـن جنس ما كانت تستحله الجهمية المعطلة — كالفلاسفـة والمعتزلة ، وسائر نفاة الصفات — من أهل السنة والجماعة ، لما امتحنوا الناس فى « خلافة المأمون » وأظهروا القول بأن القرآن مخلوق ،وأن الله لا يرى فى الآخرة ، ونفوا أن يكون لله علم ، أو قـدرة أو كلام أو مشيئة ، أو شيء من الصفات القائمة بذاته .

وصار كل من وافقهم على هذا التعطيل عصموا دمه وماله ، وولوه الولايات وأعطوه الرزق من بيت المال ، وقبلوا شهادته وافتـدوه من

الأسر ومن لم يوافقهم على أن القرآن مخلوق وما يتبع ذلك من بدعهم قتلوه ، أو حبسوه أو ضربوه أو منعوه العطاء من بيت المال ، ولم يولوه ولاية ، ولم يقبلوا له شهادة ، ولم يفدوه من الكفار . يقولون : هذا مشبه ؛ هذا مجسم ، لقوله : إن الله يرى فى الآخرة ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله استوى على العرش ، ونحو ذلك . فدامت هذه المحنة على المسلمين بضع عشرة سنة ، فى أواخر خلافة المأمون ، وخلافة أخيه المعتصم ، والواثق بن المعتصم ، ثم إن الله تعالى كشف الغمة عن الأمة ، فى ولاية المتوكل على الله ، الذي جعل الله عامة خلفاء بنى العباس من ذريته دون ذرية الذين أقاموا المحنة لأهل السنة .

فأمر المتوكل برفع المحنة وإظهار الكتاب والسنة ، وأن يروى ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، من الإثبات النافى للتعطيل . وكان أولئك الجهمية المعطلة قد بلغ من تبديلهم للدين أنهم كانوا يكتبون على ستور الكعبة : ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم ولا يقولون : (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) وأنهم كانوا يمتحنون الناس بقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) فإذا قالوا وهو السميع البصير أنكروا عليهم ، ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير

تكييف ولا تمثيل . فلا ينفون عن الله ما أثبته لنفسه ، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء . لا فى ذاته ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله فكما أن ذاته لا تشبه الذوات ، فصفاته لا تشبه الصفات .

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل ، ونفي مجمل . وأعداء الرسل : الجهمية الفلاسفة ونحوهم وصفوه بنفي مفصل ، وإثبات مجمل . فإن الله سبحانه وتعالى أخبر فى كتابه بأنه : بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير ، وأنه حي قيوم ، وأنه عزيز حكيم ، وأنه غفور رحيم ، وأنه سميع بصير . وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين وأنه لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وأنه رضي عن المؤمنين ورضوا عنه ، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم ، وأنه إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه . وأنه كلم موسى تكليما ، وأن القرآن نزل به الروح الأمين من الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . كما قال : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ) وروح القدس هو جبريل كما قال فى الآية الأخرى : (قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) وقال تعالى : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ) وقال تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) وقال تعالى : (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ)

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ! إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ؛ فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟! قال : فيكشف الحجاب . فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ؛ وهي الزيادة » وقد استفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الصحاح أنه قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون فى رؤيته » و « إن الناس قالوا : يا رسول الله ؛ هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضامون فى رؤية الشمس صحواً ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا قال : فهل تضارون فى رؤية القمر صحواً ليس دونه سحاب ؟ قالوا : لا . قال : فإنكم سترون ربكم . كما ترون الشمس والقمر » فشبه صلى الله عليه وسلم الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي ؛ فإن العباد لا يحيطون بالله علماً ؛ ولا تدركه أبصارهم . كما قال تعالى : (لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ) .

وقد قال غير واحد : من السلف والعلماء إن « الإدراك » هو الإحاطة فالعباد يرون الله تعالى عياناً ولا يحيطون به . فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله .

وقال تعالى فى النفي : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) (فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا)

(هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا) . (وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ) فبين فى هذه الآيات أن الله لا كفو له ، ولا ند له ، ولا مثل له ولا سمي له ، فمن قال : إن علم الله كعلمي ، أو قدرته كقدرتي أو كلامه مثل كلامي ، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتى ومحبتى ورضائي وغضبي ، أو استواءه على العرش كاستوائي ، أو نزوله كنزولي ، أو إتيانه كإتيانى ، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه ، تعالى الله عما يقولون ، وهو ضال خبيث مبطل ، بل كافر .

ومن قال : إن الله ليس له علم ، ولا قدرة ولا كلام ، ولا مشيئة ، ولا سمع ولا بصر ، ولا محبة ولا رضى ، ولا غضب ، ولا استواء ، ولا إتيان ولا نزول فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، وألحد فى أسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر ؛ بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل ، كما قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها .

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى أخبرنا أن فى الجنة ماء ولبناً وخمراً وعسلا ولحماً وفاكهة وحريراً وذهباً وفضة ، وغير ذلك . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء فإذا

كانت المخلوقات فى الجنة توافق المخلوقات فى الدنيا فى الأسماء ، والحقائق ليست مثل الحقائق ، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه فى الاسم ؟ ! .

والله تعالى قد أخبر أنه سميع بصير ، وأخبر عن الإنسان أنه سميع بصير ، وليس هذا مثل هذا ، وأخبر أنه حي ، وعن بعض عباده أنه حي ، وليس هذا مثل هذا . وأخبر أنه رؤوف رحيم ، وأخبر عن نبيه أنه رؤوف رحيم ، وليس هذا مثل هذا . وأخبر أنه عليم حليم ، وأخبر عن بعض عباده بأنه عليم حليم ، وليس هذا مثل هذا . وسمى نفسه الملك ، وسمى بعض عباده الملك ، وليس هذا مثل هذا . وهذا كثير فى الكتاب والسنة ، فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب : مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، على هذا إثبات بلا تشبيه ، وتنزيه بلا تعطيل لا يقولون بقول أهل التعطيل ، نفاة الصفات ، ولا بقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوقات ، فهذه طريقة الرسل ، ومن آمن بهم .

وأما المخالفون للرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من المتفلسفة وأشباههم ، فيصفون الرب تعالى « بالصفات السلبية » ليس كذا ، ليس كذا ، ليس كذا ، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات ، بل بالسلب الذي يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكروه مطابقاً للمعدوم ، فلا يبقى

فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم ، وهم يقولون : إنه موجود ليس بمعدوم ، فيتناقضون ، يثبتونه من وجه ، ويجحدونه من وجه آخر . ويقولون : إنه وجود مطلق ، لا يتميز بصفة .

وقد علم الناس أن المطلق لا يكون موجوداً ، فإنه ليس فى الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين ، ولا يتميز عن غيره ، وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه ، فيقدر أمراً مطلقاً ، وإن كان لا حقيقة له فى الخارج ، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجوداً مبايناً لخلقه ؛ بل إما أن يجعلوه مطلقاً في ذهن الناس ، أو يجعلوه حالاً فى المخلوقات ، أو يقولون هو وجود المخلوقات .

ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات ، وخلقها فلم يدخل فيها ، ولم يدخلها فيه ، فليس فى مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم ـــ الذين امتحنوا المسلمين ، كما تقدم ـــ كانوا على هذا الضلال ، فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة ، ونصرهم . بقي هذا النفي فى نفوس كثير من أتباعهم ، فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية ، وتارة مع الجهمية الاتحادية ، وتارة يوافقونهم

على أنه وجود مطلق ، ولا يزيدون على ذلك .

وصاحب « المرشدة » كانت هذه عقيدته كما قد صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك ذكر فيه أن الله تعالى وجود مطلق ، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم .

ولهذا لم يذكر في « مرشدته » الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم ، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، وأهل الكلام : من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم ، ومشايخ التصوف والزهد ، وعلماء أهل الحديث فإن هؤلاء كلهم متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم ، قادر بقدرة . كما قال تعالى : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ) وقال تعالى : (لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ) . وقال تعالى : (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) . وقال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) وقال تعالى : (وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ) أي بقوة .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلمهم السورة من القرآن . يقول :

« إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة . ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر — ويسميه باسمه — خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدره لي ، ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي فى ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عنى واصرفنى عنه . واقدر لي الخير حيث كان . ثم رضنى به » .

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله تعالى يرى فى الآخرة ، وأن القرآن كلام الله .

فصاحب « المرشدة » لم يذكر فيها شيئاً من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة ، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم فى أهل الكبائر ، فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة . ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك فى العقائد المختصرة ، بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق ، وهو قول المتفلسفة والجهمية .

والشيعة ، ونحوهم ممن اتفقت طوائف أهل السنة والجماعة ، أهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطال قوله ، وتضليله .

فذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات ، ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية ، وزعم في أولها أنه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك ، وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ما أوجبه الله ورسوله ، وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله ، فيجب التصديق به ، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من السلف والأئمة فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله قوله عليهم . وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقاً ، لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها ، وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً ؟

وما ذكره من النفي يتضمن حقاً وباطلاً ، فالحق يجب اتباعه ، والباطل يجب اجتنابه . وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب كبير . وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين ، فإن هذا مما أنكره المسلمون ؛ إذ جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم موحدون ، ولا يخلد فى النار من أهل التوحيد أحد .

و « التوحيد » هو ما بينه الله تعالى فى كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم . كقوله تعالى : (قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) وهذه السورة تعدل ثلث القرآن . وقوله : (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ) وقال تعالى : (فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ) وقال تعالى : (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ) .

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيداً . فمن قال إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق . أو قال : إن الله يرى في الآخرة أو قال : « أستخيرك بعلمك . وأستقدرك بقدرتك » لم يكن موحداً عندهم ؛ بل يسمونه مشبهاً مجسماً ، وصاحب « المرشدة » لقب أصحابه موحدين ، اتباعا لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ما أنزل الله به من سلطان ، وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله به القرآن .

وقال أيضاً فى قدرة الله تعالى : إنه قادر على ما يشاء ، وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلي الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون : إنه لا يقدر على غير ما فعل ، ومذهب المسلمين أن الله على

كل شيء قدير . سواء شاءه أو لم يشأه ، كما قال تعالى : (قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا) .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه لما نزل قوله تعالى : (قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ) قال : أعوذ بوجهك (أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : أعوذ بوجهك .
(أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ) قال : هاتان أهون »
قالوا فهو يقدر الله عليها وهو لا يشاء أن يفعلها ؛ بل قد أجار الله هذه الأمة على لسان نبيها أن لايسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم ، أو يهلكهم بسنة عامة . وقد قال تعالى : (أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ) فالله قادر على ذلك ، وهو لا يشاؤه ، وقد قال تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا) وقال تعالى : (وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً) فالله تعالى قادر على ذلك ، فلو شاءه لفعله بقدرته ، وهو لا يشاؤه .

وقد شرحنا ماذكره فيها كلمة كلمة وبينا ما فيها من صواب وخطأ ولفظ مجمل فى كتاب آخر .

فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها ، ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لا يضره ذلك ، فإنه يعطي كل ذي حق حقه ، ولا حاجة لأحد من المسلمين إلى تعلمها وقراءتها ، ولا يجوز لأحد أن يعدل عما جاء فى الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك ، أو يوقع الناس فى خلاف ذلك ، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده ؛ بل عليه أن يتبع ولا يبتدع ، ويقتدي ولا يبتدي ، فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم : بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً . وقال له : (قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى) وقال تعالى : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا) والنبى صلى الله عليه وسلم علم المسلمين ما يحتاجون إليه فى دينهم .

فيأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات ، وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل، وليس فى الكتاب والسنة والإجماع باطل ، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس ، أو يفهمون منها معنى باطلا ، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة ؛ فإن

الله تعالى قال : (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) .

والله أعلم . والحمد لله وحده . وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وما توفيقى إلا بالله . عليه توكلت وإليه أنيب .

سئل

عن رجل تخاطب هو وإنسان على من قرأ « المرشدة » .

قال الأول : قال بعض العلماء المرشدة لا يجوز أن نقرأها ، قال الآخر : من لا يقرؤها فهو كافر ؟

الجواب : الحمد لله ، أما هذا القائل الثاني الذي قال : من لا يقرؤها فهو كافر ، فإنه كاذب ضال مخطئ جاهل يجب أن يستتاب عن مثل هذا القول ، فإن تاب وإلا عوقب عقوبة بليغة تردعه وأمثاله عن مثل هذا .

بل إذا فهم مضمون قوله : من لم يقرؤها فهو كافر ، وأصر عليه بعد العلم ، كان هو الكافر المستحق لأن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . والله أعلم .

وسئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه

عن قوم منتسبين إلى المشايخ : يتوبونهم عن قطع الطريق ، وقتل النفس والسرقة ؛ وألزموهم بالصلاة ؛ لكنهم يصلون صلاة عادة البادية ، فهل يجب إقامة حدود الصلاة أم لا ؟ (١) ومع هذا شعارهم الرفض ، وكشف الرؤوس ، وتفتيل الشعر ، وحمل الحيات . ثم غلب على قلوبهم حب الشيوخ . حتى كلما عثر أحدهم أوهمه أمر استغاث بشيخه ، ويسجدون لهم مرة في غيبتهم ، ومرة في حضورهم ، فتارة يصادف السجود إلى القبلة ، وتارة إلى غيرها — حيث كان شيخه — ويزعمون هذا لله . ومنهم من يأخذ أولاد الناس حوارات برضى الوالدين ، وبغير رضاهم ، وربما كان ولد الرجل معيناً لوالديه على السعي فى الحلال فيأخذه ويعلمه الدروزة ، وينذر للموتى . ومنهم من يواخي النسوان فإذا نهوا عن ذلك قال : لو حصل لي أمك وأختك واخيتهما فإذا قيل : لا تنظر أجنبية . قال : أنظر عشرين نظرة ، ويحلفون

---

(١) يأتي الكلام على الأمر بالصلاة فى بابها .

بالمشايخ . وإذا نهوا عن شيء من ذلك . قال : أنت شرعي . فهل المنكر عليهم مأجور أم لا ؟

وهل اتخاذ الخرقة على المشايخ له أصل فى الشرع أم لا ؟ وهل انتساب كل طائفة إلى شيخ معين يثاب عليه . أم لا ؟ وهل التارك له آثم أم لا ؟ ويقولون : إن الله يرضى لرضا المشايخ ، ويغضب بغضبهم ويستندون إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » و « أوثق عرى الإسلام الحب فى الله والبغض فى الله » فهل ذلك دليل لهم ، أم هو شيء آخر ؟ ومن هذه حاله هل يجوز دفع الزكاة إليه ؟؟

فأجاب — قدس الله روحه —

وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات فليس هذا من شعار أحد من الصالحين ؛ لا من الصحابة ولا التابعين ولا شيوخ المسلمين لا المتقدمين ولا المتأخرين ولا الشيخ أحمد بن الرفاعي ولا غيره وإنما ابتدع هذا بعد موت الشيخ أحمد بمدة طويلة ، ابتدعه طائفة انتسبت إليه فخالفوا طريق المسلمين وخرجوا عن حقائق الدين ، وفارقوا طريق عباد الله الصالحين وهم نوعان :

أهل حال إبليسي . وأهل محال تلبيسي . فأما أهل « الأحوال »

منهم : فهم قوم اقترنت بهم الشياطين ، كما يقترنون بإخوانهم ؛ فإذا حضروا سماع المكاء والتصدية أخذهم الحال ، فيزيدون ويرغون . كما يفعله المصروع . ويتكلمون بكلام لا يفهمونه هم ولا الحاضرون ؛ وهي شياطينهم تتكلم على ألسنتهم عند غيبة عقولهم ، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع ، ولهم مشابهون فى الهند من عباد الأصنام ، ومشابهون بالمغرب يسمى أحدهم المصلي ؛ وهؤلاء الذين فى المغرب من جنس الزط الذين لاخلاق لهم ؛ فإذا كان لبعض الناس مصروع أو نحوه أعطاهم شيئاً فيجيئون ويضربون لهم بالدف والملاهي ويحرقون ويوقدون ناراً عظيمة مؤججة ويضعون فيها الحديد العظيم حتى يبقى أعظم من الجمر وينصبون رماحاً فيها أسنة ، ثم يصعد أحدهم يقعد فوق أسنة الرماح قدام الناس ، ويأخذ ذلك الحديد المحمى ويمره على يديه ، وأنواع ذلك .

ويرى الناس حجارة يرمى بها ولا يرون من رمى بها ، وذلك من شياطينهم الذين يصعدون بهم فوق الرمح ، وهم الذين يباشرون النار ، وأولئك قد لايشعرون بذلك ، كالمصروع الذي يضرب ضربا وجيعا وهو لايحس بذلك ؛ لأن الضرب يقع على الجني . فكذا حال أهل الأحوال الشيطانية ، ولهذا كلما كان الرجل أشبه بالجن والشياطين كان حاله أقوى ، ولا يأتيهم الحال إلا عند مؤذن الشيطان وقرآنه ، فمؤذنه المزمار ، وقرآنه الغناء .

ولا يأتيهم الحال عند الصلاة والذكر والدعاء والقراءة ، فلا لهذه الأحوال فائدة في الدين ، ولا في الدنيا ، ولو كانت أحوالهم من جنس عباد الله الصالحين ، وأولياء الله المتقين ، لكانت تحصل عندما أمر الله به من العبادات الدينية ، ولكان فيها فائدة فى الدين والدنيا لتكثير الطعام والشراب عند الفاقات ، واستنزال المطر عند الحاجات ، والنصر على الأعداء عند المخافات ، وهؤلاء أهل الأحوال الشيطانية فى التلبيس يمحقون البركات ، ويقوون المخافات ، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ولا يجاهدون فى سبيل الله ، بل هم مع من أعطاهم وأطعمهم وعظمهم ، وإن كان تتريا ؛ بل يرجحون التتر على المسلمين ، ويكونون من أعوانهم ونصرائهم الملاعين ، وفيهم من يستعين على الحال بأنواع من السحر والشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله .

وأما أهل « المحال » منهم : فهم يصنعون أدوية كحجر الطلق ، ودهن الضفادع ، وقشور النارنج ، ونحو ذلك . يمشون بها على النار ويمسكون نوعا من الحيات يأخذونها بضعة ، ويقدمون على أكلها بفجور ، وما يصنعونه من السكر واللاذن ، وماء الورد ، وماء الزعفران والدم ، فكل ذلك حيل وشعوذة يعرفها الخبير بهذه الأمور .

ومنهم من تأتيه الشياطين ، وذلك هم أهل المحال الشيطانى .

فصـــــل

وأما ما ذكروا من غلوهم فى الشيوخ : فيجب أن يعلم أن الشيوخ الصالحين الذين يقتدى بهم فى الدين هم المتبعون لطريق الأنبياء والمرسلين كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ومن له فى الأمة لسان صدق ـ وطريقة هؤلاء دعوة الخلق إلى الله ، وإلى طاعته وطاعة رسوله ، واتباع كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والمقصود أن يكون الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هي العليا . فإن الله تعالى يقول : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ) .

والرسل أمروا الخلق أن لا يعبدوا إلا الله وأن يخلصوا له الدين فلا يخافون غيره ، ولا يرجون سواه ، ولا يدعون إلا إياه . قال تعالى : (وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا) . وقال تعالى : (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ)

فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده . وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ) فالإيتاء لله والرسول : (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟) والحلال ما حلله رسول الله والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، ليس لأحد من الأولين والآخرين خروج عن طاعته وشريعته ، ومن لم يقربه باطنا وظاهراً فهو كافر مخلد فى النار .

وخير الشيوخ الصالحين ، وأولياء الله المتقين : أتبعهم له وأقر بهم وأعرفهم بدينه وأطوعهم لأمره : كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي . وسائر التابعين بإحسان ، وأما الحسب فلله وحده ولهذا قالوا : (حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ) ولم يقولوا ورسوله . كما قال تعالى : (ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ) وقال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) أي : أن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين . فهو وحده يكفيهم فإنه سبحانه له الملك وله الحمد وهو كاف عبده . كما قال تعالى : (أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ) وقال تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) الآية .

وروي أن بعض الصحابة قال : يارسـول الله ! هل ربنـا قريب فنناجيه ؟ أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فهو سبحانه سميع قريب مجيب رحيم ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وهو يعـلم من أحوال العبـاد ما لا يعلمه غـيره ، ويقدر على قضاء حوائجهم الـتى لا يقدر عليها غيره ، ويرحمهم رحمة لا يرحمهم بها غيره .

والشيوخ الذين يقتدى بهم يدلون عليه ، ويرشـدون إليه ، بمنزلة الأئمة فى الصلاة ، يصلون ويصلي الناس خلفهم ، وبمـنزلة الدليل الذي للحاج هو يدلهم على البيت ، وهو وهم جميعاً يحجون إليه ، ليس لهـم من الإلهية نصيب ؛ بل مـن جعل لهم شيئاً مـن ذلك فهو من جنس النصارى المشركين ، الذين قال الله فى حقهم : (ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ)
وقد قال نوح عليه السلام : (قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ) وهكذا أمر الله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول .

فليس لأحد أن يـدعو شيخاً ميتاً أو غائبا ؛ بل ولا يدعو ميتـا ولا غائبا : لا من الأنبياء ولا غيرهم ، فلا يقول لأحدهم : ياسيدى فلان ! أنا فى حسبك أو فى جوارك ، ولا يقول : بك أستغيث ، وبك أستجير ، ولا يقول : إذا عثر : يافلان ! ولا يقول : محمد ! وعلي ! ولا الست نفيسة

ولا سيدي الشيخ أحمد ! ولا الشيخ عدى ! ولا الشيخ عبد القادر ! ولا غير ذلك ، ولا نحو ذلك مما فيه دعاء الميت والغائب ، ومسألته ، والاستغاثة به ، والاستنصار به ، بل ذلك من أفعال المشركين ، وعبادات الضالين .

ومن المعلوم أن سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت فى صحيح البخاري « أن الناس لما أجدبوا استسقى عمر بالعباس . وقال اللهم إنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا ، فتسقينا . وإنا نتوسل بعم نبينا فاسقنا فيسقون » فكانوا فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم يتوسلون بدعائه ، وشفاعته لهم ، كما يتوسل به الناس يوم القيامة ، ويستشفعون به إلى ربهم ، فيأذن الله له في الشفاعة فيشفع لهم . ألا ترى الله يقول (مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ) . وقال تعالى : (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) فبين سبحانه أن المخلوقات كلها ليس لأحد منها شيء فى الملك ، ولا له شريك فيه ، ولا له ظهير ، أي : معين لله تعالى كما تعاون الملوك ، وبين أن الشفاعة عنده لا تنفع إلا لمن أذن له .

وإذا كان يوم القيامة يجيء الناس إلى آدم ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ثم موسى ، ثم عيسى ، فيطلبون الشفاعة منهم ، فلا يشفع لهم أحد من هؤلاء الذين هم سادة الخلق ، حتى يأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم .

فيأتى ربه فيحمده بمحامد ويسجد له ، فإذا أذن له فى الشفاعة شفع لهم . فهذه حال هؤلاء الذين هم أفضل الخلق ؛ فكيف غيرهم؟

فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يدعونه ، ولا يستغيثون به ولا يطلبون منه شيئاً لا عند قبره ولا بعيداً من قبره ؛ بل ولا يصلون عند قبره ولا قبر غيره ، لكن يصلون ويسلمون عليه ويطيعون أمره ويتبعون شريعته ، ويقومون بما أحبه الله تعالى من حق نفسه وحق رسوله وحق عباده المؤمنين ، فإنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » وقال : « لا تتخذوا قبري عيداً . وصلوا علي حيث كنتم فإن صلاتكم تبلغنى » وقال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا وقال له رجل : ماشاء الله وشئت فقال : « أجعلتنى لله نداً ؟ قل : ماشاء الله وحده » وقال : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد » .

وفى المسند أن معاذ بن جبل سجد له . فقال : « ما هذا يامعاذ ؟ » فقال : يارسول الله ! رأيتهم فى الشام يسجدون لأساقفتهم ويذكرون ذلك عن أنبيائهم فقال : يامعاذ ! « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » وقال : « يا

معاذ ! أرأيت لو مررت بقبري أكنت ساجداً لقبري قال : لا قال : فإنه لا يصلح السجود إلا لله » أو كما قال .

فإذا كان السجود لا يجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيا ولا ميتا، ولا لقبره، فكيف يجوز السجود لغيره ؟ بل قد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » فقد نهى عن الصلاة إليها ، كما نهى عن اتخاذها مساجد ولهذا لما أدخلوا حجرته فى المسجد لما وسعوه جعلوا مؤخرها مسنما منحرفا عن سمت القبلة لئلا يصلي أحد إلى الحجرة النبوية ، فما الظن بالسجود إلى جهة غيره . كائنا من كان؟!.

وأما قول القائل : هذا السجود لله تعالى فإن كان كاذبا فى ذلك فكفى بالكذب خزيا، وإن كان صادقا فى ذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، فإن السجود لا يكون إلا على الوجه المشروع وهو السجود فى الصلاة ،وسجود السهو وسجود التلاوة، وسجود الشكر على أحد قولي العلماء . وأما السجود عقيب الصلاة بلا سبب فقد كرهه العلماء وكذلك ما يفعله بعض المشايخ من سجدتين بعد الوتر لم يفعله أحد من السلف ولا استحبه أحد من الأئمة، ولكن هؤلاء بلغهم حديث رواه أبو موسى الذي فى (الوظائف) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان

يصلي سجدتين بعد الوتر ففعلوا (١) الحديث الذي رواه مسلم فى صحيحه « أنه كان يصلي بعد الوتر ركعتين وهو جالس ولم يداوم على ذلك » فسميت الركعتان سجدتين . كما فى أحاديث أخر . فهذا هو أصل ذلك . والكلام فى هاتين الركعتين مذكور فى غير هذا الموضع .

وأما السجدتان فلا أصل لهما ولا للسجود المجرد بلا سبب وقالوا هو بدعة فكيف بالسجود إلى جهة مخلوق من غير مراعاة شروط الصلاة وهذا يشابه من يسجد للشرق فى الكنيسة مع النصارى ويقول : لله ، أو يسجد مع اليهود إلى الصخرة ويقول : لله ؛ بل سجود النصارى واليهود لله وإن كان إلى غير قبلة المسلمين خير من السجود لغير الله . بل هذا بمنزلة من يسجد للشمس عند طلوعها وغروبها ويسجد لبعض الكواكب والأصنام ويقولون : لله .

فصل

وأما فساد الأولاد : بحيث يعلمه الشحاذة ، ويمنعه من الكسب الحلال ، أو يخرجه ببلاده مكشوف الشعر [1] فى الناس ، فهذا يستحق

(١) بياض بالاصل .

صاحبه العقوبة البليغة ، التى تزجره عن هذا الإفساد ، لاسيما إن أدخلوهم فى الفواحش ، وغير ذلك من المنكرات ؛ ويجب تعليم أولاد المسلمين ما أمر الله بتعليمهم إياه ، وتربيتهم على طاعة الله ورسوله . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع »

فصل

وأما « النذر للموتى » من الأنبياء والمشايخ وغيرهم : أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم . فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى . سواء كان النذر نفقة أو ذهباً أو غير ذلك وهو شبيه بمن ينذر للكنائس ؛ والرهبان وبيوت الأصنام . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به ؛ بل عليه كفارة يمين فى أحد قولي العلماء ، وهذا إذا كان النذر لله وأما إذا كان النذر لغير الله ، فهو كمن يحلف بغير الله ، وهذا شرك . فيستغفر الله منه ، وليس فى هذا وفاء ولا كفارة .

ومن تصدق بالنقود على أهل الفقر والدين فأجره على رب العالمين .

وأصل عقد النذر منهي عنه . كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتى بخير وإنما يستخرج به من البخيل » وإذا نذر فعليه الوفاء بما كان طاعة لله كالصلاة والصدقة والصيام والحج ؛ دون مالم يكن طاعة لله تعالى .

فصل

فأما مؤاخاة الرجال النساء الأجانب ، وخلوهم بهن ونظرهم إلى الزينة الباطنة منهن : فهذا حرام باتفاق المسلمين ، ومن جعل ذلك من الدين ، فهو من إخوان الشياطين . قال الله تعالى : (وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان » وقال : « إياكم والدخول على النساء . قالوا : يارسول الله : أرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت » ومن لم ينته عن ذلك عوقب عقوبة بليغة تزجره ، وأمثاله من أهل الفساد والعناد .

فصـــل

وأما الحلف بغير الله من الملائكة والأنبيـاء والمشايخ والملوك وغيرهم فإنه منهى عنه ، غير منعقد باتفاق الأئمـة ، ولم ينازعوا إلا في الحلف برسول الله صلى الله عليـه وسلم خاصة . والجمهـور على أنـه لا تنعقد اليمين لا به ولا بغيره ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وقال : « من حلف بغـير الله فقـد أشرك » فمن حلف بشيخه أو بتربته أو بحياته أو بحقـه على الله ، أو بالملوك أو بنعمة السلطان أو بالسيف أو بالكعبة أو أبيه أو تربة أبيـه أو نحو ذلك كان منهياً عن ذلك ، ولم تنعقد يمينه باتفاق المسلمين .

فصـــل

وأما قول القائل : لمن أنكر عليه أنت شرعي . فـكلام صحيـح ، فإن أراد بذلك أن الشرع لا يتبعه ، أو لا يجب عليه اتباعه ، وأنا خارج عن اتباعه ، فلفظ الشرع قد صار له فى عرف الناس « ثلاث معان » الشرع المنزل ، والشرع المؤول ، والشرع المبدل .

فأما الشرع المنزل : فهو ما ثبت عن الرسول من الكتاب والسنة وهذا الشرع يجب على الأولين والآخرين اتباعه ، وأفضل أولياء الله أكملهم اتباعا له ، ومن لم يلتزم هذا الشرع ، أو طعن فيه أو جوز لأحد الخروج عنه ، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

وأما المؤول فهو ما اجتهد فيه العلماء من الأحكام ، فهذا من قلد فيه إماماً من الأئمة ساغ ذلك له ، ولا يجب على الناس التزام قول إمام معين .

وأما الشرع المبدل فهو الأحاديث المكذوبة، والتفاسير المقلوبة ، والبدع المضلة التى أدخلت فى الشرع وليست منه ، والحكم بغير ما أنزل الله . فهذا ونحوه لا يحل لأحد اتباعه .

وإنما حكم الحكام بالظاهر ، والله تعالى يتولى السرائر ، وحكم الحاكم لا يحيل الأشياء عن حقائقها . فقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض . وإنما أقضي بنحو ما أسمع فمن قضيت له من أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » فهذا قول إمام الحكام ، وسيد ولد آدم .

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اجتهد الحاكم : فإن أصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » وقال « القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاض فى الجنة . رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ، ورجل قضى للناس بجهل فهو فى النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار » .

ومن خرج عن الشرع الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ظاناً أنه متبع للحقيقة ، فإنه مضاه للمشركين المكذبين للرسل . ولفظ « الحقيقة » يقال : على « حقيقة كونية » و « حقيقة بدعية » و « حقيقة شرعية » .

ف « الحقيقة الكونية » مضمونها الإيمان بالقضاء والقدر ، وأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه . وهذا مما يجب أن يؤمن به ، ولا يجوز أن يحتج به ، بل لله علينا الحجة البالغة ، فمن احتج بالقدر فحجته داحضة ، ومن اعتذر بالقدر عن المعاصي فعذره غير مقبول .

وأما « الحقيقة البدعية » فهي سلوك طريق الله سبحانه وتعالى ، مما يقع فى قلب العبد من الذوق والوجد ، والمحبة والهوى ، من غير اتباع الكتاب والسنة . كطريق النصارى ، فهم تارة يعبدون غير الله وتارة يعبدون بغير أمر الله . كالنصارى المشركين الذين اتخذوا أحبارهم

ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وابتدعوا الرهبانية فأشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً ، وشرعوا من الدين مالم يأذن به الله . وأما دين المسلمين فكما قال الله تعالى : (فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا) وقال تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) قال الفضيل بن عياض : [أخلصه وأصوبه قالوا :] وما أخلصه وأصوبه . قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول في دعائه : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وأما « الحقيقة الدينية » وهي تحقيق ما شرعه الله ورسوله ، مثل الإخلاص لله ، والتوكل على الله ، والخوف من الله ، والشكر لله ، والصبر لحكم الله ، والحب لله ورسوله ، والبغض فى الله ورسوله ، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله . فهذا حقائق أهل الإيمان ، وطريق أهل العرفان .

فصـــــل

والأمر بالمعروف ، وهو الحق الذي بعث الله به رسوله . والنهى عن المنكر ، وهو ما خالف ذلك من أنواع البدع والفجور ، بل هو من أعظم الواجبات ، وأفضل الطاعات : بل هو طريق أئمة الدين ، ومشايخ الدين ، نقتدي بهم فيه . قال الله تعالى : (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) وهذه الآية بها استدل المستدلون على أن شيوخ الدين ، يقتدى بهم في الدين ، فمن لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين ، ولا ممن يقتدى به .

فصـــــل

وأما لباس الخرقة التى يلبسها بعض المشايخ المريدين : فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة من جهة الكتاب والسنة ، ولا كان المشايخ المتقدمون وأكثر المتأخرين يلبسونها المريدين . ولكن طائفة من

المتأخرين رأوا ذلك واستحبوه ، وقد استدل بعضهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ثوباً ، وقال لها : سنا ، والسنا بلسان الحبشة الحسن . وكانت قد ولدت بأرض الحبشة ، فلهذا خاطبها بذلك اللسان ، واستدلوا أيضاً بحديث البردة التى نسجتها امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم : فسأله إياها بعض الصحابة فأعطاه إياها وقال : « أردت أن تكون كفناً لي » .

وليس فى هذين الحديثين دليل على الوجه الذي يفعلونه . فإن إعطاء الرجل لغيره ما يلبسه كإعطائه إياه ما ينفعه ، وأخذ ثوب من النبي صلى الله عليه وسلم على وجه البركة كأخذ شعره على وجه البركة ، وليس هذا كلباس ثوب أو قلنسوة على وجه المتابعة والاقتداء ؛ ولكن [يشبه] من بعض الوجوه خلع الملوك [التى] يخلعونها على من يولونه كأنها شعار وعلامة على الولاية والكرامة ؛ ولهذا يسمونها تشريفاً . وهذا ونحوه غايته أن يجعل من جنس المباحات ؛ فإن اقترن به نية صالحة كان حسناً من هذه الجهة ، وأما جعل ذلك سنة وطريقاً إلى الله سبحانه وتعالى فليس الأمر كذلك .

وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين : فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن . كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وتلقاه عنهم التابعون ؛ وبذلك يحصل اتباع السابقين

الأولين بإحسان ، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه ، فكذلك له من يعلمه الدين الباطـن والظاهر ؛ ولا يتعين ذلك في شخص معين ؛ ولا يحتاج الإنسان فى ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين ، كل من أفاد غيره إفادة دينية هو شيخه فيها ؛ وكل ميت وصـل إلى الإنسان من أقواله وأعماله وآثاره ما انتفع به فى دينه فهو شيخه من هـذه الجهة ؛ فسلف الأمة شيوخ الخلفاء قرناً بعد قرن ؛ وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته ، ويعادي على ذلك ؛ بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ، ومـن عرف منه التقوى مـن جميع الشيوخ وغيرهم ، ولا يخص أحداً بمزيد موالات ، إلا إذا ظهر له مزيد إيمـانه وتقواه ، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه ، ويفضل من فضله الله ورسوله ، قال الله تعـالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ) .

وقال النبي صـلى الله عليه وسـلم « لا فضل لعربي عـلى عجمي ؛ ولالعجمي عـلى عربي ؛ ولا أسود على أبيض ؛ ولا لأبيض عـلى أسود إلا بالتقوى » .

فصـــــل

وأما قول القائل : أنت للشيخ فلان ، وهو شيخك فى الدنيا والآخرة .

فهذه بدعة منكرة من جهة أنه جعل نفسه لغير الله ، ومن جهة أن قوله : شيخك فى الدنيا والآخرة كلام لا حقيقة له ، فإنه إن أراد أنه يكون معه فى الجنة ، فهذا إلى الله لا إليه ، وإن أراد أنه يشفع فيه فلا يشفع أحد لأحد إلا باذن الله تعالى ، إن أذن له أن يشفع فيه وإلا لم يشفع ؛ وليس بقوله : أنت شيخي في الآخرة يكون شافعاً له — هذا إن كان الشيخ ممن له شفاعة — فقد تقدم أن سيد المرسلين والخلق لا يشفع حتى يأذن الله له فى الشفاعة بعد امتناع غيره منها . وكم من مدع للمشيخة وفيه نقص من العلم والإيمان ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

وقول القائل : « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به » هو من كلام أهل الشرك والبهتان ، فإن عباد الأصنام أحسنوا ظنهم بها فكانوا هم وإياها من حصب جهنم ، كما قال الله تعالى : (إِنَّكُمْ وَمَا

تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ) . لكن قال النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ،فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعا ، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » ومن أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين فلا حاجة به إلى ذلك ، ولا يستحب له ذلك ، بل يكره له .

وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك ، مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان، والذين يعلمونه ويؤدبونه لا يبذلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه وعلمه ، فإنه يفعل الأصلح لدينه . وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه ، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده .

فأما الانتساب الذي يفرق بين المسلمين ، وفيه خروج عن الجماعة والائتلاف إلى الفرقة ، وسلوك طريق الابتداع ، ومفارقة السنة والاتباع ، فهذا مما ينهى عنه ، ويأثم فاعله ، ويخرج بذلك عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فصـــــل

وأما قول القائل : إن الله يرضى لرضا المشايخ ويغضب لغضبهم .

فهذا الحكم ليس هو لجميع المشايخ ، ولا مختص بالمشايخ ، بل كل من كان موافقاً لله : يرضى مايرضاه الله ، ويسخط ما يسخط الله كان الله يرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه ، من المشايخ وغيرهم ، ومن لم يكن كذلك من المشايخ ، لم يكن من أهـل هذه الصفة . ومنه قول النبي صلى الله عليـه وسلم لأبى بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان قد جرى بينه وبين صهيب وخباب وبلال وغيرهم كلام فى أبى سفيان ابن حرب ؛ فإنه مر بهم فقالوا : « ما أخـذت السيوف من عـدو الله مأخذها . فقال أتقولون هذا لـكبير قريش ؟ ودخل على النبي صـلى الله عليه وسلم فأخبره . فقال : لعلك أغضبتهم يا أبا بكر ، لئن كنت أغضبتهم ، لقد أغضبت ربك » أو كما قال . قال : فخرج عليهم أبو بكر فقال لهم : يا إخوانى ! أغضبتكم ؟ قالوا لا:يغفر الله لك يا أبا بكـر . فهؤلاء كان غضبهم لله .

وفى صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليـه وسلم قال : « يقول

الله تعالى من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبـدي يتقرب إلي بالنوافـل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبـدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

فهذا المؤمن الذي تقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض أحبـه الله لأنه فعل ما أحبـه الله ، والجزاء من جنس العمل . قال الله تعـالى : (رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ) وفى الحقيقة فالعبــد الذي يرضى الله لرضاه ، ويغضب لغضبه ، هو يرضى لرضا الله ، ويغضب لغضب الله وليكن هذان مثالان : فمن أحب ما أحب الله ، وأبغض ما أبغض الله ورضي ما رضي الله لما يرضي الله ، ويغضب لما يغضب ؛ لكن هــذا لا يكون للبشر على سبيل الدوام ، بل لا بــد لأكمل الخلق أن يغضب أحياناً غضب البشر ، ويرضى رضا البشر .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأيما مسلم سببته أو لعنته وليس لذلك بأهل فاجعل ذلك له صلاة وزكاة وقربة تقربه إليك يوم القيــامة »

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك فى قضية معينة ، لكون غضبه لأجل أبى سفيان وهم كانوا يغضبون لله ، وإلا فأبو بكر أفضل من ذلك ، وبالجملة فالشيوخ والملوك وغيرهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله أطيعوا ، وإن أمروا بخلاف ذلك لم يطاعوا ؛ فإنه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وليس أحد معصوما إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا فى الشيخ الذي ثبت معرفته بالدين وعمله به .

وأما من كان مبتدعا بدعة ظاهرة ، أو فاجراً فجوراً ظاهراً . فهذا إلى أن تنكر عليه بدعته وفجوره ، أحوج منه إلى أن يطاع فيما يأمر به ؛ لكن إن أمر هو أو غيره بما أمر الله به ورسوله ، وجبت طاعة الله ورسوله ، فإن طاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد ، فى كل حال ؛ ولو كان الآمر بها كائنا من كان .

فصل

وأما قوله صلى الله عليه وسلم « المرء مع من أحب » فهو من أصح الأحاديث . وقال أنس : فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث ، فأنا أحب رسول الله وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أحشر

معهم ، وإن لم أعمل مثل أعمالهم . وكذلك « أوثق عرى الإسلام الحب فى الله والبغض فى الله » لكن هذا بحيث أن يحب المرء ما يحبه الله ومن يحب الله ، فيحب أنبياء الله كلهم ؛ لأن الله يحبهم ويحب كل من علم أنه مات على الإيمان والتقوى ، فإن هؤلاء أولياء الله والله يحبهم كالذين شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة وغيرهم من أهل بدر وأهل بيعة الرضوان .

فمن شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة شهدنا له بالجنة ، وأما من لم يشهد له بالجنة. فقد قال طائفة من أهل العلم : لا نشهد له بالجنة ولا نشهد أن الله يحبه ، وقال طائفة : بل من استفشى من بين الناس إيمانه وتقواه ، واتفق المسلمون على الثناء عليه ، كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وسفيان الثوري وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي وعبد الله بن المبارك ــ رضي الله عنهم ــ وغيرهم . شهدنا لهم بالجنة ؛ لأن فى الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً فقال : وجبت ، وجبت ، ومر عليه بجنازة ، فأثنوا عليها شراً . فقال : وجبت ، وجبت . قالوا : يارسول الله ! ما قولك : وجبت ، وجبت ؟ قال : هذه الجنازة أثنيتم عليها خيراً فقلت : وجبت لها الجنة ، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار . قيل :

بم يارسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن ، والثناء السيء » .

وإذا علم هذا فكثير من المشهورين بالمشيخة فى هذه الأزمان ، قد يكون فيهم من الجهل والضلال والمعاصي والذنوب ما يمنع شهادة الناس لهم بذلك ، بل قد يكون فيهم المنافق والفاسق ، كما أن فيهم من هو من أولياء الله المتقين ، وعباد الله الصالحين ، وحزب الله المفلحين ، كما أن غير المشايخ فيهم هؤلاء ، وهؤلاء فى الجنة ، والتجار والفلاحون وغيرهم من [هذه] الأصناف .

إذا كان كذلك فمن طلب أن يحشر مع شيخ لم يعلم عاقبته كان ضالاً ؛ بل عليه أن يأخذ بما يعلم ؛ فيطلب أن يحشره الله مع نبيه والصالحين من عباده . كما قال الله تعالى : (وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ) . وقال الله تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ)

وعلى هذا فمن أحب شيخاً مخالفاً للشريعة كان معه ؛ فإذا دخل الشيخ النار كان معه . ومعلوم أن الشيوخ المخالفين للكتاب والسنة أهل الضلال والجهالة ، فمن كان معهم كان مصيره مصير أهل الضلال والجهالة ، وأما من كان من أولياء الله المتقين : كأبى بكر وعمر وعثمان

وعلي وغيرهم ؛ فمحبة هؤلاء من أوثق عرى الإيمان ؛ وأعظم حسنات المتقين .

ولو أحب الرجل لما ظهر له من الخير الذي يحبه الله ورسوله ، أثابه الله على محبة ما يحبه الله ورسوله ، وإن لم يعلم حقيقة باطنه ، فإن الأصل هو حب الله وحب ما يحبه الله ، فمن أحب الله وأحب ما يحبه الله كان من أولياء الله . وكثير من الناس يدعي المحبة من غير تحقيق قال الله تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) قال بعض السلف : ادعى قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهم يحبون الله ، فأنزل الله هذه الآية ، فمحبة الله ورسوله وعباده المتقين تقتضي فعل محبوباته ، وترك مكروهاته ، والناس يتفاضلون فى هذا تفاضلا عظيما ، فمن كان أعظم نصيبا من ذلك ، كان أعظم درجة عند الله .

وأما من أحب شخصاً لهواه ، مثل أن يحبه لدنيا يصيبها منه ، أو لحاجة يقوم له بها ، أو لمال يتآكله به . أو بعصبية فيه . ونحو ذلك من الأشياء فهذه ليست محبة لله ؛ بل هذه محبة لهوى النفس ، وهذه المحبة هي التى توقع أصحابها فى الكفر والفسوق والعصيان . وما أكثر من يدعي حب مشايخ لله ، ولو كان يحبهم لله لأطاع الله الذي

أحبهم لأجله ، فإن المحبوب لأجل غيره تكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير .

وكيف يحب شخصاً لله من لا يكون محباً لله ، وكيف يكون محباً لله من يكون معرضاً عن رسول صلى الله عليه وسلم وسبيل الله . وما أكثر من يحب شيوخا أو ملوكا أو غيرهم فيتخذهم أنداداً يحبهم كحب الله .

والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهر ، فأهل الشرك يتخذون أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ، وأهل الإيمان يحبون ذلك ؛ لأن أهل الإيمان أصل حبهم هو حب الله ومن أحب الله أحب من يحبه ، ومن أحبه الله ، فمحبوب المحبوب محبوب ومحبوب الله يحب الله فمن أحب الله فيحبه من أحب الله .

وأما أهل الشرك فيتخذون أنداداً أو شفعاء يدعونهم من دون الله قال الله تعالى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) وقال الله تعالى : (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ

فَاسْمَعُونِ) وقال الله تعالى : (وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) وقال الله تعالى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ) .

والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ؛ ليكون الدين كله لله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » فالدين واحد وإن تفرقت الشرعة والمنهاج ، قال الله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وقال تعالى : (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) وقال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

ومن حين بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم مايقبل من أحد بلغته الدعوة إلا الدين الذي بعثه به ؛ فإن دعوته عامة لجميع الخلائق ، قال الله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ) . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يسمع بى من هذه الأمة يهودي ولا نصرانى ثم لا يؤمن

بى إلا دخل النـار » قال الله تعـالى : (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

فعلى الخلق كلهم اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يعبدون إلا الله ، ويعبدونه بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا بغـيرها ، قال الله تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) ويجتمعون عـلى ذلك ولا يتفرقون ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه قال : « إن الله يرضى لـكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » وعبـادة الله تتضمن كمال محبة الله ، وكمال الذل لله ، فأصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله

هو المعبود الذي تحبه القلوب وتخشاه ولا يكون لهـا إله سواه ، والإله ما تألهه القلوب بالمحبـة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك .

والله سبحانه أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو فتخلو القـلوب عن محبة ما سواه [بمحبتـه ، وعـن رجاء ما سواه] برجائه وعن سؤال ماسواه بسؤاله وعن العمل لما سواه بالعمل له وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به ؛ ولهذا كان وسط الفاتحة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ، نصفين ، فإذا قال : (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) قال الله حمدني عبدي ، فإذا قال : (ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) قال : أثنى علي عبدي ، وإذا قال : (مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ) قال : مجدني عبـدي . وإذا قال : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال : هذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، وإذا قال : (ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ) قال : هؤلاء لعبـدي ولعبدي مـا سأل » .

فوسط السورة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فالدين أن لا يعبد إلا الله ولا يستعان إلا إياه ، والملائكة والأنبياء وغيرهم عباد الله كما قال تعالى: (لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ

عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا)

فالحب لغير الله كحب النصارى للمسيح ، وحب اليهود لموسى وحب الرافضة لعلي ، وحب الغلاة لشيوخهم وأئمتهم : مثل من يوالي شيخا أو إماما وينفر عن نظيره وهما متقاربان أو متساويان فى الرتبة ، فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم ، وحال أهل العصبية من المنتسبين إلى فقه وزهد : الذين يوالون [بعض] الشيوخ والأئمة دون البعض . وإنما المؤمن من يوالي جميع أهل الإيمان . قال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه ــ وقال : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . وقال عليه السلام : « لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » .

ومما يبين الحب لله والحب لغير الله : أن أبا بكر كان يحب النبي صلى الله عليه وسلم مخلصا لله ، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله . فتقبل الله عمل أبي بكر وأنزل فيه : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى *

ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ) وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله ؛ بل أدخله النار ؛ لأنه كان مشركا عاملاً لغير الله . وأبو بكر لم يطلب أجره من الخلق ، لا من النبي ولا من غيره ؛ بل آمن به وأحبه وكلأه وأعانه بنفسه وماله متقربا بذلك إلى الله وطالبا الأجر من الله . ورسوله يبلغ عن الله أمره ونهيه ووعده ووعيده ، قال تعالى : (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ) .

والله هو الذي يخلق ويرزق ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل ، وهو سبحانه مسبب الأسباب ، ورب كل شيء ومليكه .

والأسباب التي يفعلها العباد مما أمر الله به وأباحه فهذا يسلك ، وأما ما ينهى عنه نهياً خالصاً ، أو كان من البدع التي لم يأذن الله بها فهذا لا يسلك . قال تعالى : (قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ)
بين سبحانه ضلال الذين يدعون المخلوق من الملائكة والأنبياء وغيرهم المبين ، أن المخلوقين لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ثم بين أنه لا شركة لهم ، ثم بين أنه لا عون له ولا ظهير ؛ لأن أهل الشرك يشبهون الخالق بالمخلوق . كما يقول بعضهم : إذا كانت

لك حاجة استوصي الشيخ فلان ، فإنك تجده ، أو توجه إلى ضريحه خطوات وناده ، يا شيخ ! يقضي حاجتك ، وهذا غلط ، لا يحل فعله وإن كان من هؤلاء الداعين لغير الله من يرى صورة المدعو أحياناً فذلك شيطان تمثل له . كما وقع مثل هذا لعدد كثير .

ونظير هذا قول بعض الجهال من أتباع الشيخ عدي وغيره ، كل رزق لا يجيء على يد الشيخ لا أريده . والعجب من ذي عقل سليم يستوصي من هو ميت ، يستغيث به ، ولا يستغيث بالحي الذي لا يموت ، ويقوى الوهم عنده أنه لو لا استغاثته بالشيخ الميت لما قضيت حاجته . فهذا حرام فعله .

ويقول أحدهم إذا كانت لك حاجة إلى ملك توسلت إليه بأعوانه ، فهكذا يتوسل إليه بالشيوخ . وهذا كلام أهل الشرك والضلال ، فإن الملك لا يعلم حوائج رعيته ، ولا يقدر على قضائها وحده ، ولا يريد ذلك إلا لغرض يحصل له بسبب ذلك ، والله أعلم بكل شيء ، يعلم السر وأخفى ، وهو على كل شيء قدير . فالأسباب منه وإليه ، وما من سبب من الأسباب ، إلا دائر موقوف على أسباب أخرى ، وله معارضات . فالنار لا تحرق إلا إذا كان المحل قابلاً ، فلا تحرق السمندل ، وإذا شاء الله منع أثرها كما فعل بإبراهيم عليه السلام .

وأما مشيئة الرب فلا تحتاج إلى غيره ولا مانع لها ، بل ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . وهو سبحانه أرحم من الوالدة بولدها : يحسن إليهم ويرحمهم ، ويكشف ضرهم ، مع غناه عنهم، وافتقارهم إليه ، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

فنفى الرب هذا كله فلم يبق إلا الشفاعة . فقال : (وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) وقال : (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) فهو الذي يأذن فى الشفاعة ، وهو الذي يقبلها ، فالجميع منه وحده ، وكلما كان الرجل أعظم إخلاصاً : كانت شفاعة الرسول أقرب إليه . قال له أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » .

وأما الذين يتوكلون على فلان ليشفع لهم من دون الله تعالى ، ويتعلقون بفلان . فهؤلاء من جنس المشركين الذي اتخذوا شفعاء من دون الله تعالى . قال الله تعالى : (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) وقال الله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) وقال : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ

عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) .

قال طائفة من السلف : كان قوم يدعون المسيح والعزير والملائكة فبين الله تعالى أن هؤلاء الملائكة والأنبياء عباده ، كما أن هؤلاء عباده وهؤلاء يتقربون إلى الله ، وهؤلاء يرجون رحمة الله ، وهؤلاء يخافون عذاب الله . فالمشركون اتخذوا مع الله أنداداً يحبونهم كحب الله ؛ واتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله ، ففيهم محبة لهم وإشراك بهم ، وفيهم من جنس ما فى النصارى من حب المسيح وإشراك به ؛ والمؤمنون أشد حباً لله : فلا يعبدون إلا الله وحده ، ولا يجعلون معه شيئاً يحبونه كمحبته لا أنبيائه ولا غيرهم ؛ بل أحبوا ما أحبه بمحبتهم لله ؛ وأخلصوا دينهم لله وعلموا أن أحداً لا يشفع لهم إلا بإذن الله ؛ فأحبوا عبد الله ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم لحب الله ، وعلموا أنه عبد الله المبلغ عن الله ، فأطاعوه فيما أمر وصدقوه فيما أخبر ولم يرجوا إلا الله ؛ ولم يخافوا إلا الله ، ولم يسألوا إلا الله ، وشفاعته لمن يشفع له هو بإذن الله ، فلا ينفع رجاؤنا للشفيع ، ولا مخافتنا له ، وإنما ينفع توحيدنا ، وإخلاصنا لله، وتوكلنا عليه ، فهو الذي يأذن للشفيع

فعلى المسلم أن يفرق بين محبة المؤمنين ودينهم ، ومحبة النصارى

والمشركين ودينهم ، ويتبع أهل التوحيد والإيمان . ويخرج عن مشابهة المشركين ، وعبدة الصلبان .

وفى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار » . وقال تعالى (قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ) وقال الله تعالى : (مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ) وهذا باب واسع ، ودين الإسلام مبني على هذا الأصل ، والقرآن يدور عليه .

سئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه

عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة فى الفساد ؛ وتعلق كل منهم بسبب ؛ واستند إلى قول قيل . فمنهم من هو مكب على حضور السماعات المحرمة التى تعمل بالدفوف ، التى بالجلاجل ، والشبابات المعروفة فى هذا الزمان . ويحضرها المردان والنسوان ، ويستند فى ذلك إلى دعوى جواز حضور السماع عند الشافعي وغيره من الأئمة .

فأجاب : أما السماعات المشتملة على الغناء والصفارات والدفوف المصلصلات : فقد اتفق أئمة الدين أنها ليست من جنس القرب والطاعات بل ولو لم يكن على ذلك ، كالغناء والتصفيق باليد ، والضرب بالقضيب والرقص ونحو ذلك فهذا وإن كان فيه ما هو مباح ، وفيه ما هو مكروه ، وفيه ما هو محظور ، أو مباح للنساء دون الرجال . فلا نزاع بين أئمة الدين أنه ليس من جنس القرب ، والطاعات والعبادات ولم يكن أحد من الصحابة والتابعين وأئمة الدين وغيرهم من مشايخ الدين

يحضرون مثل هذا السماع ، لا بالحجاز ، ولا مصر ، ولا الشام ، ولا العراق ، ولا خراسان . لا في زمن الصحابة ، والتابعين ، ولا تابعيهم .

لكن حدث بعد ذلك : فكان طائفة يجتمعون على ذلك ، ويسمون الضرب بالقضيب على جلاجل ونحوه « التغبير » .

قال الحسن بن عبد العزيز الحرانى : سمعت الشافعي يقول : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغبير ، يصدون به الناس عن القرآن ، وهذا من كمال معرفة الشافعي وعلمه بالدين ، فإن القلب إذا تعود سماع القصائد والأبيات والتذ بها ، حصل له نفور عن سماع القرآن ، والآيات فيستغنى بساع الشيطان عن سماع الرحمن .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » وقد فسره الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما بأنه من الصوت فيحسنه بصوته ، ويترنم به ، بدون التلحين المكروه وفسره ابن عيينة وأبو عبيد وغيرهما بأنه الاستغناء به ، وهذا وإن كان له معنى صحيح فالأول هو الذي دل عليه الحديث فإنه قال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به » وفى الأثر : « إن العبد إذا ركب الدابة أتاه الشيطان وقال له : تغن ، فإن لم يتغن . قال له : تمن » فإن

النفس لا بد لها من شيء فى الغالب تترنم به . فمن لم يترنم بالقرآن ترنم بالشعر .

وسماع القرآن هو سماع النبيين والمؤمنين والعارفين والعالمين. قال الله تعالى :(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) الآية . وقال : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ) الآية.
وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) الآيتين وقال : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) الآية . وقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) الآية .

وهذا « السماع » هو الذي شرعه الله للمؤمنين فى الصلاة وخارج الصلاة ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ والناس يستمعون .

ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي موسى وهو يقرأ . فجعل يستمع لقراءته . وقال : « مررت بك البارحة وأنت تقرأ . فجعلت أستمع لقراءتك » فقال : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً . أي : لحسنته تحسيناً » . وكان عمر يقول لأبي موسى : ذكرنا ربنا فيقرأوهم يستمعون لقراءته . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن مسعود : « اقرأ علي القرآن . فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟! قال :

إني أحب أن أسمعه من غيري . فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت هذه الآية : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا) فقال : حسبك فنظرت فإذا عيناه تذرفان بالدمع » فهذا هو السماع الذي يسمعه سلف الأمة، وقرونها المفضلة . وخيار الشيوخ إنما يقولون بهذا السماع .

وأما الاستماع إلى القصائد الملحنة والاجتماع عليها . فأكابر الشيوخ لم يحضروا هذا السماع ، كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم . وأبي سليمان الداراني ؛ ومعروف الكرخي ، والسري السقطي وأمثالهم من المتأخرين : كالشيخ عبد القادر ، والشيخ عدي بن مسافر ، والشيخ أبي مدين ، والشيخ أبي البيان ، وأمثال هؤلاء المشايخ : فإنهم لم يكونوا يحضرون هذا السماع ، وقد حضره طائفة من الشيوخ وأكابرهم ثم تابوا منه ورجعوا عنه . وكان الجنيد — رحمه الله تعالى — لا يحضره في آخر عمره . ويقول : من تكلف السماع فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به ، أي من قصد السماع صار مفتوناً ، وأما من سمع بيتاً يناسب حاله بلا اقتصاد فهذا يستريح به .

والذين حضروا السماع المحدث الذي جعله الشافعي من إحداث الزنادقة ، لم يكونوا يجتمعون مع مردان ونسوان ، ولا مع مصلصلات وشبابات وكانت أشعارهم مزهدات مرققات .

فأما « السماع » المشتمل على منكرات الدين ، فمن عده من القربات استتيب ، فإن تاب وإلا قتل . وإن كان متأولا جاهلا بين له خطأ تأويله ، وبين له العلم الذي يزيل الجهل . هذا من كونه طريقاً إلى الله .

وأما كونه محرماً على من يفعله على وجه اللهو واللعب لا على وجه القربة إلى الله ، فهذا فيه تفصيل ، فأما المشتمل على الشبابات والدفوف المصلصلة ، فمذهب الأئمة الأربعة تحريمه . وذكر أبو عمرو ابن الصلاح أن هذا ليس فيه خلاف فى مذهب الشافعي ، فإن الخلاف إنما حكى فى اليراع المجرد ، مع أن العراقيين من أصحاب الشافعي لم يذكروا فى ذلك نزاعا ، ولا متقدمة الخراسانيين ، وإنما ذكره متأخرو الخراسانيين .

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الذين يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف على وجه الذم لهم وأن الله معاقبهم . فدل هذا الحديث على تحريم المعازف . والمعازف هي آلات اللهو عند أهل اللغة ، وهذا اسم يتناول هذه الآلات كلها .

ولهذا قال الفقهاء : إن من أتلفها فلا ضمان عليه إذا أزال التالف

المحرم . وإن أتلف المالية ففيه نزاع . ومذهب أحمد المشهور عنه . ومالك أنه لاضمان فى هذه الصور أيضاً . وكذلك إذا أتلف دنان الخمر . وشق ظروفه وأتلف الأصنام المتخذة من الذهب ، كما أتلف موسى عليه السلام العجل المصنوع من الذهب وأمثال ذلك .

وسئل

عمن يؤاخي النسوان . ويظهر شيئاً من جنس الشعبذة ؛ كنقش شيء من القطن أو الحرقة باللاذن ، أو بغير ذلك . أو يمسك النار مباشرة بكفه أو بأصابعه بلا حائل بينه وبينها . إلخ .

فأجاب : وأما مؤاخاة النساء ، وإظهار الإشارات المذكورة ؛ فهي من أحوال إخوان الشياطين . وأصحاب هذه الإشارات ليس فيهم ولي لله ، بل هم بين حال شيطاني ، ومحال بهتاني . من حال إبليس ومحال تلبيس .

وهؤلاء أصل حالهم أن الشياطين تنزل على من يعمل ما يحبه الشيطان من الكذب والفجور ، فإذا خرج أحدهم عن العقل والدين وصار من المتهوكين — الذين يطيعون الشيطان ، ويعصون الرحمن . وله شخير ونخير كأصوات الحمير ، يحضر أحدهم السماع ، ويؤاخون النسوان ، ويتخذون الجيران ويرقصون كالقرود ، وينقرون فى صلاتهم الركوع والسجود . يبغضون سماع القرآن واتباع شريعة الرحمن — تنزلت عليهم الشياطين التى تنزل على كل أفاك أثيم ؛ فمنهم من ترفعه

في الهواء ، ومنهم من تدخله النـــار ، ومنهم من يمشي ومعــه ضوء يريه أن ذلك كرامات ، ومنهم مــن يستغيث بالشيخ ويخــاطب من يستغيث بالشيخ حتى يرى أن ذلك كرامة للشيخ ، ومنهم من يحضر طعاماً وفاكهة وحلوى ، إلى أمور أخرى قد عرفناها وعرفنـــا من وقعت له هذه الأمور وأضعافها .

فإذا تاب الرجل والتزم دين الإسلام وصلى صلاة المسلمين وتاب عما حرمه رب العالمين واعتاض بسماع القرآن عن سماع الشيطان ذهبت تلك الأحوال الشيطانية ، فإن قوي إيمانه حصلت له مقامات الصالحين وإلا كفاه أن يكون من أهل جنة النعيم ، وهذا بين يعرف المسلم أن هذه الأحوال شيطانية لا كرامات إيمانية .

وسئل

عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة من الفساد ، ومنهم من يقول : إن غاية التحقيق ، وكمال سلوك الطريق ، ترك التكليف . بحيث أنه إذا ألزم بالصلاة يقوم ، ويقول : خرجنا من الحضرة ووقفنا بالباب .

فأجاب : أما من جعل كمال التحقيق الخروج من التكليف . فهذا مذهب الملاحدة من القرامطة والباطنية ، ومن شابههم من الملاحدة المنتسبين إلى علم أو زهد أو تصوف أو تزهد ،

يقول أحدهم : إن العبد يعمل حتى تحصل له المعرفة ، فإذا حصلت زال عنه التكليف ، ومن قال هذا فإنه كافر مرتد باتفاق أئمة الإسلام فإنهم متفقون على أن الأمر والنهي جار على كل بالغ عاقل إلى أن يموت قال تعالى : (وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ) . قال الحسن البصري : لم يجعل الله لعمل المؤمن غاية دون الموت ؛ وقرأ هذه الآية . و « اليقين » هنا ما بعد الموت . كما قال تعالى في الآية الأخرى : (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ) ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في

الحديث الصحيح لما مات عثمان بن مظعون : « أما عثمان فإنه أتاه اليقين من ربه » وقد سئل الجنيد بن محمد ـــ رحمه الله تعالى ـــ عمن يقول : إنه وصل من طريق البر إلى أن تسقط عنه الأعمال .

فقال : الزنا والسرقة وشرب الخمر خير من قول هؤلاء ، ولقد صدق الجنيد ـــ رحمه الله ـــ فإن هذه كبائر ، وهذا كفر ونفاق ، والكبائر خير من الكفر ، والنفاق .

وقول الواحد من هؤلاء : خرجنا من الحضرة إلى الباب ، كلمة حق أريد بها باطل ، فإنهم خرجوا من حضرة الشيطان ، إلى باب الرحمن ، كما يحكى عن بعض شيوخ هؤلاء : أنهم كانوا فى سماع ، فأذن المؤذن فقام إلى الصلاة ، فقال : كنا فى الحضرة ، فصرنا إلى الباب ولا ريب أنه كان فى حضرة الشيطان ، فصار على باب الرحمن ، أما كونه أنه كان في حضرة الله ، فصار على بابه ؛ فهذا ممتنع عند من يؤمن بالله ورسوله فإنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم: « بأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد » وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

وفى الصحيح عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه

سئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة على مواقيتها » وفى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول ما يحاسب عليه العبد من عمله صلاته » وآخر شيء وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته الصلاة ، وكان يقول « جعلت قرة عيني في الصلاة » وكان يقول : « أرحنا يابلال بالصلاة » ولم يقل أرحنا منها ، فمن لم يجد قرة عينه وراحة قلبه فى الصلاة ، فهو منقوص الإيمان . قال الله تعالى : (وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » .

وهذا باب واسع ، لا ينكره من آمن بالله ورسوله .

سئل شيخ الإسلام

الشيخ تقي الدين أحمد بن تيميــة ــــ رحمه الله ــــ عمــا أحدثه الفقراء المجردون ، والمطوعون من صحبة الشبــاب ، ومؤاخاة النســوان والماجريات ، وحط رؤوسهم بين يدي بعضهم بعضاً ، وأكلهم مال بعضهم بعضا بغير حق ، ومن جنى يشال تحت رجليــه، ويضرب بغــير حق ، ووقوفهم مكشوفى الرؤوس ، منحنين كالراكعين ، ووضع النعال على رؤوسهم ، ولباسهم الصوف ، والرقع ، والسجادة ، والسبحة، وأكل الحشيشة . وإذا جاءهم أمرد فرضوا عليه أن يصحبه واحد منهم ، ويطلبوا منه الصحبة، هل يجوز ذلك؟ أو نقل عن الصحابة ؟؟

فأجاب : الحمد لله ، أما صحبــة المردان ، على وجه الاختصــاص بأحدهم ــ كما يفعلونه ــ مع ما ينضم إلى ذلك من الخلوة بالأمرد الحسن ، ومبيته مع الرجل ، ونحو ذلك . فهذا من أفحش المنكرات عند المسلمين ، وعند اليهود ، والنصارى ، وغيرهم ، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام ودين سائر الأمم ، بعد قوم لوط : تحريم الفاحشة اللوطية ، ولهذا بين الله فى كتابه أنه لم يفعلها قبل قوم لوط أحد من العالمين ، وقد عذب الله

المستحلين لها بعذاب ما عذبه أحداً من الأمم ، حيث طمس أبصارهم، وقلب مدائنهم ، فجعل عاليها سافلها ، وأتبعهم بالحجارة من السماء .

ولهذا جاءت الشريعة بأن الفاحشة التى فيها القتل : يقتل صاحبها بالرجم بالحجارة . كما رجم النبي صلى الله عليه وسلم اليهوديين وماعز بن مالك والأسلمي والغامدية وغيرهم ، ورجم بعده خلفاؤه الراشدون .

والرجم شرعه الله لأهل التوراة والقرآن ، وفى السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . ولهذا اتفق الصحابة على قتلهما جميعاً ؛ لكن تنوعوا فى صفة القتل : فبعضهم قال : يرجم ، وبعضهم قال : يرمى من أعلى جدار فى القرية ويتبع بالحجارة ، وبعضهم قال : يحرق بالنار ؛ ولهذا كان مذهب جمهور السلف والفقهاء أنهما يرجمان بكرين كانا أو ثيبين ، حرين كانا أو مملوكين ، أو كان أحدهما مملوكا للآخر ، وقد اتفق المسلمون على أن من استحلها بمملوك أو غير مملوك فهو كافر مرتد .

وكذلك مقدمات الفاحشة عند التلذذ بقبلة الأمرد ، ولمسه ، والنظر إليه ، هو حرام باتفاق المسلمين . كما هو كذلك فى المرأة الأجنبية . كما ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العينان

تزنيـان وزناهما النظر والأذن تزنى وزناها السمع ، واليد تزني وزناها البطش ، والرجل تزني وزناها المشي ، والقلب يتمنى ويشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكـذبه » .

فإذا كان المستحل لمـا حرم الله كافراً ، فـكيف بمن يجعــله قربـة وطريقا إلى الله تعالى ؟!. قال الله تعـالى :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وسبب نزول الآية أن غـير الحمس من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فجعل الله كشف عوراتهم فاحشة ، وبين أن الله لا يأمر بالفحشاء ، ولهذا لمـا حج أبو بكر الصديق قبل حجة الوداع نادى بأمر النبي صلى الله عليه وسلم : ـ وكان يحج المسلم والمشرك ـ لا يحــج بعـد العـام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . فكيف بمن يستحل إتيـان الفاحشة الكبرى ؟ أو ما دونها ؟ ويجعل ذلك عبادة وطريقاً .

وإن كان طائفـة من المتفلسفة ومن وافقهــم من ضلال المتنكسة جعلوا عشق الصور الجميلة من جملة الطريق الــتى تزكى بها النفوس ، فليس هذا من دين المسلمين ، ولا اليهود ولا النصارى . وإنمـا هو دين أهل الشرك الذين شرعوا من الدين مالم يأذن به الله .

وإن كان أتباع هؤلاء زادوا على ما شرعه ساداتهم وكبراؤهم ، زيادات من الفواحش التي لا ترضاها القرود ؛ فإنه قد ثبت في صحيح البخاري « أن أبا عمران رأى في الجاهلية قرداً زنى بقردة ، فاجتمعت عليه القرود فرجمته » . ومثل ذلك قد شاهده الناس في زماننا في غير القرود ، حتى الطيور .

فلو كانت صحبة « المردان » المذكورة خالية عن الفعل المحرم ، فهي مظنة لذلك ، وسبب له ؛ ولهذا كان المشايخ العارفون بطريق الله يحذرون من ذلك . كما قال فتح الموصلي : أدركت ثلاثين من الأبدال كل ينهاني عند مفارقتي إياه عن صحبة الأحداث . وقال معروف الكرخي : كانوا ينهون عن ذلك . وقال بعض التابعين : ما أنا على الشاب الناسك من سبع يجلس إليه ، بأخوف مني عليه من حدث يجلس إليه . وقال سفيان الثوري ، وبشر الحافي : إن مع المرأة شيطاناً ، ومع الحدث شيطانين . وقال بعضهم : ما سقط عبد من عين الله إلا ابتلاه الله بصحبة هؤلاء الأحداث . وقد دخل من فتنة الصور والأصوات على النساك ما لا يعلمه إلا الله ، حتى اعترف أكابر الشيوخ بذلك . وتاب منهم من تداركه الله برحمته .

ومعلوم أن هذا من باب اتباع الهوى بغير هدى من الله . (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ) ومن استحل ذلك ، أو

اتخذه ديناً كان ضالاً مضاهياً للمشركين والنصارى ، ومن فعله مع اعترافه بأنه ذنب أو معصية كان عاصياً أو فاسقاً .

وكذلك مؤاخاة « المرأة الأجنبية » بحيث يخلو بها ، وينظر منها ما ليس للأجنبي أن ينظره حرام باتفاق المسلمين ، واتخاذ ذلك ديناً وطريقاً كفر وضلال . والمال الذي يؤخذ لأجل إقرارهم ، ومعونة على محادثة الرجل الأمرد ، هي من جنس جعل القوادة ، ومطالبتهم له بالصحبة من جنس العرس على البغي . والله سبحانه أباح النكاح غير مسافحين ، ولا متخذي أخدان ، فالمرأة المسافحة تزني بمن اتفق لها ، وكذلك الرجل المسافح : الذي يزني مع من اتفق له . وأما المتخذ الخدن فهو الرجل يكون له صديقة ، والمرأة يكون لها صديق ، فالأمرد المخادن للواحد من هؤلاء من جنس المرأة المتخذة خدناً . وكذلك الجعل والمال الذي يؤخذ على هذا من جنس مهر البغي . وجعل القوادة ونحو ذلك .

وأما « الماجريات » فإذا اختصم رجلان بقول أو فعل وجب أن يقام في أمرها بالقسط . قال الله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ) . وقال (كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ) وقال : (وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ) الآية .

وقد روى : أن اقتتالهما كان بالجريد والنعال .

وقد قال تعالى : (لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) الآية . وقال : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) .
وقال : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) . وقال : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ) الآية .

فإن كان الشخصان قد اختصما نظر أمرهما ، فإن تبين ظلم أحدهما ، كان المظلوم بالخيار بين الاستيفاء والعفو ، والعفو أفضل ، فإن كان ظلمه بضرب أو لطم فله أن يضربه ، أو يلطمه ، كما فعل به عند جماهير السلف ، وكثير من الأئمة ، وبذلك جاءت السنة . وقد قيل : إنه يؤدب ، ولا قصاص في ذلك .

وإن كان قد سبه فله أن يسبه مثل ما سبه ، إذا لم يكن فيه عدوان على حق محض لله ، أو على غير الظالم . فإذا لعنه أو سماه باسم كلب ونحوه ، فله أن يقول له مثل ذلك . فإذا لعن أباه لم يكن له أن يلعن أباه ؛ لأنه لم يظلمه . وإن افترى عليه كذباً لم يكن له أن يفتري عليه كذباً ؛ لأن الكذب حرام لحق الله . كما قال كثير من

العلماء في القصاص فى البدن : أنه إذا جرحه أو خنقه أو ضربه ونحو ذلك يفعل به كما فعل . فهذا أصح قولي العلماء ، إلا أن يكون الفعل محرماً لحق الله ، كفعل الفاحشة ، أو تجريعه الخمر ، فقد نهى عن مثل هذا أكثرهم ، وإن كان بعضهم سوغه بنظير ذلك .

وإذا اعترف الظالم بظلمه ، وطلب من المظلوم أن يعفو عنه ، ويستغفر الله له ، فهذا حسن مشروع . كما ثبت فى الصحيح عن أبى الدرداء : « أنه كان بين أبى بكر وعمر كلام ، وأن أبا بكر طلب من عمر أن يستغفر له فأبى عمر ، ثم ندم . فطلب أبا بكر فوجده قد سبقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يغفر الله لك يا أبا بكر ، ثم قال : أيها الناس ! إنى قد جئت إليكم فقلت : إنى رسول الله فقلتم : كذبت ؛ وقال أبو بكر : صدقت فهل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ » .

وإذا طلب من المظلوم العفو بعد اعتراف الظالم فأجاب : كان من المحسنين الذين أجرهم على الله ، وإن أبى إلا طلب حقه لم يكن ظالماً . لكن يكون قد ترك الأفضل الأحسن ، فليس لأحد أن يخرجه عن أهل الطريق بمجرد ذلك ، كما قد يفعله كثير من الناس . قال الله تعالى :

(وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

فإنه لو كان من ترك الإحسان الذي [لا يجب عليه] يحسب خارجاً عن الطريق خرج عنه جمهور أهله .

و « أولياء الله » على صنفين : مقربين سابقين ، وأصحاب يمين مقتصدين . كما روى البخاري فى صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة . وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

ثم أكثر هؤلاء الذين يذمون تارك العفو إنما يذمونه لأهوائهم لكون الظالم صديق أحدهم أو وريثه ، أو قرينه ونحو ذلك .

والله سبحانه أوجب على عباده العدل فى الصلح ، كما أوجبه فى الحكم . فقال تعالى : (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) . وقيد الإصلاح الذي يثيب عليه بالإخلاص ، فقال

تعالى : (وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) .
إذ كثير من الناس يقصدون الاصلاح : إما لسمعة وإما لرياء .

ومن العدل أن يمكن المظلوم من الانتصاف ، ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم فى العفو ، ويصالحه الظالم ، وترغيبه فى ذلك . فإن الله تعالى إذا ذكر فى القرآن حقوق العباد التى فيها وزر الظالم ندب فيها إلى العفو . كقوله سبحانه : (وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ) . وقوله : (وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ) .

وعن أنس قال : « ما رفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء فى القصاص إلا أمر فيه بالعفو » وليس من شرط طلب العفو من المظلوم أن الظالم يقوم على قدميه ، ولا يضع نعليه على رأسه ، ونحو ذلك مما قد يلتزمه بعض الناس . وإنما شرطه التمكين من نفسه حتى يستوفى منه الحق . فإذا أمكن المظلوم من استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه . ثم المستحق بالخيار إن شاء [عفا] ، وإن شاء استوفى .

وللمظلوم أن يهجره ثلاثاً ، وأما بعد الثلاث فليس له أن يهجره على ظلمه إياه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن

يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصد هـذا ، ويصد هـذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » .

وأما إذا كان الذنب لحـق الله كالكذب ، والفواحش ، والبـدع المخالفة للـكتـاب والسنة ، أو إضاعة الصلاة بالتفريط وواجباتها ، ونحو ذلك ، فهذا لابد فيـه من التوبة . وهل يشـترط مـع التوبة إظهار الإصلاح فى العمل ؟ على قولين للعلماء . وإذا كان لهم شيخ مطاع فإن له أن يعزر العاصي بحسب ذنبه تعزيراً يليق بمثله أن يفعله بمثله ، مثل هجره مدة ، كما هجر النبي صلى الله عليه وسـلم الثلاثة المخلفين .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون : يسوسـون النـاس فى دينهم ودنيـاهم ، ثم بعـد ذلك ، تفرقت الأمور ، فصـار أمراء الحرب يسوسون الناس فى أمر الدنيا والدين الظاهر ، وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع إليهم فيه من العلم والدين .

وهؤلاء أولو أمر تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التى هم أولو أمرهـا . وهو كذلك فسر أولو الأمر فى قوله : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ) بأمراء الحرب : من المـلوك ونوابهم ، وبأهل العـلم والدين الذين يعلمون الناس دينهم ، ويأمرونهم بطاعة الله ، فإن قوام الدين بالكتاب والحديد ، كما قال تعالى : (لَقَدْ

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ) .

وإذا كان ولاة الحرب عاجزين ومفرطين عن تقويم المنتسبين إلى الطريق ، كان تقويمهم على رؤسائهم وكان لهم من تعزيرهم وتأديبهم ما يتمكنون منه ، إذا لم يقم به غيرهم . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وهو أضعف الإيمان » .

وقد يكون تعزيره بنفيه عن وطنه مدة ، كما كان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — ينفي من شرب الخمر . وكما نفى نصر بن حجاج إلى البصرة ، لخوف فتنة النساء به ، وقد مضت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنفي في الزنا ، ونفى المخنث ، وأمر بعض المشايخ للمسيء بالسفر هذا أصله . وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل طويل ببيان الذنوب ، والتوبة منها ، وشروط التوبة ، وهو حال مستصحب للعبد من أول أمره إلى آخر عمره ، كما قال تعالى : (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا) الآية .

وإذا تاب العبد ، وأخرج من ماله صدقة للتطهر من ذنبه : كان ذلك حسناً مشروعا . قال تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ

عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار . والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : فتنة الرجل فى أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » وقال كعب بن مالك : إن من توبتى أن أنخلع من مالي صدقة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمسك عليك بعض مالك . فهو خير لك » .

لكن لايجوز إلزامه بصدقة . ولا تجب عليه لا بإخراج ثيابه ، ولا غير ذلك . ولا يجوز أن يقصد مطالبته بالتوبة أن يؤكل ماله ، لاسيما إذا أعنت فجعل له ذنب من غير ذنب ؛ فإن هذا يبقى كذبا وظلما ، وأكلا للمال بالباطل ، ولا يجب أن يكون ما يخرجه صدقة مصروفاً فى طعام يأكلونه ؛ بل الخيرة إليه بوضعه حيث يكون أصلح وأطوع لله ولرسوله .

والذي ينبغي أن ينظر أحق الناس بتلك الصدقة فتدفع إليه ، وأما أن يجعل من جملة التوبة صنعة طعام ، ودعوة ، فهذا بدعة . فما زال الناس يتوبون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من غير هذه البدعة .

وأما الشكر الذي فيه إخراج شيء من ماله : كملبوس ، أو غيره شكراً لله على ما أنعم به ، إما من توبة ، وإما إصلاح ، ونحو ذلك . فهو حسن مشروع ؛ فإن كعب بن مالك لما جاءه المبشر بتوبة الله عليه : أعطاه ثوبه الذي كان عليه ، واستعار ثوباً ذهب فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم . لكن تعيين اللباس وغيره فى الشكر بدعة أيضاً . فإن فعل ذلك أحياناً فهو حسن ، فلا يجعل واجباً أو مستحباً ، إلا ما جعله الله ورسوله واجباً أو مستحباً ، ولا ينكر إلا ما كرهه الله ورسوله . فلا دين إلا ما شرع الله ، ولا حرام إلا ما حرم الله .

وضرب الرجل تحت رجليه هو من التعزير ؛ فإن كان له ذنب يستحق به مثل ذلك من دين الله ، والمؤدب له ممن له أهلية ذلك ، فهو حق . وأما كشف الرؤوس ، والانحناء فليس من السنة . وإنما هو مأخوذ عن عادات بعض الملوك ، والجاهلية ، والمخلوق لا يسأل كشف رأس ، ولا ركوع له . وإنما يركع لله فى الصلاة ، وكشف الرؤوس لله فى الإحرام .

وأما « لباس الصوف » فقد لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم جبة الصوف فى السفر ؛ ولهذا قال الأوزاعي : لباس الصوف فى السفر سنة ، وفى الحضر بدعة .

ومعنى هذا أن المداومة عليه فى الحضر [بدعة] . كما روينا عن محمد بن سيرين : أنه بلغه أن أقواماً يتحرون لباس الصوف . قال : أظن هؤلاء بلغهم أن المسيح كان يلبس الصوف ، فلبسوه لذلك ، وهدى نبينا أحب إلينا من هدي غيره . وفى السنن « أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يشهدون الجمعة ، ولباسهم الصوف » وفى الحديث الآخر « قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قوم مجتابى النمار » والنمار من الصوف . وقد لبس النبي صلى الله عليه وسلم : القطن ، وغيره .

ومعنى هذا أن اتخاذ لبس الصوف عبادة وطريقا إلى الله [بدعة] . وأما لبسه للحاجة والانتفاع به للفقير لعدم غيره ، أو لعدم لبس غيره ، ونحو ذلك فهو حسن مشروع . والامتناع من لبسه مطلقاً مذموم ، لا سيما من يدعى لبسه كبراً وخيلاء ، لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فإنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال : « من جر إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » وقال : « بينما رجل يجر إزاره خيلاء إذ خسفت به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وقد كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب : المرتفع ، والمنخفض .

وليس لأحد أن يجعل من الدين ، ومن طريق الله إلا ما شرعه الله ورسوله ، لاسيما إذا كان التقييد فيه فساد الدين والدنيا . فإن

لبس الصوف ، وترقيع الثوب عند الحاجة حسن ، من أفعال السلف .
والامتناع من ذلك مطلقاً مذموم .

فأما من عمد إلى ثوب صحيح فمزقه ثم يرقعه بفضلات ، ويلبس الصوف الرفيع الذي هو أعلى من القطن ، والكتان . فهذا جمع فسادين :

أما من جهة الدين فإنه يظن التقييد بلبس المرقع والصوف من الدين ، ثم يريد أن يظهر صورة ذلك دون حقيقته ، فيكون ما ينفقه على ذلك أعظم مما ينفق على القطن الصحيح ، وهذا مخالف للزهد .

وفساد المال بإتلافه وإنفاقه فيما لا ينفع لا في الدين ، ولا فى الدنيا .

ما تقول السادة الأعلام

أئمة الإسلام ، ورثة الأنبياء عليهم السلام — رضي الله عنهم ، وأرضاهم ، فى صفة « سماع الصالحين » ما هو ؟ وهل سماع القصائد الملحنة بالآلات المطربة هو من القرب والطاعات . أم لا ؟ وهل هو مباح ، أم لا ؟

فأجاب : شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية — رضي الله عنه —

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

أصل هذه « المسألة » أن يفرق بين السماع الذي ينتفع به فى الدين ، وبين ما يرخص فيه رفعاً للحرج ، بين سماع المتقربين ، وبين سماع المتلعبين(١) .

فأما السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده ، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين ، وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم ، وزكاة

(١) نسخة المتقدمين بدل المتقربين والمتأخرين بدل المتلعبين .

نفوسهم ــ فهو سماع آيات الله تعالى ، وهو سماع النبيين والمؤمنين ، وأهل العلم ، وأهل المعرفة .

قال الله تعالى ، لما ذكر من ذكره من الأنبياء فى قوله : (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا)
وقال : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .
وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا).
وقال تعالى : (وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ) .

وبهذا السماع أمر الله تعالى ، كما قال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) وعلى أهله أثنى كما فى قوله تعالى : (فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ) .
وقال في الآية الأخرى : (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ)
فالقول الذي أمروا بتدبره هو القول الذي أمروا باستماعه . وقد قال تعالى : (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ) .

وقال تعالى : (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ) .

وكما أثنى على هذا السماع ، ذم المعرضين عن هذا السماع ، فقال تعالى : (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا) ، وقال تعالى : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) . وقال تعالى : (وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) ، وقال تعالى : (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ) .
وقال تعالى : (وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) . وقال تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا) .

وهذا هو السماع الذي شرعه الله لعباده فى صلاة الفجر ، والعشائين ، وغير ذلك .

وعلى هذا السماع كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتمعون ، وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقون يستمعون . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبى موسى :

يا أبا موسى ؛ ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون . وهذا هو السماع الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يشهده مع أصحابه ، ويستدعيه منهم ، كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : « قال النبي صلى الله عليه وسلم : اقرأ علي القرآن ، قلت : أقرأه عليك وعليك أنزل ؟! فقال : إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية . (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا) قال : حسبك ، فنظرت فإذا عيناه تذرفان » وهذا هو الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يسمعه هو وأصحابه . كما قال تعالى : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) و « الحكمة » هي السنة .

وقال تعالى : (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ) وكذلك غيره من الرسل ، قال تعالى : (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۙ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وبذلك يحتج عليهم يوم القيامة . كما قال تعالى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ

وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ) وقال تعالى : (وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ) .

وقد أخبر أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح ، والمعرض عنه ضال شقي . قال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ) . وقال تعالى : (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ) .

و « ذكر الله » يراد به تارة : ذكر العبد ربه ، ويراد به الذكر الذي أنزله الله . كما قال تعالى : (وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ) . وقال نوح : (أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ) وقال : (وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) . وقال : (مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ) . وقال : (وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) . وقال : (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ

مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ) وقال : (وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ) .

وهذا « السماع » له آثار إيمانية من المعـارف القدسية ، والأحوال الزكيـة ، يطول شرحها ووصفهـا ، وله فى الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ، ودموع العين ، واقشعرار الجلد ، وهـذا مذكور فى القرآن . وهذه الصفات موجودة فى الصحـابة ، ووجدت بعـدهم آثار ثلاثة : الاضطراب ، والصراخ ، والإغمـاء ، والموت في التـابعين .

و « بالجملة » فهذا السماع هو أصل الإيمان ؛ فإن الله بعث محمداً صـلى الله عليه وسـلم إلى الخلق أجمعين ليبلغهم رسالات ربهم فمن سمع ما بلغـه الرسول فآمن به واتبعـه اهتـدى ، وأفلح ، ومن أعرض عـن ذلك ضل وشقى .

وأما « سماع المـكاء والتصدية » وهو التصفيق بالأيدي ، والمـكاء مثل الصفير ونحوه ، فهذا هو سماع المشركين الذي ذكره الله تعالى فى قوله: (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً) فأخبر عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد ، والتصويت بالفم قربة وديناً . ولم يكن النبي ــ صلى الله عليـه وسلم ــ وأصحابه يجتمعون على مثل هـذا السماع ، ولا حضروه قط ، ومن قال إن النبي صلى الله عليه وسلم حضر ذلك فقد كذب

عليه ، باتفاق أهل المعرفة بحديثه وسنته . والحديث الذي ذكره محمد بن طاهر المقدسي فى « مسألة السماع » و « فى صفة التصوف » ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السهروردي صاحب عوارف المعارف « أن النبى صلى الله عليه وسلم أنشده أعرابى :

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طبيب لها ولا راقى

إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيتى وترياقى

وأنه تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه ، فقال له معاوية : ما أحسن لهوكم ! فقال له : مهلاً يامعاوية ! ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر الحبيب » فهو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن .

وأظهر منه كذباً حديث آخر يذكرون فيه : أنه لما بشر الفقراء بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا ، وخرقوا ثيابهم ، وأن جبرائيل نزل من السماء فقال : يامحمد ! إن ربك يطلب نصيبه من هذه الخرق ، فأخذ منها خرقة فعلقها بالعرش ، وأن ذلك هو زيق الفقراء » . وهذاوأمثاله إنما يرويه من هو منأجهل الناس بحال النبى صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ومن بعدهم ، ومعرفة الإسلام والإيمان .

وهو يشبه رواية من روى : « أن أهل الصفة قاتلوا مع الكفار لما انكسر المسلمون يوم حنين ، أو غير يوم حنين ، وأنهم قالوا نحن مع الله ، من كان الله معه كنا معه » ، ومن روى : « أن صبيحة المعراج وجد أهل الصفة يتحدثون بسر كان الله أمر نبيه أن يكتمه ، فقال لهم : من أين لكم هذا ؟ قالوا : الله علمنا إياه ، فقال : يارب ! ألم تأمرنى ألا أفشيه ؟ فقال :أمرتك أنت ألا تفشيه ، ولكنى أنا أخبرتهم به » ونحو هذه الأحاديث التى يرويها طوائف منتسبون إلى الدين ، مع فرط جهلهم بدين الإسلام ، فيبنون عليها من النفاق والبدع ما يناسبها . تارة يسقطون التوسط بالرسول وأنهم يصلون إلى الله تعالى من غير طريق الرسل مطلقاً . فهذا أعظم من كفر اليهود والنصارى ؛ فإن أولئك أسقطوا وساطة رسول واحد ، ولم يسقطوا وساطة الرسل مطلقاً .

وهؤلاء إذا أسقطوا وساطة الرسل مطلقاً عن أنفسهم ، كان هذا أغلظ من كفر أولئك ؛ لكنهم يقولون : لا تسقط الوساطة إلا عن الخاصة ، لا عن العامة ، فيكونون أكفر من أهل الكتاب من جهة إسقاط السفارة مطلقاً عنهم ، فى بعض الأحوال ، وأهل الكتاب أكفر من جهة إسقاط سفارة محمد مطلقاً ، بل أهل الكتاب الذين يقولون إنه رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب خير من هؤلاء ، فإن أولئك أخرجوا عن رسالته من له كتاب ، وهؤلاء يخرجون عن رسالته من لا يبقى معه إلا خيالات

ووساوس وظنون ألقاها إليه الشيطان ، مع ظنه أنه من خواص أولياء الله وهو من أشد أعداء الله ، وتارة يجعلون هذه الآثار المختلقة حجة فيما يفترونه من أمور تخالف دين الإسلام ، ويدعون أنها من أسرار الخواص ، كما يفعل الملاحدة والقرامطة والباطنية ، وتارة يجعلونها حجة في الإعراض عن كتاب الله وسنة نبيه إلى ما ابتدعوه من اتخاذ دينهم لهواً ولعباً .

وبالجملة قد عرف بالاضطرار من دين الإسلام : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرع لصالحي أمته وعبادهم وزهادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحنة ، مع ضرب بالكف أو ضرب بالقضيب ، أو الدف . كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعته ، واتباع ما جاء به من الكتاب والحكمة ، لا فى باطن الأمر ، ولا فى ظاهره ، ولا لعامي ولا لخاصي ، ولكن رخص النبي صلى الله عليه وسلم فى أنواع من اللهو فى العرس ونحوه ، كما رخص للنساء أن يضربن بالدف فى الأعراس ، والأفراح . وأما الرجال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ، ولا يصفق بكف ، بل قد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « التصفيق للنساء والتسبيح للرجال . ولعن المتشبهات من النساء بالرجال . والمتشبهين من الرجال بالنساء » .

ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء ، كان السلف يسمون من يفعل ذلك من الرجال مخنثاً ، ويسمون الرجال

المغنين مخانيثاً ، وهذا مشهور فى كلامهم .

ومن هذا الباب حديث عائشة رضي الله عنها لما دخل عليها أبوها – رضي الله عنه – فى أيام العيد ، وعندها جاريتان من الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث . فقال أبو بكر رضي الله عنه : « أبمزمار الشيطان فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم معرضاً بوجهه عنهما ، مقبلاً بوجهه الكريم إلى الحائط . فقال : دعهما يا أبا بكر ! فإن لكل قوم عيداً ، وهذا عيدنا أهل الإسلام » ففي هذا الحديث بيان : أن هذا لم يكن من عادة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الاجتماع عليه ، ولهذا سماه الصديق مزمار الشيطان ، والنبي صلى الله عليه وسلم أقر الجواري عليه معللاً ذلك بأنه يوم عيد ، والصغار يرخص لهم فى اللعب فى الأعياد ، كما جاء فى الحديث « ليعلم المشركون أن فى ديننا فسحة » وكان لعائشة لعب تلعب بهن ويجئن صواحباتها من صغار النسوة يلعبن معها ، وليس فى حديث الجاريتين أن النبي صلى الله عليه وسلم استمع إلى ذلك . والأمر والنهي إنما يتعلق بالاستماع ؛ لا بمجرد السماع . كما فى الرؤية فإنه إنما يتعلق بقصد الرؤية ، لا بما يحصل منها بغير الاختيار .

وكذلك فى اشتمام الطيب إنما ينهى المحرم عن قصد الشم ، فأما إذا شم ما لم يقصده فإنه لا شيء عليه . وكذلك في مباشرة المحرمات كالحواس

الخمس : من السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس . إنما يتعلق الأمر والنهي مــن ذلك بمـا للعبد فيه قصـد وعمل ، وأما مايحصل بغير اختياره فلا أمر فيه ولا نهي .

وهذا مما وجه به الحديث الذي في السنن عن ابن عمر « أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم فسمع صوت زمارة راع ، فعـدل عن الطريق ، وقال : هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ حتى انقطع الصوت »

فإن من الناس من يقول : بتقدير صحة هذا الحديث ، لم يأمر ابن عمر بسد أذنيه ، فيجاب بأنه كان صغيراً ، أو يجاب بأنه لم يكن يستمع ، وإنما كان يسمع . وهذا لا إثم فيــه . وإنمـا النبى صلى الله عليه وسلم فعل ذلك طلباً للأفضل والأكمل ، كمن اجتاز بطريق فسمع قوماً يتـكلمون بكلام محرم فسد أذنيه كيلا يسمعه ، فهـذا حسن ، ولو لم يسد أذنيه لم يأثم بذلك . اللهم إلا أن يكون فى سماعـه ضرر ديني لا يندفع إلا بالسد .

و « بالجملة » فهـذه (مسألة السماع) تكلم كثير من المتـأخرين فى السماع : هل هو محظور ؟ أو مكروه ؟ أو مباح ؟ وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج ، بل مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقاً إلى الله يجتمع عليــه أهل الديانات لصلاح القلوب ، والتشويق إلى المحبوب ،

والتخويف من المرهوب ، والتحزين على فوات المطلوب ، فتستنزل به الرحمة ، وتستجلب به النعمـة ، وتحرك به مواجيد أهـل الإيمان ، وتستجلى به مشاهـد أهل العرفان ، حتى يقول بعضهم : إنه أفضل لبعض النـاس أو للخاصة من سماع القرآن من عـدة وجوه ؛ حتى يجعلونه قوتاً للقلوب ، وغذاء للأرواح ، وحادياً للنفوس ، يحدوها إلى السير إلى الله ، ويحثها على الإقبال عليه .

ولهذا يوجد من اعتاده ، واغتذى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به ، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد فى سماع الأبيات ؛ بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية ، وألسن لاغية ، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصـدية خشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ، وأصغت القلوب ، وتعاطت المشروب .

فمن تكلم فى هذا : هل هو مكروه ، أو مباح ؟ وشبهه بما كان النساء يغنين به فى الأعياد والأفراح ، لم يكن قـد اهتدى إلى الفرق بين طريق أهل الخسارة ، والفلاح ، ومن تكلم فى هـذا : هل هو من الدين ؟ ومن سماع المتقين ؟ ومن أحوال المقربين والمقتصدين ؟ ومن أعمال أهل اليقين ؟ ومن طريق المحبين المحبوبـين ؟ ومن أفعال السالكين ، إلى رب العالمين ؟ كان كلامه فيه من وراء وراء ، بمنزلة من سئل عن علم الكلام المختلف فيه : هل هو محمود ؟ أو مذموم ؟ فأخذ

يتكلم فى جنس الـكلام وانقسامه : إلى الاسم ، والفعل ، والحرف ، أو يتـكلم فى مـدح الصمت ، أو في أن الله أباح الـكلام والنطق ، وأمثال ذلك مما لا يمس المحل المشتبه المتنازع فيه .

فإذا عرف هذا : فاعلم أنه لم يكن فى عنفوان القرون الثلاثة المفضلة لا بالحجاز ولا بالشام ، ولا باليمن ، ولا مصر ، ولا المغرب ، ولا العراق ، ولا خراسان ، من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصديـة ، لا بدف ، ولا بكف ، ولا بقضيب ، وإنما أحدث هـذا بعد ذلك فى أواخر المـائة الثـانية ، فلما رآه الأئمة أنكروه .

فقال : الشافعي — رضي الله عنه — خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه « التغبير » يصدون به الناس عن القرآن . وقال يزيـد ابن هارون : ما يغبر إلا الفاسق ، ومتى كان التغبير ؟!.

وسئل عنه الإمام أحمد ، فقال : أكرهه ، هو محـدث . قيل : أنجلس معهم ؟ قال : لا ، وكذلك سائر أئمـة الدين كرهوه ، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه ، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم ، ولاالفضيل ابن عياض ، ولا معروف الكرخي ، ولا أبو سليمان الداراني ، ولا أحمد ابن أبي الحواري ، والسري السقطي ، وأمثالهم . والذين حضروه من

الشيوخ المحمودين تركوه فى آخر أمرهم . وأعيان المشايخ عابوا أهله ، كما فعل ذلك عبد القادر ، والشيخ أبو البيان ، وغيرهما من المشايخ .

وما ذكره الشافعي ــ رضى الله عنه ــ من أنه من إحداث الزنادقة كلام إمام خبير بأصول الإسلام ، فان هذا السماع لم يرغب فيه ويدعو إليه فى الأصل إلا من هو متهم بالزندقة : كابن الراوندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وأمثالهم : كما ذكر أبو عبد الرحمن السلمى ــ في مسألة السماع ــ عن ابن الراوندي . قال : إنه اختلف الفقهاء في السماع : فأباحه قوم ، وكرهه قوم . وأنا أوجبه ــ أو قال ــ وأنا آمر به . فخالف إجماع العلماء فى الأمر به .

و « الفارابى » كان بارعا فى الغناء الذي يسمونه « الموسيقا » . وله فيه طريقة عند أهل صناعة الغناء ، وحكايته مع ابن حمدان مشهورة . لما ضرب فأبكاهم ، ثم أضحكهم ، ثم نومهم ثم خرج .

و « ابن سينا » ذكر فى اشاراته ، فى « مقامات العارفين » فى الترغيب فيه ، وفى عشق الصور ، ما يناسب طريقة أسلافه الفلاسفة ، والصابئين المشركين ، الذين كانوا يعبدون الكواكب ، والأصنام . كأرسطو وشيعته من اليونان ــ ومن اتبعه كبرقلس ، وثامسطيوس ، والإسكندر الأفروديسي ، وكان أرسطو وزير الإسكندر بن فيلبس المقدوني ،

الذي تؤرخ له اليهــود والنصارى ، وكان قبــل المسيح بنحــو ثلاثمائــة سنة .

وأما « ذو القرنين » المــذكور في القرآن الذي بنى « الســد » فكان قبل هؤلاء بزمن طويل ، وأما الإسكندر الذي وزر له أرسطو : فانه إنما بلغ بلاد خراسان ونحوها في دولة الفرس ، لم يصل إلى السد وهذه الأمور مبسوطة في غير هذا الموضع .

و « ابن سينا » أحدث فلسفة ركبها من كلام سلفه اليونان ، ومما أخذه من أهــل الــكلام المبتدعــين الجهمية ، ونحوهم . وسلك طريق الملاحدة الإسماعيلية في كثير من أمورهم العلمية والعملية ، ومزجــه بشيء من كلام الصوفية ، وحقيقته تعود إلى كلام إخوانه الإسماعيليــة القرامطة الباطنية ؛ فإن أهل بيته كانوا من الإسماعيلية : أتباع الحاكم الذي كان بمصر وكانوا فى زمنه ، ودينهم دين أصحاب « رسائل إخوان الصفا » ، وأمثالهــم من أئمة منافقي الأمم الذين ليسوا مسلمين ، ولا يهود ولا نصارى .

وكان الفارابي قد حذق فى حروف اليونان التى هي تعاليم أرسطو ، وأتباعه من الفلاسفة المشائين ، وفى أصواتهم صناعة الغنــاء ، ففي هؤلاء الطوائف من يرغب فيه ويجعله مما تزكو بــه النفوس ، وترتاض به ، وتهذب به الأخلاق .

وأما « الحنفاء » أهل ملة إبراهيم الخليل ، الذي جعله الله إماماً ، وأهل دين الإسلام ، الذي لا يقبل الله من أحد ديناً غيره ، المتبعون لشريعـة خاتم الرسل محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فهؤلاء ليس فيهم من يرغب فى ذلك ، ولا يدعو إليه . وهؤلاء هم أهل القرآن ، والإيمان ، والهدى ، والسعد ، والرشاد ، والنور ، والفلاح ، وأهــل المعرفة والعلم ، واليقين والاخلاص ، والمحبة له ، والتوكل عليه ، والخشية له ، والإنابة إليه .

ولكن قد حضره أقوام من أهــل الإرادة ، وممن له نصيب من المحبة ، لما فيه من التحريك لهــم ، ولم يعلموا غائلته ولا عرفوا مغبته ، كما دخل قوم من الفقهاء أهل الإيمــان بمــا جاء به الرسول في أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام ، ظناً منهم أنه حق موافق ولم يعلموا غائلته ، ولا عرفوا مغبته ، فإن القيام بحقائق الدين علمــاً وحالاً وقولاً وعملاً ومعرفة وذوقاً وخبرة لا يستقل بها أكثر الناس ، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة ؛ فإن الله بعث محمداً صــلى الله عليــه وسـلم بالهدى ودين الحق ليظهره عــلى الدين كله ، وكفى بالله شهيداً .

وقد قال تعالى : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا) وقد قال تعالى : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) . قال عبد الله ابن مسعود : « خط لنا رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ خطاً ، وخط خطوطاً ، عن يمينه وشماله . ثم قال : هـــذا سبيل الله ، وهذه سبل عـلى كل سبيل منهـا شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) .

وقد قال تعالى : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) فقد رضي الله عن السابقين رضا مطلقاً ، ورضى عمـــن اتبعهـم بإحسان . قال عبد الله ابن مسعود : إن الله نظر فى قلب محمد فوجد قلبه خير قلوب العباد ، فاصطفاه لرسالته ، ثم نظر فى قلوب الناس بعد قلبـه ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوه قبيحاً فهو عنـد الله قبيح . وقال عبد الله بن مسعود : من كان منـكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد صـلى الله عليه وسـلم أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلهـا تكلفاً ، قوم اختـارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينـه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

ومن كان له خبرة بحقـائق الدين ، وأحوال القلوب ومعارفها ، وأذواقها ، ومواجيدهـا ، عرف أن سمـاع المكاء والتصدية لا يجلب

للقلوب منفعة ، ولا مصلحة إلا وفى ضمن ذلك من الضرر والمفسدة ما هو أعظم منه ، فهو للروح كالخمر للجسد ، يفعل فى النفوس فعل حميا الكئوس .

ولهذا يورث أصحابه سكراً أعظم من سكر الخمر ، فيجدون لذة بلا تمييز ، كما يجد شارب الخمر ؛ بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر ، ويصدهم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة ، أعظم مما يصدهم الخمر ، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ، أعظم من الخمر ، حتى يقتل بعضهم بعضاً من غير مس بيد ، بل بما يقترن بهم من الشياطين ؛ فإنه يحصل لهم أحوال شيطانية ، بحيث تتنزل عليهم الشياطين فى تلك الحال ، ويتكلمون على ألسنتهم ، كما يتكلم الجني على لسان المصروع : إما بكلام من جنس كلام الأعاجم ، الذين لا يفقه كلامهم ، كلسان الترك ، أو الفرس ، أو غيرهم ، ويكون الإنسان الذي لبسه الشيطان عربياً لا يحسن أن يتكلم بذلك ، بل يكون الكلام من جنس كلام من تكون تلك الشياطين من إخوانهم . وإما بكلام لا يعقل ولا يفهم له معنى ، وهذا يعرفه أهل المكاشفة « شهوداً وعياناً » .

وهؤلاء الذين يدخلون النار مع خروجهم عن الشريعة هم من هذا النمط ، فإن الشياطين تلابس أحدهم ، بحيث يسقط إحساس بدنه ، حتى إن المصروع يضرب ضرباً عظيماً ، وهو لا يحس بذلك ، ولا

يؤثر فى جلده ، فكذلك هؤلاء تلبسهم الشياطين ، وتدخل بهم النار وقد تطير بهم في الهواء ، وإنما يلبس أحدهم الشيطان مع تغيب عقله ، كما يلبس الشيطان المصروع .

وبأرض الهند ، والمغرب ، ضرب من الزط يقال لأحدهم : المصلى فانه يصلى النار كما يصلى هؤلاء ، وتلبسه ويدخلها ويطير في الهواء ، ويقف على رأس الزج ، ويفعل أشياء أبلغ مما يفعله هؤلاء ، وهم من الزط الذين لا خلاق لهم ، والجن تخطف كثيراً من الإنس وتغيبه عن أبصار الناس ، وتطير بهم فى الهواء ، وقد باشرنا من هذه الأمور ما يطول وصفه ، وكذلك يفعل هذا هؤلاء المتولهون والمنتسبون إلى بعض المشايخ إذا حصل له وجد سماعي ، وعند سماع المكاء والتصدية ، منهم من يصعد فى الهواء ، ويقف على زج الرمح ، ويدخل النار ، ويأخذ الحديد المحمى بالنار ثم يضعه على بدنه . وأنواع من هذا الجنس ، ولا تحصل له هذه الحال عند الصلاة ، ولا عند الذكر ، ولا عند قراءة القرآن ؛ لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية ، تطرد الشياطين ، وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين .

قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا

غشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينـة ، وحفتهم الملائـكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » وقد ثبت فى الحديث الصحيح « أن أسيد بن حضير لما قرأ سورة الكهف ، تنزلت الملائـكة لسماعها ، كالظلة فيها السرج » .

ولهذا كان المـكاء والتصدية يدعو إلى الفواحش والظلم ، ويصـد عن حقيقة ذكر الله تعالى والصـلاة كما يفعل الخمر ، والسلف يسمونه تغبيراً ؛ لأن التغبير هو الضرب بالقضيب على جلد من الجلود ، وهو ما يغبر صوت الانسان على التلحين ، فقد يضم إلى صوت الإنسان . إما التصفيق بأحد اليدين على الأخرى ، وإما الضرب بقضيب على فخذ وجلد ، وإما الضرب باليد عـلى أختها ، أو غيرها على دف أو طبل ، كناقوس النصارى ، والنفخ فى صفارة كبوق اليهود . فمن فعل هذه الملاهي على وجه الديانة والتقرب فلا ريب فى ضلالته وجهالته .

وأما إذا فعلها على وجه التمتع والتلعب فمذهب الأئمة الأربعـة : أن آلات اللهو كلها حرام ، فقد ثبت فى صحيح البخاري وغيره « أن النبي صلى الله عليـه وسلم أخبر أنه سيكون من أمته من يستحل الحر والحرير ، والخمر والمعازف ، وذكر أنهم يمسخون قردة وخنازير » .

و « المعازف » هي الملاهي كما ذكر ذلك أهل اللغة . جمع معزفة وهي الآلة التى يعزف بهـا : أى يصوت بهـا . ولم يذكر أحد من

أتباع الأئمة فى آلات اللهو نزاعاً . إلا أن بعض المتأخرين من أصحاب الشافعي ذكر فى اليراع وجهين ، بخلاف الأوتار ونحوها ؛ فإنهم لم يذكروا فيها نزاعاً . وأما العراقيون الذين هم أعلم بمذهبه وأتبع له ، فلم يذكروا نزاعاً لا فى هذا ، ولا فى هذا ، بل صنف أفضلهم فى وقته أبو الطيب الطبري شيخ أبي إسحق الشيرازي فى ذلك مصنفاً معروفاً . ولكن تكلموا فى الغناء المجرد عن آلات اللهو : هل هو حرام ؟ أو مكروه ؟ أو مباح ؟ وذكر أصحاب أحمد لهم فى ذلك ثلاثة أقوال ، وذكروا عن الشافعي قولين ، ولم يذكروا عن أبي حنيفة ومالك فى ذلك نزاعاً .

وذكر زكريا بن يحيى الساجي ــ وهو أحد الأئمة المتقدمين المائلين إلى مذهب الشافعي ــ أنه لم يخالف فى ذلك من الفقهاء المتقدمين إلا إبراهيم بن سعد من أهل البصرة ، وما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي وأبو القاسم الشقيري ، وغيرهما : عن مالك . وأهل المدينة . فى ذلك فغلط . وإنما وقعت الشبهة فيه ، لأن بعض أهل المدينة كان يحضر السماع ، إلا أن هذا ليس قول أئمتهم وفقهائهم ؛ بل قال إسحاق بن عيسى الطباع : سألت مالكا عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء ، فقال : إنما يفعله عندنا الفساق ، وهذا معروف فى كتاب أصحاب مالك ، وهم أعلم بمذهبه ، ومذهب أهل المدينة من طائفة في

المشرق لا علم لها بمذهب الفقهاء ، ومن ذكر عن مالك أنه ضرب بعود فقد افترى عليه ، وإنما نبهت على هذا ؛ لأن فيما جمعه أبو عبد الرحمن السلمي ، ومحمد بن طاهر المقدسي ، فى ذلك حكايات وآثار ، يظن من لا خبرة له بالعلم وأحوال السلف أنها صدق .

وكان « الشيخ أبو عبد الرحمن » — رحمه الله — فيه من الخير والزهد والدين والتصوف ما يحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ والآثار التى توافق مقصوده كل ما يجده ؛ فلهذا يوجد في كتبه من الآثار الصحيحة ، والكلام المنقول ، ما ينتفع به فى الدين . ويوجد فيها من الآثار السقيمة ، والكلام المردود ، ما يضر من لا خبرة له . وبعض الناس توقف في روايته . حتى أن البيهقي كان إذا روى عنه يقول : حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه . وأكثر الحكايات التى يرويها أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة عنه ، فإنه كان أجمع شيوخه لكلام الصوفية .

و « محمد بن طاهر » له فضيلة جيدة من معرفة الحديث ورجاله ، وهو من حفاظ وقته ، لكن كثير من المتأخرين : أهل الحديث ، وأهل الزهد ، وأهل الفقه ، وغيرهم ، إذا صنفوا فى باب ذكروا ما روى فيه من غث وسمين ، ولم يميزوا ذلك ، كما يوجد ممن يصنف في الأبواب مثل المصنفين : فى فضائل الشهور ، والأوقات ، وفضائل الأعمال

والعبادات ، وفضائل الأشخــاص ، وغير ذلك من الأبواب ، مثل ما صنف بعضهم في فضائل رجب ، وغيرهم فى فضائل صلوات الأيام والليالي وصلاة يوم الأحد ، وصلاة يوم الاثنين ، وصلاة يوم الثلاثاء ، وصلاة أول جمعــة فى رجب ، وألفيــة رجب ، وأول رجب ، وألفية نصف شعبان ، وإحياء ليلتى العيدين ، وصلاة يوم عاشوراء .

وأجود ما يروى من هذه الصلوات حديث صلاة التسبيح ، وقد رواه أبو داود ، والترمذي . ومع هذا فلم يقل به أحد من الأئمــة الأربعة ؛ بل أحمد ضعف الحديث ، ولم يستحب هذه الصلوات . وأما ابن المبارك فالمنقول عنه ليس مثل الصلاة المرفوعة إلى النبي صــلى الله عليه وسلم ؛ فإن الصلاة المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليس فيها قعدة طويلة بعد السجدة الثانية ، وهذا يخالف الأصول فـلا يجوز أن تثبت بمثل هذا الحديث .

ومن تدبر الأصول علم أنــه موضوع . وأمثال ذلك ؛ فإنها كلهـا أحاديث موضوعة ، مكذوبة ، باتفاق أهل المعرفة ، مع أنها توجد فى مثل كتاب أبي طالب ، وكتاب أبي حامد ، وكتاب الشيخ عبد القادر ؛ وتوجد فى مثل أمالى أبى القاسم بن عساكر ، وفيما صنفه عبد العزيز الكناني ، وأبو علي بن البنا ، وأبو الفضل بن ناصر ، وغيرهم . وكذلك

أبو الفرج بن الجوزي : يذكر مثل هذا فى فضائل الشهور ، ويذكر في الموضوعات أنه كذب موضوع .

والذين جمعوا الأحاديث في « الزهد والرقائق » يذكرون ماروى فى هذا الباب ، ومن أجل ما صنف فى ذلك ، وأندره « كتاب الزهد » لعبد الله بن المبارك . وفيه أحاديث واهية ، وكذلك « كتاب الزهد » لهناد بن السري ، ولأسد بن موسى ، وغيرهما . وأجود ما صنف فى ذلك : « الزهد » للإمام أحمد ، لكنه مكتوب على الأسماء ، وزهد ابن المبارك على الأبواب . وهذه الكتب يذكر فيها زهد الأنبياء ، والصحابة ، والتابعين .

ثم إن المتأخرين على صنفين : منهم من ذكر زهد المتقدمين ، والمتأخرين . كأبي نعيم فى الحلية ، وأبى الفرج بن الجوزي فى « صفة الصفوة » .

ومنهم من اقتصر على ذكر المتأخرين ، من حين حدث اسم الصوفية كما فعل أبو عبد الرحمن السلمي فى « طبقات الصوفية » وصاحبه أبو القاسم القشيري فى الرسالة ، ثم الحكايات التى يذكرها هؤلاء بمجردها ، مثل ابن خميس ، وأمثاله ، فيذكرون حكايات مرسلة ، بعضها صحيح ، وبعضها باطل .

مثل ذكرهم : أن الحسن صحب علياً . وقد اتفق أهل المعرفة على أن « الحسن البصري » لم يلق علياً ، ولا أخذ عنه شيئاً ، وإنما أخذ عن أصحابه : كالأحنف بن قيس ، وقيس بن معاذ ، وغيرهما . وكذلك حكاياتهم : أن الشافعي وأحمد اجتمعا لشيبان الرعين ، وسألاه عن سجود السهو . وكذلك اتفق أهل المعرفة على أن الشافعي وأحمد لم يلقيا شيبان الرعين ، بل ولا أدركاه .

وقد ذكر أبو عبد الرحمن فى « حقائق التفسير » عن جعفر بن محمد ، وأمثاله من الأقوال المأثورة ما يعلم أهل المعرفة أنه كذب على جعفر بن محمد ، فإن جعفراً كذب عليه ما لم يكذب على أحد ؛ لأنه كان فيه من العلم والدين ، ما ميزه الله به ، وكان هو وأبوه – أبو جعفر – وجده – علي بن الحسين – من أعيان الأئمة علما ودينا ، ولم يجئ بعد جعفر مثله [فى أهل البيت] . فصار كثير من أهل الزندقة والبدع ينسب مقالته إليه حتى أصحاب « رسائل إخوان الصفا » ينسبونها إليه . وهذه الرسائل صنفت بعد موته بأكثر من مائتى سنة ، صنفت عند ظهور مذهب الإسماعيلية العبيديين ، الذين بنوا القاهرة ، وصنفت على مذهبهم الذي ركبوه من قول الفلاسفة اليونان ، ومجوس الفرس ، والشيعة من أهل القبلة ؛ ولهذا قال العلماء : إن ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض .

ونسبوا إلى جعفر أنه تكلم فى تقدم المعرفة عن حوادث الكون : مثل اختلاج الأعضاء ، والرعود ، والبروق ، والهفت ، وغير ذلك مما نزه الله جعفراً وأئمة أهل بيته عن الكلام فيه . وهذا مبسوط فى غير هذا الموضع .

و (المقصود هنا) أن المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من المنقولات : ينبغي للإنسان أن يميز بين صحيحه وضعيفه ، كما ينبغي مثل ذلك فى المعقولات ، والنظريات ، وكذلك فى الأذواق ، والمواجيد ، والمكاشفات ، والمخاطبات ، فإن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة ، فيها حق وباطل ، ولا بد من التمييز فى هذا وهذا .

وجماع ذلك أن ما وافق كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه ، وما كان عليه أصحابه فهو حق ، وما خالف ذلك فهو باطل . فإن الله يقول : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) وقال تعالى . (كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى

مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

وفى صحيح مسلم عن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : « كان إذا قام من الليل يقول : « اللهم ! رب جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » . والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع .

وقد تكلمنا على كلام المشايخ فى السماع ، وما ذكره القشيري فى رسالته هو وغيره عنهم ، وشرحنا ذلك كلمة كلمة ، لكن هذا الموضع لا يتسع لذلك .

وجماع الأمر في ذلك أنه إذا كان الكلام فى السماع وغيره ، هل هو طاعة وقربة ؟ فلا بد من دليل شرعى يدل على ذلك ، وإذا كان الكلام : هل هو محرم ؟ أو غير محرم ؟ فلا بد من دليل شرعى يدل على ذلك . إذ ليس الحرام إلا ما حرمه الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله ، والله سبحانه وتعالى ذم المشركين على أنهم ابتدعوا ديناً لم يشرعه الله لهم ، وأنهم حرموا ما لم يحرمه الله تعالى . فقال تعالى :

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ) وقال تعالى :
(وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ) .

وكثير من الناس يفعل فى السماع وغيره : ما هو من جنس الفواحش المحرمة ، وما يدعو إليها ، وزعمهم أن ذلك يصلح القلوب ، فهو مما أمر الله به ؛ فهؤلاء لهم نصيب من معنى هذه الآية . قال تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

وقد كان المشركون يحرمون من الطعام واللباس أشياء ، ويتخذون ذلك ديناً ، وكان بعض الصحابة قد عزموا على الترهب ، فأنزل الله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا) الآية .

وجماع الدين أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ، ولا نعبده بالبدع ، كما قال تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) . قال الفضيل بن عياض : أخلصه ، وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟.

قال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً ، لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً ، لم يقبل . حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وهذا الذي ذكره الفضيل مما اتفق عليه أئمة المشايخ ، كما قال أبو سليمان الداراني : إنه لتمر بقلبي النكتة من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين : الكتاب ، والسنة ، وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً : ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله ، حتى يسمع فيه بأثر ، فإذا سمع بأثر كان نوراً على نور .

وقال الجنيد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث ، لم يصح له أن يتكلم فى علمنا هذا ، وقال سهل ابن عبد الله التستري : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل ، وقال : كل عمل على ابتداع فإنه عذاب على النفس ، وكل عمل بلا اقتداء فهو غش النفس .

وقال أبو عثمان النيسابورى : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلا نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة ؛ لأن الله يقول : (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ) . ومثل هذا كثير فى كلامهم .

وإذا كان كذلك فليس لأحد أن يسلك إلى الله إلا بما شرعه الرسول لأمته ، فهو الداعى إلى الله بإذنه ، الهادي إلى صراطه ، الذي من أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار ، فهو الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي . آخره . والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وصحبه وسلم .

سئل شيخ الإسلام رحمه الله

عن « السماع »

فأجاب : « السماع » الذي أمر الله به ورسوله ، واتفق عليه سلف الأمة ومشايخ الطريق : هو سماع القرآن ، فإنه سماع النبيين ، وسماع العالمين ، وسماع العارفين ، وسماع المؤمنين ، قال سبحانه وتعالى :

(أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا)

وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗاۤ * وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا * وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا) .

وقال تعالى : (وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ)

وقال تعالى : (إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ

ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) وقال سبحانه وتعالى : (وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) وقال تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) .

وقال سبحانه وتعالى : (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ) وقال سبحانه وتعالى : (ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ) وهذا كثير فى القرآن .

وكما أثنى سبحانه وتعالى على هذا السماع ، فقد ذم المعرضين عنه ، كما قال : (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)
وقال : (وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا)
وقال سبحانه وتعالى : (فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ)
وقال سبحانه وتعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) وقال : (إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ)
وقال سبحانه وتعالى : (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ

فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

وهذا كثير فى كتاب الله ، وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإجماع المسلمين يمدحون من يقبل على هذا السماع ، ويحبه ويرغب فيه ويذمون من يعرض عنه ، ويبغضه ؛ ولهذا شرع الله للمسلمين فى صلاتهم ولطسهم ، شرع سماع المغرب ، والعشاء الآخر .

وأعظم سماع فى الصلوات سماع الفجر الذي قال الله فيه : (وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا) وقال عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ـ :

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الفجر ساطع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع

وهو مستحب لهم خارج الصلوات ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه خرج على أهل الصفة . وفيهم واحد يقرأ وهم

يستمعون ، فجلس معهم » . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ والباقون يستمعون .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : يا أبا موسى ! ذكرنا ربنا . فيقرأ وهم يستمعون . ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي موسى وهو يقرأ : فجعل يستمع لقراءته ، وقال : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير داود » وقال : « يا أبا موسى ! لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك » فقال : لو علمت أنك تستمع لقراءتى لحبرته لك تحبيراً أي : حسنته لك تحسيناً .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن» . « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال : « لله أشد أذنا للرجل حسن الصوت ،من صاحب القينة إلى قينته » وقوله : « ما أذن الله إذنا » أي سمع سمعاً ، ومنه قوله : (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أي سمعت ، والآثار فى هذا كثيرة .

وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية . والأحوال الزكية يطول شرحها ، ووصفها . وله فى الجسد آثار محمودة . من خشوع القلب ، ودموع العين ، واقشعرار الجلد ، وقد ذكر الله هذه الثلاثة فى القرآن . وكانت موجودة فى أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه

وسلم ـ الذين أثنى عليهم فى القرآن ، ووجد بعدهم فى التابعين آثار ثلاثة : الاضطراب ، والاختلاج ، والإغماء ـ أو الموت ، والهيام ؛ فأنكر بعض السلف ذلك ـ إما لبدعتهم ، وإما لحبهم .

وأما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك ؛ فإن السبب إذا لم يكن محظوراً كان صاحبه فيما تولد عنه معذوراً . لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم ، وضعف قلوبهم عن حمله فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم كانوا مذمومين ، كما ذم الله الذين قال فيهم : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ وقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ولو أثر فيهم آثارا محمودة لم يجذبهم عن حد العقل . لكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة كانوا محمودين أيضاً ومعذورين .

فأما سماع القاصدين لصلاح القلوب فى الاجتماع على ذلك : إما نشيد مجرد ، نظير الغبار . وإما بالتصفيق ، ونحو ذلك . فهو السماع المحدث فى الإسلام ، فإنه أحدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الذين أثنى عليهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال : « خير القرون : القرن الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وقد كرهه أعيان الأمة ولم يحضره أكابر المشايخ .

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن .

وسئل عنه الإمام أحمد بن حنبل فقال : هو محدث أكرهه ، قيل له : إنه يرق عليه القلب. فقال : لا تجلسوا معهم. قيل له : أيهجرون ؟ فقال : لا يبلغ بهم هذا كله . فبين أنه بدعة لم يفعلها القرون الفاضلة، لا في الحجاز ، ولا فى الشام ، ولا فى اليمن ، ولا فى مصر ، ولا فى العراق ، ولا خراسان . ولو كان للمسلمين به منفعة فى دينهم لفعله السلف .

ولم يحضره مثل : إبراهيم بن أدهم ، ولا الفضيل بن عياض ، ولا معروف الكرخي ، ولا السرى السقطي ، ولا أبو سليمان الداراني ، ولا مثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ عدي ، والشيخ أبي البيان ، ولا الشيخ حياة ، وغيرهم ؛ بل فى كلام طائفة من هؤلاء ـ كالشيخ عبد القادر وغيره ـ النهي عنه . وكذلك أعيان المشايخ .

وقد حضره من المشايخ طائفة ، وشرطوا له المكان ، والإمكان ، والخلان ، والشيخ الذي يحرس من الشيطان . وأكثر الذين حضروه من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه فى آخر عمرهم . كالجنيد فإنه حضره وهو شاب ، وتركه فى آخر عمره . وكان يقول : من تكلف السماع

فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به . فقد ذم من يجتمع له ، ورخص فيمن يصادفه من غير قصد . ولا اعتماد للجلوس له .

وسبب ذلك أنه مجمل ليس فيه تفصيل . فإن الأبيات المتضمنة لذكر الحب والوصل والهجر والقطيعة والشوق والتتيم والصبر على العذل واللوم ونحو ذلك ، هو قول مجمل ، يشترك فيه محب الرحمن ، ومحب الأوثان ، ومحب الإخوان ، ومحب الأوطان ، ومحب النسوان ، ومحب المردان . فقد يكون فيه منفعة إذا هيج القاطن ، وأثار الساكن ، وكان ذلك مما يحبه الله ورسوله . لكن فيه مضرة راجحة على منفعته : كما فى الخمر والميسر ، فإن فيها إثما كبيرا، ومنافع للناس ، وإثمها أكبر من نفعها .

فلهذا لم تأت به الشريعة لم تأت إلا بالمصلحة الخالصة أو الراجحة .

وأما ما تكون مفسدته غالبة على مصلحته ، فهو بمنزلة من يأخذ درهما بدينار ، أو يسرق خمسة دراهم ، ويتصدق منها بدرهمين .

وذلك أنه يهيج الوجد المشترك ، فيثير من النفس كوامن تضره آثارها ، ويغذي النفس ويفتنها ، فتعتاض به عن سماع القرآن ، حتى لا يبقى فيها محبة لسماع القرآن ولا التذاذ به ، ولا استطابة له . بل

يبقى فى النفس بغض لذلك ، واشتغال عنه . كمن شغل نفسه بتعلم التوراة والإنجيل ، وعلوم أهل الكتاب ، والصابئين واستفادته العلم والحكمة منها ، فأعرض بذلك عن كتاب الله وسنة رسوله ، إلى أشياء أخرى تطول .

فلما كان هذا السماع لا يعطى بنفسه ما يحبه الله ورسوله من الأحوال والمعارف ، بل قد يصد عن ذلك ، ويعطي ما لا يحبه الله ورسوله ، أو ما يبغضه الله ورسوله ، لم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا سلف الأمة ولا أعيان مشايخها .

ومن نكته أن الصوت يؤثر في النفس بحسنه : فتارة يفرح ، وتارة يحزن ، وتارة يغضب ، وتارة يرضي ، وإذا قوي أسكر الروح فتصير فى لذة مطربة من غير تمييز . كما يحصل للنفس إذا سكرت بالرقص ، وللجسد أيضاً إذا سكر بالطعام والشراب ، فإن السكر هو الطرب الذي يؤثر لذة بلا عقل ، فلا تقوم منفعته بتلك اللذة بما يحصل من غيبة العقل ، التى صدت عن ذكر الله وعن الصلاة ، وأوقعت العداوة والبغضاء .

و « بالجملة » فعلى المؤمن أن يعلم : أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يترك شيئاً يقرب إلى الجنة إلا وقد حدث به ، ولا شيئاً يبعد عن

النار إلا وقد حدث به ، وأن هذا السماع لو كان مصلحة لشرعه الله ورسوله ، فإن الله يقول : (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا) وإذا وجد فيه منفعــة لقلبه ، ولم يجد شاهد ذلك ، لا من الـكتاب ولا من السنة ، لم يلتفت إليه .

قال سهل بن عبد الله التستري : كل وجد لا يشهد له الـكتاب والسنة فهو باطل .

وقال أبو سليمان الداراني : إنه لتلم بقلبي النـكتة من نكت القوم فلا أقبلهــا إلا بشاهــدين عدلين : الـكتاب ، والسنــة . وقال أبو سليمان أيضاً : ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله ، حتى يجد فيه أثراً ، فإذا وجد فيه أثراً كان نوراً على نور .

وقال الجنيد بن محمد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنــة ، فمن لم يقرأ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يصلح له أن يتكلم فى علمنا .

و « أيضاً » فإن الله يقول فى الكتاب (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً) قال السلف من الصحابة والتابعين : « المـكاء » كالصفير ونحــوه ، من التصويت ، مثل الغنــاء . و « التصــدية » : التصفيق باليد . فقد أخبر الله عن المشركين أنهم كانوا يجعلون التصدية

والغناء لهم صلاة ، وعبادة وقربة ، يعتاضون به عن الصلاة التى شرعها الله ورسوله .

وأما المسلمون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان : فصلاتهم وعبادتهم القرآن ، واستماعه ، والركوع والسجود ، وذكر الله ودعاؤه ، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله ، فمن اتخذ الغناء والتصفيق عبادة وقربة فقد ضاهى المشركين فى ذلك ، وشابههم فيما ليس من فعل المؤمنين : المهاجرين والأنصار . فإن كان يفعله فى بيوت الله فقد زاد فى مشابهته أكبر وأكبر ، واشتغل به عن الصلاة وذكر الله ودعائه ، فقد عظمت مشابهته لهم . وصار له كفل عظيم من الذم الذي دل عليه قوله سبحانه وتعالى : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً)

لكن قد يغفر له ذلك لاجتهاده ، أو لحسنات ماحية ، أو غير ذلك . فيما يفرق فيه [بين] المسلم والكافر . لكن مفارقته للمشركين فى غير هذا لا يمنع أن يكون مذموماً خارجاً عن الشريعة ، داخلاً فى البدعة التى ضاهى بها المشركين ، فينبغي للمؤمن أن يتفطن لهذا ، ويفرق بين سماع المؤمنين الذي أمر الله به ورسوله ، وسماع المشركين الذي نهى الله عنه ورسوله .

ويعلم أن هذا السماع المحدث هو من جنس سماع المشركين، وهو إليه أقرب منه إلى سماع المسلمين . وإن كان قد غلط فيه قوم من صالح المسلمين، فإن الله لا يضيع أجرهم وصلاحهم، لما وقع من خطئهم. فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر واحد »

وهذا كما أن جماعة من السلف قاتلوا أمير المؤمنين عليا بتأويل ، وعلي بن أبي طالب وأصحابه أولى بالحق منهم ، وقد قال فيهم : من قصد الله فله الجنة .

وجماعة من السلف والخلف استحلوا بعض الأشربة بتأويل — وقد ثبت بالكتاب والسنة تحريم ما استحلوه — وإن كان خطؤهم مغفوراً لهم .

والذين حضروا هذا السماع من المشايخ الصالحين شرطوا له شروطاً لا توجد إلا نادراً ، فعامة هذه السماعات خارجة عن إجماع المشايخ ، ومع هذا فاخطأوا — والله يغفر لهم خطأهم فيما خرجوا به عن السنة — وإن كانوا معذورين .

والسبب الذي أخطأوا فيه أوقع أمما كثيرة فى المنكر الذي نهوا

عنه ، وليس للعالمين شرعة ولا منهاج ، ولا شريعة ولا طريقة أكمل من الشريعة التي بعث الله بها نبيه محمداً — صلى الله عليه وسلم — كما كان يقول في خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم »

ومن غلط بعضهم توهمه أن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين حضروا هذا السماع ، سماع المكاء والتصدية ، والغناء والتصفيق بالأكف ، حتى روى بعض الكاذبين أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشده أعرابي شعراً . قوله :

قد لسعت حية الهوى كبدي
فلا طبيب لها ولا راقي

سوى الحبيب الذي شغفت به
فمنه دائي ومنه ترياقي

وأن النبي صلى الله عليه وسلم تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه . وقال : « ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر المحبوب » . وهذا الحديث كذب بإجماع العارفين بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنته وأحواله .

كما كذب بعض الكذابين : أن أهل الصفة قاتلوا المؤمنين مع

المشركين ، وأمثال هذه الأمور المكذوبة إنما يكذبها من خرج عن أمر الله ورسوله ، وأطبقت عليه طوائف من الجاهلين بأحوال الرسول وأصحابه ؛ بل بأصول الإسلام .

وأما « الرقص » فلم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا أحد من الأئمة بل قد قال الله فى كتابه : (وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ) وقال فى كتابه : (وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا) أي : بسكينة ، ووقار .

وإنما عبادة المسلمين الركوع والسجود ؛ بل الدف والرقص فى الطابق لم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا أحد من سلف الأمة ؛ بل أمروا بالقرآن فى الصلاة ، والسكينة . ولو ورد على الإنسان حال يغلب فيها حتى يخرج إلى حالة خارجة عن المشروع ، وكان ذلك الحال بسبب مشروع . كسماع القرآن ونحوه ، سلم إليه ذلك الحال كما تقدم ، فأما إذا تكلف من الأسباب ما لم يؤمر به ، مع علمه بأنه يوقعه فيما لا يصلح له : مثل شرب الخمر ، مع علمه أنها تسكره ، وإذا قال : ورد علي الحال ، وأنا سكران قيل له : إذا كان السبب محظوراً ، لم يكن السكران معذوراً .

فهذه الأحوال الفاسدة من كان فيها صادقا فهو مبتدع ، ضال ، من جنس خفراء العدو ، وأعوان الظلمة ، من ذوي الأحوال الفاسدة الذين ضارعوا عباد النصارى ، والمشركين ، والصابئين . فى بعض ما لهم من الأحوال

ومن كان كاذبا فهو منافق ضال .

قال سيد المسلمين فى وقته ــ الفضيل بن عياض ــ فى قوله تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) قال : أخلصه ، وأصوبه . قيل له : يا أبا علي أما أخلصه ؟ وأصوبه ؟ . قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

وكان يقول : من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام ، ومن زوج كريمته لصاحب بدعة فقد قطع رحمها ، ومن انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً . وأكثر إشارته وإشارات غيره من المشايخ بالبدعة إنما هي إلى البدع فى العبادات والأحوال ، كما قال عن النصارى (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ) وقال ابن مسعود : « عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً فاقشعر جلده ، من مخافة الله ، إلا تحاتت عنه خطاياه كما يتحات الورق اليابس عن الشجرة ، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً فدمعت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً ، وإن اقتصادا فى سبيل وسنة خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة . فاحرصوا أن تكون أعمالكم ــ إن كانت اجتهاداً أو اقتصاداً ــ على منهاج الأنبياء وسنتهم » .

وأما قول القائل : هذه شبكة يصاد بها العوام .

فقد صدق ، فإن أكثرهم إنما يتخذون ذلك شبكة لأجل الطعام ، والتوانس على الطعام . كما قال الله فيهم : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) ومن فعل هذا فهو من أئمة الضلال ، الذين قيل فى رؤوسهم : (يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) .

وأما الصادقون منهم : فهم يتخذونه شبكة ، لكن هي شبكة مخرقة يخرج منها الصيد إذا دخل فيها ، كما هو الواقع كثيراً ؛ فإن الذين دخلوا فى السماع المبتدع فى الطريق ، ولم يكن معهم أصل شرعي شرعه الله ورسوله ، أورثتهم أحوالا فاسدة[1] .

وإلى عبادته ومحبته ، وطاعته ، والرغبة إليه ، والتبتل له والتوكل عليه أحسن من[1] الإسلامية ، والشريعة القرآنية ، والمناهج[1] الموصلة الحقيقة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة .

---

(١) بياض بالأصل .

وإذا كان غير مشروع ، ولا مأمور به ، فالتطهر ، أو الإنصات له ، واستفتاح باب الرحمة هو من جنس عادة الرهبان ، ليس من عبادة أهل الإسلام ، والإيمان ، ولا عبادة أهل القرآن ، ولا من أهل السنة والإحسان . والحمد لله وحده .

سئل

عمن قال إن السماع على الناس حرام وعلي حلال هل يفسق في ذلك أم لا ؟

فأجاب — رضي الله عنه — من ادعى أن المحرمات تحريماً عاماً : كالفواحش ، والظلم ، والملاهي ، حرام على الناس حلال له فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، ومن ادعى فى الدفوف والشباب أنهما حرام على بعض الناس دون بعض فهذا مخالف للسنة ، والإجماع ، وأئمة الدين ، وهو ضال من الضلال . ومن ثم مصراً على مثل ذلك كان فاسقاً . والله أعلم .

سئل

عن أقوام يرقصون على الغناء بالدف ، ثم يسجد بعضهم لبعض على وجه التواضع . هل هذا سنة ؟ أو فعله الشيوخ الصالحون ؟ .

الجواب : لا يجوز السجود لغير الله ، واتخاذ الضرب بالدف والغناء والرقص عبادة هو من البدع التى لم يفعلها سلف الأمة ، ولا أكابر شيوخها : كالفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى ومعروف الكرخي ، والسرى السقطي ، وغير هؤلاء .

وكذلك أكابر الشيوخ المتأخرين مثل : الشيخ عبد القادر ، والشيخ عدى ، والشيخ أبى مدين ، والشيخ أبى البيان، وغير هؤلاء. فإنهم لم يحضروا « السماع البدعى » بل كانوا يحضرون « السماع الشرعى » سماع الأنبياء ، وأتباعهم . كسماع القرآن . والله أعلم .

سئل شيخ الإسلام

عن رجل يحب السماع والرقص ، فأشار عليه رجل . فقال هذه الأبيات :

أنكروا رقصاً وقالوا حرام فعليهم من أجل ذاك سلام

اعبد الله يا فقيه ، وصل والزم الشرع فالسماع حرام

بل حرام عليك ، ثم حلال عند قوم أحوالهم لا تلام

مثل قوم صفوا وبان لهم من جانب الطور جذوة وكلام

فاذا قوبل السماع بلهو فحرام على الجميع حرام

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . هذا الشعر يتضمن منكراً من القول وزوراً ؛ بل أوله يتضمن مخالفة الشريعة ، وآخره يفتح باب الزندقة والإلحاد ، والمخالفة للحقيقة الإلهية الدينية النبوية . وذلك أن قول القائل :

مثل قوم صفوا وبان لهم من جانب الطور جذوة وكلام

يتضمن تمثيل هؤلاء بموسى بن عمران ، الذى نودى من جانب الطور ، ولما رأى النار (قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) .

وهذا قول طائفة من الناس ، يسلكون طريق الرياضة والتصفية ، ويظنون أنهم بذلك يصلون إلى أن يخاطبهم الله ، كما خاطب موسى بن عمران ، وهؤلاء ثلاثة أصناف :

« صنف » يزعمون أنهم يخاطبون بأعظم مما خوطب به موسى بن عمران . كما يقول ذلك من يقوله من أهل الوحدة والاتحاد ، القائلين بأن الوجود واحد . كصاحب « الفصوص » وأمثاله .

فإن هؤلاء يدعون أنهم أعلى من الأنبياء ، وأن الخطاب الذي يحصل لهم من الله أعلى مما يحصل لإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ومعلوم أن هذا الكفر أعظم من كفر اليهود والنصارى ، الذين يفضلون الأنبياء على غيرهم ، لكن يؤمنون ببعض الأنبياء ، ويكفرون ببعض .

و « النوع الثانى » من يقول إن الله يكلمه مثل كلام موسى بن عمران ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والمتصوفة ، الذين

يقولون : إن تكليم موسى فيض فاض على قلبه من العقــل الفعال ، ويقولون : إن النبوة مكتسبة .

و « النوع الثالث » : الذين يقولون : إن موسى أفضل ، لكن صاحب الرياضة قد يسمع الخطاب الذي سمعه موسى ؛ ولكن موسى مقصوداً بالتكليم دون هذا ، كما يوجد هذا فى أخبار صاحب « مشكاة الأنوار» ، وكذلك سلك مسلــكه صاحب « خلع النعلين » ، وأمثالها .

وأما قــوله فى أول الشعر لمن يخاطبــه : « الزم الشرع يا فقيه وصل » . يشعر بأنك أنت تبع الشرع ، وأما نحــن فلنــا إلى الله طريق غير الشرع ، ومن ادعى أن له طريقاً إلى الله يوصله إلى رضوان الله وكرامته وثوابه غير الشريعة التى بعث الله بها رسوله ، فإنه أيضاً كافر ، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه : كطائفة أسقطوا التكليف ، وزعموا أن العبد يصل إلى الله بلا متابعة الرسل .

و « طائفة » يظنون أن الخواص من الأولياء يستغنون عن متابعة محمد صلى الله عليه وسـلم كما استغنى الخضر عن متابعة موسى ، وجهل هؤلاء أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم رسول إلى كل أحد ظاهراً وباطناً ، مع أن قضية الخضر لم تخالف شريعة موسى ؛ بل وافقتها ، ولكن الأسباب المبيحة للفعل لم يكن موسى علمها ، فلما علمها تبين أن الأفعال توافق شريعته لا تخالفها .

وسئل

عن الذين يعملون النـار والإشارات مثـل النبـل والزعفران . وغير ذلك ؟ .

فأجاب : أما هؤلاء الذين يظهرون « الإشارات » كالنبل والزعفران والمسك ، والنار ، والجبة . فليسوا من أولياء الله الصالحين ؛ بل هم من أحزاب الشياطين ، وأحوالهـم شيطانيـة ليست من كرامات الصالحين ، وهم يفسـدون العقول ، والأديان ، والأعراض ، والنساء ، والصبيان . ولا يحسن الظن بهم إلا جاهل عظيم الجهـالة ، أو عدو لله ورسوله ، فإنهم من جنس التتر المحاربين لله ورسوله . والله أعلم .

سئل

عن رجل فلاح لم يعلم دينه ولا صلاته ، وإن في بلده شيخا أعطاه إجازة ، وبقي يأكل الثعابين والعقارب ، ونزل عن فلاحته ، ويطلب رزقة . فهل تجوز الصدقة عليه أم لا ؟؟.

فأجاب : الحمد لله . أكل الخبائث ، وأكل الحيات والعقارب حرام بإجماع المسلمين . فمن أكلها مستحلا لذلك فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . ومن اعتقد التحريم وأكلها فإنه فاسق عاص لله ورسوله فكيف يكون رجلا صالحاً ؟! ولو ذكى الحية لكان أكلها بعد ذلك حرام عند جماهير العلماء ؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم : الحية ، والعقرب ، والحدأة ، والفأرة ، والكلب العقور » .

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل ذلك فى الحل والحرم ، وسماهن فواسق ؛ لأنهن يفسقن : أي يخرجن على الناس ، ويعتدين عليهم ، فلا يمكن الاحتراز منهن ، كما لا يحترز من السباع العادية ، فيكون

عدوان هـذا أعظم من عدوان كل ذي نـاب من السبـاع ، وهن أخبث وأحرم .

وأما الذين يأكلون ويجعلون ذلك من باب « كرامات الأولياء » فهم أشر حالاً ممن يأكلها من الفساق ؛ لأن كرامات الأولياء لا تـكون بما نهى الله عنـه ورسوله ، من أكل الخبائث ، كما لا تكون بترك الواجبات ، وإنما هـذه المخاريق التى يفعلهـا هؤلاء المبتدعون : مـن الدخول فى النار ، وأخذ الحيات ، وإخراج اللاذن ، والسكر ، والدم وماء الورد . هي نوعان :

« أحدها » أن يفعلوا ذلك بحيل طبعية . مثل أدهان معروفـة ، يذهبون ويمشون [فى النار] ، ومثل ما يشربه أحدهم مما يمنع سم الحية : مثل أن يمسكها بعنقصتها حتى لا تضره ، ومثل أن يمسك الحيـة المائية ، ومثل أن يسلخ جلد الحية ويحشوه طعـاماً ، وكم قتلت الحيات من أتبـاع هؤلاء ؟! ومثل أن يمسح جلده بدم أخوين ؛ فإذا عرق في السماع ظهر منه ما يشبه الدم ، ويصنع لهم أنواعا من الحيل والمخادعات .

« النوع الثاني » وهم أعظم عندهم أحوال شيطانية تعتريهم عنـد السماع الشيطانى ، فتنزل الشياطين عليهم ، كما تدخل فى بدن المصروع ويزيد أحـدهم كما يزيد المصروع ، وحينئذ يباشر النـار ، والحيات ،

والعقارب ، ويكون الشيطان هو الذي يفعل ذلك ، كما يفعل ذلك من تقترن بهم الشياطين من إخوانهم ، الذين هم شر الخلق عند الناس ، من الطائفة التى تطلبهم الناس لعلاج المصروع ، وهم من شر الخلق عند الناس ، فإذا طلبوا تحلوا بحلية المقاتلة ، ويدخل فيهم الجن ، فيحارب مثل الجن الداخل فى المصروع ، ويسمع الناس أصواتاً ، ويرون حجارة يرمى بها ، ولا يرون من يفعل ذلك ، ويرى الإنسى واقفاً على رأس الرمح الطويل . وإنما الواقف هو الشيطان ، ويرى الناس ناراً تحمى . ويضع فيها الفؤوس والمساحي ، ثم إن الإنسى يلحسها بلسانه ، وإنما يفعل ذلك الشيطان الذي دخل فيه ، ويرى الناس هؤلاء يباشرون الحيات والأفاعي وغير ذلك ، ويفعلون من الأمور ماهو أبلغ مما يفعله هؤلاء المبتدعون الضالون المكذبون الملبسون ، الذين يدعون أنهم أولياء الله ، وإنما هم من أعاديه ، المضيعين لفرائضه ، المتعدين لحدوده .

والجهال لأجل هذه الأحوال الشيطانية ، والطبيعية ،يظنونهم أولياء الله ؛ وإنما هذه الأحوال من جنس أحوال أعداء الله الكافرين ، والفاسقين . ولا يجوز أن يعان من هؤلاء على ترك المأمور ، ولا فعل المحظور ، ولا إقامة مشيخة تخالف الكتاب والسنة ، ولا أن يعطي رزقه على مشيخة يخرج بها من طاعة الله ورسوله ، وإنما يعان بالأرزاق من قام بطاعة الله ورسوله ، ودعا إلى طاعة الله ورسوله والله أعلم .

وسئل

عن رجل منقطع فى بيته لا يخرج ولا يدخل ، ويصلي فى بيته ، ولا يشهد الجماعة ، وإذا خرج إلى الجمعة يخرج مغطى الوجه ، ثم إنه يخترع العياط من غير سبب ، وتجتمع عنده الرجال والنساء . فهل يسلم له حاله ؟ أو يجب الإنكار عليه ؟

فأجاب : هذه الطريقة طريقة بدعية ، مخالفة للكتاب والسنة ، ولما أجمع عليه المسلمون . والله تعالى إنما يعبد بما شرع ، لا يعبد بالبدع . قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فإن التعبد بترك الجمعة والجماعة ، بحيث يرى أن تركها أفضل من شهودهما مطلقاً كفر ، يجب أن يستتاب صاحبه منه ، فإن تاب وإلا قتل . فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن لا يعبد بترك الجمعة والجماعة ، بل يعبد بفعل الجمعة والجماعة ، ومن جعل الانقطاع من ذلك ديناً لم يكن على دين المسلمين ، بل يكون من جنس الرهبان الذين يتخلون بالصوامع والديارات ، والواحد من هؤلاء قد يحصل له بسبب الرياضة ، أو الشياطين ــ بتقريبه إليهم ، أو غير ذلك ــ نوع كشف ، وذلك لا يفيده ؛ بل هو كافر بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

والله تعالى أمر الخلق أن يعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً ،

ويعبدوه بما شرع ، وأمر أن لا يعبدوه بغير ذلك . قال تعالى : (فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا)
وقال تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) .

فالسالك طريق الزهادة والعبادة إذا كان متبعاً للشريعة فى الظاهر ، وقصد الرياء والسمعة ، وتعظيم الناس له كان عمله باطلا لا يقبله الله . كما ثبت في الصحيح أن الله يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء . وهو كله للذي أشرك » وفى الصحيح عنه أنه قال : « من سمع سمع الله به ، ومن راءى راءى الله به » .

وإن كان خالصاً فى نيته لكنه يتعبد بغير العبادات المشروعة : مثل الذي يصمت دائماً ، أو يقوم فى الشمس ، أو على السطح دائماً ، أو يتعرى من الثياب دائماً ، ويلازم لبس الصوف ، أو لبس الليف ، ونحوه أو يغطي وجهه ، أو يمتنع من أكل الخبز ، أو اللحم ، أو شرب الماء ، ونحو ذلك — كانت هذه العبادات باطلة ، ومردودة ، كما ثبت فى الصحيح عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » . وفى رواية : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » وفى صحيح البخاري عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قائماً فى الشمس فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا أبو إسرائيل ، نذر الصمت ، والقيام والبروز

للشمس مع الصوم . فأمره النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصوم وحده » لأنه عبادة يحبها الله تعالى ، [وما عداه ليس بعبادة] وإن ظنها الظان تقربه إلى الله تعالى . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في خطبته : « إن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ».

وثبت عنه في الصحيح « أن قوما من أصحابه قال أحدهم : أما أنا فأصوم ، ولا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا فأقوم ، ولا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مابال رجال يقول أحدهم : كيت وكيت ! لكني أصوم وأفطر ، وأنام ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتى فليس مني » . فإذا كان هذا فيما هو جنسه عبادة ؛ فإن الصوم والصلاة جنسهما عبادة ، وترك اللحم والتزويج جائز ، لكن لما خرج فى ذلك من السنة فالتزم القدر الزائد على المشروع ، والتزم هذا ترك المباح ، كما يفعل الرهبان ، تبرأ النبي صلى الله عليه وسلم ممن فعل ذلك ، حيث رغب عن سنته إلى خلافها ، وقال : « لا رهبانية فى الإسلام » فكيف بمن يرغب عما هو من أعظم شعائر الإسلام ، وهو الصلاة فى الجمعة ، والجماعات ؟!.

وقد روى عن ابن عباس أنهم سألوه غير مرة : عمن يصوم

النهار ، ويقوم الليل ، ولا يشهد جمعة ، ولا جماعة . فقال : « هو في النار » . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات ، أو ليطبعن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين » وقال : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً من غير عذر طبع الله على قلبه » وفي الصحيح والسنن : « إن أعمى قال : يا رسول الله ! إن لي قائداً لا يلائمني ، فهل تجد لي رخصة أن أصلي في بيتي قال : هل تسمع النداء ؟ قال : نعم ، قال : فأجب » . وفي رواية قال : « لا أجد لك رخصة » .

و « الجمعة » فريضة باتفاق الأئمة .

و « الجماعة » واجبة أيضاً ، عند كثير من العلماء ، بل عند أكثر السلف ، وهل هي شرط في صحة الصلاة على قولين :

أقواهما كما في سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سمع النداء فلم يجب من غير عذر فلا صلاة له » .

وعند طائفة من العلماء : أنها واجبة على الكفاية .

و « أحد الأقوال » أنها سنة مؤكدة ، ولا نزاع بين العلماء أن صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته وحده خمساً وعشرين ضعفاً ،

كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولا نزاع بينهم أن من جعل صلاته وحده أفضل من صلاته فى جماعة فإنه ضال مبتدع ، مخالف لدين المسلمين .

وهذه البدع يذم أصحابها ، ويعرف أن الله لا يتقبلها ، وإن كان قصدهم بها العبادة ، كما أنه لا يقبل عبادة الرهبان ، ونحوهم ممن يجتهدون فى الزهد والعبادة لأنهم لم يعبدوه بما شرع ؛ بل ببدعة ابتدعوها ، كما قال : (وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا) فإن المتعبد بهذه البدع قصده أن يعظم ويزار ، وهذا عمله ليس خالصاً لله ، ولا صوابا على السنة ؛ بل هو كما يقال : زغل ، وناقص ، بمنزلة لحم خنزير ميت ؛ حرام من وجهين .

والواجب على كل مسلم التزام عبادة الله وحده لا شريك له ، وطاعة رسوله ، والأمر بذلك لكل أحد ، والنهي عن ضد ذلك لكل أحد ، والإنكار على من يخرج عن ذلك ، ولو طار فى الهواء ، ومشى على الماء ، وليس تحت أديم السماء أحد يقر على خلاف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل إن كان مقراً بالإسلام ألزمه بطاعة الرسول ، واتباع سنته الواجبة ، وشريعته الهادية ، وإن كان غير مقر بالإسلام كان كافراً ، ولو كان له من الزهد والرهبان ماذا عسى أن يكون

والكافر إن كان من أهل الذمة فله حكم أمثاله ، وان كان من أهل الحرب فله حكم أمثاله ، ويجب الإنكار على هذا المبتدع وأمثاله بحسن قصد ، بحيث يكون المقصود طاعة الله ورسوله ؛ لا اتباع هوى ، ولا منافسة ولا غير ذلك . قال الله تعالى : (وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ) .

فالمقصود أن يكون الدين كله لله ، ولا دين إلا ما شرعه الله تعالى على ألسن رسله . وفى الصحيحين « أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : يارسول الله ! الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . فأي ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو فى سبيل الله » فيكون المقصود علو كلمة الله ، وظهور دين الله . وأن يعلم المسلمون كلهم انما عليه المبتدعون المراؤون ليس من الدين ، ولا من فعل عباد الله الصالحين ؛ بل من فعل أهل الجهل والضلال والإشراك بالله تعالى ، الذين يخرجون عن توحيده ، وإخلاص الدين له ، وعن طاعة رسله .

و « أصل الإسلام » : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فمن طلب بعباداته الرياء والسمعة فلم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله ،

ومن خرج عما أمره به الرسول من الشريعة وتعبد بالبدعة فلم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله .

وإنما يحقق هذين « الأصلين » من لم يعبد إلا الله ، ولم يخرج عن شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى بلغها عن الله ، فإنه قال : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك » ، وقال : « ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد حدثتكم به ، ولا من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به » وقال ابن مسعود : « خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً ، وخط خطوطاً عن يمينه ، وشماله ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) » .

فالعبادات والزهادات والمقالات والتورعات الخارجة عن سبيل الله ــ وهو الصراط المستقيم : الذي أمرنا الله أن نسأله هدايته ، وهو مادل عليه السنة ــ هي سبل الشيطان ، ولو كان لأحدهم من الخوارق ما كان ، فليس أحدهم بأعظم من مقدمهم الدجال الذي يقول للسماء : أمطري فتمطر ، وللأرض أنبتى فتنبت ، وللخربة أظهري كنوزك فتخرج معه كنوز الذهب والفضة . وهو مع هذا عدو الله ، كافر بالله ، وأولياء الله هم المذكورون فى قوله : (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

* ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فهم المؤمنون المتقون ، والتقوى فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، فمن ترك ما أمر الله ، واتخذ عبادة نهى الله عنها . كيف يكون من هؤلاء ؟! .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول الله تعالى : « من عادى لي ولياً » الحديث . فبين سبحانه أنه ما تقرب العبد إلى الله بمثل أداء ما افترض عليه .

والتقرب بالواجبات فقط طريق المقتصدين أصحاب اليمين ، ثم التقرب بعد ذلك بما أحبه الله من النوافل هو طريق السابقين المقربين ، والمحبوبات هي ما أمر الله به ورسوله : أمر إيجاب ، أو أمر استحباب ، دون ما استحبه الرجل برأيه وهواه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وسئل شيخ الإسلام

علامة الزمان . تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني — رضي الله عنه — .

عن « جماعة » يجتمعون على قصد الكبائر من القتل ، وقطع الطريق ، والسرقة ، وشرب الخمر ، وغير ذلك . ثم إن شيخاً من المشايخ المعروفين بالخير واتباع السنة قصد منع المذكورين من ذلك ، فلم يمكنه إلا أن يقيم لهم سماعا يجتمعون فيه بهذه النية ، وهو بدف بلا صلاصل ، وغناء المغنى بشعر مباح بغير شبابة ، فلما فعل هذا تاب منهم جماعة ، وأصبح من لا يصلي ويسرق ولا يزكي يتورع عن الشبهات ، ويؤدي المفروضات ، ويجتنب المحرمات . فهل يباح فعل هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه ، لما يترتب عليه من المصالح ؟ مع أنه لا يمكنه دعوتهم إلا بهذا ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

أصل جواب هذه المسألة وما أشبهها : أن يعلم أن الله بعث محمداً

ـــ صلى الله عليه وسلم ــ بالهدى ، ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً . وأنه أكمل له ولأمته الدين ، كما قال تعالى:

(ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا) .

وأنه بشر بالسعادة لمن أطاعه والشقاوة لمن عصاه ، فقال تعالى :

(وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا)

وقال تعالى : (وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا) .

وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعثه به ، كما قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) وأخبر أنه يدعو إلى الله وإلى صراطه المستقيم ، كما قال تعالى:

(قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى) .

وقال تعالى : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ) .

وأخبر أنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحل الطيبات ، ويحرم الخبائث . كما قال تعالى : (وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) .

وقد أمر الله الرسول — صلى الله عليه وسلم — بكل معروف ونهى عن كل منكر . وأحل كل طيب . وحرم كل خبيث . وثبت عنه — صلى الله عليه وسلم — فى الصحيح أنه قال : « ما بعث الله نبياً إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » ، وثبت عن العرباض بن سارية قال : « وعظنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون . قال : فقلنا : يا رسول الله ! كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد إلينا ، فقال : أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور . فإن كل بدعة ضلالة » . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما تركت من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به » . وقال : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » .

وشواهد هذا « الأصل العظيم الجامع » من الكتاب والسنة كثيرة وترجم عليه أهل العلم فى الكتب . « كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة » كما ترجم عليه البخاري والبغوي وغيرهما ، فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين ، وحزبه المفلحين ، وجنده الغالبين ، وكان السلف — كمالك وغيره — : يقولون السنة كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، وقال الزهرى : كان من مضى من علمائنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة .

إذا عرف هذا فمعلوم أنما يهدى الله به الضالين ويرشد به الغاوين ويتوب به على العاصين ، لا بد أن يكون فيما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة ، وإلا فإنه لو كان ما بعث الله به الرسول — صلى الله عليه وسلم — لا يكفي فى ذلك ، لكان دين الرسول ناقصاً ، محتاجاً تتمة . وينبغي أن يعلم أن الأعمال الصالحة أمر الله بها أمر إيجاب أو استحباب . والأعمال الفاسدة نهى الله عنها .

والعمل إذ اشتمل على مصلحة ومفسدة ، فإن الشارع حكيم . فإن غلبت مصلحته على مفسدته شرعه ، وإن غلبت مفسدته على مصلحته لم يشرعه ؛ بل نهى عنه ، كما قال تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وقال تعالى : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ

فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا) ولهذا حرمها الله تعالى بعد ذلك .

وهكذا ما يراه الناس من الأعمال مقرباً إلى الله ، ولم يشرعه الله ورسوله ؛ فإنه لا بد أن يكون ضرره أعظم من نفعه ، وإلا فلو كان نفعه أعظم غالباً على ضرره لم يهمله الشارع ؛ فانه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكيم ، لا يهمل مصالح الدين ، ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين .

إذا تبين هذا فنقول للسائل : إن الشيخ المذكور قصد أن يتوب المجتمعين على الكبائر ، فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البدعى . يدل أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التى بها تتوب العصاة ، أو عاجز عنها ، فإن الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية ، التى أغناهم الله بها عن الطرق البدعية .

فلا يجوز أن يقال : إنه ليس فى الطرق الشرعية التى بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة ، فإنه قد علم بالاضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية ، التى ليس فيها ما ذكر من الاجتماع البدعى ؛

بل السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان — وهم خير أولياء الله المتقين ، من هذه الأمة — تابوا إلى الله تعالى بالطرق الشرعية ، لا بهذه الطرق البدعية . وأمصار المسلمين وقراهم قديماً وحديثاً مملوءة ممن تاب إلى الله واتقاه ، وفعل ما يحبه الله ويرضاه بالطرق الشرعية ، لا بهذه الطرق البدعية .

فلا يمكن أن يقال : إن العصاة لاتمكن توبتهم إلا بهذه الطرق البدعية ، بل قد يقال : إن فى الشيوخ من يكون جاهلا بالطرق الشرعية ، عاجزاً عنها ، ليس عنده علم بالكتاب والسنة ، وما يخاطب به الناس ، ويسمعهم إياه ، مما يتوب الله عليهم ، فيعدل هذا الشيخ عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية . إما مع حسن القصد . إن كان له دين وإما أن يكون غرضه الترؤس عليهم ، وأخذ أموالهم بالباطل ، كما قال تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل ، أو عجز ، أو غرض فاسد . وإلا فمن المعلوم أن سماع القرآن هو سماع النبيين ، والعارفين ، والمؤمنين . قال تعالى فى النبيين : (أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا) .

وقال تعالى فى أهل المعرفة : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) . وقال تعالى في حق أهل العلم : (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) . وقال في المؤمنين : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) وقال تعالى : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ) .

وبهذا السماع هدى الله العباد ، وأصلح لهم أمر المعاش والمعاد ، وبه بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبه أمر المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان . وعليه كان يجتمع السلف ، كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ اجتمعوا أمروا رجلا منهم أن يقرأوهم يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — يقول لأبي موسى : ذكرنا ربنا ، فيقرأ أبو موسى وهم يستمعون . وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه مر بأبى موسى الأشعري وهو يقرأ ، فجعل يستمع لقراءته . وقال : « لقد أوتي هذا مزماراً

مـن مزامير آل داود » . وقال : « مررت بك البارحـة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك ، فقـال : لو علمت أنك تسمعني لحبرته لك تحبيراً » . أي لحسنته لك تحسيناً .

وفى الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال لابن مسعود : « اقرأ علي القرآن ، فقال : أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل ؟! فقـال : إنى أحب أن أسمعه من غيري . قال : فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا) قال لي : حسبك ، فنظرت إليه فإذا عيناه تذرفان من البـكاء » وعلى هـذا السماع كان يجتمع القرون الذين أثنى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « خير القرون الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

ولم يكن فى السلف الأول سماع يجتمع عليه أهل الخير إلا هـذا . لا بالحجاز ، ولا باليمن ، ولا بالشام ، ولا بمصر ؛ والعراق ؛ وخراسان والمغرب . وإنما حدث السماع المبتدع بعد ذلك ، وقـد مدح الله أهل هـذا السماع ، المقبلين عليه . وذم المعرضين عنـه . وأخبر أنه سبب الرحمة . فقال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) . وقال تعالى : (وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) وقال تعـالى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ

قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ) . وقال تعالى : (وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ) وقال تعالى : (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ) وقال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) وقال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ) .

ومثل هذا فى القرآن كثير يأمر الناس باتباع ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة ، ويأمرهم بسماع ذلك .

وقد شرع الله تعالى السماع للمسلمين : في المغرب ، والعشاء ، والفجر . قال تعالى : (وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) وبهذا مدح عبد الله بن رواحة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال :

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الفجر ساطع

يبيت يجافى جنبه عن فراشه
إذ استثقلت بالكافرين المضاجع

أتى بالهـــدى بعد العمى فقلوبنـا

به موقنـات أنمـا قال واقـــع

وأحوال أهل هذا السماع مذكورة فى كتـاب الله ، من وجل القلوب ، ودمع العيون ، واقشعرار الجلود . وإنما حدث سماع الأبيات بعد هـــذه القرون ، فأنكره الأئمة ، حتى قال : الشافعي ـــ رحمه الله ـــ خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغبير ، يزعمون أنه يرقق القلوب ، يصدون به الناس عن القرآن . وسئل الإمام أحمد عنه فقال : محدث ، فقيل له : أنجلس معهم فيه ؟ فقال : لا يجلس معهم .

والتغبير هو الضرب بالقضيب على جلودهم ، من أمثـــل أنواع السماع . وقد كرهه الأئمة فكيف بغيره ، والأئمة المشايخ الـكبـار لم يحضروا هذا السماع المحدث ، مثل الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الدارانى ، ومعروف الـكرخي ، والسري السقطي ، وأمثالهم . ولا أكابر الشيوخ المتأخرين : مثـــل الشيـخ عبد القادر ، والشيـخ عدي ، والشيـخ أبي مدين ، والشيـخ أبى البيـان ، والشيـخ أبي القاسم الحوفى ، والشيخ علي بن وهب ، والشيخ حياة ، وأمثالهم . وطائفة من الشيوخ حضروه ثم رجعوا عنه . وسئل الجنيد عنه فقال : من تـكلف السماع فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به . فبين

الجنيد أن قاصد هذا السماع صار مفتوناً ، وأما من سمع ما يناسبه بغير قصد فلا بأس .

فإن النهي إنما يتوجه إلى الاستماع ، دون السماع . ولهذا لو مر الرجل بقوم يتكلمون بكلام محرم لم يجب عليه سد أذنيه ؛ لكن ليس له أن يستمع من غير حاجة ، ولهذا لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمر بسد أذنيه لما سمع زمارة الراعي ؛ لأنه لم يكن مستمعاً بل سامعاً .

وقول السائل وغيره : هل هو حلال ؟ أو حرام ؟ لفظ مجمل فيه تلبيس ، يشتبه الحكم فيه ، حتى لا يحسن كثير من المفتين تحرير الجواب فيه ؛ وذلك أن الكلام في السماع وغيره من الأفعال على ضربين :

(أحدهما) أنه هل هو محرم ؟ أو غير محرم ؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس ، وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب كسماع الأعراس ، وغيرها . مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو ، لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله .

و (النوع الثاني) أن يفعل على وجه الديانة ، والعبادة ، وصلاح القلوب ، وتجريد حب العباد لربهم ، وتزكية نفوسهم ، وتطهير قلوبهم

وأن تحرك من القلوب الخشية ، والإنابة ، والحب ، ورقة القلوب ، وغير ذلك مما هو من جنس العبادات ، والطاعات ، لا من جنس اللعب والملهيات .

فيجب الفرق بين سماع المتقربين ، وسماع المتلعبين ، وبين السماع الذي يفعله الناس فى الأعراس ، والأفراح ، ونحو ذلك من العادات ، وبين السماع الذي يفعل لصلاح القلوب ، والتقرب إلى رب السموات ، فإن هذا يسأل عنه : هل هو قربة وطاعة ؟ وهل هو طريق إلى الله ؟ وهل لهم بد من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم ، وتحريك وجدهم لمحبوبهم ، وتزكية نفوسهم ، وإزالة القسوة عن قلوبهم ، ونحو ذلك من المقاصد التى تقصد بالسماع ؟ كما أن النصارى يفعلون مثل هذا السماع فى كنائسهم على وجه العبادة والطاعة ، لا على وجه اللهو واللعب .

إذا عرف هذا فحقيقة السؤال : هل يباح للشيخ أن يجعل هذه الأمور التى هي : إما محرمة ؟ أو مكروهة ؟ أو مباحة ؟ قربة وعبادة وطاعة ، وطريقة إلى الله يدعو بها إلى الله ، ويتوب العاصين ، ويرشد به الغاوين ، ويهدى به الضالين .

ومن المعلوم أن الدين له « أصلان » فلا دين إلا ما شرع الله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله . والله تعالى عاب على المشركين أنهم حرموا ما لم يحرمه الله ، وشرعوا ديناً لم يأذن به الله .

ولو سئل العالم عمن يعدو بين جبلين : هل يباح له ذلك ؟ قال : نعم ، فإذا قيل : إنه على وجه العبادة كما يسعى بين الصفا والمروة ، قال : إن فعله على هذا الوجه حرام منكر ، يستتاب فاعله ، فإن تاب وإلا قتل .

ولو سئل : عن كشف الرأس ، ولبس الإزار . والرداء : أفتى بأن هذا جائز ، فإذا قيل : إنه يفعله على وجه الإحرام . كما يحرم الحاج . قال : إن هذا حرام منكر .

ولو سئل : عمن يقوم فى الشمس . قال : هذا جائز . فإذا قيل : إنه يفعله على وجه العبادة . قال : هذا منكر . كما روى البخاري عن ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائماً فى الشمس . فقال : من هذا ؟ قالوا : هذا أبو إسرائيل يريد أن يقوم فى الشمس ، ولا يقعد ، ولا يستظل ، ولا يتكلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مروه فليتكلم ، وليجلس ، وليستظل وليتم صومه » ؛ فهذا لو فعله لراحة ، أوغرض مباح لم ينه عنه ؛ لكن لما فعله على وجه العبادة نهى عنه .

وكذلك لو دخل الرجل إلى بيته من خلف البيت ، لم يحرم عليه ذلك ، ولكن إذا فعل ذلك على أنه عبادة . كما كانوا يفعلون فى الجاهلية :

كان أحدهم إذا أحرم لم يدخل تحت سقف ، فنهوا عن ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ فبين سبحانه أن هذا ليس ببر ، وإن لم يكن حراماً ، فمن فعله على وجه البر والتقرب إلى الله كان عاصياً ، مذموماً ، مبتدعاً ، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لأن العاصي يعلم أنه عاص فيتوب ، والمبتدع يحسب أن الذي يفعله طاعة فلا يتوب .

ولهذا من حضر السماع للعب واللهو لا يعده من صالح عمله ، ولا يرجو به الثواب ، وأما من فعله على أنه طريق إلى الله تعالى فإنه يتخذه ديناً ، وإذا نهى عنه كان كمن نهى عن دينه ، ورأى أنه قد انقطع عن الله ، وحرم نصيبه من الله تعالى إذا تركه . فهؤلاء ضلال باتفاق علماء المسلمين ، ولا يقول أحد من أئمة المسلمين : إن اتخاذ هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى أمر مباح ؛ بل من جعل هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى فهو ضال ، مفتر ، مخالف لإجماع المسلمين . ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه ، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلا متكلماً فى الدين بلا علم .

فالسؤال عن مثل هذا أن يقال : هل ما يفعله هؤلاء طريق وقربة وطاعة لله تعالى يحبها الله ورسوله أم لا ؟ وهل يثابون على ذلك أم لا ؟ وإذا لم يكن هذا قربة وطاعة وعبادة لله ، ففعلوه على أنه قربة

وطاعة وعبادة وطريق إلى الله تعالى . هل يحل لهم هـذا الاعتقاد ؟ وهذا العمل على هذا الوجه ؟

وإذا كان السؤال على هـذا الوجه لم يـكن للعـالم المتبع للرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أن يقول : إن هذا من القرب والطاعات ، وأنه من أنواع العبادات ، وأنه من سبيل الله تعالى وطريقه الذي يدعو به هؤلاء إليه ، ولا أنه مما أمر الله تعالى به عباده : لا أمر إيجـاب ، ولا أمر استحباب ، وما لم يكن مـن الواجبات والمستحبات فليس هو محموداً ، ولا حسنة ، ولا طاعة ، ولا عبادة ، باتفاق المسلمين .

فمن فعل ما ليس بواجب ولا مستحب على أنه من جنس الواجب أو المستحب فهو ضال مبتدع ، وفعله على هذا الوجه حرام بلا ريب . لا سيما كثير من هؤلاء الذين يتخذون هذا السماع المحدث طريقاً يقدمونه على سماع القرآن وجداً وذوقاً . وربما قدموه عليـه اعتقاداً ، فتجدهم يسمعون القرآن بقلوب لاهية ، وألسن لاغيـة ، وحركات مضطربة ، وأصوات لا تقبل عليه قلوبهم ، ولا ترتاح إليه نفوسهـم ، فإذا سمعوا « المـكاء » و « التصدية » أصغت القلوب ، واتصـل المحبوب بالمحب ، وخشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ، فلا سعـلة ، ولا عطاس ، ولا لغط ، ولا صياح ، وإن قرأوا شيئاً من القرآن ، أو سمعوه كان على وجه التـكلف والسخرة ، كما لا يسمع الإنسان ما لا حاجة له به ،

ولا فائدة له فيه ، حتى إذا ما سمعوا مزمار الشيطان أحبوا ذلك ، وأقبلوا عليه ، وعكفت أرواحهم عليه .

فهؤلاء جند الشيطان ، وأعداء الرحمن ، وهم يظنون أنهم من أولياء الله المتقين ، وحالهم أشبه بحال أعداء الله المنافقين ؛ فإن المؤمن يحب ما أحبه الله تعالى ، ويبغض ما أبغض الله تعالى ، ويوالي أولياء الله ، ويعادي أعداء الله ، وهؤلاء يحبون ما أبغض الله ، ويبغضون ما أحب الله ، ويوالون أعداء الله ، ويعادون أولياءه ؛ ولهذا يحصل لهم تنزلات شيطانية بحسب ما فعلوه من مزامير الشيطان ، وكلما بعدوا عن الله ورسوله وطريق المؤمنين قربوا من أعداء الله ورسوله ، وجند الشيطان.

فيهم من يطير فى الهواء والشيطان طائر به ، ومنهم من يصرع الحاضرين وشياطينه تصرعهم ، وفيهم من يحضر طعاماً ، وإداماً . ويملأ الإبريق من الهواء والشياطين فعلت ذلك . فيحسب الجاهلون أن هذه من كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هي من جنس أحوال الكهنة والسحرة وأمثالهم من الشياطين ، ومن يميز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية والشيطانية لا يشتبه عليه الحق بالباطل .

وقد بسطنا الكلام على « مسألة السماع » وذكرنا كلام المشايخ فيه فى غير هذا الموضع ، وبالله التوفيق ، والله أعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

قال شيخ الإسلام

رحمه الله

فصـــــل

قد كتبت فيما تقدم : الكلام فى « المكاشفات ، والمشاهدات » ، وأنها على « ثلاثة أقسام » فى الظاهر ، والباطن . وكذلك « السماع ، والمخاطبات ، والمحادثات » ثلاثة أقسام : فى الباطن والظاهر .

فإن « السامع » إما أن يسمع نفس الصوت الذي هو كلام المتكلم الصوتى ، أو غير كلامه . كما ترى عينه ، وإما أن يسمع صدى الصوت ورجعه كما يرى تمثاله فى ماء ، أو مرآة . فهذه رؤية مقيـــدة ، وسماع مقيد ، كما يقال : رأيته فى المرآة ، لكن السمع يجمع بين الصورتين .

وإما أن يتمثل له : يعني كلامــه فى أصوات مسموعة ، كما يتمثل له فى صورة فيراها . مثل أن ينقر بيده نقرات ، أو يضرب بيده أوتاراً ، أو يظهر أصواتاً منفصلة عنه ، يبين فيها مقصوده .

وكذلك فى الباطن : إما أن يسمع فى المنام ، أو فى اليقظة نفس كلام المتكلم . مثل الملائكة مثلاً ، كما يرى بقلبه عين ما يكشف له فى المنام ، واليقظة . وإما أن يسمع مثال كلامه فى نفسه ، كما يرى مثاله فى نفسه بمنزلة الرؤيا التى يكون تعبيرها عين ما رؤي ، وإما أن تتمثل له المعانى فى صورة كلام مسموع يحتاج إلى تعبير . كما تتمثل له الأعيان في صورة أشخاص مرئية تحتاج إلى تعبير . وهذا غالب ما يرى ، ويسمع فى المنام . فإنه يحتاج إلى تأويل ، وهو بمنزلة الاستعارة ، والأمثال المضروبة . فهذا هذا . والله أعلم .

فصل

فى الكون يقظة ومناماً : لما كانت الرؤية بالعين للأشياء على وجهين :

(أحدهما) رؤية العين الشيء بلا واسطة ، وهي الرؤية المطلقة . مثل رؤية الشمس ، والقمر ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر » وقد تنازع الناس هل الرؤية انطباع المرئى فى العين ، أو لانعكاس شعاع البصر ، أولا لواحد منها . على أقوال معروفة .

و (الثاني) رؤية المثال ؛ وهي الرؤية في ماء ، ومرآة ، ونحوهما . وهي رؤية مقيدة ، ولهذا قال الفقهاء لو حلف لا رأيت زيداً ؛ فرأى صورته فى مـــاء ، أو مرآة ، لم يحنث ؛ لأن ذلك ليس هو المفهوم من مطلق الرؤية ، وهذا فى الرؤية . كسماع الصدى فى السمع ، فإذا أراد الإنسان أن يرى ما يمر وراءه من الناس والدواب نظر فى المرآة التى تواجهه ، فتنجلي له فيهـا حقائق ما وراءه ، فمن هذه الرؤيا قـد يرى بيان الحقيقة ، وقد تتمثل له الحقيقة بمثـال يحتاج إلى تحقيق . كما تمثل جبريل فى صورة البشر ، وهكذا القلب من شأنـــه أن يبصر ، فإن بصره هو البصر ، وعمـاه هو العمى . كما قال تعالى : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ) .

فتارة يرى الشيء نفسه إذا كشف له عنـه ، وتارة يراه متمثلا فى قلبه الذي هو مرآته ، والقلب هو الرائى أيضاً . وهذا يكون يقظة ، ويكون مناماً ، كالرجل يرى الشيء فى المنام ، ثم يكون إياه فى اليقظة من غير تغير .

وللقلب « حال ثالثة » كما للعين نظر فى المنام : وهي التى تقع لغالب الخلق . أن يرى الرؤيا مثلا مضروباً للحقيقة ، لا يضبط رؤية الحقيقـة بنفسها ، ولا بواسطة مرآة قلبه . ولـكن يرى ماله تعبير فيعتبر [به] ، و « عبارة الرؤيا » هو العبور من الشيء إلى مثـاله ، ونظيره ، وهو

حقيقة المقايسة والاعتبار ؛ فإن إدراك الشيء بالقياس والاعتبار الذي ألفه الإنسان واعتاده أيسر من إدراك شيء على البديهة من غير مثال معروف .

ثم المرئي فى هذا الوجه : فى هذه الحال ، وفى الحال التى قبلها هو موجود فى قلب الإنسان ونفسه ، وإن كان مثلا للحقيقة وواسطة لها .

والمرئي فى الوجه الأول : هو عين الموجود فى الخارج لا مرئي فى القلب ، ومن العامة المتفلسفة من يزعم : أن ما يسمعه الأنبياء من الكلام ، ويرونه من الملائكة ، إنما وجوده فى قلوبهم ، وذلك مبلغ هؤلاء من العلم ؛ لأن ذلك هو غاية ما وجدوه ورأوه من أبناء جنسهم ، فظنوا أن ليس وراء ذلك غاية .

وقد يعارضهم من يتوهم أن ما يسمع ويرى لا يكون فى نفس الإنسان ، بل جميعه من الخارج . وكلاهما خطأ ؛ بل منه ما يكون فى نفس الإنسان : مثل ما يراه ويسمعه فى المنام ، إما مثالاً لا تعبير له ، أو له تعبير .

ومنه ما يكون فى الخارج : مثل رؤية مريم للرسول ، إذ تمثل لها

بشراً سويا ، ورؤية الصحابة لجبريل فى صورة الأعرابي .

فقد ظهر أن رؤية الحقائق بالعين تطابق لرؤياهـا بالقلب ، كل منهما « ثلاثـة أقسام » إدراك الموجود فى الخـارج بعينه ، وإدراكه بواسطـة تمثله فى مرآة باطنـة أو ظاهرة ، وإدراكه متمثلا فى غير صورته ، إما باطناً فى القلب ، وإما ظاهراً فى العين . والله سبحانه أعلم .

فالقياس في الحسيات ، كالقياس فى العقليات ، وهـذا الذي كتبته فى المـكاشفـات يجيء مثـله فى المخاطبـات ، فإن البصر والسمع يظهران ما يتلوه .

سئل شيخ الإسلام

عمن يقول : إن بعض المشـايخ إذا أقام السماع يحضره رجال الغيب ، وينشق السقف والحيطان ، وتنزل الملائكة ترقص معهم ، أو عليهم . وفيهم من يعتقد أن النبي صلى الله عليـه وسلم يحضر معهم . فماذا يجب على من يعتقد هذا الاعتقاد ؟ وما هي صفة رجال الغيب ؟ وهل يكون للتتار خفراء ولهم حال كحال خفراء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أم لا ؟.

فأجاب : وأما من زعم : أن الملائكة أو الأنبياء تحضر « سماع المكاء والتصدية » محبة ورغبة فيه فهو كاذب مفتر ؛ بل إنما تحضره الشيـاطين ، وهي التى تنزل عليهم ، وتنفخ فيهم . كما روى الطـبرانى وغيره عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليـه وسـلم : « أن الشيطان قال : يارب اجعل لي بيتـاً . قال : بيتك الحمام . قال اجعـل لي قرآناً . قال : قرآنك الشعر . قال : يارب اجعل لي مؤذناً . قال : مؤذنك المزمار » وقـد قال الله تعالى فى كتابه مخاطباً للشيطـان : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ وقد فسر ذلك طائفـة من

السلف بصوت الغناء ، وهو شـامل له ولغيره من الأصوات المستفزة لأصحابها عن سبيل الله . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت لهو ، ولعب ، ومزامير الشيطان ، وصوت لطم خدود أو شق جيوب ودعاء بدعوى الجاهليـة » كقولهم : والهفاه ! وا كبداه ! وانصيراه !

وقد كوشف جماعات من أهل المـكاشفات بحضور الشيـاطين فى مجامع السماعات الجاهلية : ذات المـكاء ، والتصدية . وكيف يكر الشيطان عليهم حتى يتواجدوا الوجد الشيطانى ، حتى إن بعضهم صـار يرقص فوق رؤوس الحاضرين ، ورأى بعض المشايخ المـكاشفين أن شيطانه قـد احتمله حتى رقص به ، فلمـا صرخ بشيطانه هرب ، وسقط ذلك الرجل .

وهذه الأمور لها أسرار ، وحقائق لا يشهدهـا ؛ إلا أهل البصائر الإيمانية ، والمشاهد الإيقانية ؛ ولكن من اتبـع ما جاءت بـه الشريعة ، وأعرض عن سبيل المبتدعة ، فقد حصل له الهدى ، وخير الدنيا والآخرة . وإن لم يعرف حقائق الأمور بمنزلة من سلك السبيل إلى مـكة خلف الدليل الهادي ، فإنه يصل إلى مقصوده ، ويجد الزاد والماء فى مواطنه ، وإن لم يعرف كيف يحصل ذلك وسببه . ومن سلك خلف غير الدليل

الهادي : كان ضالاً عن الطريق . فإما أن يهلك ، وإمـــا أن يشقى مدة ثم يعود إلى الطريق .

و « الدليل الهادى » هو الرسول الذي بعثه الله إلى الناس بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ، وهاديا إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له مافى السموات ومافى الأرض .

وآثار الشيطان تظهر فى أهـل السماع الجاهلي : مثـــل الإزباد ، والإرغاء ، والصراخات المنكرة ، ونحو ذلك ممـــا يضارع أهـل الصرع الذين يصرعهـم الشيطان ، ولذلك يجـدون فى نفوسهم مــن ثوران مراد الشيطــان بحسب الصوت : إمــا وجـــد في الهوى المــذموم ، وإما غضب وعدوان على من هو مظلوم، وإما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم ، إلى غير ذلك من الآثار الشيطانية ، التى تعترى أهل الاجتماع على شرب الخمر إذا سكروا بهـــا ؛ فإن السكر بالأصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالأشربة المطربة ، فيصـــدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويمنع قلوبهم حلاوة القرآن ، وفهم معانيه ، واتباعه فيصيرون مضارعين للذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله . ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ، حتى يقتل بعضهم بعضاً بأحواله الفاسدة الشيطانية . كما يقتل العائن من أصابه بعينه .

ولهذا قال من قال من العلماء : إن هؤلاء يجب عليهم القود والدية

والقصاص ، إذا عرف أنهم قتلوا بالأحوال الشيطانية الفاسدة ؛ لأنهم ظالمون ، وهم إنما يغتبطون بما ينفذونه من مراداتهم المحرمة . كما يغتبط الظلمة المسلطون .

ومن هذا الجنس حال خفراء الكافرين ، والمبتدعين والظالمين ، فإنهم قد يكون لهم زهد وعبادة وهمة ، كما يكون للمشركين ، وأهل الكتاب ، وكما كان للخوارج المارقين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » .

وقد يكون لهم مع ذلك أحوال باطنة ، كما يكون لهم ملكة ظاهرة ، فإن سلطان الباطن معناه السلطان الظاهر ، ولا يكون من أولياء الله إلا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون . وما فعلوه من الإعانة على الظلم فهم يستحقون العقاب عليه بقدر الذنب ، وباب القدرة ، والتمكن باطناً وظاهراً ليس مستلزماً لولاية الله تعالى ، بل قد يكون ولي الله متمكناً ذا سلطان ، وقد يكون مستضعفاً إلى أن ينصره الله ، وقد يكون مسلطاً إلى أن ينتقم الله منه ، فخفراء التتار فى الباطن من جنس التتار فى الظاهر . هؤلاء فى العباد بمنزلة هؤلاء فى الأجناد .

وأما الغلبة فإن الله تعالى قد يديل الكافرين على المؤمنين تارة، كما يديل المؤمنين على الكافرين . كما كان يكون لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مع عدوهم ، لكن العاقبة للمتقين ؛ فإن الله يقول : (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ) .

وإذا كان فى المسلمين ضعف، وكان عدوهم مستظهراً عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم ؛ إما لتفريطهم فى أداء الواجبات باطناً وظاهراً، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطناً وظاهراً . قال الله تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟) وقال تعالى : (أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ) وقال تعالى : (وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ) .

وسئل

عن النساء اللاتي يتعممن بالعمائم الكبار ، لا يرين الجنة ، ولا يشممن رائحتها . وقد روى فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة » .

فأجاب : قد ثبت : فى صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صنفان من أهل النار من أمتى لم أرهما بعد : نساء كاسيات عاريات ،مائلات مميلات ، على رؤوسهن مثل أسنمة البخت ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها . ورجال معهم سياط مثل أذناب البقر ، يضربون بها عباد الله » ومن زعم أن هذا الحديث ليس بصحيح بما فيه من الوعيد الشديد ، فإنه جاهل ضال عن الشرع [يستحق العقوبة التى] تردعه ، وأمثاله من الجهال الذين يعترضون على الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأحاديث الصحيحة فى « الوعيد » كثيرة مثل قوله : « من قتل

نفساً معاهدة بغير حقها لم يجد رائحة الجنة ، وريحها يوجد من مسيرة أربعين خريفاً » ومثل قوله الذي فى الصحيح : «لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر . قيل : يارسول الله ! الرجل يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً ، أفمن الكبر ذاك ؟ فقال : لا ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » . و « بطر الحق » جحده ، و « غمط الناس » احتقارهم ، وازدراؤهم . ومثل قوله في الحديث الصحيح : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وفقير مختال » .

وفى القرآن من آيات الوعيد ماشاء الله ، كقوله : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) وكما في قوله : (لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا) وقوله فى الفرائض : (تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ) .

وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين ، أن « الوعيد » فى الكتاب والسنة لأهـــل الكبائر موجود ، ولكن الوعيــد الموجود فى الكتاب والسنة قد بين الله فى كتابه وسنة رسوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أنه لا يلحق التائب بقوله : (قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا) أي لمن تاب . وقال فى الآية الأخرى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) فهـــذا فى حق من لم يتب ، فالشرك لا يغفر ، وما دون الشرك إن شاء الله غفره ، وإن شاء عاقب عليه .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مايصيب المؤمن من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا غـم ، ولا حزن ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه » ولهذا لما نزل قوله : (مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ) قال أبو بكر : يا رسول الله ! قـــد جاءت قاصمة الظهر ، وأينا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : « يا أبا بكر ! ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأوى ؟ فذلك مما تجزون به » فالمصائب فى الدنيا يكفر الله بها من خطايا المؤمن مابه يكفر ، وكذلك الحسنات التى يفعلها . قال الله تعـــالى : (إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » فالله تعـالى لا يظلم

عبده شيئاً . كما قال : (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

فالوعيد ينتفي عنه : إما بتوبة ، وإما بحسنات يفعلها تكافئ سيئاته ، وإما بمصائب يكفر الله بها خطاياه ، وإما بغير ذلك وكما أن أحاديث الوعيد تُقَدَّم وكذلك أحاديث الوعد . فقد يقول : لا إله إلا الله ، ويجحد وجوب الصلاة ، والزكاة ، فهذا كافر يجب قتله ، وقد يكون من أهل الكبائر المستوجبين للنار .

وهذه « مسألة الوعد ، والوعيد » من أكبر مسائل العلم . وقد بسطناها فى مواضع ؛ ولكن كتبنا هنا ما تسع الورقة .

وسئل

عن الذنوب الكبائر المذكورة في القرآن ، والحديث . هل لها حد تعرف به ؟ وهل قول من قال : إنهـا سبع ، أو سبعة عشر ، صحيح ؟ أو قول من قال : إنها ما اتفقت فيها الشرائع — أعنى على تحريمها ؟ — أو إنها ما تسد باب المعرفة بالله ؟ أو إنها ما تذهب الأموال والأبدان ؟ أو إنها إنما سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى ما دونها ؟ أو إنها لا تعلم أصلاً ، وأبهمت كليلة القدر ؟ أو ما يحكى بعضهم أنها إلى التسعين أقرب ، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ، أو أنها مارتب عليها حد . أو ما توعد عليها بالنار ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . أمثل الأقوال في هـذه المسألة القول المأثور عن ابن عباس ، وذكره أبو عبيد ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما وهو : أن الصغيرة ما دون الحدين : حد الدنيا ، وحد الآخرة . وهو معنى قول من قال : ما ليس فيها حد في الدنيا . وهو معنى قول القائل : كل ذنب ختم بلعنة ، أو غضب ، أو نار ، فهو من الكبائر .

ومعنى قول القائل : وليس فيها حد فى الدنيا ، ولا وعيد فى

الآخرة ، أي « وعيد خاص » كالوعيد بالنـــار ، والغضب ، واللعنة .
وذلك لأن الوعيد الخاص في الآخرة . كالعقوبة الخاصة فى الدنيـا .
فكما أنه يفرق فى العقوبات المشروعة للناس بين العقوبات المقدرة بالقطع ،
والقتل ، وجلد مائة ، أو ثمانين ، وبين العقوبات التى ليست بمقدرة :
وهي « التعزير » فكذلك يفرق في العقوبات التى يعزر الله بهـا العباد
ـــ فى غير أمر العباد بها ـــ بـين العقوبات المقدرة : كالغضب ،
واللعنة ، والنار . وبين العقوبات المطلقة .

وهذا « الضابط » يسلم من القوادح الواردة على غـيره ؛ فإنه
يدخل كل ما ثبت فى النص أنه كبيرة : كالشرك ، والقتل ، والزنا ،
والسحر ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، وغير ذلك من الكبائر
التى فيها عقوبات مقدرة مشروعة ، وكالفرار من الزحف ، وأكل مال
اليتيم ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس ، وشهادة
الزور ؛ فإن هذه الذنوب وأمثالها فيها وعيد خاص ، كما قال فى الفرار
من الزحف : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ
فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾
وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ . وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ
مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

سُوٓءُ ٱلدَّارِ) وقال : (فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ) .

وقال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ) .

وكذلك كل ذنب توعد صاحبه بأنه لا يدخل الجنة ، ولا يشم رائحة الجنة ، وقيل فيه : من فعله فليس منا ، وأن صاحبه آثم . فهذه كلها من الكبائر . كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة قاطع » وقوله : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر » وقوله : « من غشنا فليس منا » . وقوله : « من حمل علينا السلاح فليس منا » . وقوله : « لا يزني الزانى حين يزني ، وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » .

وذلك لأن نفى الإيمان ، وكونه ليس من المؤمنين ، ليس المراد به ما يقوله المرجئة : إنه ليس من خيارنا ؛ فإنه لو ترك ذلك لم يلزم أن يكون من خيارهم ، وليس المراد به ما يقوله الخوارج : إنه صار كافراً . ولا ما يقوله المعتزلة : من أنه لم يبق معه من الإيمان شيء ، بل هو

مستحق للخلود فى النار لا يخرج منها . فهذه كلها أقوال باطلة ، قد بسطنا الكلام عليها فى غير هذا الموضع .

ولكن المؤمن المطلق فى باب الوعد والوعيد ، وهو المستحق لدخول الجنة بلا عقاب ، هو المؤدي للفرائض ، المجتنب المحارم ، وهؤلاء هم المؤمنون عند الإطلاق ، فمن فعل هذه الكبائر لم يكن من هؤلاء المؤمنين ، إذ هو متعرض للعقوبة على تلك الكبيرة ، وهذا معنى قول من قال : أراد به نفي حقيقة الإيمان ، أو نفي كمال الإيمان ، فإنهم لم يريدوا نفي الكمال المستحب ، فإن ترك الكمال المستحب لا يوجب الذم والوعيد ، والفقهاء يقولون : الغسل ينقسم إلى : كامل ، ومجزئ . ثم من عدل عن الغسل الكامل إلى المجزئ لم يكن مذموماً .

فمن أراد بقوله « نفي كمال الإيمان » أنه نفي الكمال المستحب ، فقد غلط . وهو يشبه قول المرجئة ، ولكن يقتضي نفي الكمال الواجب . وهذا مطرد فى سائر ما نفاه الله ورسوله : مثل قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ـــ إلى قوله ـــ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

ومثل الحديث المأثور : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بأم

القرآن » وأمثال ذلك . فإنه لا ينفى مسمى الاسم إلا لانتفاء بعض ما يجب فى ذلك ؛ لا لانتفاء بعض مستحباته ، فيفيد هذا الكلام أن من فعل ذلك فقد ترك الواجب الذي لا يتم الإيمان الواجب إلا به ، وإن كان معه بعض الإيمان ، فإن الإيمان يتبعض ويتفاضل . كما قال صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان » .

و (المقصود هنا) أن نفي الإيمان والجنة ، أو كونه من المؤمنين ، لا يكون إلا عن كبيرة . أما الصغائر فلا تنفى هذا الاسم والحكم عن صاحبها بمجردها . فيعرف أن هذا النفي لا يكون لترك مستحب ، ولا لفعل صغيرة ، بل لفعل كبيرة .

وإنما قلنا : إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه :

(أحدها) : أنه المأثور عن السلف ، بخلاف تلك الضوابط ؛ فإنها لا تعرف عن أحد من الصحابة والتابعين والأئمة ، وإنما قالها بعض من تكلم فى شيء من الكلام ، أو التصوف بغير دليل شرعى . وأما من قال من السلف : إنها إلى السبعين أقرب منها إلى السبع ، فهذا لا يخالف ما ذكرناه . وسنتكلم عليها إن شاء الله واحداً واحداً .

(الثاني) أن الله قال : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات ، واستحقاق الوعد الكريم . وكل من وعد بغضب الله أو لعنته ، أو نار أو حرمان جنة ، أو ما يقتضي ذلك ؛ فإنه خارج عن هذا الوعد ، فلا يكون من مجتنبي الكبائر . وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد ، لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر ، إذ لو كان كذلك لم يكن له ذنب يستحق أن يعاقب عليه ، والمستحق أن يقام عليه الحد له ذنب يستحق العقوبة عليه .

(الثالث) أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله في الذنوب ؛ فهو حد يتلقى من خطاب الشارع ، وما سوى ذلك ليس متلقى من كلام الله ورسوله ؛ بل هو قول رأي القائل وذوقه من غير دليل شرعي ، والرأي والذوق بدون دليل شرعي لا يجوز .

(الرابع) أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر ، وأما تلك الأمور فلا يمكن الفرق بها بين الكبائر والصغائر ؛ لأن تلك الصفات لا دليل عليها ، لأن الفرق بين ما اتفقت فيه الشرائع واختلفت لا يعلم إن لم يمكن وجود عالم بتلك الشرائع على وجهها ، وهذا غير معلوم لنا .

وكذلك « ما يسد باب المعرفة » هو من الأمور النسبية والإضافية ، فقد يسد باب المعرفة عن زيد مالا يسد عن عمرو ، وليس لذلك حد محدود .

(الخامس) أن تلك الأقوال فاسدة . فقول من قال : إنها ما اتفقت الشرائع على تحريمه ، دون ما اختلفت فيه . يوجب أن تكون الحبة من مال اليتيم ، ومن السرقة ، والخيانة ، والكذبة الواحدة ، وبعض الإساءات الخفية ، ونحو ذلك كبيرة . وأن يكون الفرار من الزحف ليس من الكبائر ؛ إذ الجهاد لم يجب فى كل شريعة ، وكذلك يقتضي أن يكون التزوج بالمحرمات بالرضاعة والصهر وغيرهما ليس من الكبائر ؛ لأنه مما لم تتفق عليه الشرائع . وكذلك إمساك المرأة بعد الطلاق الثلاث ، ووطؤها بعد ذلك . مع اعتقاد التحريم .

وكذلك من قال : إنها ما تسد باب المعرفة ، أو ذهاب النفوس والأموال ؛ يوجب أن يكون القليل من الغضب والخيانة كبيرة . وأن يكون عقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، وشرب الخمر ، وأكل الميتة ، ولحم الخنزير ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، ونحو ذلك ليس من الكبائر .

ومن قال : إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها ، وأن ما عصى الله

به فهو كبيرة ، فإنه يوجب أن لا تكون الذنوب في نفسها تنقسم إلى كبائر وصغائر . وهذا خلاف القرآن ، فإن الله قال : (ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ) وقال : (وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ) وقال : (إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ) وقال : (مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا) وقال : (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسۡتَطَرٌ) والأحاديث كثيرة فى الذنوب الكبائر .

ومن قال : هي سبعة عشر ، فهو قول بلا دليل .

ومن قال : إنها مبهمة ، أو غير معلومة . فإنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها .

ومن قال : إنه ما توعد عليه بالنار ، قد يقال : إن فيه تقصيراً إذ الوعيد قد يكون بالنار ، وقد يكون بغيرها ، وقد يقال : إن كل وعيد فلا بد أن يستلزم الوعيد بالنار .

وأما من قال : إنها كل ذنب فيه وعيد ، فهذا يندرج فيما ذكره السلف ؛ فإن كل ذنب فيه حد فى الدنيا ففيه وعيد من غير عكس ، فإن الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، وقذف المحصنات ، ونحو ذلك فيها وعيد . كمن قال : إن الكبيرة ما فيها وعيد . والله أعلم .

سئل رضي الله عنه

عن شرب الخمر، وفعل الفاحشة، أيهما أعظم إثماً عند الله؟ أم هما مستويان؟ وما هي الكبائر التى قال عز وجل فيها: (إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا)؟ فما هي هذه الكبائر، وما هي السيئات؟

فأجاب: رضي الله عنه، الحمد لله.

« الكبائر » هي ما فيها حد فى الدنيا، أو فى الآخرة: كالزنا، والسرقة، والقذف التى فيها حدود في الدنيا. وكالذنوب التى فيها حدود فى الآخرة، وهو الوعيد الخاص. مثل الذنب الذي فيه غضب الله، ولعنته، أو جهنم؛ ومنع الجنة، كالسحر، واليمين الغموس، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، وشرب الخمر، ونحو ذلك. هكذا روي عن ابن عباس، وسفيان بن عيينة، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من العلماء. قال تعالى: (إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) وقال تعالى:

(ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ) .
وقال تعالى : (وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ)
وقال تعالى (وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا) ، وقال تعالى : (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ) .

و (أكبر الكبائر) الإشراك بالله ، ثم قتل النفس ، ثم الزنا . كما قال تعالى : (وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) الآية . والزنا أعظم من شرب الخمر ، إذا استويا في القدر . مثل من يزنى مرة ، ويشرب الخمر مرة ، فأما إذا قدر أن رجلا زنا مرة ، وآخر مدمن على شرب الخمر ، فهذا قد يكون أعظم من ذاك . كما أنه لو زنا مرة وتاب كان خيراً من المصر على شرب الخمر . وكذلك شارب الخمر إذا دعا غيره فيكون عليه إثم شربه وعليه قسط من إثم الذين دعاهم إلى الشرب . وكذلك إذا اقترن بالشرب سماع المزامير ، والشرب على بعض الصور المحرمة ، ونحو ذلك فهذا مما يتغلظ فيه الشرب .

والذنب يتغلظ بتكراره ، وبالإصرار عليه ، وبما يقترن به من سيئات أخر . وكذلك لو قدرنا أن الزاني زنى وهو خائف من الله ، وجل من عذابه ، والشارب يشرب لاهياً غافلا لا يراقب الله . كان ذنبه أعظم من هذا الوجه . فقد يقترن بالذنوب ما يخففها ، وقد يقترن بها

ما يغلظها . كما أن الحسنات قد يقترن بها ما يعظمها ، وقد يقترن بها ما يصغرها . فكما أن الحسنات أجناس متفاضلة ، وقد يكون المفضول فى كثير من المواضع أفضل مما جنسه فاضل . فكذلك السيئات .

فالصلاة أفضل من القراءة ، والقراءة أفضل من الذكر ، والذكر أفضل من الدعاء ؛ مع أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر وبعد العصر أفضل من تحري صلاة التطوع فى ذلك ، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن فيه ، وقد يكون بعض الناس انتفاعه بالذكر والدعاء أعظم من انتفاعه بالقراءة ، فيكون أفضل فى حقه . فهكذا السيئات . وإن كان القتل أعظم من الزنا ، والزنا أعظم من الشرب . فقد يقترن بالشرب من المغلظات ما يصير به أغلظ من بعض ضرر الزنا .

وإذا عرف أن الحسنات والسيئات تتفاضل بالأجناس تارة ، وتتفاضل بأحوال أخرى تعرض لها : تبين أن هذا قد يكون أعظم من هذا ، وهذا أعظم من هذا . والعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها . كما فى حديث صاحب البطاقة الذي رجحت بطاقته التى فيها : « لا إله إلا الله » بالسجلات التى فيها ذنوبه . وكما فى حديث البغي التى سقت كلباً بموقها ، فغفر الله لها . وكذلك في السيئات . والله أعلم .

كتبه ابن تيمية

سئل الشيخ رحمه الله

عن رجل مدمن على المحرمات ، وهو مواظب على الصلوات الخمس ، ويصلي على محمد مائة مرة كل يوم . ويقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله كل يوم مائة مرة ، فهل يكفّر ذلك بالصلاة والاستغفار ؟

فأجاب : ــ قال الله تعالى : (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ) فمن كان مؤمناً وعمل عملاً صالحاً لوجه الله تعالى ، فان الله لا يظلمه . بل يثيبه عليه .

وأما ما يفعله من المحرم اليسير فيستحق عليه العقوبة ، ويرجى له من الله التوبة . كما قال الله تعالى : (وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) وإن مات ولم يتب فهذا أمره إلى الله . هو أعلم بمقدار حسناته وسيئاته . لا يشهد له بجنة ولا نار بخلاف الخوارج والمعتزلة فإنهم يقولون : إنه من فعل كبيرة أحبطت جميع حسناته ، وأهل السنة والجماعة لا يقولون بهذا الإحباط . بل أهل الكبائر معهم حسنات وسيئات ، وأمرهم إلى الله تعالى .

وقوله تعالى : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ) أي من اتقاه فى ذلك العمل ؛ بأن يكون عملاً صالحاً خالصاً لوجه الله تعالى ، وأن يكون موافقاً للسنة . كما قال تعالى : (فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا) . وكان عمر بن الخطاب يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . وأهل الوعيد [يقولون] لا يتقبل العمل إلا ممن اتقاه بترك جميع الكبائر . وهذا خلاف ما جاء به الكتاب والسنة فى « قصة حمار » الذي كان يشرب الخمر . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه يحب الله ورسوله » وكما فى أحاديث الشفاعة ، وإخراج أهل الكبائر من النار . حتى يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان . فقد قال الله تعالى : (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ) الآية .

ومع هذا فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . وقال : « من شرب الخمر فى الدنيا ولم يتب منها حرمها في الآخرة » وقال : « لعن الله الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وبائعها ، ومشتريها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وشاربها ، وساقيها وآكل ثمنها » .

وقال أيضا شيخ الإسلام رحمه الله

فصـــــل

وكل من تاب من أي ذنب كان فإن الله يتوب عليه ، كما قال تعالى :

(قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) . فقد أخبر الله في هذه الآية أنه يغفر الذنوب: أي لمن تاب .

وقد قال في الأخرى : (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) وهـذا في حق من لم يتب ، فالشرك لا يغفره الله ، وما دون الشرك أمره إلى الله ، إن شاء عاقب عليه ، وإن شاء عفا عنه .

ومن الشرك أن يدعو العبد غير الله ، كمن يستغيث في المخاوف

والأمراض والفاقات بالأموات ، والغائبين . فيقول : ياسدي الشيخ فلان ! لشيخ ميت أو غائب ، فيستغيث به ، ويستوصيه ، ويطلب منه ما يطلب من الله من النصر والعافية ؛ فإن هذا من الشرك الذي حرمه الله ورسوله ، باتفاق المسلمين .

وهؤلاء المشركون قد يتمثل لأحدهم صورة الشيخ الذي استغاث به . فيظن أنه الشيخ ، أو ملك جاء على صورته ، وإنما هو شيطان تمثل له ليضله ويغويه لما دعا غير الله ؛ كما كان نصيب المشركين الذين يعبدون الأصنام تخاطبهم الشياطين ، وتتراءى لهم ، وتخبرهم ببعض الأمور الغائبة ، وإن كان فيما يخبرون به من الكذب ما يبين أنهم شياطين . قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) وهؤلاء كثيرون فى المشركين : من الهند ، والترك ، والحبشة . وفى المتشبهين بهم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام . كأهل الإشارات الذين يظهرون إشارات الدم ، والزعفران ، واللاذن ، ويدعون أنهم يغيرون التراب ، أو غيره . فيجعلونه كذلك ، ومنهم من يدخل النار ، ويأكل الحيات ، ومنهم من يصرخ فى بعض الناس فيمرض ، أو يموت .

وهذه الأحوال تعرض لهم عند فعل ما يأمر به الشيطان . مثل السماع البدعي . سماع المكاء ، والتصدية ، وغير ذلك ؛ فإن الذين

يتخذون ذلك قربة ودينا تتحرك بـه قلوبهم ، ويحصل لهـم عنده من الوجل والصياح ما تنزل معـه الشياطـين ، كما يدخل الشيطان في بدن المصروع ؛ ولهذا يزبد أحـدهم كإزباد المصروع ، ويصيح كصياحه . وذلك صياح الشياطين على ألسنتهم ؛ ولهذا لا يدري أحد ماجرى منه ، حتى يفيق ، ويتكلم الشيطان على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه الإنسان ، ويدخل أحدهم النار ، وقد لبسه الشيطان ويحصل ذلك لقوم من النصارى بالمغرب ، وغيرهم . تلبسهم الشياطين ، فيحصل لهم مثل ذلك .

فهؤلاء المبتدعون المخالفون للكتاب والسنة أحوالهـم ليست من كرامات الصالحين ؛ فإن كرامات الصالحين إنما تكون لأولياء الله المتقين ؛ الذين قال الله فيهم : (أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ) وهم الذين يتقربون إلى الله بالفرائض الـتى فرضها عليهم ، ثم بالنوافل التى ندبهم إليها . كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليـه وسـلم قال : « يقول الله : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدي بمثل ما افترضت عليـه ، ولا يزال عبـدي يتقرب إلي بالنوافـل حتى أحبـه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع بـه ، وبصره الذي يبصر بـه ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ؛ فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنـه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبـدي المؤمن

يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

ولهذا قال أهل العلم والدين — كأبي يزيد البسطامي وغيره — : لو رأيتم الرجل يطير فى الهواء ، أو يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي . وقال الشافعي : لو رأيتم صاحب بدعة يطير فى الهواء ، فلا تغتروا به .

فأولياء الله المتقون هم المتبعون لكتاب الله ، وسنة رسوله ، كما قال تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)
وطريقهم طريق أنبياء الله المرسلين ، وأولياء الله المتقين ، وحزب الله المفلحين .

وأما أهل الشرك والبدع والفجور فأحوالهم من جنس أحوال « مسيلمة الكذاب » و « الأسود العنسي » الذين ادعيا النبوة فى آخر أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لكل منهما شياطين تخبره وتعينه .

وكان « العنسي » قد استولى على أرض اليمن فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قتله الله على أيدي عباده المؤمنين ، وكان قد طلب من أبي مسلم الخولانى أن يتابعه فامتنع ، فألقاه في النار فجعلها الله

عليه برداً وسلاماً ، كما جرى لإبراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وذلك مع صلاته وذكره ودعائه لله مع سكينة ووقار . وهؤلاء أصحاب الأحوال الشيطانية ، لا تصير النار عليهم برداً وسلاماً . بل قد يطفونها كما يطفيها الناس ، وذلك فى حال اختلاط عقولهم ، وهيج شياطينهم ، وارتفاع أصواتهم ، هذا إن كان لأحدهم حال شيطانى .

وإلا فكثير منهم لا يحصل له ذلك ؛ بل يدخل في نوع من المكر والمحال فيتخذ حجر الطلق ، أو دهن الضفادع ، وأنواعاً من الأدوية . كما يصنعون من جنس ما تصنعه المشعبذون ، إخفاء اللاذن ، والسكر فى يد أحدهم ، فإنهم نوعان : خاصتهم أهل حال شيطانى ، وعامتهم أهل محال بهتانى .

وهؤلاء لا يعطى أحدهم من الزكاة حتى يتوب ، ويلتزم ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة ، ويكون مع ذلك من مستحقي الزكاة المذكورين فى قوله تعالى : (إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ) .

فأما من كان غنياً ليس من هذه الأصناف ، فلا يعطى من الزكاة لا سيما إذا كان مع غناه من شيوخ الضلال ، مثل شيوخ المضلين الأغنياء ،

الذين ليسوا من الأصناف الثمانية ؛ فإن هؤلاء لا يجوز أن يعطوا من الزكاة بإجماع المسلمين . وهؤلاء إذا قالوا للإنسان : تعطينا وإلا فإني أنلك في نفسك ، فإنه قد تعينهم شياطين على إضرار بعض الناس بقضاء الله وقدره ، لكن هذا يكون لمن هو خارج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، مثل أهل الفجور والبدع الذين لا يصلون الصلوات الخمس ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، فهؤلاء قد تسلط عليهم بعض هؤلاء بذنوبهم وخطاياهم .

وأما الذين يفعلون ما أمر الله به ورسوله من الصلوات الخمس ، وغيرها ، ويخلصون دينهم لله ، فلا يدعون إلا الله ، ولا يعبدون غيره ولا ينذرون إلا لله ، ويحرمون ما حرم الله ورسوله ؛ فهؤلاء جند الله الغالبون ، وحزب الله المفلحون ، فإنه يؤيدهم وينصرهم . وهؤلاء يهزمون شياطين أولئك الضالين ، فلا يستطيعون مع شهود هؤلاء ، واستغاثتهم بالله ، أن يفعلوا شيئاً من تلك الأحوال الشيطانية ، بل تهرب منهم تلك الشياطين . وهؤلاء معترفون بذلك . يقولون : أحوالنا ما تنفذ قدام أهل الكتاب والسنة ، وإنما تنفذ قدام من لا يكون كذلك من الأعراب والترك والعامة وغيرهم .

فهؤلاء من أهل الضلال والغي الذين يجب نهيهم ، واستتابتهم ، ومنعهم من طاعة الشيطان والشرك ، والبدع ، والفجور ، وأمرهم بما

أمر الله به ورسوله ، واتباع الكتاب والسنة .

ولا يجوز للمؤمن أن يخافهم فإن الله تعالى يقول فى كتابه :
(ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ * فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) وقال تعالى : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ) .

وقال أيضا شيخ الإسلام رحمه الله

رب يسر وأعن يا كريم .

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

فصـــــل

فى أن التوبة والاستغفار يكون من ترك الواجبات وفعل المحرمات .

و « الأول » يخفى على كثير من الناس . قال تعالى : (فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ) وقال تعالى : (فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ) . وقال تعالى : (لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

وقال : (أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ * وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى) .

ومثل هذا فى القرآن كثير .

فنقول : التوبة والاستغفار يكون من ترك مأمور ، ومن فعل محظور ؛ فإن كلاهما من السيئات والخطايا والذنوب . وترك « الإيمان » و « التوحيد » و « الفرائض » التى فرضها الله تعالى على القلب والبدن من الذنوب بلا ريب ، عند كل أحد . بل هي أعظم الصنفين . كما قد بسطناه فيما كتبناه من « القواعد » قبل ذهابى إلى مصر .

فإن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات ، إذ قد يدخل فى ذلك ترك الإيمان والتوحيد ، ومن أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد فى النار ، ولو فعل ما فعل . ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلداً ، ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة : كالزهاد والعباد من المشركين ، وأهل الكتاب كعباد مشركي الهند ، وعباد النصارى ؛ وغيرهم ؛ فإنهم لا يقتلون ، ولا يزنون ، ولا يظلمون الناس ؛ لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه .

ولكن يقال : ترك الإيمان والتوحيد الواجب ، إنما يكون مع الاشتغال بضده ، وضده إذا كان كفراً فهم يعاقبون على الكفر ، وهو

من باب المنهى عنه ، وإن كان ضده من جنس للمباحات كالاشتغال بأهواء النفس ولذاتها ، من الأكل والشرب ، والرئاسة وغير ذلك عن الإيمان الواجب . فالعقوبة هنا لأجل ترك الإيمان ؛ لا لأجل ترك هذا الجنس .

وقد يقال : كل من ترك الإيمان والتوحيد فلا يتركه إلا إلى كفر وشرك ؛ فإن النفس لا بد لها من إله تعبده ، فمن لم يعبد الرحمن عبد الشيطان . فيقال : عبادة الشيطان جنس عام ، وهذا إذا أمره أن يشتغل بما هو مانع له من الإيمان والتوحيد ، يقال : عبده . كما أن من أطاع الشيطان فقد عبده ، ولكن عبادة دون عبادة .

والناس « نوعان » طلاب دين ، وطلاب دنيا . فهو يأمر طلاب الدين بالشرك والبدعة ، كعباد المشركين ، وأهل الكتاب ، ويأمر طلاب الدنيا بالشهوات البدنية . وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن »

ولهذا قال الحسن البصري لما ذكر الحديث « لكل عامل شرة ، ولكل شرة فترة ، فإن صاحبها سدد وقارب فارجوه ، وإن أشير إليه بالأصابع فلا تعدوه . فقالوا : أنت إذا مررت فى السوق أشار إليك

الناس . فقال : إنه لم يعن هـذا ، وإنما أراد المبتدع في دينه ، والفاجر في دنياه .

وقد بسطت الكلام على « النوعين » فى مواضع . كما ذكرنا فى « اقتضاء الصراط المستقيم » الكلام على قوله تعالى : (فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟) وبسط هذا له موضع آخر .

فإن ترك الواجب وفعل المحرم متلازمان ؛ ولهـذا كان من فعل ما نهى عنه يقال : إنه عصى الأمر . ولو قال لها : إن عصيت أمري فأنت طالق . فنهاها فعصته ، ففيه وجهان :

أصحهما أنها تطلق ، وبعض الفقهاء يعلل ذلك بأن هذا يعد في العرف عاصيا ، ويجعلون هذا في الأصل نوعين .

والتحقيق أن كل نهي ففيه طلب واستدعاء لما يقصده الناهي . فهو أمر ، فالأمر يتناول هذا وهذا . ومنه قول الخضر لموسى : (إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا) . وقال له :

(فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) . فقوله :

(فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) ؟ قد تناوله قوله : (وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا) . ومنه قول موسى لأخيه : (مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى) وموسى قال له : (ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ) نهى . وهو لامه على أنه لم يتبعه ، وقال : أفعصيت أمري ؟ وعباد العجل كانوا مفسدين . وقد جعل هذا كله أمراً .

وكذلك قوله : (مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فهم لا يعصونه إذا نهاهم ، وقوله عن الرسول : (فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

فمن ركب مانهى عنه فقد خالف أمره ، وقال تعالى : (وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ) وإنما كان فعلاً منهيا عنه . وقوله : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) هو يتناول ما نهى عنه ، أقوى مما يتناول ما أمر به ، فإنه قال فى الحديث الصحيح : « إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه . وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

وقوله : (يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ)

فالمعصية مخالفة الأمر ومخالف النهي عاص ؛ فإنه مخالف الأمر ، وفاعل المحظور قد يكون أظهر معصية من تارك المأمور .

و « بالجملة » فهما متلازمان . كل من أمر بشيء فقد نهى عن فعل ضده ، ومن نهى عن فعل فقد أمر بفعل ضده ، كما بسط فى موضعه؛ ولكن لفظ « الأمر » يعم النوعين . واللفظ العـام قد يخص أحد نوعيه باسم ، ويبقى الاسم العـــام للنوع الآخر ، فلفظ الأمـــر عام لكن خصوا أحد النوعين بلفظ النهي ، فإذا قرن النهي بالأمر كان المراد بـــه أحد النوعين ، لا العموم .

فصـــــل

و « المقصود » أن الاستغفار والتوبـــة يكونان من كلا النوعـين ، و « أيضا » فالاستغفار والتوبـة مما فعله وتركه فى حال الجهل قبل أن يعلم أن هذا قبيـح من السيئات ، وقبل أن يرسل إليه رسول ، وقبل أن تقوم عليه الحجة ، فإنـــه سبحانه قال : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) .

وقد قال طائفة من أهل الكلام والرأي : إن هذا في الواجبات الشرعية غـــير العقلية . كما يقوله من يقوله من المعتزلة وغـــيرهم : من أصحاب أبى حنيفة ، وغيرهم : مثل أبى الخطاب وغـــيره على أن الآيـــة عامة : لايعذب الله أحداً إلا بعد رسول .

وفيها دليل على أنه لا يعذب إلا بذنب ، خلافاً لما يقوله « المجبرة » أتباع جهم : أنه تعالى يعذب بلا ذنب ، وقد تبعه طائفة تنسب إلى السنة : كالأشعري وغيره ، وهو قول القاضي أبى يعلى وغيره ، وقالوا : إن الله يجوز أن يعذب الأطفال فى الآخرة عذاباً لا نهاية له من غير ذنب فعلوه ، وهؤلاء يحتجون بالآية على إبطال قول من يقول : إن العقل يوجب عذاب من لم يفعل ، والآية حجة عليهم أيضاً حيث يجوزون العذاب بلا ذنب ، فهي حجة على الطائفتين .

ولها نظائر فى القرآن كقوله : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا) . وقوله تعالى : (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ) . وقوله : (كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ) . وما فعلوه قبل مجيء الرسل كان سيئاً وقبيحاً وشراً ؛ لكن لا تقوم عليهم الحجة إلا بالرسول . هذا قول الجمهور .

وقيل: إنه لا يكون قبيحاً إلا بالنهي ، وهو قول من لا يثبت حسنا ولا قبيحا إلا بالأمر والنهي . كقول جهم والأشعري ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة . وأصحاب مالك والشافعي وأحمد : كالقاضي أبي يعلى ، وأبي الوليد الباجي ، وأبي المعالي الجويني وغيرهم ، والجمهور من السلف والخلف على أن ما كانوا فيه قبل

مجيء الرسول من الشرك والجاهلية شيئاً قبيحاً ، وكان شراً . لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجيء الرسول ؛ ولهـذا كان للناس فى الشـرك والظلم والكذب والفواحش ونحو ذلك « ثلاثة أقوال » :

قيل : إن قبحها معلوم بالعقل ، وأنهم يستحقون العذاب على ذلك فى الآخرة ، وإن لم يأتهم الرسول ، كما يقوله المعتزلة ، وكـثير من أصحاب أبي حنيفة ، وحكوه عن أبى حنيفة نفسـه ، وهو قول أبي الخطاب ، وغيره .

و « قيل » : لا قبح ، ولا حسن ، ولا شر فيهما قبل الخطـاب ، وإنما القبيح ما قيل فيه لا تفعل ؛ والحسن ما قيل فيـه افعل ، أو ما أذن فى فعله . كما تقوله الأشعرية ، ومن وافقهم ، من الطوائف الثلاثة .

وقيل إن ذلك سيء ، وشر ، وقبيح ، قبـل مجيء الرسول ؛ لكن العقوبة إنما تستحق بمجيء الرسول . وعلى هـذا عامة السلف ، وأكثر المسلمين ، وعليه يدل الكتاب والسنة . فإن فيهما بيـان أن ما عليه الكفـار هو شر وقبيح ، وسيء قبـل الرسل ، وإن كانوا لا يستحقون العقوبـة إلا بالرسول . وفى الصحيح أن حذيفة قال : « يا رسول الله ! إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهـذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر . قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها » .

فصل

وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول . كقوله لموسى : (ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ) . وقال : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ) . فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى ، وحين كان صغيراً قبل أن يأتيه برسالة ، أنه كان طاغياً مفسداً .

وقال تعالى : (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ * إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ * أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ) . وهو فرعون ، فهو إذ ذاك عدو لله ، ولم يكن جاءته الرسالة بعد .

فصـــــل

و « أيضاً » أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه ، فلو كان كالمباح المستوى الطرفين والمعفو عنه وكفعـل الصبيان والمجانين ، ما أمر بالاستغفار والتوبة ، فعلم أنه كان من السيئات القبيحة ، لـكن الله لا يعاقب إلا بعد إقامة الحجة ، وهذا كقوله تعالى : (الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ * وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ) .

وقوله تعالى : (قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ) وقال : (إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ * قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ) .

فدل على أنها كانت ذنوباً قبل إنذاره إيام .

وقال عن هود : (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ

مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ) فأخبر فى أول خطابه أنهم مفترون . بأكثر الذي كانوا عليه ، كما قال لهم في الآية الأخرى : (أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ) .

وكذلك قال صالح : (يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ) .

وكذلك قال لوط لقومه : (أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ) . فدل على أنها كانت فاحشة عندهم قبل أن ينهاهم . بخلاف قول من يقول : ما كانت فاحشة ، ولا قبيحة ، ولا سيئة حتى نهاهم عنها ؛ ولهذا قال لهم : (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ) . وهذا خطاب لمن يعرفون قبح ما يفعلون ، ولكن أنذرهم بالعذاب .

وكذلك قول شعيب : (أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) . بين أن ما فعلوه

كان بخسالهم أشياءهم ، وأنهم كانوا عاثين في الأرض مفسدين قبل أن ينهاهم ؛ بخلاف قول « المجبرة » أن ظلمهم ما كان سيئة ، إلا لما نهاهم ، وأنه قبل النهي كان بمنزلة سائر الأفعال من الأكل والشرب ، وغير ذلك . كما يقولون في سائر ما نهت عنه الرسل من الشرك والظلم والفواحش .

وهكذا إبراهيم الخليل قال : (وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا * إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا)
فهذا توبيخ على فعله قبل النهي ، وقال أيضاً :
(وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا) . فأخبر أنهم يخلقون إفكاً قبل النهي .

وكذلك قول الخليل لقومه أيضاً : (مَاذَا تَعۡبُدُونَ * أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ — إلى قوله — أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ) . فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه قبل النهي ، وقبل إنكاره عليهم ، ولهذا استفهم استفهام منكر ، فقال : (أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ) أي وخلق ما تنحتون . فكيف يجوز أن تعبدوا ما تصنعونه بأيديكم ؟ وتدعون رب العالمين .

فلولا أن حسن التوحيد ، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وقبح الشرك ثابت فى نفس الأمر ، معلوم بالعقل ، لم يخاطبهم بهذا إذ كانوا لم يفعلوا شيئاً يذمون عليه ، بل كان فعلهم كأكلهم وشربهم ، وإنما كان قبيحاً بالنهي ، ومعنى قبحه كونه منهياً عنه ، لا لمعنى فيه ؛ كما تقوله المجبرة .

و « أيضاً » ففي القرآن فى مواضع كثيرة يبين لهم قبح ما هم عليه من الشرك وغيره بالأدلة العقلية ، ويضرب لهم الأمثال ، كقوله تعالى : (قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) . وقوله : (أَفَلَا تَتَّقُونَ) وقوله : (فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ) فهذا يقتضي أن اعترافهم بأن الله هو الخالق يوجب انتهاءهم عن عبادتها ، وأن عبادتها من القبائح المذمومة ؛ ولكن هؤلاء يظنون أن الشرك هو اعتقاد أن ثم خالق آخر ، وهذا باطل ؛ بل الشرك عبادة غير الله ، وإن اعترف المشرك بأنه مخلوق .

وقوله : إنه كله لله ، كذب مفترى (١) وإن قال : إنه مخلوق . ومثل هذا كثير فى القرآن . كقوله : (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ

---

(١) كذا بالاصل .

أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ)

وهذا فى جملة بعد جملة يقول : (أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ)

إنكاراً عليهم أن يعبدوا غير الله ، ويتخذوه إلهاً مع اعترافهم بأن هذا لم يفعله إله غير الله ، وإنما فعله هو وحده .

وقوله (أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ) جواب الاستفهام ، أيُّ إله مع الله [موجود ؟] وهذا غلط ، فإنهم يجعلون مع الله آلهة ويشهدون بذلك ؛ لكن ما كانوا يقولون : إنهم فعلوا ذلك . والتقرير إنما يكون لما يقرون به ، وهم مقرون بأنهم لم يفعلوا . لا يقرون بأنه لم يكن معه إله . قال تعالى : (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) .

وقد قال سبحانه : (وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) . وقال : (إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ) .

وقال : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

فهذا وإن كان قال الصحابة والتابعون إن كل عاص فهو جاهل . كما قد بسط في موضع آخر ، فهو متناول لمن يكون علم التحريم أيضاً .

فدل على أنه يكون عاملاً سوءاً ، وإن كان لم يسمع الخطاب المبين المنهى عنه ، وأنه يتوب من ذلك فيغفر الله له ويرحمه ، وإن كان لا يستحق العقاب إلا بعد بلوغ الخطاب ، وقيام الحجة .

وإذا كانت التوبة والاستغفار تكون من ترك الواجبات ، وتكون مما لم يكن علم أنه ذنب ، تبين كثرة ما يدخل فى التوبة والاستغفار ، فإن كثيراً من الناس إذا ذكرت التوبة والاستغفار يستشعر قبائح قد فعلها فعلم بالعلم العام أنها قبيحة : كالفاحشة ، والظلم الظاهر . فأما ماقد يتخذ دينا فلا يعلم أنه ذنب ، إلا من علم أنه باطل . كدين المشركين ، وأهل الكتاب المبدل ، فإنه مما تجب التوبة والاستغفار منه ، وأهله يحسبون أنهم على هدى . وكذلك البدع كلها .

ولهذا قال طائفة من السلف ــ منهم الثوري ــ : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها . وهذا معنى ما روى عن طائفة أنهم قالوا : إن الله حجر التوبة على كل صاحب بدعة ، بمعنى أنه لا يتوب منها ؛ لأنه يحسب أنه على هدى ، ولو تاب لتاب عليه ، كما يتوب على الكافر . ومن قال : إنه لا يقبل

توبة مبتدع مطلقاً فقد غلط غلطاً منكراً . ومن قال : ما أذن الله لصاحب بدعة في توبة . فمعناه مادام مبتدعا يراها حسنة لا يتوب منها ، فأما إذا أراه الله أنها قبيحة فإنه يتوب منها . كما يرى الكافر أنه على ضلال ، والا فمعلوم أن كثيراً ممن كان على بدعة تبين له ضلالها ، وتاب الله عليه منها . وهؤلاء لا يحصيهم إلا الله .

و « الخوارج » لما أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم ، رجع منهم نصفهم ، أو نحوه ، وتابوا ، وتاب منهم آخرون على يد عمر بن عبد العزيز وغيره ، منهم من سمع العلم فتاب ، وهذا كثير ، فهذا القسم الذي لا يعلم فاعلوه قبحه قسم كثير من أهل القبلة ، وهو فى غيرهم عام ، وكذلك مايترك الإنسان من واجبات لايعلم وجوبها كثيرة جداً ، ثم إذا علم ما كان قد تركه من الحسنات من التوحيد والإيمان ، وما كان مأموراً بالتوبة منه ، والاستغفار مما كان سيئة ، والتائب يتوب مما تركه ، وضيعه ، وفرط فيه ، من حقوق الله تعالى ، كما يتوب مما فعله من السيئات ، وإن كان قد فعل هذا وترك هذا قبل الرسالة ، فبالرسالة يستحق العقاب على ترك هذا وفعل هذا . والا فكونه كان فاعلا للسيئات المذمومة ، وتاركا للحسنات التى يذم تاركها كان تائبا قبل ذلك كما تقدم . وذكرنا « القولين » قول من نفى الذم والعقاب ، وقول من أثبت الذم والعقاب .

فإن قيل : إذا لم يكن معاقباً عليها ، فلا معنى لقبحها . قيل بل فيه معنيان :

(أحدهما) أنه سبب للعقاب ، لكن هو متوقف على الشرط ، وهو الحجة ، قال تعالى : (وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا) فلولا إنقاذه لسقطوا ، ومن كان واقفاً على شفير فهلك ، فهلا كه موقوف على سقوطه ، بخلاف ما إذا بان وبعد عن ذلك ، فقد بعد عن الهلاك . فأصحابها كانوا قريبين إلى الهلاك والعذاب .

(الثانى) أنهم مذمومون ، منقوصون ، معيبون . فدرجتهم منخفضة بذلك ، ولا بد . ولو قدر أنهم لم يعذبوا لا يستحقون ما يستحقه السليم من ذلك من كرامته أيضا ، وثوابه . فهذه عقوبة بحرمان خير ، وهى أحد نوعي العقوبة . وهذا وإن كان حاصلا لكل من ترك مستحباً فإنه يفوته خيره ، ففرق بين ما يفوته مالم يحصل له ، وبين ما ينقص ما عنده . وهذا كلام عام فيما لم يعاقب عليه من الذنوب .

وأما من لم يرسل إليه رسول فى الدنيا : فقد رويت آثار أنهم يرسل إليهم رسول فى عرصات القيامة ، كما قد بسط فى مواضع .

وقد تنازع الناس فى « الوجوب والتحريم » هل يتحقق بدون العقاب

على الترك ؟ على قولين . قيل : لا يتحقق ؛ فإنه إذا لم يعاقب كان كالمباح ، وقيل : يتحقق ؛ فإنه لا بد أن يذم وإن لم يعاقب .

وتحقيق الأمر أن العقاب « نوعان » نوع بالآلام . فهذا قد يسقط بكثرة الحسنات ، ونوع بنقص الدرجة ، وحرمان ما كان يستحقه . فهذا يحصل إذا لم يحصل الأول . والله تعالى يكفر سيئات المسيء ، كما قال تعالى : (إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) فيكفرها تارة بالمصائب ، فتبقى درجة صاحبها كما كانت ، وقد تصير درجته أعلى ، ويكفرها بالطاعات ، ومن لم يأت بتلك السيئات أعلى درجة . فيحرم صاحب السيئات ما يسقط بازائها من طاعته ، وهذا مما يتوب منه من أراد ألا يخسر ومن فرط فى مستحبات فإنه يتوب أيضاً ؛ ليحصل له موجبها . فالتوبة تتناول هؤلاء كلهم . وتوبة الإنسان من حسناته على أوجه :

(أحدها) أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها .

و (الثاني) أن يتوب مما كان يظنه حسنات ، ولم يكن كحال أهل البدع .

و (الثالث) يتوب من إعجابه ورؤيته أنه فعلها ، وأنها حصلت

بقوته ، وينسى فضل الله وإحسانه ، وأنه هو المنعم بها ، وهـذه توبة من فعل مذموم ، وترك مأمور .

ولهذا قيل : تخليص الأعمال مما يفسدها أشـد على العاملين من طول الاجتهاد . وهذا مما يبين احتياج الناس إلى التوبة دائماً . ولهذا قيل : هي مقام يستصحبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره ، ولا بد منه لجميـع الخلق ؛ فجميـع الخلق عليهم أن يتوبوا وأن يستديموا التوبة . قال تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ . فغاية كل مؤمن التوبة . وقـد قال الله لأفضل الأنبياء ، وأفضل الخلق بعـد الأنبياء ، وهم السابقون الأولون : ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ . ومن أواخر ما أنزل الله قوله : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ .

وقد ثبت فى الصحيحين أنـه كان يقول فى ركوعـه وسجوده : « سبحانك اللهم وبحمدك . اللهم اغفر لي يتأول القرآن » . وفى لفظ لمسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله صـلى الله عليـه وسلم يكثر

أن يقول قبل أن يموت : سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك ، وأتوب إليك . قالت : فقلت : يارسول الله ! أراك تكثر من قولك : سبحانك اللهم ، وبحمدك ، أستغفرك ، وأتوب إليك . فقال : أخبرني ربى أنى سأرى علامة فى أمتى . فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك ، وأتوب إليك ، فقد رأيتها : (إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ) فتح مكة (وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا) .

وأمره سبحانه له بالتسبيح بحمده والاستغفار فى هذه الحال لا يقتضى أنه لا يشرع في غيرها ، أو لا يؤمر به غيره . بل يقتضي أن هذا سبب لما أمر به ، وإن كان مأموراً به فى مواضع أخر . كما يؤمر الإنسان بالحمد والشكر على نعمه ، وإن كان مأموراً بالشكر عليها ، وكما يؤمر بالتوبة من ذنب وإن كان مأموراً بالتوبة من غيره ؛ لكن هو أمر أن يختم عمله بهذا فغيره أحوج إلى هذا منه ، وقد يحتاج العبد إلى هذا فى غير هذه الحال ، كما يحتاج إلى التوبة ، فهو محتاج إلى التوبة والاستغفار مطلقاً ، كما ثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستغفر عقب الصلاة ثلاثاً . قال تعالى : (وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ) . قاموا الليل ثم جلسوا وقت السحر يستغفرون .

وقد ختم الله « سورة المزمل » وفيها قيام الليل بقوله : (وَٱسْتَغْفِرُوا۟

ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ) كما ختم بذلك « سورة المدثر » بقوله : (هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ) فهو سبحانه أهل التقوى ، ولم يقل سبحانه أهل للتقوى . بل قال : (أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ) فهو وحده أهل أن يتقى ، فيعبد دون ما سواه ، ولا يستحق غيره أن يتقى ، كما قال : (وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ) وقال : (وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ) وهو أهل المغفرة ، ولا يغفر الذنوب غيره ، كما قال تعالى : (وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ)

وفى غير حديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » فهو سبحانه أهل التقوى ، وأهل المغفرة ، وقد جمع الله بين التوحيد والاستغفار فى غير موضع ، كقوله سبحانه : (فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ) فالمؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركيه قبل الإسلام من توحيد الله ، وعبادته ، وإن كان ذلك لم يأتهم به رسول بعد ، كما تقدم ، والرسول يستغفر من ترك ما كان تاركه كما قال فيه : (مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ) وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب ، والمؤمن إذا تبين له أنه ضيع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك ، وتاب . وكذلك إذا تبين له أن بعض ما يفعله هو مذموم .

فصـــل

و « أيضاً » فمما يستغفر ويتاب منه ما فى النفس من الأمور التى لو قالها أو فعلها عذب . قال تعالى : ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ فهو يغفر لمن يرجع عما في نفسه ، فلم يتكلم به ، ولم يعمل : كالذي هم بالسيئة ولم يعملها ، وإن تركها لله كتبت له حسنة . وهـذا مما يستغفر منه ويتوب ؛ فإن الاستغفار والتوبة من كل ما كان سبباً للذم والعقاب ، وإن كان لم يحصل العقاب ، ولا الذم . فإنه يفضي إليـه ، فيتوب من ذلك : أي يرجع عنه ، حتى لا يفضي إلى شر ، فيستغفر الله منه . أي يطلب منـه أن يغفر له ، فلا يشقيه به ؛ فإنه وإن لم يعاقب عليه فقـد ينقص به . فالذي يهم بالسيئات وإن كان لا يكتب عليـه سيئة ؛ لـكنه اشتغل بها عمـا كان ينفعه ، فينقص بهـا عمن لم يفعلهـا ، واشتغل بما ينفعه عنهـا .

وقد بسطنا في غير هذا الموضع : أن فعل الإنسان وقوله ـ إما له وإما عليه ـ لا يخلو من هذا أو هذا . فهو يستغفر الله ويتوب ممـا

عليه . وقد يظن ظنون سوء باطلة ، وإن لم يتكلم بها ، فإذا تبين له فيها استغفر الله وتاب .

وظلمه لنفسه يكون بترك واجب كما يكون بفعل محرم . فقوله تعالى : (وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ) من عطف العام على الخاص ، وكذلك قوله : (وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وقد قيل : فى قوله تعالى : (وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ) قيل : الفاحشة الزنا ، وقيل : كل كبيرة ، وظلم النفس المذكور معها . قيل : هو فاحشة أيضاً . وقيل : هي الصغائر . وهذا يوافق قول من قال : الفاحشة هي الكبيرة ، فيكون الكلام قد تناول الكبيرة والصغيرة ، ومن قال : الفاحشة الزنا ، يقول : ظلم النفس يدخل فيه سائر المحرمات ، وقيل : الفاحشة الزنا ، وظلم النفس ما دونه من اللمس والقبلة والمعانقة ، وقيل : هذا هو الفاحشة ، وظلم النفس المعاصي ، وقيل الفاحشة فعل وظلم النفس قول .

والتحقيق أن « ظلم النفس » جنس عام يتناول كل ذنب ، وفى الصحيحين أن أبا بكر قال : يارسول الله ! علمني دعاءً أدعو به فى صلاتي فقال : « قل : اللهم إنى ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم »

وفى صحيح مسلم وغـيره أن النبي صلى الله عليـه وسـلم كان يقول في استفتاحه : « اللهم أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بـذنبي فاغفر لي ؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق ، فإنه لا يهدي لأحسنهـا إلا أنت ، واصرف عني سيئهـا فإنه لا يصرف عنى سيئها إلا أنت » .

وقد قال أبو البشر وزوجته : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ) . وقال موسى : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي) وقال ذوالنون « يونس » : (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ) . وقالت بلقيس : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) .

وفى الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم[1] وقد قال عن أهل القرى المعذبين : (وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ) . وأما قوله : (ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا) فقد قيل : إن الذنوب هي الصغائر ، والإسراف هو الكبائر .

و « التحقيق » أن « الذنوب » اسم جنس ، و « الإسراف » تعـدى الحد ، ومجاوزة القصد ، كما فى لفظ الإثم والعدوان فالذنوب كالإثم ،

(١) كذا بالأصل

والإسراف كالعدوان ، كما فى قوله : (غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ) ومجاوزة قدر الحاجة ، فالذنوب مثل اتباع الهوى بغير هدى من الله . فهذا كله ذنب ، كالذي يرضى لنفسه ، ويغضب لنفسه ، فهو متبع لهواه ، و « الإسراف » كالذي يغضب لله ، فيعاقب بأكثر مما أمر الله . والآية فى سياق قتال المشركين ، وما أصابهم يوم أحد .

وقد أخبر عمن قبلهم بقوله : (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

وقد قيل على الصحيح ، المراد به النبي صلى الله عليه وسلم وان لم يقتل فى معركة فقد قتل أنبياء كثيرون ، (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) الآية . فجمعوا بين الصبر والاستغفار ، وهذا هو المأمور به فى المصائب ، الصبر عليها ، والاستغفار من الذنوب التى كانت سببها .

والقتال كثيراً مايقاتل الإنسان فيه لغير الله ، كالذى يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . فهذا كله ذنوب ، والذي يقاتل لله قد يسرف فيقتل من لا يستحق القتل ، ويعاقب الكفار بأشد مما أمر به ، قال الله تعالى : (وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي

ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا) وقال : (وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا) . وقال : (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ)

فالإسراف مجاوزة الحد .

هــذا آخر ما كتبته هنا . والله سبحانه وتعالى أعلم . والحمـد لله رب العـالمين .

وقال شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية ـ رحمه الله

الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه . إلى الفعل المحبوب ، من العمل الناقص إلى العمل التام ، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه ، والأكمل ؛ فإن العابد لله ، والعارف بالله ، في كل يوم ، بل فى كل ساعة ، بل فى كل لحظة ، يزداد علماً بالله . وبصيرة فى دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك فى طعامه ، وشرابه ، ونومه ، ويقظته ، وقوله ، وفعله ، ويرى تقصيره فى حضور قلبه فى المقامات العالية ، واعطائها حقها ، فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار ؛ بل هو مضطر إليه دائماً فى الأقوال والأحوال ، فى الغوائب والمشاهد ، لما فيه من المصالح ، وجلب الخيرات ، ودفع المضرات ، وطلب الزيادة فى القوة فى الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية .

وقد ثبتت : دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد ، واقترانها بشهادة أن لا إله إلا الله ، من أولهم إلى آخرهم ، ومن آخرهم إلى

أولهم ، ومن الأعلى إلى الأدنى . وشمول دائرة التوحيد والاستغفار للخلق كلهم ، وهم فيها درجات عند الله ، ولكل عامل مقام معلوم . فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق ويقين تذهب الشرك كله ، دقه وجله خطأه وعمده ، أوله وآخره ؛ سره وعلانيته ، وتأتى على جميع صفاته وخفاياه ودقائقه .

والاستغفار يمحو ما بقي من عثراته ، ويمحو الذنب الذي هو من شعب الشرك ، فإن الذنوب كلها من شعب الشرك . فالتوحيد يذهب أصل الشرك ، والاستغفار يمحو فروعه ، فأبلغ الثناء قول : لا إله إلا الله ، وأبلغ الدعاء قول : أستغفر الله . فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ، ولأخوانه ، من المؤمنين .

وقال : إياك والنظر في كتب أهل الفلسفة الذين يزعمون فيها أنه كلما قوى نور الحق وبرهانه في القلوب خفي عن المعرفة ، كما يبهر ضوء الشمس [عيون] الخفافيش بالنهار .

فاحذر مثل هؤلاء وعليك بصحبة أتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى وبراهين الإيمان ، أصحاب البصائر فى الشبهات والشهوات ، الفارقين بين الواردات الرحمانية والشيطانية ، العالمين العاملين (أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ) .

وقال : التوبة من أعظم الحسنات ، والحسنات كلها مشروط فيها الإخلاص لله ، وموافقة أمره باتباع رسوله ، والاستغفار من أكبر الحسنات ، وبابه واسع . فمن أحس بتقصير فى قوله ، أو عمله ، أو حاله ، أو رزقه ، أو تقلب قلب : فعليه بالتوحيد ، والاستغفار ، ففيهما الشفاء إذا كانا بصدق وإخلاص .

وكذلك إذا وجد العبد تقصيراً فى حقوق القرابة ، والأهل والأولاد ، والجيران ، والإخوان . فعليه بالدعاء لهم ، والاستغفار . قال حذيفة بن اليمان للنبي صلى الله عليه وسلم : إن لي لساناً ذرباً على أهلي . فقال له : « أين أنت من الاستغفار ؟ إني لأستغفر الله فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وسئل رحمه الله

عن قوله : « ما أصر من استغفر ، وإن عاد فى اليوم والليلة سبعين مرة » . هل المراد ذكر الاستغفار باللفظ ؟ أو أنه إذا استغفر ينوى بالقلب أن لا يعود إلى الذنب ؟ وهل إذا تاب من الذنب وعزم بالقلب أن لا يعود إليه ، وأقام مدة ثم وقع فيه أفيكون ذلك الذنب القديم يضاف إلى الثانى ؟ أو يكون مغفوراً بالتوبة المتقدمة ؟ وهل التائب من شرب الخمر ، ولبس الحرير يشربه فى الآخرة ؟ ويلبس الحرير في الآخرة ؟ والتوبة النصوح ما شرطها ؟.

فأجاب : الحمد لله .

بل المراد الاستغفار بالقلب مع اللسان ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، كما فى الحديث الآخر : « لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » فإذا أصر على الصغيرة صارت كبيرة ، وإذا تاب منها غفرت . قال تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) الآية .

وإذا تاب توبة صحيحة غفرت ذنوبه ، فإن عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب أيضاً . وإذا تاب قبل الله توبته أيضاً .

وقد تنازع العلماء فى التائب من الكفر . إذا ارتد بعد إسلامه ، ثم تاب بعد الردة وأسلم . هل يعود عمله الأول ؟ على « قولين » مبناها أن الردة هل تحبط العمل مطلقاً ، أو تحبطه بشرط الموت عليها .

فمذهب أبي حنيفة ومالك أنها تحبطه مطلقاً . ومذهب الشافعي أنها تحبطه بشرط الموت عليها .

والردة ضد التوبة ، وليس من السيئات ما يمحو جميع الحسنات إلا الردة ، وقد قال تعالى : (تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (تَوْبَةً نَّصُوحًا) ، أن يتوب ثم لا يعود، فهذه التوبة الواجبة التامة .

ومن تاب من شرب الخمر ، ولبس الحرير ، فإنه يلبس ذلك فى الآخرة ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « من شرب الخمر ثم لم يتب منها حرمها » وقد ذهب بعض الناس كبعض أصحاب أحمد : إلى أنه لا يشربها مطلقاً ، وقد أخطئوا الصواب . الذي عليه جمهور المسلمين .

وسئل

عن اليهودي أو النصرانى إذا أسلم . هل يبقى عليه ذنب بعد الإسلام ؟

فأجاب : — إذا أسلم باطناً وظاهراً غفر له الكفر الذي تاب منه بالإسلام بلا نزاع ، وأما الذنوب التى لم يتب منها مثل : أن يكون مصراً على ذنب ، أو ظلم ، أو فاحشة ، ولم يتب منها بالإسلام . فقد قال بعض الناس : إنه يغفر له بالإسلام . والصحيح : أنه إنما يغفر له ما تاب منه . كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قيل : « أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ فقال : من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية . ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر » .

و « حسن الإسلام » أن يلتزم فعل ما أمر الله به ، وترك مانهى عنه . وهذا معنى التوبة العامة ، فمن أسلم هذا الإسلام غفرت ذنوبه كلها .

وهكذا كان إسلام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ؛ ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث

الصحيح لعمرو بن العاص : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله » فإن اللام لتعريف العهد ، والإسلام المعهود بينهم كان الإسلام الحسن .

وقوله : « ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » أي : إذا أصر على ما كان يعمله من الذنوب فإنه يؤاخذ بالأول والآخر . وهذا موجب النصوص والعدل ، فإن من تاب من ذنب غفر له ذلك الذنب ، ولم يجب أن يغفر له غيره .

والمسلم تائب من الكفر ، كما قال تعالى : (فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) وقوله : (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ) أي إذا انتهوا عما نهوا عنه غفر لهم ما قد سلف .

فالانتهاء عن الذنب هو التوبة منه . من انتهى عن ذنب غفر له ما سلف منه . وأما من لم ينته عن ذنب فلا يجب أن يغفر له ماسلف لانتهائه عن ذنب آخر . والله أعلم .

آخر المجلد الحادي عشر



فهرس المجلد الحادي عشر

صفحة **الموضوع**

صفحة	الموضوع

١٥٦ ـ ٣١١ « الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان »

صفحة	الموضوع
١٨٦ ، ١٨٧	فصل أولياء الله هم المتقون ، تفاضل الناس فى ولاية الله ، أصل الإيمان والتقوى هو الإيمان برسل الله ، وأصل الكفر والنفاق هو الكفر بالرسل وبما جاءوا به
١٨٧ ـ ١٨٩	فصل من الناس من يؤمن بالرسل إيمانا مجملا ولم يبلغه بعض ما جاءوا به فلا يعذب على تركه لكنه يفوته كمال ولاية الله
١٨٨ ـ ١٩٠	الجنة درجات ، والناس يتفاضلون فيها
١٩٠ ـ ١٩٢	فصل أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ، لا يكون أحد من الكفار والمنافقين ولا من الصبيان والمجانين وليا لله ، ولا يجوز أن تعتقد فيهم الولاية وإن كان لبعضهم مكاشفات وتصرفات شيطانية
١٩٣	من كان يغيب عقله ويفيق أثيب على عمله فى حال إفاقته
١٩٤ ، ١٩٥	ليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من لباس أو حلق شعره أو تقصيره أو ظفره ، يوجد الأولياء فى جميع أصناف الأمة ...
١٩٥	كان السلف يسمون أهل العلم والدين القراء ، ثم حدث اسم الصوفية والفقراء، اسم الصوفية نسبة إلى لباس الصوف وقيل...
١٩٥ ـ ١٩٧	اسم الفقراء يراد به أهل السلوك فى العرف الحادث ، ويراد به فى الشرع الفقر من المال والفقر إلى الله
١٩٥ ، ١٩٦	أيما أفضل مسمى الفقير أو مسمى الصوفى ، وأيما أفضل الغنى الشاكر أو الفقير الصابر
١٩٧ ـ ٢٠٠	الجهاد أفضل ما تطوع به الإنسان
٢٠٠	الصمت الدائم والامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء بدعة
٢٠١ ـ ٢١٨	فصل يجب على أولياء الله الاعتصام بالكتاب والسنة وليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع فى قلبه
٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ـ ٢١٨	الناس فى اتباع الأولياء فيما يقولون ويفعلون ثلاثة أصناف
٢٠٥ ، ٢٠٦	أفضل المحدثين عمر وكان يوافق القرآن تارة ويخالفه أخرى ، لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات
٢٠٨ ـ ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣	الذى تجب طاعته وتصديقه مطلقا هو الرسول ، قد يخطىء المجتهد فيغفر له ويؤجر
٢١٠	كلام المشايخ فى وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة فى العلم والعمل
٢١٣ ـ ٢١٨	عمدة هؤلاء فى كون الشخص وليا لله ، الصفات التى بها يعرف الولى من غيره
٢١٨ ، ٢١٩	فصل الحقيقة حقيقة الدين وهى ما اتفق عليها الأنبياء ، التنوع فى الشرعة والمنهاج ، تفسير الشرعة والمنهاج

صفحة	الموضوع
٢٢١	فصل أجمع السلف والأولياء على أن الأنبياء أفضل من الأولياء
٢٢١ ـ ٢٢٣	السعداء أربع مراتب ، أفضل الأمم ، وأفضل قرون هذه الأمة
٢٢٢ ، ٢٢٣	السابقون الأولون أفضل من سائر الصحابة ، أفضل السابقين ، أفضل هذه الأمة
٢٢٣	أفضل أولياء الله ، زعم طائفة أن خاتم الأولياء أفضل الأولياء ، أول من تكلم بخاتم الأولياء الحكيم الترمذى
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ـ ٢٥١	زعم ابن عربى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، تلبيسه على الناس ... وبيان حقيقة مذهبه ومذهب أتباعه، خاتم الأنبياء أفضل الأنبياء والأولياء
٢٢٥ ، ٢٢٦	لا يكون أحد وليا إلا باتباع الرسل
٢٢٥ ، ٢٢٦	من قال أنا محتاج إلى محمد فى علم الباطن دون الظاهر فهو أكفر من اليهود والنصارى
٢٢٧ ـ ٢٢٨	مذهب المتفلسفة - أرسطو وأتباعه وابن سينا وأمثاله ـ فى الله وصفاته وفى الأفلاك والنبوات والملائكة والجن ، حكم هؤلاء ، علمهم الرد عليهم ، عباداتهم
٢٣٠ ـ ٢٣٢	حديث موضوع ذكروه فى العقل غلطهم فى لفظه ومعناه
٢٣٥ ، ٢٣٦	مذهب فرعون والفرق بينه وبين مذهب أهل الوحدة
٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥	خيار مشايخ الصوفية ... لا يقولون بالوحدة
٢٤٢	المطلق بشرط والمطلق لا بشرط
٢٤٨ ـ ٢٥٠	المعية ، انقسامها إلى عامة وخاصة ، تفسير آياتها ومذهب السلف فى ذلك
٢٥١ ـ ٢٥٧	فصل تشتبه على كثير من الناس الحقائق الكونية بالحقائق الشرعية، عموم خلق الله لكل شيء ، مما أمر الله به التوحيد ونهى عن الشرك، أمر بالعدل والاحسان ... والتوبة والاستغفار
٢٥٧ ، ٢٥٨	لا حجة فى القدر لأهل الذنوب
٢٥٨ ـ ٢٦٠	احتجاج آدم وموسى ضل فيه طائفتان
٢٦٢ ـ ٢٦٥	لا يفرق كثير من الناس بين الحقيقة الكونية والحقيقة الشرعية كما لا يفرق بين الشرع المنزل والشرع المبدل ويحتج بقصة الخضر
٢٦٥ ـ ٢٧١	فصل فى الفرق بين الإرادة والأمر والقضاء والإذن والتحريم والبعث والإرسال والجعل الكونى والشرعى
٢٧١ ـ ٢٧٥ ، ٢٨٧ ـ ٢٩٠ ، ٣٠٢	مجامع الفروق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
٢٧٥ ـ ٢٨٢	سبب حصول الكرامات للأولياء ، من معجزات الرسول ، كرامات حصلت للصحابة والتابعين والصالحين

صفحة	الموضوع
٢٨٣	قد تكون الكرامات بحسب حاجة الشخص ، لا يفضل من تحصل له كرامة مطلقا على من لم تحصل له
٢٨٣ ـ ٢٨٥	الشياطين تخبر الكهان والمتنبئين ببعض المغيبات وتعينهم على بعض الأمور ، أو تحضر لهم ما يشتهون
٢٨٥ ـ ٢٨٧	متى تنصرف عنهم الشياطين
٢٩٠ ـ ٢٩٣	الحكمة فى النهى عن اتخاذ القبور مساجد وبناء المساجد عليها والنهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها
٢٩٢ ـ ٢٩٤	قد تعين الشياطين عابديها وتخاطبهم ، وتأوى إلى المغارات والجبال فيظنها بعض الناس رجال الغيب أو الأبدال
٢٩٤ ، ٢٩٥	الناس فى خوارق العادات على ثلاثة أقسام
٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ـ ٣١٠	سماع الغناء والملاهى مما يقوى الأحوال الشيطانية ، المكاء والتصدية ، ما يبطل الأحوال الشيطانية ، من تلاعب الشيطان بالانسان
٢٩٦ ـ ٢٩٨	سماع الرسول والصحابة ، السماع المحدث
٢٩٨ ـ ٣٠١	أنواع الخوارق ، قد ترتفع درجة الرجل عند الله ، وقد تنقص بسبب الخوارق
٣٠٣	فصل ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمدا إلى جميع الإنس والجن
٣٠٣ ـ ٣١٠	سماع الجن للقرآن وإيمانهم به واجتماعهم بالنبى ، والإنس مع الجن على أحوال
٣٠٦ ، ٣٠٧	هل يدخل كافرهم النار ومؤمنهم الجنة

٣١١ ـ ٣٦٢ « قاعدة فى المعجزات والكرامات »

صفحة	الموضوع
٣١١ ، ٣١٢	المعجزة ، من فرق بين المعجزة والكرامة
٣١٢ ، ٣١٣	صفات الكمال ترجع إلى العلم والقدرة والغنى ولا تصلح على الكمال إلا لله
٣١٣ ، ٣١٤	قد ينال العبد من الثلاثة بقدر ما يعطيه الله ، أمثله لذلك
٣١٥ ـ ٣١٨	جمع الله لنبينا أنواع المعجزات والخوارق ، من معجزات الأنبياء وغيرهم
٣١٩ ـ ٣٢١	الخارق ثلاثة أنواع محمود فى الدين ومذموم ومباح
٣٢٢ ـ ٣٣٥	فصل كلمات الله نوعان : كونية ودينية ، الكونية هى التى استعاذ بها النبى الكشف والقدرة فى النوعين
٣٢٣	عدم الخوارق لا ينقص رتبة المسلم عند الله بل قد يزيدها
٣٢٣ ـ ٣٢٩	أقسام الخوارق ثلاثة إما أن يتعلق بالعلم والقدرة أو بالدين فقط

صفحة	الموضوع
	أو الكون فقط ما أعطى الرسول وخواص أمته
٣٢٧ ـ ٣٣٥	فصل أفضل الأقسام ما يتعلق بالدين من وجوه ، سبب قلة الخوارق للصحابة وكثرتها لمن بعدهم
٣٣٥ ، ٣٣٧	العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة ، الدين نوعان : أمور خبرية اعتقادية وأمور طلبية عملية ، موضوع الأول وما يسمى به وموضوع الثانى ، قد يدخل بعض الأمر والنهى فى القسم الأول ، ما اتفق عليه المسلمون
٣٣٧ ، ٣٣٨	الطرق الموصلة إلى القسمين وما تنازعوا فيه منها
٣٣٩ ، ٣٤٠	طرق الأحكام الشرعية المتفق عليها والمختلف فيها (١) الكتاب (٢) السنة التى لا تخالف ظاهر القرآن أو تخالفه
٣٤٠ ، ٣٤١	(٣) السنن المتواترة (٤) الإجماع (٥) القياس على النص والإجماع (٦) الاستصحاب (٧) المصالح المرسلة
٣٤٣ ـ ٣٤٧	كثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها ولم تكن كذلك ، لم تهمل الشريعة مصلحة قط
٣٤٤ ـ ٣٤٦	الاستحسان ، والاستقباح
٣٤٦ـ ٣٥٨	ما يختلف فيه الناس من الحسن والقبح العقلى
٣٤٨ ، ٣٤٩	ما نهى الله عنه فهو باطل لا يشتمل على منفعة خالصة أو راجحة ، ما وصف بالإحباط والبطلان فى آيات معنى الباطل والصحيح من العقود والاعتقادات والمقالات
٣٥٠ ، ٣٥١	كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ، معنى « ألاكل شىء ما خلا الله باطل » (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)
٣٥١ ـ ٣٥٦	ما اختلف فيه من التحسين والتقبيح من أفعال الله وهل ما حسن من المخلوق حسن منه وما قبح من المخلوق قبح منه ؟ ، بيان هذه الاشكالات بمقدمات (١) (٢) (٣) (٤) (٥)
٣٥٦ ، ٣٥٧	إن قيل تقسيم الإرادة لا يعرف فى حق المخلوق وأما الإرادة والمحبة فقد يعرف فى حقنا
٣٥٧ ـ ٣٦٢	إن قيل المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومناسبة بين المحب والمحبوب إلخ والبغض لا يكون إلا عن منافرة إلخ بخلاف الإرادة : فالجواب من وجهين
٣٥٩ ـ ٣٦٢	هل يقال هو مفتقر إلى صفاته وذاته أو نفسه ؟
٣٥٩ ـ ٣٦٢	اشتمال النصوص على التقديس وإثبات الكمال لله

صفحة	الموضوع
	مدح العلم والهدى
٣٨٦ ، ٣٨٧	مراد من قال أول المعرفة وآخرها الحيرة ، وقوله الحيرة على معنيين
٣٨٧ ـ ٣٩٠	وقول الآخر الحيرة نازلة تنزل بقلوب العارفين بين اليأس والطمع إلخ
٣٩١	قول الآخر متى أصل إلى طريق الراجين وأنا مقيم فى حيرة المتحيرين
٣٩١	وقول محمد بن الفضل العارف كلما انتقل من حال إلى حال استقبلته الدهشة والحيرة ، وقوله : أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيرا
٣٩١ ـ ٣٩٣	مما نقل عن الجنيد : « انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة » وما نقل عن ذى النون فى هذا الباب
٣٩٤	« سئل عن رجل يحب رجلا عالما فإذا التقيا ثم افترقا حصل لذلك الرجل شبه الغشي من أجل الفراق إلخ » .
٣٩٥ ـ ٤٠١	« وسئل ما الحكمة فى أن المشتغلين بالذكر والفكر إلخ يحصل لهم من الكرامات ما لا يحصل للمشتغلين بالعلم إلخ »
٣٩٦	من أوتى العلم والإيمان أرفع درجة من الذين أوتوا الإيمان فقط
٣٩٦ ـ ٣٩٨	العلم ثلاثة أقسام ، قد يحفظ العلم من لا يفهم أولا يتميز فى إيمانه عمن فهمه ، قد يحفظه من لا يؤمن به
٣٩٨	شرح حديث مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن
٣٩٨ ، ٣٩٩	ليس كل علم أورث كرامة أفضل من علم لم يورثها
٣٩٩ ، ٤٠٠	تفضيل العلم على العمل قد يكون مطلقا وقد يكون مقيدا، أمثلة لذلك
٤٠١ ـ ٤٣٣	« سئل عن قوم داوموا على الرياضة فرأوا أنهم قد تجوهروا وسقط عنهم الأمر والنهي »
٤٠١ ـ ٤٠٣	هؤلاء أكفر أهل الأرض وهم عابدون للشيطان كفرعون
٤٠٣ ـ ٤٠٥	قد يزعم بعضهم سقوط بعض الواجبات وحل بعض المحرمات للخواص ، يعذر الجاهل بذلك

صفحة	الموضوع
٤٠٣ ـ ٤٠٥	قصة الذين شربوا الخمر من الصحابة وتأولوا الآية
٤٠٥ ـ ٤٠٨	حكم من جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة أو تحريم المحرمات أو جحد حل المباحات أو لم يعلم بذلك
٤٠٦	هل يجب قضاء الصلاة على من أسلم بدار حرب لم يعلم وجوبها ...
٤٠٦ ـ ٤١٣	هل يثبت حكم الخطاب فى حق المكلف قبل التمكن من سماعه وهل يأثم
٤٠٧ ، ٤٠٨	حديث « يأتى على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة إلخ » الذى أمر أن يحرقه أهله ، شك عائشة فى خروج النبى من مضجعه إلى البقيع
٤١٣	وأما قول السائل هل يصدر ذلك عمن فى قلبه خضوع للنبى ؟
٤١٤ ، ٤١٥	معنى قول السائل قد تجوهروا ، وقوله حاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة
٤١٥ ـ ٤١٧	قولهم المراد بالنبوة ضبط العوام ولسنا من العوام
٤١٥ ـ ٤١٧	فوائد العقوبات السلطانية
٤١٧ ـ ٤٣٢	سقوط احتجاجهم بقوله (وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ) ، معنى الآية
٤٣٢	احتجاجهم بقصة الخضر على أنه كان شاهدا للحقيقة الكونية وأن من الأولياء من يجوز له الخروج عن شريعته
٤٣٠ ، ٤٣١	لفظ الشرع يطلق على ثلاثة معان

٤٣٣ ـ ٤٤٥ « سئل عن الحديث المروي في الأبدال إلخ »

صفحة	الموضوع
٤٣٣ ـ ٤٤١	ليس اسم الغوث والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال الأربعين والنجباء الثلاثمائة موجود فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى كلام السلف والمشايخ المقبولين وحصرهم باطل
٤٣٤ ، ٤٣٥	فى هذه الأمة من يحرف ويلبس الحق بالباطل والعلم يميز ذلك
٤٣٧ ـ ٤٣٩ ، ٤٤٢	لفظ الغوث والغيات لا يستحقه إلا الله ونسبته إلى غيره شرك
٤٤٠ ـ ٤٤٣	لفظ الأوتاد والقطب والبدل يوجد فى كلام بعضهم ويريد به ...
٤٤١	حديث الأبدال وأنهم بالشام
٤٤٣ ، ٤٤٤	ليس فى أولياء الله من هو غائب الجسد دائما عن الأبصار ، كذب من زعم ذلك فى على أو محمد بن الحنفية ومحمد بن الحسن والحاكم والأبدال الأربعين
٤٤٤	لفظ خاتم الأولياء باطل ، من ذكره وانتحله

صفحة	الموضوع
٤٤٥ ــ ٤٧٦	« مناظرة ابن تيمية لدجاجلة البطائحية »

٤٧٦ ــ ٤٩٢	« سئل عن المرشدة كيف كان أصلها وتأليفها وهل تجوز قراءتها ؟ »

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
	وتهذب به الأخلاق بخلاف الحنفاء ، من حضره من الشيوخ لم يعلم غائلته
٥٧٣ ـ ٥٧٦	ما فى الغنا من الضرر والمفاسد وقد يجعل لصاحبه أحوالا شيطانية ، التغبير
٥٧٦ ـ ٥٧٨	حكم الغنا وآلات اللهو ، المعازف وما يرويه أبو عبد الرحمن السلمى ومحمد بن طاهر وغيرهما
٥٧٩ ، ٥٨٠	ما روى فى فضائل صلوات الأيام والليالى والفية رجب والنصف من شعبان
٥٨٠ ـ ٥٨٢	طريقة من جمع الأحاديث فى الزهد والرقائق، خير ما صنف فى ذلك
٥٨١	مما كذب على جعفر « رسائل إخوان الصفا » ... هذه الرسائل صنفت على مذهب الإسماعيلية ، حقيقة مذهبهم
٥٨٢ ، ٥٨٣	كتاب الله وسنة رسوله الثابتة وما عليه الصحابة هو المميز بين الحق والباطل من المنقولات والمعقولات والأذواق والخوارق ...
٥٨٣ ـ ٥٨٦	جماع الدين أن لا نعبد إلا الله ولا نعبده إلا بما شرع ، كلام العلماء فى ذلك

٥٨٧ ـ ٦٠٣ « سئل عن السماع »

صفحة	الموضوع
٥٨٧ ـ ٥٩٠	السماع الذى أمر الله به ورسوله واتفق عليه السلف ومشايخ الطريق ومدحوه وذموا المعرض عنه
٥٩١	آثار هذا السماع فى الصحابة ثلاثة : خشوع القلب ، ودموع العين ، واقشعرار الجلد
٥٩١	وجد بعدهم فى التابعين ثلاثة آثار : الاضطراب والاختلاج والإغماء ، سبب ذلك ، وهل هو محمود أو مذموم ؟
٥٩١ ـ ٥٩٧	سماع النشيد المجرد أو مع التصفيق على وجه القربة بدعة ، أنكره الأئمة وتاب من حضره من خيار المشايخ ، الحكمة فى عدم شرعيته
٥٩٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧	حكم من حضر هذا السماع من المشايخ الصالحين وما اشترطوا له
٥٩٨	ليس للعالم شرعة ولا طريقة أكمل من الشريعة التى بعث الله بها نبيه
٥٩٨	غلط من ظن أن النبى والصحابة والتابعين حضروا هذا السماع والغناء والتصفيق ، وأن النبى تواجد لما أنشد : « قد لسعت ....
٥٩٩	حكم اتخاذ الرقص والدف عبادة ، عبادة المسلمين الركوع والسجود
٦٠٠	حث الفضيل على الإخلاص واتباع السنة واجتناب البدع فى العبادات والأحوال

صفحة	الموضوع
٦٠١ ، ٦٠٢	قول القائل : السماع شبكة يصاد بها العوام
٦٠٣	« سئل عمن قال : السماع على الناس حرام ، وعلي حلال هل يفسق ؟ »
٦٠٤	« سئل عن أقوام يرقصون على الغناء بالدف ثم يسجد بعضهم لبعض »
٦٠٥ ـ ٦٠٨	« سئل عن رجل يحب السماع والرقص ، فأشار عليه رجل فقال هذه الأبيات »
٦٠٦ ، ٦٠٧	هؤلاء يزعمون أن الله يخاطبهم كما خاطب موسى وهم ثلاثة أصناف
٦٠٧	قوله : الزم الشرع يا فقيه وصل »
٦٠٨	« سئل عن الذين يعملون النار والإشارات مثل النبل والزعفران »
٦٠٩ ـ ٦١٢	« سئل عن رجل فلاح لم يعلم دينه ولا صلاته وأن فى بلده شيخا أعطاه إجازة فجعل يأكل الثعابين »
٦٠٩ ـ ٦١١	أكل الخبائث والحيات والعقارب حرام ، هذه المخاريق نوعان : حيلة طبيعية ، أو أحوال شيطانية
٦١٢ ـ ٦٢٠	« سئل عن رجل منقطع فى بيته وإذا خرج إلى الجمعة يخرج مغطى الوجه ويخترع العياط إلخ فهل يسلم له حاله ؟ »
٦١٢ ـ ٦١٦	هذه الطريقة بدعية ، الرياء يبطل العمل ، الاتباع شرط فى صحة العبادات ، معنى حديث الرهط الذين أرادوا التبتل

(١١٠٠٠/ي ٣ -٣ - ج١١) (٦) (٠١)

ردمك : ٦-٢٠-٧٧٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

١-٣١-٧٧٠-٩٩٦٠ (ج١١)